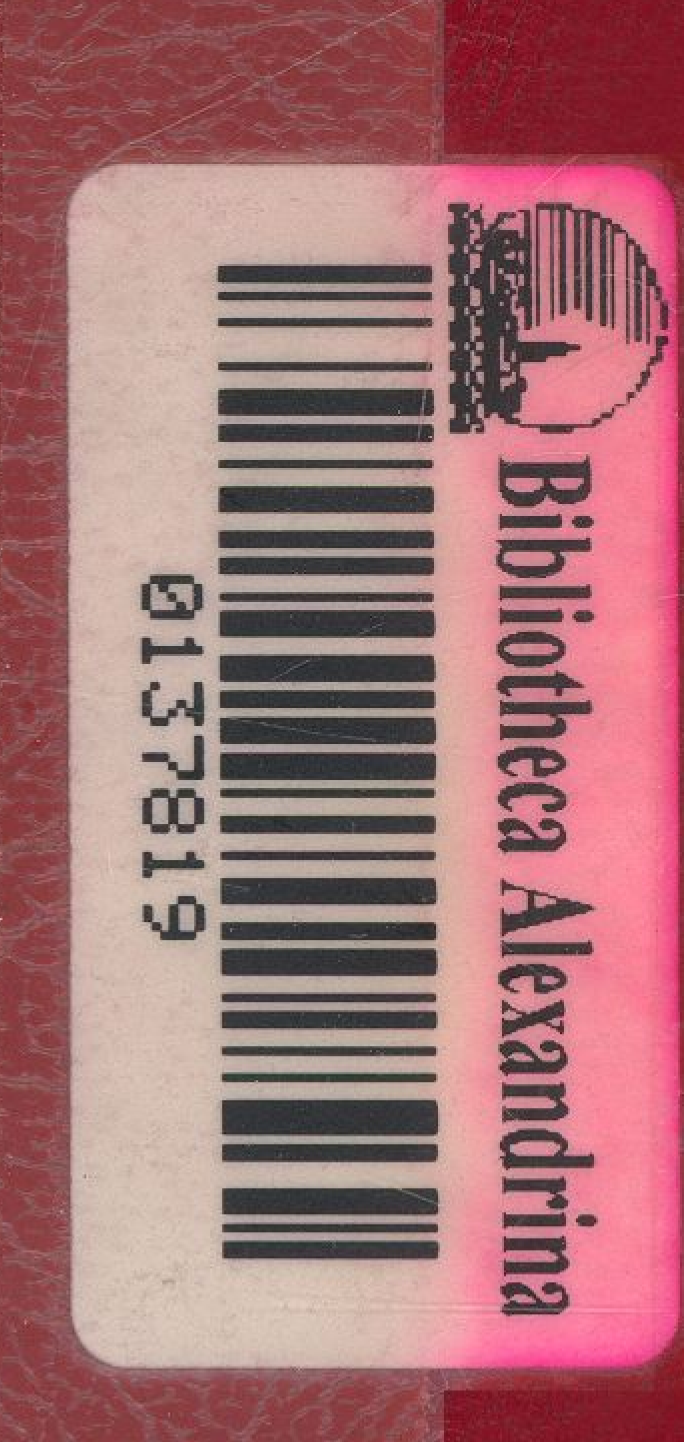

Bibliotheca Alexandrina
0137819

اقرأ

مارون عبود

أمين الرّيحاني

أمين الرّيحاني

مارون عبود

أمين الرّيحاني

اقرأ ١٣١
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٣١ – أول نوفمبر ١٩٥٣



إلى الذى قال : قل كلمتك وامش .

البساطة روح الفن ، والانسجام روح الجمال .

العمال ، عبيد وسادة ، هم مطبخ الجمهورية ، بل معدتها الهاضمة .

إخوانى العرب : ساووا بين الشعوب العربية كلها ، من حلب إلى عدن ومن العريش إلى خانقين ، وافتحوا مكة للعالم أجمع ، وعلموا وحرروا المرأة .

إلى غوستاف له بون الشرق

إلى روح فيلسوف الفريكة المخلص لإنسانيته أهدى هذا الكتاب

عين كفاع ٣٠/ ٩/ ١٩٥٢ مارون عبود

فيلسوف الفريكة

١٨٧٦ — ١٩٤٠

نشأته ، وعبقريته ، وشهرته

ما ألفت السير على الطرق المعبدة لأترجم لأمين الريحاني كما اعتاد الكتاب أن يفعلوا ، فأمين بن فارس الريحاني ولد فى قرية تدعى الفريكة ، وقد أسماها حين شب وكتب فى واديها مقاله الرائع الذى مطلعه : « وادى الفريكة مهيب وجميل غير أن هيبته أكثر من جماله ، وهو عميق ملتو ينحدر من قرية صغيرة ليغسل رجليه فى نهر الكلب . »

فى بيت لبنانى ، طعماً ولوناً ، نشأ أمين ، وذلك البيت القائم على كتف كنيسة مار مارون ، الناظر من عل إلى الوادى المتجهم وصخوره المنتصبة كالجبابرة الواقفين على السلاح ، قد أمسى بفضل نبوغ صاحبه مزاراً للناس على اختلاف ألوانهم وأشكالهم . وضع أمين بعد عودته الثانية من رحلته الأميركية سجلا فى صحن ذلك البيت فانطوى على الآلاف من أسماء الزائرين ،

المعجبين بأدب الريحانى الثائر المتحرر .

نشأ أمين نشأة طائفية ، وكان فى صغره لا يهدأ ولا يستقر . ركب بغلا فى الرابعة من عمره فرمحه ذلك البغل اللعين ولكنه نجا وسلم ، وبعد ستين عاماً مرت على حادثة البغل ركب الدراجة فسقط فى قناة الطريق ، ولفظ روحه بعد بضعة عشر يوماً .

تحت الزيتونة تلمذ أولا لخورى الضيعة خادم كنيسة مار مارون وخدم له القداس وقرأ الرسائل والسنكسار . . . وبعد عامين انتقل إلى مدرسة حديثة أنشأها نعوم المكرزل فدرس فيها مبادئ العربية والفرنسية .

وأعتلت صحته بعد رمحة البغل فنذرته والدته لقديس كفيفان — الحرديني — وألبسته الطوق الفضى المبارك بوضعه على ضريح القديس ، ثم أزارته والدته مقام الطوباوى الجديد « وهو يرفل فى قمباز مخطط معصفر ، وعلى رأسه طربوش تعلوه كوفية بيضاء » (قلب لبنان ٣٥١) .

وحوالى السنة الثانية عشرة من عمره — كما جاء فى مقدمة ملوك العرب — أو العاشرة ، كما كتب فى مقدمة — المغرب الأقصى — هاجر الريحانى إلى أميركا مرافقاً عمه عبده وأستاذه نعوم المكرزل . وفى نيويورك درس الإنجليزية عاماً واحداً ،

ثم أخذ ينصرف إلى محل عمه وأبيه نهاراً ، وإلى الدرس ليلا ، ولم تعجبه التجارة فعاف دفاتر المحل وانضم إلى جوقة تمثيلية . وأخفقت الجوقة ولكن أميناً الذى أخفق فى التمثيل لم يخفق فى تمثل الثقافة الإنكليزية فدخل كلية الحقوق . ثم ولاها ظهره ليكون محامياً عن أمته غير مأجور ، ووكيلا مسخراً عن الرأى العام ، وكاتباً جباراً عنيداً يقول كلمته ويمشى .

وساءت صحته بعد سنوات فعاد إلى لبنان ، فكان معلماً للإنكليزية فى مدرسة قرنة شهوان ، جارة الفريكة ، وهناك تمكن من العربية ما أمكن ، وعرف الأدب العربى وشعره ، ووقعت الطيور على أشكالها ، فعرف أبا العلاء المعرى الذى ترجم بعض لزومياته بلغة شكسبير ، فانفتحت بوجهه أبواب الشهرة فى الشرق والغرب . ومضى يكتب بالقلم الإنجليزى فاحتل مقاماً رفيعاً بين أدبائه . وكما توج فولتير من قبل توج الريحانى بإكليل من الغار فى حفلة شائقة أقامها على شرفة نادى الثريا الأميركانى ، كما أنبأنا سليم سركيس فى مجلته المعروفة باسمه ، قال : لم أحضر حتى الآن حفلة تتويج ملك من ملوك البلدان والأبدان فهذه لا يدعى إليها إلا أصحاب التيجان ومن كان على طريقتهم .

على أننى وفقت إلى حضور حفلة تتويج أحد ملوك البيان ، أريد به أمين الريحانى الكاتب البليغ والشاعر المجيد ، صاحب

المؤلفات الراقية فى اللغتين العربية والإنكليزية .

تلك حفلة أقامها نفر من أمراء الشعر والنثر الأميركان فى مدينة نيويورك ، تكريماً لوطنينا أمين الريحانى على أثر ما تبينوه فى مؤلفاته من الأدب الجم . وذلك على أثر انتشار كتابه « اللزوميات » باللغة الإنكليزية .

وبعد أن وصف سليم سركيس ما فى المأدبة من تأنق وإسراف أميركيين ، وما ألقى وأنشد من نثر وشعر ، قال : « ومثلت لنا سيدة أميركية — لا أذكر اسمها — دوراً غريباً عجيبا لم أسمع نظيره من قبل ، ولا سمعت مثله حتى الآن . ذلك أنها وقفت وأخذت تصفر بفمها صفيراً مثلت لنا فيه معركة حربية ، من ابتداء الموسيقى العسكرية إلى زحف الجيش ، إلى القتال فأصوات المدافع فالبنادق ، فأنين الجرحى ، إلى آخر ما هناك مما حير العقول . ولما فرغ الفضلاء من أقوالهم دعى أمين ريحانى إلى منبر خاص أقيم هناك ، وألقى الرئيس — رئيس نادى الثريا الأميركى — خطاب الثناء والإطراء والإعجاب ، ثم تناول الإكليل وتوج به الأمين » .

ومشى أمين يضرب فى دنيا الشهرة ، فبرز فى اللسانين الإنكليزى والعربى فأمسى بعد الجهاد ذلك الأديب العالمى ، فذكر اسمه فى دليل مشاهير كتّاب أميركا وكندا (سنة

١٩٣٠ — ٣١ ص١٨٧) وفى دليل مشاهير الأدباء المطبوع فى إنكلترا (صفحة ٣٦٦ حرف الراء) .

فبعد المجون الذى خاض عبابه أمين الممثل الخائب ، ترصن الريحانى وأمسى تلك الشخصية التى احترمها ملوك عصره فى كل قارة من قارات الأرض ، فكانت تقام له الحفلات التكريمية فى جميع القارات حيث تحل ركابه ، وحسبك أن تقول فى أسلوبه الإنكليزى الرفيع جريدة بوستون هرالد : لقد تبوّأ الرأس الشرقى مقعده فى الأدب الإنكليزى بظهور كتاب « خالد » . أما جريدة نيويورك بوست فقالت : إن لأمين الريحانى منحة سامية من جمال اللغة .

وقضى أمين حياته لا يستقر ، فإذا ملّ الشرق غرّب ، وإذا سئم الغرب شرّق ، وهكذا دواليك إلى أن من الله عليه بالموت فى البقعة التى أحبها ، واستراح جثمانه فى الرابع عشر من أيلول عام ١٩٤٠ من جهاده ، ونام على كتف الوادى الذى أحبه نومة الأبد .

تآليفه :

كثيرة ستسمع ببعضها مما قيل عنها حين ظهرت فى عالم الأدب الرفيع ، وتتعرف على بعضها الآخر فى الفصول التى ستقرأها ، ولكنك لا تظفر باللذة كاملة إلا إذا قرأتها كلها .

الكاتب الشاعر الإنجليزى

كتب أمين ، أولا بلغة شكسبير فأسمع الأميركان والإنجليز صوتاً شرقيًّا ، فأصغوا إليه واسترعى انتباههم . ولما كنت لا أستطيع تقدير قيمته الإنكلوميركية فأى بأس علىّ إذا استعنت بأقلام القوم الذين يزنون الذهب « بالبنس » ؟ ! فاقرأ هذه الجزازات التى جمعتها لى ولك ، أيها القارئ ، من هنا وهناك وهنالك .

اللزوميات :

عندما انتشرت ترجمة الريحانى للرباعيات المعرّية إلى اللغة الإنكليزية نوهت بها الجرائد الأميركية بين مقرظة ومنتقدة . وطبعت الترجمة فى إنكلترة أيضاً وقرظتها الجرائد الإنكليزية وانتقدتها أكثر من الأميركية ، فقال فيها أدوين ماركهام وهو من كبار شعراء أميركا : ولأمين الريحانى خاطر شريف فى الحياة ، وسهولة ورقة فى التعبير .

وقال أيضاً : أبو العلاء شاعر حقيقى « مبدع » وله فلسفة أسمى وأنبل من فلسفة عمر الخيام ، وفى ترجمة الريحانى لمنتخباته مزايا شعرية نادرة .

وقال كليتون سكولارد : لو كان لى مجثم فى حديقة تزهو فيها زهور دمشق فما كان أسعدنى أن أقضى سويعات العصر والغروب متصفحاً اللزوميات ، ترجمة الريحانى .

خالد :

قصة فلسفيةمزينة ببعض الرسوم التى جادت بها ريشة جبران خليل جبران . تناول الريحانى فى هذه القصةحياة بطلها —خالد— بالتحليل والدرس ، فنقد بلسانه سيئات وحسنات الشرق والغرب . فوصفت وصفاً دقيقاً حافلا بالسخر والتهكم الريحانيين ، بلغة إنكليزية رفيعة يحسده عليها كتاب الإنكليز أنفسهم .

قالت مجلة « ريفيو أوف ريفيوز » فى كتاب خالد :

هذه أول مرة يظهر فيها كتاب لأجنبى يتكلم فيهعن الأميركان بسخرية ناعمة . إن كتاب خالد يعد من الكتب الممتازة فى الأدب الإنجليزى .

وكتب ريتشرد لى كاليانى أحد شعراء أميركا المعروفين ما يلى :

إنها المرة الأولى التى أقع فيها على كتاب قيم ومغر فى حياتى . فكتاب خالد هو كتاب عاشه المؤلف ثم كتبه . وفى هذه الحالة تقع قيمة الكتاب فى كامل معرفته .

وقال فى مناسبة أخرى : هذا أصدق كتاب رأيته وأوفرها تملكاً للخواطر .

وقالت جريدة الأخبار بمصر فى ١٤ ك ٢ سنة ١٩١٢ .

لعل الريحانى أبرع سورى كتب باللغة الإنكليزية . والريحانى فى كتاب خالد شديد الإعجاب بالأمة الأميركية ويزعم أنها ستسود على الأقطار يوماً ، وأن أفرادها سيصبحون فى الزمن القادم بمثابة الآلهة السائدين على طوائف الأمس بقوة علمهم وسمو مداركهم بالرغم من انتقاده القاسى لعاداتهم وللملكة التكالب على المال .

أناشيد الصوفية :

وكتب أحد أدباء الإنكليز عن ديوان الريحانى « أناشيد الصوفية » فقال :

« إنه جامع بين عظمة آثار الشرق وجمال معانى الغرب .

جادة الرؤيا :

عندما ظهر هذا الكتاب كتبت النيويورك تيمس عنه ما يلى : فى هذا الكتاب جمع الريحانى مقالاته الاجتماعية السياسية العربية فى الشرق والغرب . وللريحانى جمال فريد فى النثر . وفى هذا الكتاب تتبين مقدرته الإنكليزية وطريقته الجميلة الخاصة ،

تلك الطريقة الجميلة الخاصة بمسحتها الشرقية الممتازة، وبسخريتها الأميركية الرفيعة .

أنشودة الصوفيين :

وفى هذا الديوان قالت التيمس أيضاً : إن الريحانى شاعر عميق ذو خيال خصب ومقدرة شعرية عالية. وإن شعره يزداد جمالا فى صوره الشرقية البديعة .

ملوك العرب :

كتبت عنه جريدة روما الإيطالية حين ظهر بالإنكليزية واصفة أولا فصول الكتاب والطريقة التى كتب بها ثم قالت : نرى كل ذلك أمامنا ليس فقط ككلام مموه بعبارات جميلة بل كلوحة حية صنعتها يد أشهر مصورينا العظام .

وقال الأستاذ ا . س يهودا المستشرق الألمانى فى كتاب أرسله إلى الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف :

« قرأت كتاب ملوك العرب بكل اعتناء، ولم أر كتاباً أكمل وأحسن وأنفع وأبدع منه ، وهو يفوق كل ما كتب حتى الآن فى هذا الموضوع . وقد لفت نظر كثيرين من رفقائى منذ طبع فاستحسنوه مثلى ، حتى إن أحد الأساتذة فى كلية هيدلبرغ

يقرأه الآن مع تلاميذه المستشرقين .

ابن سعود : بلاده ، شعبه :

كتب السرادينون روس فى الأوبزرفر عندما قرأه :

هذه أول مرة نعطى مؤلفاً مكتوباً بالإنكليرية عن رجل لغته العربية . إن هذا الكتاب ذو قيمة كبيرة لدرس السياسة الراهنة والحقائق الموثوقة . وهو ذو ناحيتين مختلفتين ، الناحية السياسية ، والناحية التاريخية الوصفية . وقد أجاد المؤلف فى الاثنتين .

وكتبت مجلة بوك ريفيو ما يلى : كل كتاب يدبجه قلم أمين الريحانى يعد ثروة أدبية فى العالم العربى ، وكتابه ابن سعود يعد أحسن كتاب كتب عن البلاد العربية حتى الساعة .

منشئ العربية الحديثة :

وكتب هوتن منفلن عن هذا الكتاب ما يلى : إن الريحانى هو الرجل الوحيد الذى جاب الجزيرة العربية كلها فى سياحة واحدة ، وكتابه الإنجليزى يمتاز عن غيره فى وصفه الجميل ، وفى سرد الحوادث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

أقوال عامة

كان لكتابات الريحانى عن بلاد العرب وملوكها ، وخصيصاً ابن سعود ، أبعد الأثر فى الجرائد والمجلات الإنكليزية العديدة ، — ومنها مجلة آسيا الشهيرة — فكانت تلك الكتابات خير وسيلة لتعريف الغرب على الشرق ورجالاته . لقد حلت تلك الكتابات محلها الأسمى فى النفوس لأن لكاتبها منزلة رفيعة عند قراء الإنكليزية.

ولهذا كتبت عنه مجلة آسيا ما تعريبه :

« إن كثيرين من الأوربيين — سياسيين وجنوداً وعلماء — زاروا بلاد العرب . فهناك مثلا (بركهارت) و (بورتون) و (دوتى) الذين طافوا أنحاء بلاد العرب الوسطى والغربية . و (فلبى) الذى اجتاز الصحراء من خليج العجم إلى البحر الأحمر ، ولكن قل بين الرحالة والسائحين من كانت له الفرص المساعدة على التعرف الصحيح ، وحق المعرفة ، فى بلاد العرب وملوكها كأمين الريحانى .

إن العربية هى لغته وهو يتقنها كما يتقن الإنجليزية ، ويكتب ببلاغة فى اللغتين — وقد تنقل فى جميع أنحاء الجزيرة وغايته إيجاد حلف عربى يجمع ملك الحجاز وإمام اليمن والسيد

الأدريسي وسلطان نجد فى هذا الاتفاق ، فيوجد إمبراطورية عربية تعمل فى سبيل السلام والتمدن . »

وكتب رئيس نادى الثريا فى الولايات المتحدة ، وهو ناد — كما مر — يضم كبار أدباء أميركا فى الولايات المتحدة : « إن أمين الريحانى هو أفصح خطيب دخل دائرتنا . »

واعترافاً بنبوغه وعبقريته قد دعاه المستر ماركهام، أشعر شعراء الولايات المتحدة، إلى مأدبة تعود أن يقيمها للخلص من زملائه كل عام .

ودبج « فاركاس لا فيلا » الكاتب الشهير الذى يعد عند الأسبان بمنزلة مكسيم غوركى الروسى ، فصولا تحت عنوان « أطواق الذهب » تحدث فيها عن طائفة من جبابرة الفكر فى هذا العصر فقال عن الريحانى ما يلى :

« بماذا ترانى أحدثك عن أمين الريحانى الشاعر الحقيقى الساحر . يخلبنى بعمق فكرته ورحابة آفاق تأملاته وخياله . فقد تجنح فكره واختمر خياله الخصب النامى حتى أصبحا شعراً ، وحتى تحولا إلى خمرة معتقة إذا سكبت فى الأقداح لا تعافها الأفواه .

لقد نشأ هذا الشاعر فى بوادى الشرق تحت أشعة الشمس المحرقة ، وفى ظل ظلال الجوامع العالية . فى وسط هذه التأثيرات

الصامتة ملأ جرة أحلامه وتصوراته وخيالاته ، وعند ما نما فكره وارتفعت شجيرة أحلامه أفرغها شعراً عميقاً وطروباً فى أفواه الآلهة . . . »

وقال الأستاذ كراتشكوفسكى المستشرق الروسى فى كتاب أرسله إلى صديق له :

« إنك لتسمع غالباً فى كتابات الريحانى المبتكرة أصواتاً حربية جريئة بعيدة الصدى ، فهو ينشد الثورة ويدعو الناس إلى التآخى . ومع ذلك فالقوة فى نبوغه ليست فقط فى هذه الناحية من أدبه » .

وقال أيضاً :

الريحانى هو أكبر كاتب عربى فى هذا الزمان .

وكتب نظمى نسيم فى جريدة السائح النيويركية : لا أحسب أن فى العالم العربى شخصاً آخر يحسن اللغة الإنجليزية كالريحانى ، ولم أعرف أو أسمع أن كاتباً من كتابنا الذين هنا وفى سوريا ومصر وإنكلترا وكل مكان آخر ، قد جلس على عرش لغة بيكن وشكسبير كما جلس ويجلس أمين الريحانى .

وآخر كلمة ندونها فى هذا الموضوع هى التى ننقلها عن كتاب أمين « المغرب الأقصى » الذى أخرجته حديثاً « دار المعارف » الرصينة . قال المقيم العام الإسبانى فى حفلة معهد

الدروس المغربية بتطوان : « نحتفل اليوم فى هذه المؤسسة باستقبال مفخرة من مفاخر الثقافة العربية ، الأستاذ أمين الريحانى الذى شرفنا بقبول تسميته مديراً شرفيًّا لمعهد الدروس المغربية . قد كان من أعز رغائبنا أن يتعرف إلى هذه المنطقة السعيدة ويرى بعينى رأسه عمل فرنكو .

إننا ننتظر حكمه ونقده كسلطة لا جدال حولها فى العالم العربى . . . . إننا نترك الأمر لحكم التاريخ ، والآن لشهادة أمين الريحانى » .

* * *

هذه كلمات تدل على المنزلة السامية التى احتلها أمين فى نفوس رجالات العالم قديمه وجديده .

فى لغة الضاد

راود أمين لغته عن نفسها فما لانت له فى أوائل كتبه : الثورة الفرنسية ، والمحالفة الثلاثية حتى ولا الريحانيات ، ولكن أميناً كان يرمى إلى غرض أسمى من التزويق والتنميق . كان يعنيه أولا أن يعبر عن فكرة إصلاحية ، ولهذا كتب المحالفة الثلاثية ، والثورة الفرنسية ، والتساهل الدينى ، والمكارى والكاهن ، ومع ذلك لم يعن الناس بعبارته لأن فكرته الجريئة شغلتهم عن

كل ذلك ، ولذلك قالت جريدة الشمس النيويركية — سنة ١٩٠٤ — عن المحالفة الثلاثية فى المملكة الحيوانية :

إن هذا الكتيب الصغير خلق ثورة فكرية فى الجالية السورية وبعض الأميركان فى هذه، المدينة حتى إن أحدهم قال : إن إميل زولا نفسه لم يكن قاسياً بكتاباته كما كان الريحانى فى المحالفة الثلاثية .

وكتب ج . معلوف فى أبى الهول :

أتى أمين الريحانى الولايات المتحدة وهو صغير فقدرت له الظروف أن يتقلب فى أحوال شتى . فعندما كان يافعاً افتتن بالتمثيل فكان يمثل على المراسح الأميركية روايات شكسبير ، ومن ذلك اكتسب مقدرته الفائقة فى آداب اللغة الإنكليزية وحسن الإلقاء . ثم تعلم التصوير الهزلى — والصور التى فى كتابه المحالفة الثلاثية هى تصوير يده — وكان لمدة متولياً إدارة محل أبيه التجارية فعرف كفاية عن معاملات الناس المادية . وهكذا درس أدوار الحياة قبل أن يصل إلى الثلاثين من عمره .

عرفت الريحانى لأول مرة فى حفلة جمعية السيدات السوريات فى نيويورك فكان الريحانى مندوباً من قبل جمعية الشبان السوريين ليخطب فى تلك الحفلة ، فخطب بالإنكليزية لأنه لم يكن يحسن الإلقاء بالعربية آئنذ ، ثم ساح إلى الوطن وبعد رجوعه

سمعته يخطب مرة أخرى فى حفلة جمعية الشبان المارونية فى نيويرك وكانت تلك أكبر حفلة سورية ، فخطب بالعربية فى موضوع التساهل الدينى ، كقاعدة لإصلاح الشرق . ومع أنه تكلم بحرية وبجرأة لم يسبق لهما مثيل ، كان يقاطع بتصفيق الاستحسان من الجمهور . ثم ألف كتابه (المحالفة الثلاثية فى المملكة الحيوانية) وقصده هدم الخرافات الدينية ، ولكنه كان شديد اللهجة فصادف اضطهاداً عامًّا وقامت عليه الجرائد والإكليروس. حتى إنه قبل أن ينتشر كتابه المحالفة الثلاثية لم يكن أحد يجسر على أن يقول كلمة بذى سلطان ، فصار بعد ذلك أشد الانتقاد هيناً ومقبولا ، وصار الناس ، ومنهم الكتاب ، يتمتعون بالدرجة الوسطى من حرية القول . والفضل فى ذلك للريحانى . ثم ترجم مختارات من أشعار أبى العلاء فكان لها دوى فى أميركا وأوربا .

وكتب حبيب البشعلانى بعد ما سمعه يخطب : ومضى الريحانى فى المجالس والنوادى الأدبية يثير سكونها ، ويبعث نفسيتها الوجلة ويوقظها على الثورة ، وينادى من فوق منابرها بالهدم والتحطيم ، معلناً الثورة على المجتمع وتقاليده وسلطاته الموبوءة بالجور ، وعلى خموله وقعوده ، لا يستثنى تقليداً اجتماعياً كان أو سياسياً حتى الدين ورجاله ، وهما أعز تمكيناً من النفوس وأقوى سلطاناً فى المجتمع الشرقى .

كان عليك ، فى ذلك العهد ، لتدرك سر هذا الرسول الخارج المنادى بدعوته ، أن تسمعه داعياً خاطباً لا أن تقرأه كاتباً منشوراً فى الصحف ، والريحانى جليل المنطق مهيب الموقف قوى الإيمان بدعوته فيبعثها محرقة ، ونظيره فى الإلقاء قليل .)

وبعد هذا جاء الريحانى لبنان جيئة لا أدرى عددها الترتيبى ، فراح يذيع فى صحف العالم العربى ريحانياته فلفتت إليه أنظار الأدباء والكتاب . وقالت فيها مى : إن الريحانيات كانت من الكتب الخمسة أو الستة التى عرفتنى بإيمان الفكر الحر فى العالم العربى الحديث فى صيغتى الشعر والنثر .

وقال فليكس فارس : لقد أصبح كوخ الريحانى فى أعالى الوادى محجاً يؤمه كل من استطاب نفحات الأدب ، والشعر والأدب دولة ، الفلاسفة ملوكها ، والشعراء أمراؤها .

وكتب الدكتور منصور فهمى : لقد تبينت من القطعة التى سمعتها (من إنشاء الريحانى) أسلوب العظمة الكتابية وصفاء النفس ، والروح الثائرة على النظم العتيقة .

أمين الرحالة

وخطر لأمين أن يرحل فى سبيل الوحدة العربية تاركاً الصوفية وخيمة الدرويش وكوزه وإبريقه ، فاستقبلته الأقطار العربية استقبالا منقطع النظير استحقه جاهه الأدبى ، فكتبت جريدة الأهرام عند وصوله إلى القاهرة سنة ١٩٢٢ : (هو الكاتب المشهور والمفكر المدقق صاحب التآليف الثمينة باللغتين العربية والإنكليزية ، وخير ممثل للنبوغ الشرقى فى العالمين الأميركى والأوربى .)

وعندما أقيمت له حفلات التكريم فى مصر قبل سياحته فى جزيرة العربية أقام له أحمد زكى باشا حفلة دعاها (صحراوية) وكان الحاضرون لا يقلون عن خمسة آلاف شخص ، وقد حملت رقعة الدعوة ما يلى :

أحمد زكى باشا يرجو مشاركته فى تكريم ثالث الثلاثة بعد الجعدى والذبيانى ، نابغة العرب الجديد أمين الريحانى بتناول الشاى على سماط بدوى فوق بساط الرمل وتحت ظلال الأشجار الحرام التى غرسها الصحابة الكرام فى سفح الأهرام ، يشرف عليها بلهيث « أبو الهول » الفصيح بإشارته ، البليغ فى صمته ، القائم على الدوام بحراسة كنانة الله فى أرضه .

وقد نظم أحمد شوقى قصيدة لهذه الحفلة العظمى التى حضرها أساطين مصر حتى شيخ الأزهر ، ومما قال فيها مخاطباً الأهرام .

هذا الأمين بحائطيك مطوفاً متقـــدم الحجاج والوفاد
إن يعده منك الخلود فشعره باق وليس بيانه لنفاد
إيه (أمين) لمست كل محجب فى الحسن من أثر العقول و باد

إلى أن يقول :

رفعوا لك الريحان كاسمك طيباً إن العمار تحية الأمجاد
وتخيروا للمهرجان مكانه وجعلت موضع الاحتفاء فوادى

إلى أن قال يحثه على تجديد لغته العربية :

لم يكفهم شطر النبوغ ، فزدهم إن كنت بالشطرين غير جواد
أودع لسانك واللغات فربما غنى الأصيل بمنطق الأجداد
إن الذى ملأ اللغات محاسناً جعل الجمال وسره فى الضاد

أما مى فقالت : إن الريحانى وجبران توأمان : عبقريتان ساميتان برزتا إلى عالم الوجود تحت سماء سوريا ، والقرن الماضى ينحدر إلى خاتمته . غادرا الشرق ونزعا إلى وسط حار ، كله عمل ، كله نشاط وعظة . وهما اليوم يداعبان الذيوع بما يبذرانه من آيات خالدة . ولسوف تكون تلك الآيات حديثاً منقولا فائح الشذى يطير بأجنحة الزمن من قرن إلى قرن . ولسوف يتوجهما الغد بإكليل وضعه من قبل على رأس شكسبير . كرموا اليوم

ضيفكم وانصتوا إلى تلك القيثارة العازفة فما هى باقية بينكم سرمداً .

فى العراق :

ولم تقصر العراق عن مصر فى تكريم الأمين فأقامت له حفلات عظيمة كمصر . لم يظفر أديب من قبل ، بما ظفر به الريحانى ، إذ لم يبق شاعر كبير فى مصر والعراق وجميع الأقطار العربية إلا قال فيه خير شعره . كانت زيارة أمين لقاحاً للأذهان والعقول ، داعية إلى الثورة الفكرية التى رأيناها فيما بعد . فهذا شاعر العراق الأمثل معروف الرصافى يخاطب الريحانى قائلا :

من أين يرجى للعراق تقدم ... وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير فى وطن يكون السيف عند ... جبانه ، والمال عند بخيله
والرأى عند طريده ، والعلم ... عند غريبه ، والحكم عند دخيله
وقد استبد قليله بكثيره ... ظلما ، وذل كثيره لقليله

وهذا الشاعر الفيلسوف الزهاوى يقول :

أقول للغرب وهو اليوم ذو قدر ... يلقى على الشرق كف القاهر البطر
كفاك ما أنت تأتيه من الضرر ... للشرق أرهقت لا تخشى حزازته
يا غرب إنك مغرور به أشرُ

إلى أن قال :

خفف من الوطء فالأيام تنقلب ... الشرق يشبه بركاناً به حمم

أخاف من أنه يا غرب ينفجر

وكأن فيلسوف الفريكة قد أصبح المنقذ المنتظر حتى هتف به ثالث شعراء العراق محمد الجواهرى :

أمثقف القلم الذى آلى على أن ليس ترجح كفة استعباد
ومشيداً للشرق ركنا يلتجى منه بأمنع ذمة وعماد
أنصف شكية شاعر قد حلقت بالصبر منه فظائع الأنكاد

وهكذا مضى الشاعر يبث شكواه ببلاغته وحماسته المعهودة .

إن لهذه الحفلات التكريمية كتباً جمعت ما قيل فيها ، وليس يتسع هذا المجال للتحدث عنها وعنه المتكلمين فيها جميعاً .

رسول الوحدة العربية

لا بدع إن سبق الريحانى الساسة إلى التفكير بجامعة عربية ، وهل نستغرب ذلك والتاريخ ينبئنا أن الفكرة السياسية يتمخض بها ، أولا ، دماغ أديب أو فيلسوف . زج الريحانى نفسه فى هذا المضمار ، وكله إيمان بحيوية الأمة التى « فى عروقه شىء من دمها » فمشى رافعاً علمها فى الخافقين . ما يئس أمين قط من فوز دعوته ولو بعد حين ، وقد حققت الأيام الكثير من أمانيه الكبيرة ولكنه لم ير بعينيه ما دعا إليه لسانه . وما أظنه إلا عابثاً حين شبه نفسه بدون كيشوت فى مقدمة كتابه « المغرب

الأقصى » الذى أخرجته حديثاً « دار المعارف المصرية » بحلة قشيبة بعد موته . قال أمين رحمه الله :

« ورأيتنى أعيد الكيخوتية — عفواً يا سيدى سرفنتس — إلى أصلها العربى ، وإن تغرب لسانها . رأيتنى أشحذ القلم واللسان بالإنكليزية ، وأحبر المقالات وأؤلف الكتب بالإنكليزية وأقف على منابر الجمعيات والجامعات الأميركية ، الإنكليزية ، لأفهم العالم الجديد ، رومان هذا الزمان ، إن فى العالم غير أميركا والأميركان ، وأنهم هالكون حتماً إذا استمروا فى جهلهم واستقووا . والغريب العجيب أنهم مثل البرابرة فى الطهر والسذاجة قلباً ووجهاً ، كانوا يصفقون للخطيب — أى للريحانى — ويرحبون به وبعلمه . فازدادت الرغبتان ، رغبتهم فى التعلم ورغبتى فى التعليم — بارك الله فىّ وفيهم . »

« وتبعت الرحلات العربية رحلات أميركية ، على أن نكبة فلسطين بالصهيونية نقلتنى من التعميم إلى التخصيص ، دفاعاً عن إخوانى العرب فى وطنهم الذى يريده اليهود وطناً قومياً لهم » .

إلى أن قال : وهذا اللبنانى العربى يحمل الترس والرمح — كما حملهما ضون كيخوتيه ده لامنشا حقبة من الدهر ، فى سبيل العدل والفضيلة — على معاقل إسرائيل ، على حصون يهوذا . ويلك يا نيويورك ، ويلك ، اكتبى الحجة لليهود بماء

الذهب ، وسجليها فى سجل الصيارفة ، والكهان ، ومثلى رواياتها بالأفلام والكلام ، على ألفى مسرح وشاشة » .

« وبعد ذلك ؟ ماذا بعد ذلك ؟ ستستفيقين ذات يوم قبل صياح الديك ، وستصفرين صفير الهول والهلع ، ستسمعين صوتاً يناديك ويقول : صدق العربى البار ، الحق أصدق أنباء من الدولار ! « المغرب الأقصى صفحة ١٠ » .

والغريب من أمر هذا الرجل أن اندول كانت تدعوه لتسمع أقواله فيوبخها ويؤنبها ، ويختم كلامه بالدعاء للعرب . فها هو فى المغرب الأقصى يداعب المقيم العام الإسبانى فيجيبه المقيم العام : « اسأل نفسك يا ريحانى ، إنك تحمل منذ أربعين سنة الرمح الذى حمله ضون كيخوته ، وأنا مثلك — حامل ذلك الرمح — إننا إخوان . وإن لنا فى العالم، على ما فيه من المنكرات ، إخواناً . . . . المحبة يا ريحانى تحل مشاكل العالم كلها ، نعم لولا محبتى للعرب لما استطعت أن أقوم بعمل واحد فيه شىء من الخير الكبير » .

أما أمين فيختم هذا الفصل بهذا الدعاء الصادق : « جمع الله كلمة العرب ، فيضىء نورهم مرة أخرى فى العالم » (ص٣٩٦)

وبلغ من عروبة أمين التى كان فيها عربياً أكثر من سادة العرب أن دعته الأحزاب الفلسطينية للتوسط بينها فى أمر الصلح،

كما جاءه ، من قبل ، عام ١٩٢٤ ، وزير خارجية الحجاز موفداً رسمياً ليتوسط فى الصلح بين الملك حسين والعاهل السعودى.

والرسائل العديدة التى عنده من ملوك العرب تؤيد ما نزعم ولو أن هذه العجالة تتسع لها لذكرنا الكثير منها ولكننا نكتفى بشىء من مكتوبى الإمام يحيى :

« ويسرنا إرسال نسخة من المؤلف إنشاء الله بالواسطة التى وصل بها الكتاب ، وقد وصل ما أتحفتمونا وإننا نهدى لكم التشكر وحسن الثناء ؛ لما تقومون به من الأعمال الخيرية وخدمة العنصر العربى ووحدته التى سيحقق الله وجودها الفعلى فى الزمن القريب ويسرنا دوام مواصلة تحريركم البديع ونسأل الله لنا ولكم التوفيق إلى أقوم الطريق ١٥ رجب ١٣٤٣ » .

وفى كتاب آخر يقول الإمام للأمين : ولا تدعوا ممكناً فى رعاية الجامعة العربية وما ننال به حقوقها المغصوبة وقول الحق مقبول ينتصر له ذوو العقول .

وقد كتب إليه الأمير شكيب أرسلان من جنيف عام ١٩٣٩ فى ١٨ شباط ما يلى :

« وأصل إن شاء الله إلى بيروت فى أوائل مارس ، وبعد أن أبقى فى الشويفات جمعة من الزمن أتوجه إلى الشام لتسلم عملى الجديد رئاسة المجمع العلمى ، وفى آخر الصيف قد أعود إلى

جنيف لأن بقائى فى هذه الوظيفة موقوف على تصديق المعاهدة السورية الأفرنسية ، فإن انتهى الأمر بعدم تصديقها فلست مقيماً ببلاد تحت انتداب الأجانب أياً كانوا . »

وكتب إليه سعيد العاصى عن جده عام ١٣٤٣

« بعد اطلاعى على كتاب ملوك العرب علمت بأنكم رسول الوطنية فى عصرنا ولو أنكم تغاليتم فى ابن سعود . »

ومن مونتريال كندا جاءه كتاب من السيد شاهين عبود بتاريخ ٣ حزيران ١٩٢٩ نقتطف منه هذه العبارة :

«أما وللعرب عاطفة الريحانى وثباته وقلمه وروحه الشديدة الإيمان بالوحدة التى يسعى إليها كل ذى ضمير حى ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . »

أما الصحف والمجلات العربية الكبرى فأكبرت عمل الأمين وجهاده فقال المقتطف عن كتابه «حول شواطئ البلاد العربية» ما يلى :

« شد الريحانى رحاله إلى بلاد العرب فى ١٩٢٢ مؤثراً شظف العيش على نعمائه فى دور العالم الجديد ، لأن له غرضاً يختلف عن أغراض سابقيه الأعلام ، دوتى وبالغريف وبوخاردت وبرطن وغيرهم ، وغيرهم . غرضه أن ينقل إلى ملوك العرب وأمرائها رسالة علوية ، هى رسالة الاتحاد والتعاون لعلها تكون

ركناً لتجديد الحضارة العربية وبعثها . وإن ما فعله فى هذا السبيل والذى تقرأه فى كتبه الإنكليزية (ابن سعود ، بلاده وشعبه) وفى (صحراء وأعالى البلاد العربية) ، وهذا الأخير (حول شواطئ بلاد العرب) لأنصع دليل على تلك الجهود التى بذلها فى سبيل الوحدة . وإنك لا تقع ، فى كتب الريحانى على الوصف المضجر الذى تقع عليه عادة فى كتب الرحلات ؛ لأن الريحانى الفيلسوف الأديب يجمع بين الوصف الشعرى والحكمة والفلسفة والسرد الروائى والتقرير العامى فى فصل واحد . فنقرأ الكتاب كما تقرأ الرواية الأخاذة .

وكتبت اللطائف المصورة عدد ٦٩٤ السنة ١٤ .

« لا نخطئ أو نغالى إذا قلنا إن ليس بين أبناء اللغة العربية من خدم بقلمه البلاد العربية بوجه عام ، ونجد والحجاز وملكهما بنوع خاص ، بقدر خدمات الأستاذ الرحالة الفيلسوف السيد أمين الريحانى . سواء أكان بمؤلفاته الإنكليزية والعربية ، أو بما نشره فى أمهات الصحف والمجلات فى أميركا وأوربا ومصر وسوريا »

وكتبت مرآة الغرب فى نيويرك فى مراجعة كتاب الريحانى الإنكليزى (حول الشواطئ العربية) :

« إن حول الشواطئ العربية ، من خير ما يجرى به قلم

باعتبار اللغة والتفنن وسعة الاطلاع وغزارة المادة. إلا أن الريحانى عربى أكثر من كل قرشى وقحطانى وعدنانى ونجدى ويمانى وحضرى وبدوى معاً . وله فى سياسته ومبادئه ملء حربته وكل حقه إذا هو لم يناقش اللبنانيين حساباً يجهله أو يتجاهله . إن كتابات الريحانى فى العرب وممالكهم وأمرائهم ومشايخهم أفضل من كل ما كتب فى الموضوع لأنها خلاصة أفضل ما كتب ، ولولا تعصب المؤلف لهذه الأمة الكريمة التى تحتاج إلى النقد فوق ما تحتاج إلى الاطراء لكانت كتاباته خالدة ، وهى بدون شك طويلة العمر . »

وأصدر الريحانى كتاب « النكبات » فحمل الكثيرون على المؤلف فكتب الكرملى يقول :

«إن غرض الريحانى من كتاب النكبات هو أن يفتح أعيننا على الماضى لنعتبر لا لنتغنى ونعيش فى خيال ما فعله آباؤنا . فما كان عليه الآباء من الرفعة ، كما قال جمال الدين الأفغانى ، لا ينفى ما نحن عليه اليوم من الخمول والضعة .

كتب الريحانى النكبات ليفتح عقولنا على حقائق مخزية لنحاول نحن أن نكتب صفحة خالدة أجمل من الصفحة التى كتبها لنا أسلافنا فى سوريا . »

أمين واليسوعيين :

وشاع أن أمين الريحانى قد أسلم فكتبت « البشير » فيما كتبت هذه العبارة :

« فما قول فيلسوف الفريكة بهذه الرواية ؟ أيثبتها أم يكذبها؟ وإذا كان أسلم أيكون أميناً على مذهبه الجديد كما كان أميناً على نصرانيته ؟ ! »

أما الريحانى فكتب يجيب عند ما سئل عن هذه الإشاعة بما يأتى :

«ماعلمت بهذا الخبر إلا يوم دخولى دمشق،والذى أعتقده أن مصدر هذه الإشاعة هو كتاب أرسلته إلى الصديق سليم سركيس يوم كنت فى ضيافة ابن سعود وقد جاءت فيه هذه العبارة : على أننى إذا وجدت القضية العربية بحاجة ، لأن (أتوهب) فسأتوهب . على أنكم تعلمون أننى رجل أعتبر جميع الأديان محصورة بمعرفة الله ، فأكون قد أسأت إلى سمعة ملوك وأمراء العرب الذين زرتهم إذا قيل إننى اضطررت إلى الدخول فى الإسلام لأتمكن من التقرب إليهم . ومع كل هذا فلا أنكر أننى أمام هدوء البادية وعظمتها ، وتلقاء ما كنت أشاهده من انعكاف جميع الوهابيين على الصلوات الخمس ، يومياً ، حتى

كنت أجد نفسى وحيداً فريداً فى وقت من أوقات الصلاة التى لا يعفنى منها هناك لا صغير ولا كبير . استولت على عاطفة حب مناجاة الله فألفت لنفسى صلاة خصوصية كنت أتلوها كلما وجدت نفسى فريداً والقوم فى عبادة ربهم . والصلاة هى « النجوى ») .

ورغم ما كان بين أمين الريحانى وبين اليسوعيين من العداء المستحكم فإنهم عند درسهم فى أميركا كتاب مسالك النفس الذى وضعه فى الإنكليزية لم يتكلفوا إلا إظهار الحق فقالوا :

« مسالك النفس مقالة كتب بعضها فى أميركا والبعض الآخر فى سوريا ، والمؤلف يعالج مشاكل حياتنا اليوم واضطراباتها وينبهنا إلى وجوب محاسبة أنفسنا ، ويقول إن القلق المستولى علينا إنما هو ناشىء عن التكالب فى سبيل الماديات . ها هنا مصدر الاضطرابات فى الحياة الاجتماعية منها والدينية والاقتصادية .. فلو أن المؤلف أمسك قليلا عن عدائه للكنيسة عداء يكاد يكون ڤولتيرياً (نسبة إلى ڤلتير) وقلل من الانتقاد لها ، وأكثر من التسخط على ماديات هذا الزمان لكان يصل صوته إلى القلوب والعقول فينفع برسالته أمة استحوذ عليها القلق والاضطراب » .

ثم كتبت فى مجلة المشرق فى (أيار ١٩٣٤) تقول : « لا نعرف أديباً خدم بلاده والأقطار العربية بأسرها كأمين الريحانى ،

ولو كانت خدماته مقتصرة على المؤلفات التى وضعها فى اللغة العربية لتساوى مع عشرات الباحثين من أبناء الوطن الذين يكتبون فى محيط ضيق . ولكن الريحانى خدم بلاده ولغته بنقل أمانيها وآدابها إلى لغة الإنكليز ، فتعرف الأميركان والإنكليز على منتجاتنا الأدبية وتمنياتنا الوطنية » .

وفى هذا المقام أرى لزاماً على أن أذكر أن كتابات أمين الريحانى قد نقلت إلى أكثر من خمسة عشر لساناً ، أما ما طبع من الفصول التى حبرها أمين بالقلم الإنكليزى فلا يقل عن عشرة مجلدات ، ولكنه لا يزال منثوراً هنا وهناك فى زهاء مئتى صحيفة ومجلة إنكليزية كانت تتسابق إلى نشر هذه الآثار .

أمين والانتداب

كان أمين عدو الانتداب رقم واحد ، فبعد ثورته على الشعر الباكى التى كان لها ما بعدها ، ألهبت قرائح الأدباء والمتأدبين فحملوا الأقلام والنبابيت ، هذا مع الريحانى وذاك مع الأخطل الصغير ، وسالت بأعناق الفصول أباطح الصحف... ثم لم يشأ الأمين أن تقف تلك المعركة الأدبية عند ذاك الحد فأصدر كتاباً عنوانه « أنتم الشعراء » فانبرى للرد عليه ثلاثة كتاب بكتاب عنوانه : أجل نحن الشعراء . وإذا تأملنا النهضة

الأدبية اليوم رأينا الجيل الطالع يريد أن يتوجه الأدب فى الطريق النضالية التى شقها الريحانى .

أعلن أمين تلك الحملة الشعواء فى حفلة الجامعة الوطنية بعاليه عام ١٩٣٣ وغمز من قناة الانتداب على سمع الكونت دى سالان الذى كان يمثل المندوب السامى فيها . ظن الناس بعد سماع تلك الخطبة النارية أن سيكون حظ أمين النفى ، ولكن لكل أجل كتاب . أجّل النفى إلى ما بعد خطبة ألقاها الريحانى ، بعد قليل من الزمن ، فى بيروت ، قال فيها : «قد انتقلنا وما تغيرنا ، إلا إذا حسبنا الرجوع إلى الوراء تغيراً . من عهد عبد الحميد إلى عهد عبد البعل ، ومن ظلم ظاهر إلى ظلم خفى ، من ظلم مختل إلى ظلم منظم ، ومن ظلم يحمل النّبوت والكرباج فتتبعهما الد .ن ، إلى ظلم يحمل الدساتير والمعاهدات ... من استبداد يمنح الامتيازات ليدفع ديونه الأوربية إلى استبداد يستثمر الامتيازات ليزيد ثروته ويفقر البلاد . من استبداد يفرّق ويسود لمجد الدولة إلى استبداد يفرّق ويسود للاستعمار . من عبد الحميد إلى الانتداب ، من عبودية أدبية روحية إلى عبودية اقتصادية مادية . من عبودية بطنها ملآن إلى عبودية المجاعة ، من خازوق واحد قائم تحت عين الشمس إلى خوازيق تنجرها لنا الليالى ، من دستور منشور إلى دستور معلق .

من عهد عبد الحميد إلى عهد دى مارتل ، هذا العهد السعيد ، هل تقدمنا ؟ هل ارتفعت أخلاقنا ؟

كان عندنا حانات وخانات فصار عندنا مرابع وأرتيستات. كان عندنا كازينو واحد للقمار فى صوفر ، فصار عندنا كازينات ، وحلقات لسباق الخيل وللبنات . . .

ولما فرغ من التعداد قال : منذ ثلاثين سنة وأنا أضرب الطينة بالحائط ، فهل الحق على الطينة إذا كانت لا تلصق أم على الحائط ، أم على اليد الضاربة ؟

لا أجيب على هذا السؤال ولكن قبل أن أستودعكم الله أقول لكم هذه الكلمة ، أقول لكم كلمتين ، ثلاث كلمات .
الأولى : إن خلاص الإنسان بيده ، انهضوا ينهض الله معكم .
الثانية : إن الأمة التى تكثر فيها الطفيليات لا تعيش طويلا .
فكروا بالإنتاج قبل أن يهلككم الاستهلاك .

أما الكلمة الثالثة فهى هذه : جارك القريب خير من أخيك البعيد . بل خير من أملك الحنون البعيدة ، والسلام عليكم »

قال أمين قبل أن يختم خطابه « أستودعكم الله » فما كاد يخرج من بوابة التياترو الكبيز حتى اعتقل ونفى ردحاً من الزمن ، فكتبت إليه بعد العودة رسالة فيها مداعبة مرة ، فأجاب عليها

برسالة كانت نبؤة ، وقد نشرت روسماً – كليشه – فى ديوانى زوابع ، فارجع إليها إذا لذ لك أن تطالعها لتعلم أن هذا الجبار لم يلق سلاحه بل كان سيفه مخدته .

أمين واللغة

قضى أمين حياته فى صراع مع لغة الضاد ، آلى على نفسه أن يجيد البيان فيها فكان له ما أراد ، ولكن كتابته لم تسلم من هنات هينات ، كان يتمسك بها خصومه وينعون ذلك عليه . وها هو يحدثنا عن نفسه فى هذا المجال فى مقدمة كتابه ملوك العرب :

« عدت إلى بلادى وكنت لا أعرف من لغتى وآدابها غير اليسير اليسير ، فتغلغلت فى سراديبها دون أن أرثى لحالى . وبينا أنا أتخبط فى دياجى اللغة عثرت على كتاب شعر – لزوميات المعرى – أنسانى الكسائى وسيبويه ، وكل من علم حرفاً فى البصرة والكوفة » .

وقال فى رسالة يجيب الأستاذ جرجى نقولا باز : « لقد نقحت وصححت مقالاتى العربية جهدى . . . أى والله حينما تمر فى مخيلتى الفاء السببية يعترينى صداع ، شديد ، ولما أفتكر فى الفرق بين المفعول به والمفعول معه والمفعول فيه يحل المغص بى ،

ومعى ، وفى ، فأود لو عفانى الدهر من لغة حمير ولغة تميم ومذاهب البصريين والكوفيين » .

وقد آلمه نقد كتاب له لم أعرف أيها هو لأنه لم يسمّه فى الرسالة التى عثرت عليها ، كما لم يسم المنتقد . لا بأس فى نشر هذه الرسالة التى تدل على صراحة أمين .

« صديقى القديم العزيز :

السلام عليك ورحمة الله ، لقد رابنى أمر فى انتقادك (لغة الكتّاب) وعلى الأخص لغة المجددين منهم ، فهل لك أن تنير الذهن منى فتزيل الريب والحيرة ؟ ما رأيتك مرة تنتقد لغة كاتب من كتاب المسلمين فهل المسيحيون ، وحدهم ، يمتازون بهذا الشيء الذى يسمونه العبث باللغة ،أو ليس بين المسلمين النوابغ من يشذّون بالذنب مثلنا وتظنون أنهم ملكوا الناصية ؟

أنر ذهنى ، زادك الله نوراً ، أليس فى الكتاب المسلمين من يغلط غلطة واحدة لغوية ، صرفية أو نحوية ؟ ! أليس فى كتاب المسلمين من تقصر مبانيه ، ولو فى فترة من فترات الإلهام والإبداع ، دون معانيه ، أو معانيه دون مبانيه ؟ عهدتك عادلا وعهدتك حكيماً ، ولكنى أراك فى هذه الأيام مثل سواك ، كمن هم دونك علماً وأدباً ، تتمادى إلى ذلك الروح الخبيث الذى لا يرى فى صلات الحياة الأدبية شيئاً يوازى ذرة من الميراث

القديم . . . على أنى أسألك ، وأرجوك ، وأتوسل إليك أن تذكرنا ، وأنت فى نعيم اللغة من الخالدين ، اذكرنا من فضلك وتصدق علينا بشعرة واحدة من تلك (الناصية) الكريمة ، ناصية اللغة ، لنحرقها عندما نكون فى خطر من غارات الجهابذة اللغويين والسلام عليك »

لا أطيل الكلام هنا لأن الريحانى مات وفى قلبه شىء من « حتى » .

وصية أمين

كتبها فى أيلول ١٩٣١ وهى ليست وصية لفرد من الناس بل لأمة عاش أمين لأجلها ولذلك تجد فيها نقاطاً فلسفية اجتماعية سياسية دينية . جاء فى الوصية الثامنة ما يأتى :

إن الوحدة العربية المؤسسة على القومية لا على الدين هى وحدة مقدسة فأوصيكم بها . واعلموا أن لا خلاص للأقليات من ربقة الأجانب ، أو فى الأقل من التدخل الأجنبى ، إلا باتحادهم مع العرب ، بل بامتزاجهم بالأكثريات امتزاجاً عقلياً أدبياً روحياً ، فتصبح البلاد ولا أكثريات فيها ولا أقليات . واعلموا كذلك أن لا مستقبل مجيداً للعرب ولا وحدة عزيزة شاملة بغير الحكم المدنى الديمقراطى القائم على العدل والمساواة

بالحقوق والواجبات .

واعلموا أخيراً وتأكدوا أن فى الدولة العربية الكبرى ستضمحل العصبيات الدينية والطائفية كلها ، أو ستنحصر فى دوائرها الخاصة بها ولا تتعداها . وسيقوم مقامها فى الوطن عصبية الجنس واللغة والثقافة ، وقد ارتبطت كلها بالمثل الإنسانى الأعلى ، وبالمصلحة المشتركة المتبادلة بين الأهالى جميعاً على السواء »

وفى الوصية (١٤) : «إن أنوار العالم القديمة على وشك الانطفاء كلها . فتيقظوا وراقبوا المصابيح الجديدة وسيروا فى مقدمة المستنيرين بأنوارها »

وفى الوصية (١٩) «لا أظن أن المسيحيين والمسلمين أو اليهود والبوذيين يسارعون ويتسابقون للصلاة على جثمانى . ولا أظنهم ، إذا فعلوا ، ينفعوننى لأنى لا أعتقد بنفع الصلاة لغير صاحبها ، ولا أعتقد بنفعها إلا إذا كانت محض روحية ، أى محصورة فى التأمل ، ولا تتجاوز إلى الطلب والاستغاثة . فالتأمل الروحى هو للنفس كالنور للحياة النباتية ، فتتغذى به أزهار الألوهية ، ويفوح طيبها فى بساتين الحياة . وكل امرئ من هذا القبيل هو كاهن أو إمام نفسه ، يفيدها باجتهاده ، ولا يفيد سواها . أما الصلاة التى هى طلبات يوجهها المرء إلى خالقه فإنما هى صبيانية ، بل فيها شىء من الجحود ، كأن الله لا يعلم

بما فى القلوب ، كما جاء فى الأديان كلها . أو كأنه ، سبحانه وتعالى ، مثل الإنسان ينسى أو يتناسى . فإذا كانت نفس الميت، مثلا، فى حاجة إلى الصلوات ، فقد أصبح أقرب إلى العلم الإلهى مما كان فى الحياة ، وقد أصبح ولا شغل يشغله عن الصلاة ، فلاتكلفوا أنفسكم إذاً أيها الآباء المحترمون وأيها الأحباء. وبكلمة بسيطة صريحة وجيزة لا أريد أن يصلى على جثمانى أحد من رجال الدين أو غيرهم »

طاقته الفنية وآراؤه الاجتماعية

الريحانى الكاتب

دب أمين الريحانى ونشأ على كتف واد رهيب من أودية لبنان ، وترعرع ، كما رأيت ، كأكثر نوابغنا فى مدرسة غير ذات جدران ، فى ظل السنديانة والهيكل . ثم ارتقى إلى مدرسة أعلى رتبة فألم بمبادئ اللغتين العربية والفرنسية ثم التحق بأبيه فارس المهاجر قبل أن بلغ رشده . وفى أمريكا أتقن اللغة الإنكليزية فبرع فيها ، وبعد محاولات لم يفلح فيها احترف الأدب فصار فيه كأخى الخنساء ، علماً فى رأسه نار . لم تكن شهرته فى الشرق أقل منها فى الغرب ، بل كان صلة التعارف بين المشرقين ، مسموع الكلمة عند التوأمين ، وكثيراً ما حاول الجمع بينهما ، وإن قال الشاعر الإنكليزى : « كبلنغ » لن يجتمعا .

كانت لأمين رحلات بين أميركا ولبنان فمن هناك إلى هنا ، ومن ههنا إلى هنالك . حمل إلى أميركا أكياساً من صوفية الشرق وفلسفته ، وجاء إلى الشرق بحمولة من (عملية) العالم الجديد ،

وصناديق من منتوجات حرة كتب عليها : سريعة الانفجار . كانت رسالته أحياناً غير مرغوب فيها ولكنه فرضها على الناس فرضاً . له رسالة لا بد من أن يؤديها وحسبهما يعلق منها بالأذهان. فهو لا يلح على الناس ولا يلحف ، يقول كلمته ويمشى كما قلنا . يكفيه أن يدعك تفكر بما قال ليعتقد أنه خرج من المعركة ظافراً .

وجه كأنه وجه الفرزدق ، وعينان كحمامتين تجثمان على بركان فائر ، وأنف بين أنف ابن حرب وأنف بلقيس ، وفم صارم كأنه باب السجن . أذنان كمروحتين صغيرتين ، وجبهة كأنها مرج ابن عامر . هذا خلقه ، أما خلقه فلا يسف فى حديثه ولا يتزمت ، هو بين بين فى معاشرة الناس ، لا يفتح الزجاجة فيفوح المسك والعنبر ، ولا يسدها سداً هرمسياً ، لم ينطق بكلمة فاجرة ينفر منها أشد الناس تمسكاً بالعرف ، لا تفوح رائحة أحماضه فى المجلس فتعمى وتصم .

منذ خطت يد الريحانى أول كلمة عربية أعلن الرجل استقلاله الناجز تفكيراً وتعبيراً . ظل فى مهب رياح التطور الفكرى حصة من الزمن يترجح بين صوفية مائعة ، وعملية حديدية . أما فى التعبير والأسلوب فما انفك يبدع قوالب خاصة حتى آخر ساعة . لم يبال أمين ، وشعاره : قل كلمتك وامش ،

بما يقوله غيره . لبس بذلته ولا يمنعه ما يقول الناس فيها ما دام هو راضياً عنها .

أعطى من السخر شيئاً كثيراً ، ولكنه سخر مستور غير مفضوح ، لا يشمّر بكرم فضاح كالتى رآها فى الصحراء تعبر النهر . ولا يسكت إذا وجد مجال القول ذا سعة . ليس فى كتابنا أصرح منه ولا أجرأ ، يطلب الحقيقة دائماً ، ويقولها كل حين . إذا قال صدق ، لا يوارب ولا يداجى ، يسكت حتى يستطيع الصدق . حاد المزاج نارى الشعور ، ولكنه ضابط نفسه . يخرج عاطفته الثائرة بأسلوب غير مبتذل . أشد سلاحه التهكم ، وتهكمه يؤلم ولا يضحك ، ترثى لمن يتناوله ذلك المبضع الذى ينحدر إلى الأعماق حيث اللب والرعب والحقد كسهم البحترى الذى أطلقه على ذاك الذئب .

أمسك بالحبل من طرفيه منذ الساعة الأولى . ترجم رباعيات أبى العلاء إلى اللغة الإنكليزية ، وأخرج إلى العربية « التساهل الدينى » و « المكارى والكاهن » و « المحالفة الثلاثية » فكأنه وضع بها من حيث لا يدرى أساس رسالته التى تناولتها يد التطور ، فتذبذب حيناً كرقاص الساعة الهادى ، بين روح هائمة وجسد يرى فى الماده ملاذه . قد تجلت هذه المبادئ متحدة فى صلاته التى كان يتلوها — كما روى — فى البادية . بادية العربية السعيدة :

الريحانى فى هذه الصلاة رجل يريد روحاً وعقلا وجسداً ليؤدى رسالة بنى أمه ، رسالة العروبة الموحدة . رسالة الفلاح العربى وإحياء المجد العربى القديم . فقبل أن نظهر رسالة أمين النبيلة فلنر العناصر التى تؤلف هذه الشخصية الفريدة ، هذه العبقرية التى مرت فى سمائنا مرور الشهاب المتهاوى فروّع الليل ، وشق أحشاء ظلماته . ثم عقبت ذلك النور الثاقب ظلمة مدلهمة تكاد الكف تلمس جلدها .

إن حب الطبيعة هو العنصر الأول الذى تتألف منه شخصية الريحانى . فأمين ككل جبلى دب تحت الخيمة الكبرى تصبحه الشمس وتمسيه ، يصافحه النسيم ويضربه الهواء . يسامر النجوم والقمر ، وموسيقى الطبيعة تدغدغه بلا انقطاع . يتمتع طليقاً بجمال الفصول الأربعة ، فمن مَرح الربيع إلى كآبة الخريف ، ومن جدّ الصيف إلى جهومة الشتاء. ولد حرًّا يغترف من عطايا الطبيعة ومواهبها ويخزن ما استطاع منها فى غضون عبقريته وجيوبها إلى الساعة المنتظرة ، ساعة الرسالة التى خلق لها ، رسالة الأدب الرفيع والنضال القومى فى الشرق والغرب . وقد عج بهذه العواطف شعره المنثور الذى أبدعه فى الأدب العربى ، فزادت به ثروتنا الأدبية وأصبح ميداناً مفتوحاً للذين لا يحسنون الشعر المقيد ، وأمين واحد منهم . فهذا الشعر الريحانى يعبق منه أريج الأزهار ،

وتحشرج فيه العواصف والأعصار ، حافل بأنين الناى وطقطقة الرعاة ، وزقرقة الرعاة ، وزقوقة العصافير .

فى هذا الشعر الذى تعرفنا به أجزاء الريحانيات الأربعة موسيقى شاعر ملهم ، وحنين واله ، لا أثر للتكلف فيه، بل هو صرخات نفس تتألم ولا تجد عزاء إلا فى حضن الطبيعة التى تتملق بنيها حيناً ، وتعض وتلبط أحياناً . موسيقى تبطنت شعر أمين المنثور الذى أملاه عليه وجدانه الثائر قبل أن ينفجر مصلحاً كبيراً ، وسياسيًّا مسموع الصوت نافذ الكلمة ، يقتحم المخاطر فى سبيل تحقيق الوحدة العربية . ولكن كتابته فى الشؤون السياسية وشجونها هى من صميم قلب الأدب ، فى الريحانيات وملوك العرب وكل ما كتب أمين ترى ما التقطه ذهن هذا الأديب الأصيل من مشاهد فرسمها أبدع رسم .

وإلى عنصر الطبيعة ينضم عنصران آخران يتصلان به ويتفرعان منه هما : المهاجرة ، والمطالعة . فالهجرة مدرسة الريحانى وجامعته الكبرى التى تلقى فيها دروسه وكان أستاذ نفسه . ففيلسوف الفريكة لم يتلق علومه فى الجامعات الرسمية ، هو ابن همة نفسه ، ابن رغبة فائقة الوصف ، نهم إلى الاكتشاف عن طريق البصر والبصيرة ، يتلقى الدروس حيث حل ، يرى وينتقد، ويحكم ويستنتج ، ويدرك ويدخر إلى حين الحاجة. فى التأمل الذى

لا ينتهى ، وفى الاستكشاف المستمر فى الكتب والمتاحف ، وغرائب الدنيا وعجائبها التى شاهد جلها ، تغذى ذهن الأمين ورتع ، وأخرج البدائع والطرائف :

أما المطالعة فلا تسل عن عشق الريحانى لها . ولا تسل عن مغامراته فيها ، فالرجل لم يتعلم لغته على أستاذ ، بل عكف على مطالعة آداب أمته بجشع ورغبة كما ينبئنا فى مقدمة «ملوك العرب» . وظل يروض نفسه عليها حتى أسلس قيادها . إن اطلاع أمين الواسع العميق يبدو فى ملوك العرب حيث لا يغفل عن شعر أو نادرة يؤيد بها قوله ويدعم كلامه . وقد يأتيك بألفاظ وضعية لاتنقاد فى الاستعمال إلا لجهابذة اللغة والأخصائيين فيها . يدلك هذا الاستعمال والاستشهاد على سعة اطلاعه ، كما يدلك (اللحن) — وهو نادر فى ملوك العرب ، كثير فى (الريحانيات) — على أنه معلم نفسه كما قال .

فمن هذه العناصر الثلاثة تتألف شخصية الريحانى ، فإذا أضفنا إليها قريحته الوقادة ، ولسانه الذرب ، ونفسه اللينة العريكة ، رأينا الرجل العربى الفذ الذى أجله ملوك العرب وكرموه ، ووقره الأدباء والشعراء وعظموه . لم يذق أديب عربى فى عصرنا الحاضر ما ذاقه الريحانى من تعظيم وتبجيل ، فبيته كان مزاراً إذا حل . وهو كان موضوعاً يتساجل فيه أكابر الشعراء إن رحل .

لقد مر أمين فى أدوار عديدة ، فحبه الطبيعة واطلاعه الواسع على آداب أمته وتاريخها ربطه بوطنه ، ونفسه الأبية التى تكره التدجيل والمحاباة والرياء سلخته من مدنية الغرب وجذبته إلى أمته ، فأطل عليها من تلك النافذة ، نافذة حب الوطن الذى تثيره محبة الطبيعة . إن ضوضاء أميركا يكرهها رجل نشأ كالريحانى ، ولهذا ظل يعمل مسيراً بعوامل باطنية حتى أفلت منها عائداً إلى بلاده يدعو إلى الاتحاد والإخاء والحرية .

فى المحالفة الثلاثية

قال الحجاج فى إحدى خطبه النارية : إن العلم يوشك أن يرفع ، ورفعه ذهاب العلماء . لقد كادت أقطارنا العربية أن تفقد هؤلاء ولكن ما نرجوه من الأحياء يحملنا على مخالفة رأى الحجاج . إن ثلاثة آلاف سنة تكوّن أرزة خالدة فى رأس لبنان ، إما دماغ كدماغ أمين الريحانى فلا أستطيع تحديد الزمن الذى يصنعه .

عرفته صلباً كالألماس وإن لم يكن له بريقه ولمعانه . ربطته بالمطران الزغبى صداقة غير حائلة ، ولكن ذاك المطران التقى لم يستطع أن يأخذ من عقيدة صاحبه لا حقاً ولا باطلا . بقى المطران

فى حظيرته يرعى خرافه ، وظل أمين جاداً وراء قطيع يرعاه فى مروج الفلسفة الحديثة .

الريحانى وجه لبنانى محض استمد لونه من أديم الجبل . مربوع القامة كبير الهامة . كان وجهه ثعلبياً فى فتوته وشبابه ، ثم استحال وجه أسد غضنفر حين اكتهل وحبا إلى الخمسين . ترفرف على محياه المهابة متوقراً ، ويقرب من القلب متبسما ، أما إذا حمى غضبه فشرارة من جهنم . . . يصيح ويماحك ويطفى سراجاً مشعلا . . .

تدارسنا أدبه تلاميذ ، وأول فصل عرفنى به ، قرأته فى المقتطف موضوعه « وادى الفريكة » . وفى جامعة العالم رأيت الريحانى ، أول مرة ، على منبر جمعية شمس البر ببيروت « ١٩ آذار سنة١٩٠٨ » . سمعته يخطب الناس فخلت أن عاموس النبي قد أفلت من بين الرعاة ليتنبأ قبل الزلزلة بسنتين . . .

علقت بذاكرتى عبارته هذه : الكاهن والطبيب والمحامى ثلاثة عقبان من بيضة واحدة . وارتسم فى مخيلتى يومذاك شكله القسسى أو الفلسفى : شعر مسترسل كما قال امرؤ القيس : غدائره مستشزرات . . . ولم تفارق مسمعى نبرات صوته الخورسى وحركاته المسرحية التى تلبس عبارته ثوباً جديداً ، وتودع فيها روحاً محيياً .

أمين ثائر متمرد ، هو رجل كفاح ومن كتاب المعارك . يثير خلفه ، وحوله ، وفوقه ، وتحته غباراً لا يشق ، يقول كلمته ويمشي ، ينفض نعله على عتبة كوخه ، ويعد حذاء جديداً لرحلة أجد . الريحاني مؤمن بأدبه ، واثق بأنه خلق أدباً جديداً رحمة بالناس ، وقد أشار إلى هذا حين ناجى جبران يوم عاد إلى وطنه محمولا :

« جبران ، أخي ورفيقي وحبيبي ،

إن للشهرة يوماً ، وللحزن يوماً ، والباقي للبنان ،

لهذا الجبل العزيز الكريم الحنون الذى يضمك اليوم ، وغداً يضمني إليه .

ومهما يكن من رسالة حملناها إلى الشرق والغرب فسوف ينصف الزمان .

ومهما يكن من أدب بدعناه ونشرناه رأفة بالناس فسيعدل المستقبل .

وإن ترابى ، غداً ، فى الفريكة يناجى ترابك فى الوادى المقدس .

ومن ظلال الصنوبر ، الذى سيظلل ضريحي ، سيحمل النسيم قبلات عطرة ، صباح مساء ، إلى ضريحك فى ظلال الأرز . »

إن شيئاً من هذا لم يكن . لا صنوبر ولا بلوط . قبر متواضع فى العراء ، حدّه شجرة أو شجرتان لا أذكر ما اسمها ، وقد جمعنا رفاته فى صندوق حين ماتت شقيقته سعدى ، لنوسع لها فى ذلك المدفن العائلى فى (الشاوية) .

يخلط أمين — دائماً — التصوف بالعمل المجدى ، يقدم (بزوراً للزارعين) وهو كبير الأمل بالغلة ، ما تنكب عن صراطه قط . أغراه لقب الفيلسوف فطرب وانتشى وتفلسف حتى فى المراضيع التى لا تربطها بالفلسفة آصرة قربى . كان الإصلاح الدينى هدفه الأسمى ، وأولى معاركه ذلك الخطاب الذي أذاع اسمه بين الناطقين بالضاد . ألقاه ليلة ٩ شباط سنة ١٩٠٠ ، فهبت بعده ريح الأمين وكتب إليه البطريرك المارونى مجاوباً :

« ما قلتموه فى هذا الشأن ، وإن قلتموه عن مقصد حسن ، فهو خاضع لتأويلات عديدة . يمكننا التساهل من حيث الطقوس والعوائد المذهبية ، وأما الحقائق الموحاة من الله فلا يمكن التساهل بها مطلقاً . . . ثم إننا لم نستصوب ما قاله من اعترضكم ، فى هذه المناسبة ، من الكلام الجارح الخارج عن حد الاعتدال » .

ونوهت الصحف العربية فى العالمين بجرأة أمين فاشتد

ساعده ورمى . كتب « المكارى والكاهن » فارتقى فى سماء الشهرة درجات ، وأخيراً كتب « المحالفة الثلاثية فى المملكة الحيوانية » فبلغ الأوج . انقسم فيه الناس ، فأصبح فيلسوف الفريكة عند بعض ، والفيلسوف الصغير عند آخرين ، ولكنه ظل يقول كلمته ويمشى .

ثم كتب بلغة شكسبير فعرفه الغرب كما عرفه الشرق وصار من كبار الكتاب فى اللسانين السامى والآرى .

الريحانى هو أبو الشعر المنثور فى الأدب العربى ، وهو الذى مهد الطريق لجبران وعبدها ، ولكن جبران طار بهذا الأسلوب على أجنحة رياح الفن والإلهام ، ولم يقع إلا على أعلى الذرى .

الشعر المنثور بناء بلا زوايا ، فيه جمال مطلق . له أعداء الداء حيث وجد ، فعدوه لعبة يتلهى بها المقصرون عن الشعر (الرسمى) . وله أحباب أوفياء يرون فيه متعة لا ترى فى الشعر المقيد . فلا بدع ، إذن إن اختلف القوم عندنا فى هذا اللون الجديد فى الأدب . أذكر لك قول ناقد فرنسى راح يتهكم بهذا الشعر متمثلا بقول لافونتين بلسان الخفاش :

« أنا عصفور ، وهذان جناحاى . أنا فأرة ، فلتحى الجرذان ! »

ومهما يكن من شيء فأدبنا العربي مدين لأمين بهذا اللون الطريف ، إن النواة في أدب أمين محسوسة ملموسة . هو رجل كفاح قبل أن يكون صاحب خيال وشعر منثور مائع كشعر الذين قلدوا الريحاني « وأكلوا من جفنته ، وشربوا من إبريقه ، وناموا في خيمته » . كان الريحاني في كل ما كتب رجل كفاح وإن رأيناه يتدروش حيناً ويتصوف تارة . وفي كل أطواره كان يشتد كأن النبوة خلعت عليه مسحها .

ما اشتد ساعد جبران وتوغل في أدغال صوفية الشعر المنثور ، حتى رأينا الريحاني يطير عنها إلى قمة أخرى تاركاً لها رداءه كإيليا . فلم يقم منا ، بعد الشدياق ، من جالس ملوك الأرض والرؤساء مجالسة الند للند كالريحاني . حمل هذا النابغة العصامي لواء الشرق العربي في الغرب ، وفاق الشدياق في المعترك السياسي بقلمه الأجنبي . أبدى للعالم وللمستعربين من بني أمه وجه العرب النبيل بكل ما فيه من خطوط فارقة ، وعلامات مميزة ، فسمعت كلمته في أعظم نوادي الغرب وقصور الملوك والرؤساء . ظل أميناً لرسالته في الحقيقة والخيال ولم يحد عنها قيد شعرة ، ومن قرأ جميع ما كتبته يده يرى أنه لم ينقض بنداً واحداً من بنود المحالفة الثلاثية . وإذا صح النبأ الذي نشرته جريدة البشير الغراء يكون الذي « انمسح » واعترف وتناول هو أخوه ألبير وصهره

يوسف صادر وصديقه إبرهيم حتى . أما أنا فأقرر أن الريحانى لم ينقض حرفاً من المحالفة ، فقد عرفته صلب العقيدة . ثم ظهر فى تركته — ما ترك إلا الحبر والورق — ما صدق ما زعمت .

* * *

يسأل الكثيرون من الأدباء والمتأدبين عن المحالفة الثلاثية النادرة الوجود ، وهذا الكتاب عاد إلى بعد هجرة طالت ثلث قرن ، استعاره منى الخورى ى . ع . فراودته نفسه أن يمتلكه ، وبعد أخذ ورد وتوسط محام صديق لى وله (ا . خ) رجع الحروف الضال إلى قطيعى ، وهو الآن فى مكتبتى ، محوط باسم الله والحرية .

الكتاب يحمل هذه العبارة بخط الريحانى « هدية المؤلف إلى صديقه مارون عبود . الفريكة ٩ حزيران سنة ١٩٠٨ » . أجل قد صرت ، بعد تلك الزيارة الظريفة التى تحدثت عنها فى كتابى « مجددون ومجترون » بمناسبة الكلام عن فليكس فارس ، صديق الأمين .

المحالفة الثلاثية كتاب رمزى تلبس فيه الحيوانات الجبب والطيالس : الحصان والبغل والحمار والثعلب والجمل والثور ، ويتخلقون بأخلاقنا ويتحدثون بلغتنا . أما حكايته فهى أن هذه الأسرة الكريمة أشفقت من زوال مجدها وأبهتها واندحار عظمتها

أمام البخار والكهرباء والقطار والأتومبيل . فدعاهم الحصان سيد هذه البطون والأفخاذ إلى مؤتمر يعقد فى اسطبله ليبحثوا عما يدعم سلطانهم فلا ينهار . وكان اجتماع طريف تبادلوا فيه الأنخاب وشرحوا المعضلات الكبرى . فظهر فى المجتمع الثعلب — هو أمين — فأنكر وجحد ، وأنذر وحذر ، وازدرى ما يحترم أولئك . وأخيراً أخذ الثعلب المتمرد بجريرة الكفار المارقين ، وحوكم أمام المجلس كجاحد ، وساموه أشد أنواع التعذيب . وأخيراً قضوا عليه بالموت — إلا إذا تاب ورجع واعترف وآمن بما جحد ، ولكن الثعلب لم يرجع عن غيه :

الجلاد — ألا تريد أن تنكر اعتقادك إذن .

الثعلب : إنى أموت لأن الحيوانات نيام ، أما أنتم فستموتون لأنهم سيكونون أيقاظاً .

فألقى الجلاد به فى النار قائلا : « فلتكمل مشيئة الله . »

وكذلك قال الثعلب الذى يعتقد بالله وحده . ثم ظهر الأسد — المعنى هو الأسد الذى انتصر من سبط يهوذا — فخاطب الحصان والحمار والبغل : أطلب رحمة وليس ضحية ، وقال وقال ... ثم تلبدت السماء بالغيوم وغاب الأسد فى سيارته عن الأبصار .

قد يقال : ولماذا اختار أمين السيارة ألم تكن الطائرة أنسب؟ نعم يا سيدى . ولكن هذا الكتاب قد كتب قبل ميلاد الطائرة

وذريتها الكريمة . . .

أما الحصان والبغل والحمار فذهبوا إلى اسطبلهم منكسين وجوههم خاسئين . وبينما هم ذات يوم ينؤون تحت أحمالهم ، على طريق السكة الحديدية ، إذ صفر قطار العلم القائد عربات البخار الكهربائية والاختراعات ومر عليهم فسحقهم سحقاً ، وتطايرت رؤوسهم وبقايا أجسادهم فى الجو وتشتت أعضاؤهم المنقطعة على طريق التمدن الحديث .

قلت لك إن كتاب المحالفة الثلاثية نادر ، ولهذا سبب لا بد من اطلاعك عليه . زعموا أن ناراً سقطت على مطبعة الهدى التى طبعته سنة ١٩٠٣ فاحترق . ومنهم من يغرب فى الأسطورة فيقول : إن النار أكلته وحده ، كما كانت تأكل الذبائح فى عهد بنى إسرائيل ، ومنهم من قال : إن المطبعة والمطبوعات احترقت جميعاً .

سيان عندى هذا وذاك . أن جزة جدعون حكاية طريفة سواء إن ابتلت وحدها أو تبللت الأرض دونها ، فكتابى عندى .

كان أمين حين كتب المحالفة الثلاثية رطب العود فصاحة وتركيباً ، أما عقله فناضج ، وهو فى كل طور قلما بالى بسيبويه والفيروزابادى ، بيد أن لغته قد صحت فى آخر العهد فعبرت بالتدقيق عما يجول فى ذاك الرأس الكبير .

من حسن حظى أنى عدته بعد كبوته المشؤومة ، فرأيته فى مستشفى ربيز ممدداً على سريره . خلت المصيبة هينة ، ولم أكن أدرى أنها النومة الأخيرة فلجأت إلى النادرة كعادتى معه ، كلما التقينا ، فقلت له :

أتركب يا أخى فى الستين كما كنت فى العشرين والثلاثين.

فابتسم ابتسامة جارحة وقال : ما كل الوقعات تكون فى الجورة ، روح بقا .

فقلت له : كل البلاء فيها ومنها يا أمين . . . ورحت من عنده مطمئناً إليه حتى نعى إلى فى عين كفاع ، بعد مفارقته بأسبوع . ثم سمعت ما حف بسرير موته من أقاويل فتذكرت قوله : الكاهن والطبيب والمحامى ثلاثة عقبان من بيضة واحدة .

أما العقاب الأخير فما انقض على هذه الفريسة ، لأنها لم تترك شيئاً . اللهم إلا ذكرى العبقرية الفذة الخالدة .

لا بد من واحدة .

زرت مرة أم أمين ، فى غرفتها الخاصة ، فكانت جدرانها معرض صور قديسين وقديسات كأنها حائط العازارية قبلما هدموه . كان قد ثقل سمعها فقال لى أمين بعد أن استعرضنا تلك الإيقونات وسميتها له بأسمائها ، لأنى اختصاصى : ما رأيك يا مارون ، سنبقى لذكراها بعد الوفاة هذه وهذه .

قلت : ولماذا أثرتهما ، قال : لأنها تخصهما بعبادة .

قلت : تريد أن تقول بعادة ، فنكزني قائلا : وطئ صوتك .

وعدنا إلى الحديث معها فوعدتها وعد حر بالغفران الكامل عند الموت ، بدون اعتراف ومناولة شرط الندامة بقلبها ، فتهللت وتعللت . ولكني لم أبر بوعدي ، فطالبني أمين بذلك أكثر من مرة لأن أمه تلح عليه — ليتك تقرأ الخطاب والجواب في هذا الصدد .

أما أنا فألححت كثيراً على السيد الفونزو بيرتي في المدينة الأزلية ليرسل لي باسم أرملة فارس الريحاني صورة الأب الأقدس حاملة بذيلها البركة الرسولية والغفران الكامل « إينار تيكلومو رتيس » ولكن صاحبنا لم يرد جواباً ، فتأكدت أنه نقل فلم يصله كتابي . ثم أكد ما ظننت رجوع الكتاب المسجل والحوالة وقدرها واحد وعشرون ليرا .

أسفت جداً لأن أم أمين ماتت ولما تفز بهذه النعمة ، وإن تكن قد لا تحتاج إليها لصلاحها وتقواها . والتقينا مرة بعد موت تلك الأم الطاهرة فقال لي أمين : ما قولتك ، أتدخل أم أمين الديار السماوية بدون (باصك) . . . فأجبته : إذا قالت إنها أمك فمار بطرس لا يردها .

فانتفضت يد أمين — التي كتبت المحالفة الثلاثية فأصيبت

بما أصيبت ، وكركر فى الضحك ، وكان صمت . . .

وقصارى القول أن فيلسوفنا عاش حراً ومات حراً ، وما أقل من ترافقهم مبادئهم كاملة حتى يبلغوا المأوى الضيق .

لست أزعم أننى أحطتك علماً بالريحانى ، فى ريحانياته وكتب رحلاته ، ورواياته خير كثير وسوف نمر بها عجالى ، كما مر أمين بالدهناء .

إن نا ليفه أشبه بحصن أعد فيه صاحبه عدداً وعتاداً منها القديم ، ومنها الحديث ، من زمن اليونان والرومان إلى عصر الإنكليز والأميركان ، من الكبش والمنجنيق إلى الطائرات والدبابات ، ومن المدى الحجرية إلى الخناجر الفولاذية ، والسيوف اليمنية ، إلى القنابل الديناميتية — لم تكن الذرية والهيدروجينية خلقت بعد — فيهاجم بها من مرامى حصنه كل من خفق برأسه أمام مرقبه العالى . ولم ينج الحكام والمستعمرون من قذائفه هذه فأذاقوه طعم التشريد والإبعاد .

أما أسلوب أمين ، أسلوب الشعر المنثور وغيره ، فله وحده ولا يد لغيره فيه ، وبه غزا العالم العربى فترة من الزمن ، فكان فى كل قطر حلته ركابه منارة تتجه نحوها الأنظار ، وقد أقر له بذلك أبطال الفكر وقادة الأقلام فى كل قطر ، حتى فى لندن ونيويورك . كان أديباً عالمياً ، وسفيراً عالمياً عربياً شرقياً

— مسخراً — رفع رأس بلاده فى أكبر عواصم العالم الحديث .

حيا الله تلك العظام الرميمة ، فهى لم تسترح إلا فى القبر .

أحب ذلك الوادى — وادى الفريكة — صغيراً ، فنام على كتفه فى (الشاوية) نومة الأبد .

طاب نومك يا صديقى .

فى الريحانيات

— ١ —

نكاد نجد فى كتاب (الريحانيات)— وهو بضعة مجلدات — شخصية أمين كاملة فلا يفوتنا خط من خطوطها الأصيلة ، ولذلك قال لنا : « إن اعتقادى كامن بل ظاهر فى سطور هذا الكتاب وأضعافها ، فعل القارئ أن يعمل الفكرة قليلا » .

لقد عملت بنصحه ، وشكرته لأنه كفانى مؤونة عناء التفتيش عن عناصر شخصيته ، وإن كنت لا أكتفى بهذا ، بل سوف ألحق به فى كل مكان فلا أدع مخرماً طلع به . أما الآن فنحن هنا ، ولهذا أقول : كان فيلسوف الفريكة من رجال السمت وإن لم يكن كثير الصلاة قد أخذ السجود جبهته كالقاضى أبى يوسف . فالذى يسميه غيرى إلحاداً وكفراً وزندقة أسميه أنا « تبدّلا » . فليس أمين من المعطلة ولكنه مؤمن حر ترك بنيّات

الطريق ليسير فى الجادة . وما اتجاهه إلى الطبيعة وجعله منها هيكلا له إلا ضرب من أكليريكية أخرى ، وإن عده الناس مارقاً . هذا ما يسميه علماء النفس استعادة رغبات الطفولة . فأمين فى أحلام يقظته يحقق فكرة لم تتحقق ، فقد تكون (لقنته) أمه ، صغيراً ، أن ستراه يوماً خادماً لمذبح كنيسة مار مارون ، جارة بيتهم .

ما كتب أمين مقال (أبرشية الفريكة) إلا مدفوعاً بالانفعالات الباطنية التى يخضع لها من حيث لا يدرى حتى فى تمرده . فى عروق أمين شىء من دم خدام المذبح ، فجد جده كان مطراناً يدعى باسيليوس ، كما خبرنا الأستاذ جرجى نقولا باز ، الأخصائى فى تراجم الأدباء اليوم ، ونصير المرأة سابقاً . . . فمن صلب ذلك المطران الجليل تمشى أمين فى ظهور الأجداد حتى وصل إلينا ، فتكررت « الرغوة » وأصبحت هذه « الصفوة » كما عبر الكاهن الجليل الأستاذ نعيمه — أحد الأبدال الأربعين المستقرين فى لبنان — حين ابتهل مع أمين من أجله ، وأجل نفسه ، وأجل هذا العالم المنكوب برغوته . . .

لم تكن «المحالفة الثلاثية» إلا مجمع أبرشية فيلسوف الفريكة ، عليه اعتمد أسقفها العظيم فى تدبيرها وإدارتها روحياً — لا تنس أنها أبرشية بلا رعية — أما (الريحانيات) فهى مواعظ هذا الحبر

اللاطقسى لا يحيد فيها قيد شعرة عما رسمه فى مجمعه الأول . وقد أعلن ذلك ، أو جدد نذره ، بعد ثلاثين عاماً ، حين طبعت ثانية قصة « المكارى والكاهن » فقرر متابعة هذه الحرب العوان التى قامت طول الحياة بدون هدنة تذكر ،

ثم دامت إلى أن أذن الله لهذا الجندى بالإجازة الأخيرة ، وقد أجيز كما علمنا فى ١٣ أيلول عام ١٩٤٠

لا بدع إن ظل صاحبنا يناضل فى هذا الجلاد ، فهو يرى الثبات من الفضائل العظمى كما قال حين مات زعيم المذهب الداروينى فى الشرق : « مات شبلى الشميل ثابتاً لا شك فى اعتقاده ، أو عدم اعتقاده ، وأمره فى الآخرة لربه » .

نشأ الريحانى على كتف ذلك الوادى بين ذراعى والدة صالحة حصان ، اتقد قلبها إيماناً فشع فضائل دينية لا تعرف الحدود ، وبعد امتلاء رئتيه من هواء ذلك البيت العامر بوصايا الله العشر ووصايا الكنيسة السبع تنشق هواء أنقى تحت الزيتونة عند خورى الضيعة . ولعله الخورى يوسف يواكيم الذى تخيله أمين فى قصته « المكارى والكاهن » ، فهداه الصراط المستقيم مكافأة عن جميله ، فمات المسكين فى مغارة قزحيا ، حيث منح الشهادة الفلسفية الكبرى ممهورة بطابع ذلك المعهد ، مداس أبى القاسم الطنبورى .

أما حب الطبيعة الذى تعج به الريحانيات فغرسه فيه ذلك المحيط الواسع الطليق حيث قضى اثنى عشر عاماً تناجيه الطيور الفصيحة من الحسون وغيره فتنسيه غطرسة معلمه القسيس . ركب الولد رأسه فهام بين أشداق الصخور المتبسمة عن الزهور البهية الذكية ، فرأى فى حضن الطبيعة جمالا دونه وجه معلمه الكالح . وقد يكون هذا هو الذى دس فى نفسه تلك البغضة للطقوس التى بشم منها صغيراً ، فثار عليها كبيراً ، ورب أكلة حرمت أكلات .

إن ما لمحته فى الريحانيات يؤكد لى هذا ، فحافظة أمين محشوة عبارات طقسية تراكمت فيها حين كان العلم كالنقش فى الحجر ، ولكن حجر أمين كان رخواً . . . فامحت المعانى وبقيت الألفاظ رغماً من التكرار الذى يزعم غوستاف ليبون أنه يصير الصدق كذباً . أما أنا فأرى أن الريحانى ، وإن حمل على الطقوس حملاته العنيفة ، فهو يعمل مثلها إنما بصورة أخرى ، أى أنه يمثل الرواية عينها ولكن على مرسح فى الهواء الطلق ، وهذا صحىّ أكثر . . .

يخبر أمين أن فى عروقه شيئاً من دم العرب ويعترف بعرقه الفينيقى بخطبة فى صيدا . ثم يرى فى كتابه ملوك العرب أنه عربى أميركى إنكليزى فى شخصية لبنانية . وكل هذا التنوع ، بل

كل الذى صادفه من إعظام وإجلال فى عواصم الدنيا لم ينسه الفريكة ولبنان .

أما كيف ضيع الفيلسوف إيمانه وشك منذ حداثته ، فإليك ما يقول فى ذلك : « وأذكر أنى صليت مرة فى نوبة غضب وحسد ، فدعوت بالموت على ولد سبقنى إلى نقطة مستحبة تظللها صخرة ، وقد نبت فيها طيب البنفسج الغزير . وما هو إلا أسبوع حتى انتشر الجدرى فذهب بحياة ذلك الولد رفيقى فى اللعب . فنقمت على القديس لأنه استجاب طلبى . وآليت على نفسى ألا أصلى له بعد ذلك وألا أجمع الأزهار باسمه . لأنه إذا كان قد سمع صلاتى ، فما أحراه أن يسمع منى أيضاً صوت الندامة » .

أفلا يستوجب ما رواه لنا الأمين أن نعده فى الأبرار والصديقين ونذكره فى الطوباويين ولا سيما بعد أن بكر فى اجتراح العجائب . . . فقتل بمعونة قديسه وشفاعته طفلا بزهرة ! ! ليتك تماديت يا عزيزى فى صلواتك الحارة المقبولة لتمحو بها العالم بعناية قديسك السميع المجيب . . . إن فيك يا أخى شرارة متقدة ، إذا ما أخمدت قلبها اشتعلت أطرافها وهى التى قولتاك : « أسفى على امرئ يدب حول جذور الدين فى قيود من الإيمان صدأى » . دنت بالحب العام فرأيت ناره طاهرة مطهرة ،

وسمعت ، وحدك ، جوزة أفقا تناديك « وإن رقاع الإيمان مثل فلس الأرملة » ولكنك أنفت من هذه الرقاع فقلت : « وإن كان ثوبى مرقعاً ، أو عقيدتى مرقعة ، فلا بد أن تأتى ساعة أنسى فيها نفسى فيزول انتباهى ، فتبدو ذلّتى » .

وقد تقول أيها القارئ ، بعد كل هذا : وما اعتقاد أمين ؟ فأجيبك : أن اعتقاده كمعتقد أكثر الناس ، والخلاف قائم بينه وبين مكفريه على الدرب لا على الطاحون ، الفرق بينه وبين مكفريه أنه يرد الأمانة عيناً ، ديناراً بطغرائه ونقشه ، والصيارف يريدونه « فرطاً » ليعلق بالكيس منه شيء وإلا فما الفائدة . . . يريد أمين أن يتصل بالمعمل تواً ، أما أولئك فيأبون أن يكون شيء له من هذا بدون واسطتهم .

يقول لنا أمين : «وأما دين أجدادى فقد كان فى جيب قبائى يوم ركبت البحر مرتحلا ، ولكنه يقول أيضاً : السير فى شوارع المدن الكبرى يذكر الإنسان بالإنسان ، وأما السير فى الوادى أو الغاب فيذكر السائر بالخالق العظيم » . أما خلود النفس فيقول فيه : « نعم أنا على يقين أن الفكر لا يموت والنفس لا تفنى » . وفى أثناء كلامه عن الشميل أيضاً يصرح : « ولا ريب عندى أنه سيكون من المقربين إذا آمنا بما أنزل فى الكتب المقدسة . بل إنى على يقين أنه أسعد حالا اليوم — ولا علمية

لمن كان مصباح هدى فى الناس — مما كان بالأمس » . أليس لمثل هذا القول استحق أرسطو الوثنى لقب المعلم الإلهى ؟

أما صلاة أمين المؤمن فطويلة وإليك شذرة منها : «أبانا الذى فى السماوات كن معى فى الحياة وفى الممات ، وإذا زدتنى قوة فزدنى يا رب تواضعاً ، ولا تمت فى فضيلة إلا لتحيي فى أخرى . أنت منحتنى عقلا لأفكر ، فإذا فكرت قليلا فلا تلمنى — إن وكلاءه الجبريون يلومون — خذنى بحلمك الواسع يا رب ، وإذا طلبت منك الرحمة لعبادك فى أرضك فاستجب يارب طلبتى » .

وله صلاة أرفع من هذه كان يصليها فى الصحراء وقد جاء فيها : « إنك إلهى ولا إله لى الآن . وقد أجابه إلهه كما يقول : «أنى نبض الحياة فيك ، وروح الحب فيك ، ونور الحكمة فيك . كن عليها أميناً فهى الألوهية ديناً ويقيناً) .

فالريحانى إذن مؤمن كبير حتى فى ليالى شكه المدلهمة ، لأنه لم يجحد المحرك الأول قط فقال فى شعره المنثور يخاطب أخاه الإنسان : «فى وفيك سر أبدى عظيم ، لايكشف الحديث من العلم عن غامضه ولا القديم . الجرذان فى قبوك لا يعرفون إذا كان القبو ثابتاً إلى الأبد أو إلى حين . لا يعرفون من شيده ولماذا ، إنما هم يعيشون فى زاوية منه ، فيضاعفون نسلهم ويضاعفون بذلك عذابك » .

وأما الشياطين ، وهي عقيدة جوهرية جداً ، فيقول فيهم أمين : « ليس هنالك شياطين غير بشرية ، وعالم الجن هو عالم الوهم والخيال » . وأخيراً يلخص أمين دينه بهذه الكلمة الواضحة : « لا دين لي اسماً ورسماً ، ولكني أعتقد بالله أبينا أجمعين وأعتقد كذلك بالإخاء البشري » .

فما تقدم يتضح لنا أن الريحاني هو عدو التقاليد لا عدو الله والبشر ، كما يحاول أن يقنعنا نفر من الناس . أن اعتقادي الراسخ بالله هو من تلك التركة التي أورثته إياها الأم ، وهذا الميراث لا يزول منا حتى تزول ذواتنا .

يقول علماء النفس : إن الإنسان يتفلت من قيود الدين في دور المراهقة . وحسب تحقيق الأستاذ باز كان أمين في هذا الطور حين ترك دين أجداده على المرفأ في جيب قبائه كما صرح لنا . . . فشكراً لأمه الصالحة التي لقنته تلقيناً لا إكراه فيه ولا رعب ، حب الله والإيمان به . فليتعظ المربون وليعلموا أن الدين لا يعلم بالعصا . وكيفما كان شأن الريحاني فهو ذو عقيدة ثابتة وليس كالذي نظم في رباعياته خطرات أفكار الفلاسفة شعراً . إن للريحاني معتقداً ما حاد عنه قط ، وقد لخصه الشاعر العربي بقوله :

كن كيف شئت فإن الله ذو كرم   وما عليك إذا أذنبت من باس

إلا اثنتين فلا تقربهما أبـــداً الشرك بالله والإضرار بالناس

أما ما يعتقده أمين فى قصيدته المنثورة « ربة الوادى » ، وخصوصاً فى النشيد الخالد الذى نظمه فى رثاء ابن أخته الطفل فأشهد أنى عجزت عن فهمهما . تراءى لى أمين فى القصيدة الأولى أنه أقدم من الهيولى ، ولعله من لدات الله ورفقائه فى المدرسة . . . . وقد كانا يتنزهان معاً على وجه الغمر حين كانت الأرض خراباً يباباً . إنه وجد منذ الأزل وسيكون بعد الأبد . ولعلها شطحة صوفية مرت فى سماء حياته مرور النيزك فى ليالى الصيف .

وأما قصيدته فى ابن أخته ففيها من هذه الطلاسم والعقد المنفوثة ، ولكنها تفهم بعد إعنات الروية ، لقد تكلم فيه وجدان شاعر كبير أبرز لنا كلامه فى ثوب بهيج منمنم ، وهكذا صار ذاك الطفل خالداً بلا جد ولا كد :

فديوان ربك هـــذا الوجـــود وفيه السخيف وفيه البديع
وأنت ابن أختى بيت القصيد وخالك شاعر رب الربيــع

صدقت يا أمين ، فما قصرت أبداً عن جون روسكين ، فأنت شيخ مشايخ شعراء الطبيعة عندنا ، لقد خلدت وخلدت كما خلد شكسبير (صاحبه) المجهول .

فمن هذه النوافذ التى رأيت خلص أمين إلى مقاومة التعصب

الذى رآه شر الآفات فى أمة تشعبت أديانها وتفرقت . كان لا بد من حملاته المعهودة على الفئة التى هى ملح الأرض ، فكانت الحرب بينهما سجالا . فكل ما كتبه فى الريحانيات تفوح منه هذه الرائحة ، تارة بالتهديد والتقريع ، وطوراً بالسخر والهزء ، وأحياناً بالتهكم ، وآونة بالتصريح والغمز . مساكين (أباؤنا) رجال الدين فهم لا يكرهون جميعاً ، ولكن القضية عند أمين قضية حرب وجهاد ، فهو لا يستثنى من المعسكر أحداً : إنها الحرب.

تذكر أننى قلت لك إن الريحانى من كتاب المعارك ، وأسد كلام عرينه المنبر ، يهاجم منه خصومه فيبغتهم ، ثم يدعهم وشأنهم كالمصعوقين ، وفى كل مقام له مقال يثار حوله الجدال . اسمع ما جاء به أمه — وأمه أمته — عند عودته أخيراً إلى « أبرشية الفريكة » :

« قالت الأم — وما الذى جئتنى به بعد هجر طويل من البلدان التى سحت فيها ؟ .

— جئتك بسكينة الدهناء والنفود ، تلك التى تملأ النفس ورعاً وخشوعاً ، فتزول منها الهواجس كلها والهموم .

— لا تنفعنى يا بنى ، لا تنفعنى .

— جئتك بقناعة البدوى ومروءته ، بشجاعة البدوى وحريته ، باستقلال البدوى واطمئنانه .

— لا تنفعنى يا بنى ، لا تنفعنى .

— جئتك بالشمم العربى والإباء ، ببساطة العيش وكرم الأخلاق ، بالجرأة والبطولة فى الشدة والرخاء .

— لا تنفعنى يا بنى ، لا تنفعنى .

— جئتك يا أمى ، بفكرة سامية من المدينة الأوربية — العمل الصالح أصح الأديان — وجئتك كذلك بحرية الفرنسى فى ثورته ، ونشاط الأميركى فى عمله ، وبإيمان الأحرار أجمعين بالحياة والناس .

لا تنفعنى يا بنى لا تنفعنى .

— وماذا تبغين يا أماه ، يا روح الأمة التاعسة الحزينة ، ماذا تبغين ؟

— رءوس الإله الذى رأته عيناك — إله التفرقة والتعصب والشقاق ، لا أبتغى اليوم سواها » .

— ٢ —

وبعد تلك الجولات والحملات ينغمس أمين فى المعركة حتى يستولى على الأمد . كان قصاراه أن يتساهل رجال الدين مع معادليهم فى المذاهب ، ثم سولت له النفس أكثر من ذلك .

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

هكذا قال شاعر البردة ، وهكذا نرى الريحانى ، فتطور واتجه صوب العمل المجدى فصاح بلسان الشرق ، فى مصر ، يوم أقيمت له حفلة تكريم فى سفح الأهرام :

« أنا الشرق »

عندى فلسفات ، وعندى أديان ، فمن يبيعنى بها طيارات .

أتحسبها سفاهة منى ، أو تظنها تجديفاً .

قد يكون ذلك قد يكون .

وهناك سر أهمسه فى أذنك يا فتى الغرب .

ليست الأديان والفلسفات ما تظنها .

وليست ما تظن أنى أظنها .

فلا للحراثة هى ، ولا للتجارة ، ولا للسياسة ، ولا للتقشف .

إنما الأديان والفلسفات كمصافى الماء .

هى مصافى الحياة ، تصفيها فى الأقل من بعض الحشرات والجراثيم . »

فأثار هذا الكلام معركة نقد حامية الوطيس ، فقال فى ذلك أمين : « والعجيب الغريب أن ذكاء بعض الأدباء والشعراء كبا كبوة عند هذه الكلمة التمثيلية ، فاستعاذ بالله من طمطمانيات الشعر المنثور ، واعتصم منها بشىء من الأدب القديم العقيم ، وبأشياء من السخافات فى النقد والمبتذلات » .

ولم تكن هذه المعركة بدون تطور سابق ، فقد سبقتها هذه الكلمة فى صيدا : « الكتب المقدسة تصلح الحياة ولكنها لا تعمر البلاد ، والعلوم المادية تعمر البلاد ولكنها لا تصلح الحياة . إذن كتبكم المقدسة احفظوها ، وكتب العلم عززوها » ٧٦–٢.

إن الريحانى من المؤمنين حتى اليقين بعجائب التطعيم ، ولهذا قال يخاطب تمثال الحرية النيويركى :

«متى تحولين وجهك نحو الشرق أيتها الحرية » . وبعد نجوى قصيرة خاطب البواخر من على جسر بروكلين صائحاً بها : «خذى، خذى معك ولو زجاجة صغيرة من هذا الماء المقدس ورشى منها سواحل مصر وسوريا وفلسطين وأرمينيا والأناضول ، احملى إلى الشرق شيئاً من نشاط الغرب ، وعودى إلى الغرب بشىء من تقاعد الشرق . احملى إلى الهند بالة من حكمة الأميركان العملية ، وعودى إلى نيويرك ببضعة أكياس من بذور الفلسفة الهندية ، اقذفى على مصر وسوريا بفيض من ثمار العلوم الهندسية ، واقفلى إلى هذه البلاد بفيض من المكارم العربية .

أيتها البواخر الآيبة حيي عن جسر بروكلين خرائب تدمر وقلعة بعلبك ، واقرئى أهرام مصر سلام هذه المعالم الشاهقة المشعشعة بالكهرباء ، سيري أيتها السفن بسلام وارجعى بسلام ».

ألا تهب عليك من بين هذه السطور نفحة من نفحات أنبياء التوراة ، المبشرين بالويل والثبور . . . . . . ولو قرأت الريحاني بحذافيره لرأيت خيرات كثيرة ، إنه فى مكان آخر يصيح بأم ناطحات السحاب ، ويسمى بناتها دمامل الأرض ، وأخيراً يهتف بمدينة الدولار: «يا نويركايم يانويركايم .ليذكرنا بصرخة السيد المسيح ، يا أورشليم يا أورشليم » . . .

والغريب من أمر هذا الرجل أنه صريح قاس يشتم سامعيه ولا يبالى كأنه نبي له سلطان ، فهو يريدهم أمة تجمع بين فلسفة الروحيين وفلسفة الماديين ، يريد لقومه حياة تعظم فيها قوة الجسد وقوة العقل ، وقوة الروح ، فينادى بالمذهب النيتشى الذى توكأ على عصاه الأستاذ الرياشى فى درس نفسية الرسول الكريم . قال أمين : «وقد يأتى يوم يشاهد فيه أبناء الأرض رجل المستقبل العظيم ، وقد ترقت فيه القوى الحيوية كلها ، أى القوى الحيوانية والبشرية والإلهية ، إلى منتهى الدرجات ، فالإنسان مركب من هذه القوى كلها وهى كامنة فيه إلى الأبد . نعم إنى ممن يعتقدون بالنشوء والارتقاء ولا حاجة إلى أن يؤيد العلماء اعتقادى ، فإنى لمؤيده بما أعرفه وبما أجهله من لوح هذا الوجود » .

ولصاحبنا تنبؤات سياسية صريحة نجدها فى الصفحة

١١٥ وما يليها من الجزء الثانى من ريحانياته وهى تدل على بعد نظر الرجل وشدة إيمانه برسالته القومية التى عاش لها ومات عليهـــا .

لست أدرى كيف أطبق بين قوله : « أحب أن تشع حياتى ولا أحبها أن تفرقع . أحب أن تكون كأحد الكواكب السماوية كسهم من الأسهم النارية » وبين قولى إنه من كتاب المعارك . فما قولك ، هديت وإياك ، فى هذا الحل الوسط وهو أن صاحبنا يفرقع ليدوم إشعاعه ، ولهذا آثر أن يكون كلامه « كلام شاعر مفتون لا كلام متصوف مغبون » .

أحب الريحانى الطبيعة فى لبنان عامة وفى أدبه خاصة حبًّا فائقاً ، ولكنه لا يدين بوحدة الوجود ليؤلهها ويندغم فيها إدماغاً لا ينفك . إن داء أمين لقديم ، هذا الداء الذى لا يزيله الاستهواء والإيحاء ، بل هو يشتد حنيناً إلى قوة ضاعت منه فى وداى الفريكة ، فيتبدل أسفه على الشباب الضائع حبًّا غريباً لتلك الصخور العابسة ، فيراها أجمل من الأولمب وأبدع من الأكروبول. ها هو فى مقاله « غصن ورد » يزرع حبه فى سهول الحرية ، فى أنجاد العلم ، على شط نهر الفلسفة ، فى غياض الحضارة وفى حقول التجارة ، فيذوى ويذبل وييبس ، حتى إذا ما زرعه فى الأرض التى نقبها فارس الريحانى أبوه ، وصلت تحت

أشجارها أمه ، على كتف هذا الوادى الذى ردد صراخه صغيراً ، غرسه هناك فنبت ونطق أيضاً . . .

لقد صدق علماء النفس ، فإذا كانت نزهة واحدة جميلة ، كما قالوا ، تجذب الطفل إلى الأبد ، فكيف بمن ينشأ نشأة أمين الجبلية اللبنانية . ولهذا يرى أمين فى العراء هيكلا يوحى ما لا توحيه جميع مبانى الناس « إن فى ورقة من أوراق التوت سراً لا يكشفه اللاهوت . إلى الوادى إذاً . هناك بين أشجار البطم والزمزريق وتحت أدواح الصنوبر والسنديان أشيد هيكل الإيمان . أرانى هناك فى بيتى ، فى بيت الطبيعة ، بل فى بيت الله .

فى ظل القويسة والغار ، وبين الصعتر والوزال الخنشار ، وبالقرب من ضحضاح يشف عن نباتات حية تحت الماء ، وفوق النهر الجارى تحت قدمى هذا الوادى الرهيب ، ابنى لك أيتها النفس هيكلا من الإيمان . يؤمه فى المستقبل البعيد من إخوانى والقريب .

بل أقيم فيه تمثالا للوداد والإخاء . وأدعو إليه كل بشر تحت السماء » .

ومع هذه الدعوة إلى الطبيعة ، إلى دين السذاجة والبساطة فهو يترجى القيامة كالمؤمنين الرسميين تماماً ، وفى هذا يقول

مفتتحاً قصيدة من شعره المنثور كتبها تذكاراً لراحيل دريان :

«على أبواب الجنة تنتظر الأرواح أحبابها ،
بل تنتظر الأحباب أرواحها .
آه على المحبين ، المودعين والراحلين»

وأمين يعلم حقاً أننا مهما تطهرنا من الماضي البعيد ، ومهما تعالينا بهمنا عن الناس ، يظل لنا زملاء وأنداد بين السواد من الناس ، فمن رعيان البقر والمعزى من يفهمما نفهم ، ويزعم ما نزعم ، ولكنه لم يؤت منحة الأنبياء ، فصاحة اللسان وسحر البيان : «إن فى قلبى ، اليوم ، شيئاً من قلب جارى ، وفى قلب الغاب أثراً من أثارى . إلا أن قلبى فى عقل هذا القروى . وعقله فى قلبى الخفى . والذى يراه هو تحت الكلاء أراه أنا فى السماء» .

اليوم وكل يوم يا صديقى ، فمهما انتفضت وتنصلت فصبغة أملك لن تفارقك جميعها ، ولهذا رأيت (المسيح خير من تألم فى الحياة ، وجئت الكنيسة — بعد القطيعة — لتردد مع الناس ذكر أمير الناس) وفى إحدى غفلات عقله اليقظ يسأل الريحانى المسيح قائلا :

«سيدى ، دعنى ألقى على كتفك رأسى ، فيذوب تلج فتورى ويأسى»

ألا ترى مثلى أنه يريد أن يكون يوحنا ثانياً ، ففيه حيرة

لا يكاد يعتق نفسه من عبوديتها حتى يجده فى أغلالها ، فهو كمن تسوقه عاطفته إلى حيث لا يريد ، ويتم كلامه عما فى نفسه الخفية ، وهو يظن أنه ألقاها عنه كصحيفة المتلمس ، وإليك الختام :

« وبينما أنا أكلمه — الضمير يعود إلى المسيح — فى البستان أطل البدر من شرفة لبنان ، فتركنى ذو الجلال مكانى كالخيال ، وذاب فى القمر فوق الجبال » .

فما تقول فى (ذو الجلال) أليست من فلتات العقل الباطن. إذا كان الله يطلب كما علم السيد المسيح : يا بنى اعطنى قلبك ، فصاحبنا أمين طوباى من طغمة الأبرار والصديقين ، فالعقل الخفى كالكنيسة البطرسية التى لا تغش ولا تغش . . .

إن فيلسوف الفريكة لا يجحد شيئاً ، فمن آمن بالله واعتقد أن للجنة أبواباً تدخل منها الأرواح وتنتظر أصحابها عند أبوابها لهو مؤمن كبير يستحق التعظيم والتبجيل . وإذا كان الريحانى قد حارب طقوساً فهو قد دعا إلى طقوس ، إنه لا يريد الإنسان هملا ، يريد كالمسيح هيكلا لا بيع فيه ولا شراء . يريد أن يكون رواقياً من المشاة ، لا أكاديمياً على المقاعد الثابتة . . . يريد أن يحيي العبادة فى برية جنشار ، وعلى بحيرة طبريا ، وفى ضواحى المجدل . وهذا يثبت لنا أن صاحبنا يحاول أن يفلت

فيقبض عليه عقله الباطن ، وتنتصر الملكات والعادات المغروزة في أعصابه .

قال غوستاف له بون: « لا يقدر عالم على الافتخار بأنه خرج من دائرة المعتقد خروجاً أبدياً . إن حب الاطلاع على الأسرار والاحتياج إلى التدين ، وأمل الحياة بعد موت ، مشاعر قوية لا تموت أبداً . »

أما صاحبه جبران — والريحاني سابق — فقد تنصل من الطقوس كافة في (نبيه) فلم يوص بالصلاة ولا العبادات لا في الوادي ولا على الجبل ، لم يتخذ له كاهناً لا الحسون ولا الدوري... وكلا الرجلين العبقريين خطب بنت المسيح الصغرى التي اسمها محبة . ومن آمن بالمحبة دان بدين البشرية الأسمى . ومن هنا انحرف أمين إلى الاجتماعيات فنادى الشرقيين جميعاً : فليحب بعضكم بعضاً ، اتحدوا .

وأمين ، حتى في اجتماعياته ، عاطفي المنطق كرجال الدين يخاطب الوجدان لا العقل ، فكأنه يعلم أن الجمهور يفكر بقلبه ، وهكذا كان يستولي على الجماعات ويقنعهم إلى حين في غفلة من الملكات والعادات والتقاليد ، حتى إذا تحول عن تخومهم لحقت به تعاليمه تلك إلى أبرشية الفريكة . . .

* * *

لست أزعم أنني أحطتك علماً بالريحاني ، ففي ريحانياته خير كثير . إنها كما قلنا سابقاً ، أشبه بحصن أعد فيه صاحبه عدداً وعتاداً منها القديم ومنها الحديث ، من زمن اليونان والرومان إلى عهد الإنكليز والأميركان . . . أذيق طعم الأبعاد فتألم ، ولولا العجوز بمنبج ما خاف أبو فراس أسباب المنية . . . إن محبة أم أمين فرضت عليه الهدنة فسكت حيناً ، وهو الرجل الضرب الذي عرفناه في معلقة طرفة ، ولسانه أمضى من سيفه الذي إذا قيل مهلاً قال حاجزه قد .

أما الأسلوب ، فأسلوب أبي الشعر المنثور له ، ولا يد لغيره فيه ، وبه غزا العالم العربي فترة من الزمن ، فكان في كل قطر حلت ركابه كالمنارة فتتجه إليه أبصار الشعب وملوكه ورؤسائه .

إن أسلوب الريحانيات يفيض شاعرية وإن شابته ، أحياناً ، ألفاظ مرصوفة مرصوصة . وجمل قد تموت عند سماعها من الضحك ، وتؤمن لأجلها بالبعث ، إذ تراك تسمع لغة شق أنمار وسطيح .

في الريحانيات لونان من الأدب : لون ، وهو السواد الأعظم ، يغلب عليه الويل والثبور ، لون يكتسي صبغة نبوية . ولون

آخر فيه من سحر هاروت وماروت شيء كثير ، وهو الناحية الشعرية من أدبه .

في اللون الأول يلبس أمين فرو عاموس ، وفي اللون الثاني عليه طيلسان مطرز موشى بالأزاهر التي لم يلبس سليمان يوم عرسه كواحدة منها .

إن الريحاني ذو خيال واسع ونفس يتنازعها المرح والازمت . سخر كلذع الزنابير ، وهزء كلسع العقارب . أما التهكم الذي ترتاح إليه نفسك فلا تجده في « الريحانيات» أنه في « رحلات » أمين تلك الكتب الفريدة في أدبنا ، والتي بينها وبين كشف المخبأ ، والواسطة في معرفة أحوال مالطة أقرب النسب . الريحاني في هذه الرحلات واحد دهره بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فهو في رحلاته التي سأحدثك عنها قصاص ومحدث لبق أوتي من قوة الإبداع البياني شيئاً كثيراً .

أما « اللحن » في إنشائه ففاش في « ريحانياته » وقد قل في كتبه الأخرى ، وندر وقوعه في رحلاته. الريحاني في كتبه الأولى يقول لقدر القوم قدغليت ، ولباب الدار مغلوق ، وحد أبي الأسود جهنم . . . قد يجر المثنى بالألف ويرفع الحال ، ويخفض التمييز ، ويصوغ المضارع على هواه ، ثم لا يضن بالتنادر على شيوخ النحو واللغة ، ويتهكم بهم وبأنصارهم تهكماً مراً . . .

فلو كان صديقنا أمين فى عهد عبد الملك بن مروان الذى قال لخالد بن يزيد : أفى عبد الله تكلمنى ، وقد دخل على فما أقام لسانه لحناً ، لما دخل عليه كما دخل على الحسين وابن سعود ، وفيصل وغيرهم من أصحاب الجلالة ..

إن الريحانى معذور فحسبه ما حصل . فهو أستاذ نفسه كما نعلم. إن كتبه لاتحتاج إلى تصحيح عنيف فأخطاؤه نحوية صرفية ليس غير . وجل من لا عيب فيه — كما يقولون .

أمين الناقد

إن النقد هو أبرز سجايا أمين الريحانى، فهو ناقد اجتماعى فى خطبه ومقالاته ، فى كتب رحلاته وفى رواياته ، وقلما خطت تلك اليد المتمردة حرفاً يخلو من نقد ، وقلما تحدث إلى الناس ولم يكن للنقد المكان الأول فى حديثه . وهو أيضاً ناقد فنى للرسم والتصوير ، فإذا شئت معرفة قدرته عليه فاقرأ تلك الفصول التى عقدها حول الفن الإسبانى فى كتابه « المغرب الأقصى » .

أما النقد الأدبى فقد كتب فيه فصولا طريفة فى كتابيه : «ملوك العرب وقلب العراق» . كان الكتاب يبعثون إليه بما ينشرون من كتب فيبدى رأيه فيها . ولما تكاثرت الظباء على خراش طبع

أمين رسالة كان يملأ ما فيها من فراغ باسم المؤلف واسم كتابه ، ثم يوجه تلك الرسالة — الكليشه — إلى أصحاب الكتب التى لا تستحق الاهتمام . أما الكتب التى يؤبه لها فكان يكتب إلى أصحابها مناقشاً منتقداً ، وهو فى كل هذا ساخر ماكر . . . لم يقع فى يدى شىء من تلك الرسائل لأنقل إليك أيها القارئ العزيز شيئاً منها ، ولهذا أثرت أن أنقل بعض نماذج من نقده لشعراء العراق ، وفى هذا النقد يتناول الريحانى شخصية من ينتقد بتصوير كاريكاتيرى . قال فى أحدهم .

« هو فى السبعين من سنه الزمنى ، وفى العشرين من سنه الشعرى . وهو فى المصائب أبوها وخالها . على أن السنين والعرج والدرد لا تفل من عزيمته ، ولا تؤثر على نشاطه ، ولا تجرؤ أن تدنو من صوته وقلبه وروحه . فإذا كان لا يستطيع أن يقف كالرمح فإن فى نبراته رماحاً ، وفى نظراته شراراً . يحسن المجون فيضحك حتى الجائع فى جنازة ، ويسترسل فى الشجون فيبكى حتى إبليس . له لهجة الأنبياء وما يصحبها من آيات ، ومن آفات . . . وله فى التجديف لفظ شريف ، وفى التهكم كلمات تبكم . فهو يفتل ألحاد الخيام بشكوك المعرى ليصنع منها سوطاً لشيطانه ومطية لبيانه .

إن للزهاوى آثاراً شعرية نفيسة ، وأنفسها فى نظرى وأحقها

يطول البقاء قصيدته أو ملحمته (ثورة فى الجحيم) . فكأنه ، وإن اقتفى فيها أثر شاعرين عربى وغربى ، دانته والمعرى ، ليقف فى التقليد عند الفكرة الأصلية الأولى ، فهو يختلف عن المعرى فى رسالة الغفران وعن دانته فى الكوماديا الإلهية فيطرق الموضوع من باب جديد ، وقد جاءه — أى الموضوع — كمسلم مشكك فى إيمانه ، وجاء فيه باللطائف والطرائف الفكرية والخيالية . »

وبعد أن لخص أمين موضوع « ثورة فى الجحيم » ووصف جبن الشاعر أمام الملكين منكر ونكير قال ناقداً : « فلا عجب إذا جبن وارتاع وفقد حتى لغة الشعر فنطق بالنثر المنظوم . . . » ثم دل على ألفاظ النثر المنظوم وعد منها — لسوء حظى — و (فيه بثور) قائلا : « إنها من مألوف النثر بل من الحشو أيضاً . أما الوصف فلم ير فى وصف الزهاوى للجحيم شيئاً جديداً » بل جاء « وصفه للجحيم والنعيم وصفاً تقليدياً ، صوره دكناء واستعاراته بائخة » .

وقال فى الشيخ رضا الشبيبي : « ومع ذلك فهو لا يزال فى قيود اختارها لنفسه ، هى قيود التقاليد أو بعضها فى الشعر والدين. فإن كان قد نفض غبار النجف عن جبته ، وعنكبوت النجف عن عمته ، فهو لا ينبذ ، — ولا أظنه يستطيع أن ينبذ — من عقله

ومن قلبه ما ورثه الشيعي العربي من الأجداد ، أي الإرث الشعري الأدبي الديني . وهذا ما يميزه عن الشعراء الآخرين . فقد يكون أفق شعره دون آفاقهم اتساعاً ، وقد يكون خياله مثل صناعته الشعرية من المقلد المألوف ، ولكنه شديد الحس ، صادق اللهجة ، نقي الفكر ، نقي العبارة ، مع شيء فيهما من التجهم والقساوة ، شاعر تقليدي يحترم الماضي ، ويتورع للحاضر ، وينظر إلى المستقبل بعين الرضا والاطمئنان ، وقد يعد ، وهو ضمن دائرة محدودة وإن ضاقت ، من المتمردين .

في مجموعة متسلسلة من الشعر أشبه بملحمة وجدانية تتجلى روح الشبيبي في نضارتها ومتانتها ، وفي يقينها وحيرتها ، فهي تحلق في سماء الخيال والحقيقة حول رواسيهما العالية ، فتثب من قنة إلى قنة ثم تعود سليمة آمنة إلى بستانها في (الكرادة).

وأخيراً قال في صاحبنا النجفي : « هو طير ولا كالأطيار ، له منقار البومة وصدر الورقاء ، وجانح الهدهد ، وذنب الطاووس وله في الشدو هديل الحمام وصفير البلبل ، وعندلة العندليب ، هو طير غريب يدعى بين الناس بأحمد الصافي ، ويعرف بالشاعر المجدد والشاعر البائس .

ولد في النجف الأشرف يوم كان الحسن الخلق والصحة والنعمة تنثر كلها في الكون الأعلى ، فما رمقته بنظرة ساعة

الولادة ، ولا دنت بعد ذلك من ملعبه ، أو من رحله ، أو من كوخه .

تنقل من كوخ إلى كوخ ، ومن بلد إلى بلد ، ومن مستشفى لا يشفى إلى مستشفى لا يرحم ، وهو فى كل أحواله مجهول غريب . كان يدعى عجمياً فى النجف ، وعربياً فى بلاد العجم ، أقام بين البدو فظنوه من الحضر ، وجاء سورية فظنه أهلها من البدو .

إنه لطير غريب عجيب ، يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما ، وهو كما ألمحت وليد برج النحوس . فالدمائة أمه ، والبؤس أبوه ، والسقم أخوه ، والفقر ابن عمه . أما الروح منه فسليمة قوية . »

وتذكر الريحانى بهذه المناسبة حملته على الشعر الباكى فقال :

« فإذا نحن حملنا على الشعر الباكى الذى ألفه شبان هذا الزمان ، فإننا نحمل على التعمد والتعمل والتخنث فى الشعر الباكى ، نحمل على دموع الزور وعلى دموع الخوف والجبانة ، وعلى دموع الشعراء السوداء ، المكونة من الحبر المزوج بماء العواطف الآسن . أما دموع هذا الشاعر فهى مثل اسمه صافية ، ومثل نفسه صادقة . وهى من نفسه ومن قلبه ، لا من حبر شعره وتبره .

وبقى أن أقول كلمة واحدة فى آفة له شعرية تكاد تكون آفة الشعر العربى وخصوصاً فى هذا الزمان — أى الإسراف فى الخيال ، وفى الألفاظ ، وفى المعانى . فالصافى غير صاف فى عقلياته ، وما هو فيها بالمبتكر المجدد ، وكذلك قل فى قصائده الوطنية التى قلما تمتاز عن شعره من سواه . »

هذه فقرات من نقد أمين الأدبى أرجو أن تقدم للقارئ صورة عن هذا الكاتب الفذ الذى عالج مواضيع كثيرة فى أغراض مختلفة وكان فيها جميعاً بارز الشخصية .

الريحانى المجاهد

عاد الريحانى من أمريكا أول مرة ، ولا ثروة له إلا شهرة عاش مغبوطاً بها . عرفته أثاره العربية ببنى أمه ، وعرفه أبو العلاء بالأمريكان والإنكليز إذ ترجمه إلى لغة شكسبير . أضف إلى هذا شعره الإنكليزى الخاص وتآليفه التى خطها قلمه بلغة وطنه الثانى . فكان بيته فى الفريكة محجة للأدباء من غربيين وشرقيين يحجون إلى تلك الصومعة فيرون ناسكها الذى يهجرها إلى بيروت متى قرصه البرد ، وإلى نيويورك متى قلّ الزاد . . . يحمل إلى صحف لندن ونيويورك ما يكفيه أجرة مؤونة العيش حيناً فى الفريكة فيلسوفاً وناسكاً وشاعراً وأديباً ، وسياسياً وعالماً ، يراقب الدنيا عن كثب فيأخذ منها مادة المعرفة ليخرجها فى خلوته صورة طريفة مبرقشة ببيانه الناعم .

نصب الريحانى ميزانه فى الفريكة فوضع الصوفية فى كفة ، والعملية فى الأخرى . لا ينظم لحسون الوادى وشحروره قصيدة

حتى يعد قنبلة من ذوات الأطنان ليلقيها فى بيروت أو إحدى الأساكل ضارباً بها حشد آفاتنا وجموعها . كان معمله فى الفريكة يصدر إلى الصحف محصولات متنوعة بعضها روحانى يخدر وينوم ، وبعضها عملى يثير ويهيج . فبينا ترى الشاعر يسبح فى عالم الخيال فيطرب ويسكر ، إذا بك تراه يناضل فى دنيا الواقع . يهاجم حصون التقاليد المنيفة ليدخلها عنوة . وبينا تراه مائعاً فى صوفيته اللامتناهية ، حتى تحسبه أحد الأقطاب والأبدال ينادى ربة الوادى بأغانى وأهازيج كأنها اللغو والثرثرة ، إذ به فى المدينة يقف مؤنباً وموبخاً هذا المجتمع ليهديه النهج السوى المؤدى إلى الحياة المثلى ، ناشراً بين قومه ما يرى فيه تقويم اعوجاجهم . رآهم غرقى فى اللجج الروحية فأيقظهم ، ولكن بمنخس لاذع ، وسوط قارص واصفاً لهم « المدينة العظمى » التى يرى فيها الحياة المثلى اللائقة بأمته .

ثم يترك المنبر ليتحول عن المدينة عائداً إلى عزلته يفتش عن حكمة جديدة ويعد قذيفة أخرى تكون « غب الطلب » . . أما كفاه حياة فى الغربة بين شعب لا يعرف معنى السكينة والهدوء والراحة والجمال ، أما عاش طويلا « بين قوم يأكلون ماشين ، ويقرأون آكلين ، ويعدون النقود راكضين ، ويعبدون الأوثان نائمين قاعدين ؟ » .

فكما تتناوح الرياح فتهب صباً مرة ، وجنوباً تارة ، وشمالا أخرى ، هكذا ترى عواطف الريحانى فى تفاعل مستمر ، ولكنها لا تتحول عن قطبها الذى ستراه . ما رفع علمه على قبة فلسفته برهة حتى قوض الخيام وآذن بالرحيل ، إلى بلاد الدولار . لم يخص أمريكا بحنين ولكنه كان يؤمها مكرهاً لا بطلا . يحمل إليها إنتاجه بلغتها فتمد له أسباب حياة مطمئنة تحت سماء الشرق التى فتنته صغيراً وشب هواه معها .

إن هذا الصوت الخفى لا يبرح يرن فى أذن أمين . وهذه الدعوة السرية التى تنضج وتختمر فى اللاشعور لا تفتأ تدعو الريحانى منذ سنة ١٩٠٨ ، وسيكون لها أعظم أثر فى توجيهه . ففى صدر الريحانى تعتلج عاطفتان : ميل إلى الفلسفة والشعر ، واندفاع إلى العمل المنتج ، ولا بد من أن ينفصلا ويكون منهما الخير الكثير للأمة العربية .

يعتقد الريحانى أن لكل بلاد مزية طبيعية ثابتة دائمة ، وفى كل نفس بشرية شىء من سماء البلاد التى نشأت فيها ومن أرضها . ففيها شىء من تبر وطنها وترابه ، ومن خير هوائها ومن شره ، من فتوره ومن نشاطه ، من هدوئه ومن هياجه . وهذه الأشياء التى فطن لها الفيلسوف قد تفاعلت جميعها فوجهته فى المسلك الجديد من حيث لا يعلم .

إن رجلا كالريحانى يلتهم الكتب التهاماً ليعيش فى بيوت الفريكة المتواضعة كما يعيش فى ناطحات السحاب . فالرجل كان يحيا بعقله أكثر منه بعاطفته . فى صدره طموح يدفعه دائماً إلى المثل الأعلى فيعمل أبداً ولا يمل .

عاد إلى أمريكا وكانت الحرب العظمى الأولى فسد بوجهه باب العود . فعاد إلى جهاده الأول هناك وراح يدعو أبناء أمته بمحاضراته ومقالاته إلى التجند مع الحلفاء ليكونوا أصحاب حق فى استغلال بلادهم متى وضعت الحرب أوزارها . ثم لم يكتف ببث هذه الدعوة فى الولايات المتحدة بل تجاوزها إلى المكسيك فأخرجته حكومتها بناء على طلب حليفتها ألمانيا . ثم كانت الهدنة وإذا بشىء من أحلامه يتحقق هوذا قومه العرب الذين حن إلى صحرائهم وباديتهم أمسوا أحراراً . لهم الملك وبيدهم السلطان فتصور مجدهم الرفيع وعزهم المنيع فأخذ ستار الصوفية ينطوى أمام عينيه ، رويداً رويداً ، انطواء ستار المرسح ، ليظهر خلفه الأبطال الحقيقيون ، وإذا بأمين يهلل ويكبر ويصيح : حىّ على الفلاح .

وأعد نفسه لسفرته المترامية ، إلى زيارة ملوك العرب المستظلين فىء النبوة ، المجاورين للبيت العتيق ، إنها أمنية طالما حلم بها وتاقت نفسه إليها وهيأه لها عقله الباطن من حيث لا يدرى .

فأمين من عشاق الحرية الكبرى بنت البادية وربيبة العرب الغر الميامين . وقد قال فى مقدمة كتابه « ملوك العرب » :

« فى نيتى أن أهجر حتى هذا الوادى ، فى نيتى رحلة إلى البادية ، إلى البلاد العربية ، على هجين يبعدنى عن كل مظلمة وعبودية » .

ولكن تلك الرحلة المباركة لم تكن من ذلك الوادى أخى البادية بل من مدينة نيويورك . أمريكا دعت الريحانى إلى النضال والجهاد ، والشرق دعاه إلى الصوفية ، فلبى داعى النضال وما هجر إلا قليلا من صوفيته . لقح تلك الصوفية بمصل العمل ، وكر إلى ساحة النضال يطبب الأذهان والعقول باسم العلم والروح .

كانت للريحانى رسالة إنسانية عامة يبشر بها فى وطنه قبل الحرب الكبرى ، وما تلك الرسالة غير مكافحة جراد التعصب الدينى الذى عاث وأفسد حقول الأذهان والقلوب ، ما وقف على منبر إلا ليعلم الحرية والإخاء ويحمل على التعصب وأعوانه الذين يفرقون بين الناس لإنماء ثروتهم ونفوذهم ، فهمهم أن يسعدوا على حساب غيرهم . رأى أمين نفسه غريباً فى وطنه الثانى وإن تأمرك ، فتنبهت فيه نعرة الجنسية وطار شرارها ، وظلت تتلظى فى أحشائه مع الأيام حتى رأيناه رحالة يضرب فى مجاهل المسكونة شرقاً وغرباً . ترك الناسك خيمته وجفنته وأبريقه ،

وصار كما قال الشاعر :

كأنمـــا هو فى حل ومرتحل موكل بفضاء الله يذرعه

ولكنه لم يكن كذلك الشاعر المفتون ، بل كان رسولا اجتماعياً يؤدى أسمى الرسالات وأنبلها . يزور أقدس أرض شرفها الله بخاتم النبيين وسيد المرسلين محمد بن عبد الله النبي الأمى الأمين ، صلى الله عليه وسلم .

ها هو ذا أمين فى جدة يتنسم عبير البيت العتيق عن بعد ، ويرى بعينه البقعة المشرّفة التى زحفت منها الموجة الكبرى تقاتل وتمدّن ، وتطهر باسم الله الواحد الأحد ، فحملت مشعل المدنية قروناً عديدة ، وأتمت الثقافة العالمية ، وحفظتها أمانة إلى الأجيال . زرعت فى حقل العمران كل بزرة طيبة ؛ فزها الدين وفاض العدل وأزهر الأدب والفن والعلم على يد أبنائها الصالحين . أولئك هم العرب الأحرار بالفطرة ، وما عشقوا متحضرين غير هذه العروس الجميلة التى خطب ودها الناس فى كل دور . فهنيئاً للفيلسوف الأمين حظه الخالد فهو حى ما دامت الكتب فى كتابه الحى « ملوك العرب » الذى كشف لنا فيه ، بل لكل عربى فى العالم ، حقيقة إخوانه الذين يجهلهم .

ما كان أمين فى كل ما كتب إلا مخلصاً يقول الحقيقة كلها . فبينا تراه معك يعطيك كل الحق إن كنت صاحبه ،

إذا به ينقلب عليك ليردك إلى الصواب إن كنت ضالا . كل هذا ببيان خلاب وأدب جذاب وانتقاد يصلح ولا يؤلم . يعالج ويستأصل على حد سواء ، وهو فى كل حال يرمى إلى الإصلاح

إن لكتاب ملوك العرب أجل قيمة فى أدبنا المعاصر ، فهو يعرفنا ما نجهل عن قومنا ، ويؤكد لنا ما سمعناه عنهم ، وعن أرضهم . يصف لنا العربى وشممه ، وحريته وهممه ، وصدقه وكرمه . يرينا أن الرياء لا يستطيب الإقامة تحت السماء التى ريحها نار ، فما يعيش فى تلك الأرض المرملة غير الصراحة التى يراها المتحضرون خشنة كحياة المتسمين بها — عرب البادية .

إن هدف كتاب ملوك العرب وغرضه الأمثل توحيد كلمة الأمة لرفع راية العرب . فقد وصف أمين فيه ملوك العرب أصدق وصف وأصحه ، ووصف مجاهل بلادهم ، وأبرز لنا ما فيها من مشاهد فتانة ، وحقق لنا ما كنا نظنه حديث خرافة عن « العربية السعيدة » .

إن كتاب ملوك العرب إلياذتنا ، لو كان شعراً ، ففيه يلبس الواقع ثوب الخيال والفن ، فيبرز للناس فتاناً مغرياً . فأفضل تكريم تسديه الأمة العربية إلى روح نابغتها الريحانى هو قراءة كتابه هذا ، والسعى الحثيث لتحقيق آمال مؤلفه المجاهد ، وقد تحقق بالجامعة العربية بعض حلم الفيلسوف

الكبير ، الداعية الأول للوحدة العربية . لقد عاش وطيد الإيمان بفلاح العرب ومات على هذا الرجاء .

رحمه الله ، وحقق آمال الأمة بتحقيق الأمل الذى مات عليه .

ملوك العرب

الريحانى القصصى — حاول الريحانى أن يكتب القصص طويلة وقصيرة فأصاب الهدف الاجتماعى ولكنه ما دنا إلا قليلا من القصص الخالص ، ولم يبرز فى القصة كما برز فى الرحلات ففيلسوف الفريكة كاتب موهوب حسن القص ، وهذا الحسن قد كان رائعاً فى رحلاته ، وسطاً فى قصصه . كان يعنيه المغزى من رواياته أكثر من الفن ، فقصر روائياً فناناً وبرز كاتباً مصلحاً .

كتب أولا المحالفة الثلاثية والمكارى والكاهن ، وتطاول بعدئذ إلى الرواية الفنية فكتب « خارج الحريم » و « زنبقة الغور » و « سجل التوبة » . وفى هذه المجموعة الأخيرة التى ظهرت حديثاً فى سلسلة اقرأ ، انقاد الفن لأمين فى بعضها ولكن القصّ فى هذه جميعها هو دون القص فى كتب رحلاته ،

وخصوصاً كتاب « ملوك العرب » .

ملوك العرب — فلندع الريحانى يحدثنا عما أوحى إليه بهذا الكتاب ، بل بملحمة العرب التى هى نسيج وحدها . قال أمين فى مقدمة كتابه :

« الأجانب يسيحون فى بلاد كانت قديماً ولا شك بلاد أجدادى ، ويخاطرون بأنفسهم فيها حبًّا بالعلم ، فيكشفون منه المخبأ ويجلون المصدأ ، ويقربون البعيد ويغربون فى اللذيذ المفيد . وأنا فى نيويورك كئيب يحمل كتاباً ، ويطرق للمحرر الإنكليزى المتغطرس باباً . أديب شعره طويل ، وصدره عليل ، يسرف من ذهب الحياة فى تسويد المقالات . آلة كاتبة يرقص حولها الهم والأمل متخاصرين . أف لها من زوجة نقاقة ، ومن حديدة لباب الشهرة دقاقة . وأية عبودية أشد من عبودية الآلة الكاتبة وأخبث ! طلقتها ثلاثاً ، وعدت إلى بلادى أعد العدة لرحلة تبعدنى عنها وعن الكتب والمجلات ، والأدباء والأديبات .

وكان لى صديق فى دمشق يجر قيوداً للسياسة ثقيلة فحاول التفلت منها . كسرها ذات يوم فأثار السلطة عليه فصفع السلطة وفر هارباً إلى الفريكة ، فحل فيها أهلا ، ونزل سهلا — سهلا فى القلوب ومنحدراً فى الوادى . أقام محمد كرد على عندنا أسبوعاً عددناه من شوارد الزمان .

الوادى مهد الحرية وحصنها الحصين ، سمعنى صديقى — كرد على — أردد ذات يوم هذه الكلمات فقال : لا تنخدع يا أمين ، الوادى قريب من دمشق ومن بيروت وفى المدينتين للعبودية عبيد ، وللظلم أسياد رعاديد . لا بأس بالهمس : والحمد لله . ولكنك إذا رفعت صوتك تسمعك الصخور فتنم عليك وعلى.

قلت : صدقت ، وفى نيتى أن أهجر حتى هذا الوادى . فى نيتى رحلة إلى البادية ، إلى البلاد العربية ، على هجين يبعدنى عن كل مظلمة ، وكل عبودية .

فهلل صديقى وقال : نسير سوية ، واتفقنا يومئذ على أن نستعين بتجار من نجد فى الشام يمهدون لنا السبيل ويزودوننا بكتب التوصية إلى أهلهم وراء النفود » .

ولكن هذا الحلم لم يتحقق فذهب الأستاذ كرد على فاراً من سورية إلى أوربا ، وعاد أمين إلى نيويورك ، حتى كانت الحرب العظمى وانقضت ، فعاودت الريحانى أحلامه بزيارة العربية السعيدة ، فكان حظ العروبة كبيراً إذا أثمرت تلك الرحلة هذا الكتاب الفذ ، وكان حظ الريحانى كبيراً أيضاً لأنه كتب كتاباً خالداً ومخلداً .

فى هذا الكتاب نثر وشعر ، وفيه فكاهات وطرائف ، وفيه سياسة واجتماع ، وفيه دعوة صارخة إلى تعزيز القومية العربية

باتحاد ملوكها. إنها النواة لفكرة « الجامعة العربية» يوم لم يكن يحلم بها أحد .

ترجم فيه أمين لثمانية هم ملوك أو كالملوك ، بل فلنقل بلغة الريحانى : « ولكنهم ملوك وإن اختلفت الألقاب ، مستقلون بنعمة الله بعضهم عن بعض، وجاهلون شخصياً بعضهم بعضاً . لا تجد بينهم من يعرف زميله الملكى معرفة شخصية خاصة ، أو يعرف من الأقطار العربية معرفة حقيقية تامة غير القطر الذى هو حاكمه » .

ليس فى ملوك العرب اليوم ملك ساح فى البلاد العربية كلها ، وليس فيهم من يستطيع أن يقول : إنى أعرف بلاد العرب وسكانها وحكامها وقبائلها وأحوالها الاقتصادية والـ . .وال إلخ

فى كتاب ملوك العرب وصف بل تصوير نانئ الخطوط للملوك الذين زارهم أمين ، وأحاديثه معهم ترينا نفسية كل ملك منهم ومقدار مواهبه فى كل ميدان . وصف لنا عاداتهم وطرق تشريفاتهم ، وبالاختصار لم يدع شاردة ولا واردة لم يسجلها يراعه الطريف الظريف . وصف العربى وصلابته ، ونقل شذرات من أحاديثه الطريفة التى تدل على ذكاء متوقد ، وبلاغة عرف بها .

« البدو يا حضرة الفاضل ساذجون فقراء ولكنهم صادقون » . هكذا قال الملك حسين . أما أمين فما أجمل تعبيره وتحديده

لسذاجتهم حين سماها الجهل المسلح . إن لأمين كثيراً من هذه التعابير الطريفة ، أحب أن أنقل للقارئ شيئاً منها قال :

« لم أتمالك مرة أن أظهرت دهشتى ، وبيدى آلة التصوير إذ رأيت إحدى النسوة تنزل من الجلبوت إلى المياه ، وقد شمرت بكرم فضاح ، فقال رفيقى : شىء مألوف : خذ صورتها ولا بأس . فصورت آية النشور ، أما الوجه فمحذور .

وقال فى رجل من الهندوس : إنه من أصحاب السراويل الشفافة التى تهف حول الجنبين وتبوح بكل أسرارهما .

وقال يصور شاعراً يجله ويحترمه : « وقد اختبأ تحت الشوارب جل ذلك الفم البليغ الذى هو ختم الغم إذا سكت ، وباب الصواعق والأضاحيك إذا تكلم . أما الأنف فمنبسط الأطناب مستريح تحت عين دامعة . أما ثيابه فإفرنجية ولكنها كذلك حرة أبية ، بنطلونه كالكيس حول الساق » .

وهو لا يحرم أى موضوع من مواضيعه من مثل هذا الجمال الفنى ، فقال فى نساء الزيود المجدورات : « وأكثرهن يحملن فى وجوههن نبأ حسن ذهب فريسة الجهل والوباء » .

كان غرض أمين من رحلته سياسياً وقد حاول تقريب قلوب ملوك العرب ، وكتب بينهم معاهدات ولكن كل هذا لم يثمر ، ولذلك أرانى مهتما للون الكتاب الأدبى أكثر من لونه

السيامى . سيقال فى غد : لم يفلح أمين سياسيًّا ولكنه أحدث فى كتب الرحلات أدباً وفنًّا كان السباق إليها أحمد فارس الشدياق ولعل الفرق بين النابغتين هو أن الشدياق كان يكتب بالقلم العريض ، أما الأمين فيكتب بإبرة الستيلو الدقيقة . . . لقد تماجن أمين وتهكم ولكن من وراء ستار شفاف يدل على محاسن القوام ولا يكشف العورات .

عرفنا بالبلاد العربية أصدق تعريف ، فمن منا كان يعلم أن لبنان يضيع فى جبال اليمن وأوديته المترامية الأطراف . وأن الطير نفسه ليتعثر بسنام الصخور والقنن ، وأن الطائرة إذا حلقت فوقها تضل السبيل فى ما يشبه تحتها أمواج البحر .

وينقلك الريحانى من بحث طبيعى إلى آخر صوفى ، وفى هذا كله تلمس العنصر الشعرى والنثر الفنى ، فتقرأ ما كتب وتصدق كل ما قال . قال يصف الأكل عند الأدارسة :
« وكنت أشتهى بعد سفّ شىء من الأرز بقعة خضراء أرعى فيها. وأشتهى قبل كل شىء الماء فأجده فى النعارة فاتراً ، فأصبه فى الكأس فإذا هو أصفر اللون ، فأغمض عينى وأشرب باسم الله. أما كرم الأدارسة فما كان ليخل قط بقاعدة الضيافة عندهم — قوزة كل يوم .
أغدق الله عليكم أيها الأفاضل ، وبارك الله فيك ياجيزان ،

بركة تشمل من أجل أسيادنا بنى إدريس آلة لتصفية الماء ومعملا للثلج . . . »

قلنا إن الريحانى ساح فى سبيل الجامعة العربية ، وهنا لا بد من نقل كلمة حول الموضوع ، وهى من حديثه مع السيد الأدريسى . قال الإمام :

«المسألة بيننا وبين الشريف — أى الملك حسين — قريبة ميسرة . نحن أولاده ، نحترمه ونجله ، ولكننا نطلب منه أن أن يبادلنا الاحترام . قال تعالى : وشاورهم فى الأمر ، اها ، ليسألنا ، يشاورنا ، نعم ، هو لنا بمثابة الأب ونحن أبناؤه الراشدون . عندنا حكمة ، آها ، حكمة فى الدين ، حكمة فى السياسة . وعندنا قوة . القبائل فى يدنا . . . والله لا تمر أربعة أشهر على المعاهدة — المعاهدة التى وضعها الريحانى — إلا نكون أصلحنا الأمر بينه وبين ابن سعود ، فتسير القوافل آمنة إلى إلى مكة والمدينة » .

قال أمين : واغتنمت الفرصة عند ذكره ابن سعود ، فقلت : إذا أصلحتم بين جلالة الملك وسلطان نجد ، فهو ولا شك يسعى ليصلح بين سيادتكم وبين الإمام يحيى ، فتتم بذلك المحالفة الرباعية ، وهى كما أظن حجر الزاوية فى الوحدة العربية .

فقال سيادته : هذا كلام حق . ولكن الأمر بيننا وبين ذاك الرجل بعيد .

– وليس على الله ، يا مولاى ، أمر عسير .

– نعم صدقت . وما نحن يا حضرة الأديب بعيدين مما تروم ، ولكن ذاك الرجل أضربنا ، أضربنا والله ضرراً حسياً ، ونحن نفعناه ، وكان نفعنا مجرداً عن كل ضرر وغش . أما نحن والملك فقد كان النفع والضرر بيننا منادمة ، لذلك ترى الأمر قريباً بيننا » . انتهى

لقد شغلتنا السياسة عن الاستطراد ولكن من كان مثلى لا ينسى . قال أمين : إنه اشتهى بقعة خضراء ليرعى فيها ، فهاكه حقيقة يرعى ، قال : إن أبهج ما يشاهد الإنسان فى الصحراء بقعة أرض خضراء ، ولكن الحيوان ذا السنام كان أو ذا القرون ، يشارك الإنسان فى هذا الابتهاج. وقد تبارينا كلنا حول البرتيسة التى يدوم اخضرارها طيلة السنة .

جاءنى مبارك ، وهو نباتى الحملة ببضع وريقات خضراء يقول هذا الحنبصيص . ثم جاءنى بعشبة أخرى سال لمرآها اللعاب ، الرشاد ، وهو فى بادية نجد نفسه فى لبنان لايتغير اسماً ولا طعماً ، فتبعت مباركاً إلى مواطن المرعى الطيبة ، ورحت أرعى فيها كالبعير ، بل رحت أدب على الأربع مثل نبوكد نصر ،

آكل الحشيش ، وأشكر الله ثم الست زبيدة — لأن الكلام بمناسبة السكة التى عبدتها للحجاج — فانتعشت وابتهجت حواسى كلها . فصرت أظن أن الرّشاد والحنبصيص فعلا بالحمى ما عجزت عنه الكينا . على أننى فى رجوعى إلى الأصل ولو ساعة ، أصلحت ليومين ما أفسده الوقوف على الثنتين » .

ويرى أمين تجارة الرقيق فيثور لها ثورة ريحانية يختمها بعبارات قاسية انتقى منها : « أن من يتاجر بالرقيق فى هذا الزمان لا يستحق لقب إنسان ، أجل ، وإن أمة لا تستنكر النخاسة لأذل فى عين الله ممن لا يعرفون الله وأحط فى نظر العالم المتمدن ممن يعبدون الحجارة ، ويأكلون لحم الإنسان » .

ولما رأى عدن وقد تقلصت عنها الروح العربية ، وقف وقفة أشعيا وأرميا يسأل عن الأمجاد الدارسة ثم لم تفارقه حكمته فقال : « ولكننا فى زمان سيده المال وحاكمه الاقتصاد ، ومديره الأول العلم . وليس عندنا من الثلاثة ما يؤهلنا اليوم إلى وظيفة صغيرة فى معمل هذا الزمان الأكبر » .

ثم تعاوده نوبة التنبؤ فيهتف : « ولكنى أخشى والله من يوم يعم فيه البلاء فينهض الشرق — الشرق العاقل ، والشرق المجنون ، والشرق المتعصب والشرق المتساهل — ينهض نهضة واحدة على المدنية الأوربية كلها . بحذافيرها ، لأنه لا يرى فيها غير سيئاتها

غير الشره والشهوات ، والاستئثار والمنكرات . بودى إذن أن تأزف تلك الساعة ، أن يعدل الأوربى ويعقل الشرقى ، فيتفاهم الاثنان ويأتلفان ، وينتفع الواحد بالآخر ومنه » .

وقد أراح سلطان لحج فيلسوفنا الريحانى من الكلام عن التعصب الذى حارب به أمين طول حياته . فقال فيه أشياء كثيرة .

وفى مطلع الجزء الثانى يعدنا أمين بالصراحة كلها على شرط أن يكون فيها دائماً شىء من الفائدة أو الفكاهة . فمن فكاهاته الطريفة فى هذا الجزء وصفه رجلا اسمه مسفر : « مسفر هو مدير الحملة ورئيس الخدم ، وهو فى شكله نكتة مضحكة جداً قد لا تليق فى مجالس المتمدنين . وجه عفن وهو يظل عفناً حتى لو غسله بالحامض الفينيك ثم بماء الورد صباح مساء . فهل يصلح الماء والكيمياء أنفاً تسطح على خديه ، وفماً تطاول إلى أذنيه ، وجبيناً داس بشعره حاجبيه ، وعيناً جاءت من القرد إليه ؟ أما لبسه فهو آية فى البلاغة والإبداع . لا يعرف أنجدى هو أم حجازى ، أيمانى أم عراقى . حذاء مرقع تخض رجله فيه ، وسروال كان أبيض لا تظنه غسل فى عهده أو فى عهد أبيه ، فوقه معطف كذلك من الخام مفصل مثل الفراك التركى ، وفوق المعطف زنار تلمع فيه الخناجر والأسياخ ، إلا أنه عند ما يركب على بعيره الأسود فوق أحماله ، يبدو ككيس من الأكياس .

إن للمعطف الذى كان يلبسه مسفر جيوباً هى دكان بما حوت . أتبغى خيطاً وإبرة وزراً ، أتبغى ملحاً أو بهاراً أو شيئاً من مسحوق الليمون الحامض ؟ أتبغى رقعة تمسح بها فنجاناً أو تضمد بها جرحاً ؟ أتبغى قلماً وورقاً لكتابة ؟ سمعاً وطاعة .

دهشت الدهشة الكبرى ولم أتمالك أن ضحكت عند ما أشار إلى رأسه كأنه يقول : مسفر لا ينسى شيئاً . ثم أخرج من « دكانه » مرآة صغيرة قدمها لى لأرى وجهى وأحكم وضع عقالى قبل الرحيل .

هوذا حقاً أقبح خلق الله صورة وأجملهم نفساً وذوقاً. فقل تبارك رب العالمين الرحمن الرحيم ، فهو إذا مسخ الإنسان قرداً يهبه من الجمال الخلقى والروحى ما يندر فى يوسف الحسن وزين العابدين » .

ولا تظنن أن الأستاذ لا يحسن المدح بل اقرأ ما يقول فى ذمة الأعرابى : « وأية ضمانة يقدمها البدوى للتاجر؟ قسمه الله . فهو إذا غاب عشر سنين وعاد إلى الكويت وليس معه غير جمله ، يجىء به إلى التاجر قائلا : هذا حلالك . وإذا مات الأعرابى قبل أن يفى ما عليه ، وكان قد نما ماله ، أى مواشيه ، يجىء أحد أبنائه أو أنسبائه بما يكفى منها لتسديد الدين أو بعضه فيقدمه للتاجر قائلا : هذا حلالك من فلان . ترحم عليه » .

وفى الكويت يتدخل أمين لإصلاح ذات البين بين نجد والكويت فينجح ويجيبه العاهل السعودى : « أما مسألة تنامع الكويت فهذه تحل قريباً حسب رغائب الجميع ، وعلى أحسن ما يكون إن شاء الله »

ويبلغ الريحانى البحرين فيقف عندها وقفة المؤرخ المحقق فيقول إنها مهد الحضارة والشراع ، وإن العرب والفينيقيين من أصل واحد ، وإن فى خليج العجم صور وحبيل كما فى فينيقيا ، وبعد أن يجول ويصول يقول للقارئ : « قد انتهجت فى كتابة هذه النبذة ما أظنها الطريقة المثلى فى التاريخ ، فغربلت الحوادث واخترت منها الأعم والأهم ، وعلقت عليها فى بعض المواقع تتميماً للصورة الذهنية ، صورة المكان والزمان والأحوال ، واجتنبت ، أولا وآخراً ، الإطراء والإطناب ، فوصفت الرجال بما تمليه أعمالهم على المؤرخ .

إن التاريخ هو غير السجع . يجب أن يكون للتاريخ عينان ، وعقل ووجدان . ولا بأس إذا كان له شىء من البداهة والتصور أما القلب فلا حاجة لى فيه ولا يجوز . إن التاريخ الصادق هو شاهد لا قلب له » .

وبعد أن يتبسط فى الكلام على البحرين وحالتها السياسية راح يبدى آراءه المبنية على ما رأى وشاهد فى هذه الرحلة : «وقد

علمت مما شاهدته وتحققته فى البلاد العربية كلها أن بلية العرب الكبرى — كانت ولا تزال — هى النزوع فى كل قبيلة ، بل فى كل عشيرة ، إلى الاعتزال والاستقلال . لا يعرف العرب من مبدإ التضامن غير ما توحيه القبيلة أو يدعو إليه فى بعض الأقطار المذهب الدينى . لا يخضع العرب من مبدإ التضامن غير ما توحيه القبيلة أو يدعو إليه فى بعض الأقطار المذهب الدينى . لا يخضع العرب بعضهم لبعض إلا كرهاً ، ثم ينزعون إلى السيادة المستقلة إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا . الجهل أيها الأدباء هو عدو التضامن ، والجهل المسلح أيها الأمراء هو عدو كل رقى وعمران .

ثم يتوجه إلى الإنكليز بالنصح فيقول : إن السياسة العربية التى تمشوا عليها فى الماضى لا تصلح اليوم لا لهم ولا للعرب . هى تضر بمصالح بريطانية العظمى ليس فى البلاد العربية فقط بل فى الشرق أجمع ، وتضر بالاسم الإنكليزى وكل ما يرمز إليه من أدب وعلم وكرم أخلاق وسياسة » .

ويدخل العراق فيصف وصوله إليها بطرافة وقومية ريحانيتين فيقول . : «عند ما وصلنا إلى البصرة صعد إلى الباخرة موظفو الجمرك والصحة والشرطة وأكثرهم من الهنود . . . وكنت قد أرسلت تلغرافاً من بمباى إلى صديق لى فى الديوان الملكى عله

يأمر فى البصرة من يلاقينى ليهدينى فى الأقل إلى محطة سكة الحديد ، فوجدت نفسى ، ولا أحد يسأل عنى ، أغرب فى هذا البلد العربى القديم منى فى كارتشى الهندية ، وأنا العربى الذى قضى الأيام والليالى ويطالع الحريرى والجاحظ ، ويطحن كريات دماغه فى طواحين الكسائى وسيبويه . أرانى قد نزلت من الباخرة بين قوم لا أفهم لغتهم . فيكلمنى الحوذى بعربية يضطر أن يترجمها إلى شىء من الإنكليزية يفهم . هو أيضاً هندى . ساق جواده الأعرج يجر عربة مكسورة ، وفيها بقية آمال مبعثرة تدعى الريحانى » .

وتذلل العقبات ويبلغ الريحانى بغداد ويلتقى بفيصل فينسى آلامه وتباريحه . تسقط الكلفة بينه وبين الملك الشاب ، وبعد أن يجلسا متقابلين فى مآدب شتى يصف لنا أمين فيصلا :
« الملك فيصل أقرب ملوك العالم اليوم إلى الديمقراطية . لا أظن أن ما يسود الملك فيصلا اليوم ناتج عن همومه الحاضرة فقط . لا أظن أن تاج العراق وحده مصدر تلك الابتسامة الناعمة المحزنة ، وذاك السكوت الذى يسبق الكلام إلى القلوب . إنه فى ما لمع من نجم سعده وهوى فى السبع السنوات الأخيرة ، لمن الأمراء القليل عددهم فى العالم اليوم . فقد دالت له ساعة قصيرة من الزمان ، فظلمته الحوادث فى تسابقها حوله وعليه ، فلم

يتمكن لسرعتها من الانتفاع بها » .

« هو ذا أمير عربى كريم فى دائرة خضراء من الشهرة ، دائرة حمراء من السياسة الوطنية ، يمازجها اصفرار من دسائس السياسة الدولية ، وهذه لعمرى حقيقة مآدب الغم — مأدبة الشهرة التى يتلوها وجع الرأس ، ومأدبة النصر فى الحرب يتلوها فشل فى السياسة ، ومأدبة الكرم العربى الممدودة فوق ضريح المطامع العربية » .

إن فى هذا المقطع لأصدق تصوير للحالة التى كان الملك فيصل يتخبط فيها ولم يستطع الخروج من دائرتها ، حتى كانت مأساة موته ، وكم فى الموت ، أحياناً ، من راحة ، ولكننا نسخط دائماً على الموت ولا نقدر له تلك اليد البيضاء التى يمدها إلينا فى الساعة الحرجة .

وبعد أن عرفنا الرحالة إلى الكثيرين من رجالات العراق قال عن المس بل : « هى شبه وزير دار الانتداب ، فينبغى لى أن أفسح لها فى هذا الفصل مجالا . ولا أظن أصحاب المعالى الوزراء يستنكرون أو يعترضون : جاءت — المس بل — الشرق الأدنى سائحة طالبة علم ، وجالت فى البلاد العربية وآخت العربان . تعلم من أمور العراق وعشائره ومشايخه وأشرافه وتجاره والسياسيين فيه ما يندر أن يعلمه سواها . امرأة طويلة نحيلة

جليلة ، تكاد تكون مجموعة أعصاب وأفكار ، هادئة الإشارة واللهجة ، هادئة البادرة ، يتغلب فى حديثها العقل ، وتتغلب فى عقلها السياسة . وهناك شيء من القلب ، بل أشياء ناضجة مستوية . طريقة المس بل السياسية قديمة ، وهى مع ذلك لا تركن فى الأمور لا لعقلها دائماً ولا لقلبها . لا تجبه العراقيين دائماً بالقاعدة والقضيب كالمعلمة المرشدة ، بل تجيئهم مراراً وهى تحمل هدية بدل القضيب . . . . هوذا قلبها عربون إخلاصها أيها الزعيم الوطنى . هى أم المؤمنين يقيناً . وإذا رفضت الهدية والمشورة ، إذا أبيت النصح والامتثال ، فهوذا السجل وفيه سيرة حياتك منذ دببت ودرجت إلى يوم وقفت مستعطفاً أو محتجاً فى دار الانتداب » .

ولا يحرم أمين شعراء العراق ، وكلهم أصحابه ، من فصل خاص بهم ، وكذلك فعل فى (قلب العراق) وقد أريتك نموذجاً من نقده . والآن يطيب لى أن أنقل لك أسطراً أفتتح بها الفصل المعنون (أصحاب القوافى) ، قال : « لولا الشعراء فى العراق لسئمت السياسيين، ولولا السياسيون لفررت هارباً من الشعراء ، وبكلمة أوضح لولا الفريقان حولى لكنت من الهالكين بيد أنى مشيت مثل البهلوان على حبل الاحتفالات والتكريم ، أحمل بيدى خيزرانة التوازن وفى أحد طرفيها أكرة السياسة وفى

الآخر قيثارة الشعر » .

أما رأيه في شعرنا فقد عبر عنه بقوله : « إن الباحث اليوم في أحوال الشرق عموماً والعرب خصوصاً يرى أن للسياسة والدين الشأن الأول في الشعر ، بل في أمورهم كلها . أجل إن في مصبغتي السياسة والدين تصطبغ الأقوال والأعمال والآمال ، فيندر الشعر الصافي والنثر الأدبي في ما ينظمون ويكتبون » .

ويمر على المدرسة مرة عجلى فيقول : لم يبق إذن غير المدارس نعتمد عليها في تحسين عقلية البلاد المدنية ، وتوليد روح وطنية جامعة راقية عاملة . هي البودقة التي تتكون فيها الروح الوطنية الجديدة ، بل هي سياج الوطن ، وفيها عز الملك وشرف الأمة . ولكنها لا تكون كذلك ، لا تفلح في التكوين ، إلا إذا كانت البودقة واحدة لا تتغير في تغير المكان والمذاهب واللغة . إن أمة تعددت شعوبها ومذاهبها الدينية ، ولغاتها لا يتكون منها وطن عزيز الجانب ، رفيع الشأن ، مهما كان جيشها ، ومهما كانت ثروتها ، إلا إذا أسست الحكومة فيها مدارس عامة ، مجانية ، لا مذهبية ، تتمشى كلها على برنامج واحد ، ويكون التعليم فيها بلغة واحدة لغة البلاد الأصلية » .

وختم هذا الكتاب الخالد بالكلام عن الوحدة العربية التي هي نقطة الدائرة فيه حتى خلص إلى القول : إن في البلاد العربية

اليوم أربعة ملوك كبار ، وإن فى نفسية الرعايا رعاياهم نصاً على شخصية أولئك الملوك وشرحاً على حالة تسود سياستهم فى البلاد :

« رعية الملك حسين تطيعه وتخافه .

رعية ابن سعود تطيعه وتحبه .

رعية الإمام يحيى تطيعه دون حب ودون خوف .

رعية الملك فيصل لا تخاف ولا تحب ، ولا تطيع إلا مكرهة .

فمن من الملوك المذكورين فى شبه الجزيرة يستحق أن يسود العرب ؟ » .

لقد أعرت كتاب ملوك العرب هذا الاهتمام لأنه أول كتب أمين فى الرحلات ، ولأنه ملخص لما فى كتاب تاريخ نجد الحديث ، وفيصل الأول ، وقلب العراق . وقد أقرأتك ، ما قاله أمين فى وصف الملك فيصل ، فهاك الآن وصفه للسلطان عبد العزيز : «ها قد قابلت أمراء العرب كلهم فما وجدت فيهم أكبر من هذا الرجل . لست مجازفاً أو مبالغاً فى ما أقول ، فهو حقاً كبير ، كبير فى مصافحته ، وفى ابتسامته ، وفى كلامه ، وفى نظراته ، وفى ضربه الأرض بعصاه ، إن الرجل فيه أكبر من السلطان ، وقد ساد قومه ولا شك بالمكارم لا بالألقاب . . . غريب عجيب . إلى أن قال : إنى سعيد لأنى

زرت ابن سعود بعد أن زرتهم كلهم . هو حقًّا مسك الختام . »

* * *

قال الأستاذ إسعاف النشاشيبي بعد الاطلاع على كتاب « فيصل الأول » .

« قال على بن عبدة الريحانى : حضرنى ثلاثة تلاميذ فجرى لى كلام حسن ، فقال أحدهم : حق هذا الكلام أن يكتب بالغوالى على خدود الغوانى . وقال الآخر : بل حقه أن يكتب بأنامل الحور على النور . وقال الآخر : بل حقه أن يكتب بقلم الشكر فى ورق النعم » .

والله إن تلاميذ الإمام الريحانى إنما يصفون بأقوالهم هذه كلام فيلسوف الريحانى فى فيصل .

قلب لبنان

كما خصصت كتاب ملوك العرب بتلخيص مطول كذلك فعلت فى قلب لبنان ، وما دعانى إلى هذا إلا أن الريحانى نحا فيه نحواً لم نره فى كتب رحلاته الأخرى . فهو فى هذا السفر النفيس شاعر أكثر منه مناضلا ، ولكنه فى كل حال لم يخلع سيفه ورمحه .

يصح فى كتاب (قلب لبنان) لفيلسوف الفريكة ما قاله

ابن المقفع عن البلاغة ، أى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يعمل مثلها . فكتاب قلب لبنان رحلات صغيرة فى جبالنا هكذا يقول العنوان . أما ما وراء العناوين فلا يستطيع الناقد الإشارة إليه كله لأن الإحاطة به تقتضينا كتاباً أضخم منه . فالاستطرادات والوخزات ، والغمزات ، والاستنتاجات تفاجئنا فى كل رحلة : فهى تنهض من مكامنها فى كل فصل بل فى كل وجه ، وأستطيع أن أقول فى كل فقرة ، لأن الريحانى لبق فى غمز القناة ، إنه يريد أن يعمل بقول الشاعر :

وكنت إذا غمزت قناة قوم كسرت كعوبها أو تستقيما

ينقض أمين على المناسبة انقضاض الصقر على فريسته فإذا هى بين مخالبه وبراثنه . فما أقل من يستطيع أن يكتب فصولاً رائعة فى مواضيع تافهة كهذه ، ثم يجذبك إليها فلا تدع الكتاب ، وهو ستمائة صفحة من القطع الكبير ، حتى تقرأه من الجلد إلى الجلد .

وإننا نشكر العناية التى كان يؤمن بها أمين إيماناً مطلقاً ويتعبد لها بلا شروط ولا مراسيم معتادة ، كما قلنا فى كلامنا عن الريحانيات ، بل قل طبقاً لمراسيم وضعها هو لنفسه ، كان يصلى يومياً على بلاطة لا تزال على الشرفة حيث وضعها . قلت نشكر العناية ولم أقل على ماذا نشكرها عن أمين نشكرها

لأنها أبقت بعده أخاً أديباً فاهماً يرعى بعين يقظى آثار أخيه الخالدة ، ويصدرها للذرية وبالشكل اللائق بها . فالأستاذ ألبرت ريحانى شقيق الأمين هو الذى أهدى إلى المكتبة العربية هذه التحفة الطريفة فى أدبنا الحاضر . فهذا الكتاب اليتيم -كما يسمي الغربيون الأثر الذى يظهر بعد موت صاحبه — شب فى حجر وصي أمين حي الضمير فكان أحنى عليه من الأب . ولهذا اليتيم أخوة آخرون يدرجون فى حجر الوصى ألبرت وسيؤتون حقوقهم ، فى حينها ، كاملة غير منقوصة . فليطمئن قلب أمين ، فكل ما خلف فى حرز حتى قصاصات الورق وما خطت عليها يده من حواش ونظرات واحتجاجات .

إن كتاب « قلب لبنان » من طراز كتاب ملوك العرب ، وفيصل الأول ، وقلب العراق ، وصف فيه أمين جبال لبنان ووهاده ، أوديته وقراه ودساكره ، صخوره وأشجاره ، رجاله ونساءه ، خواصه وعوامه ، قلاعه ومعابده ، قديسيه والمكارين فيه . ألم بتاريخ لبنان من أقصى ظلماته إلى عهدنا هذا ، فحقق ودقق مخالفاً هذا ، وموافقاً ذاك من سياح وأثريين ، وعلماء وفلاسفة ، لا يعنيه إلا أن يقول ما يعتقد أنه يحدثك بصراحة ووضوح عن كل شيء حتى نفسه ، لا يكتمك من أسراره إلا ما لا يعنيك أو لا يفيدك . يسرد كل ذلك بلغته الهينة اللينة ، ذات الموسيقى

الشعرية . ولكنك لا نستسلم لموسيقاه حتى توقظك نكتته البارعة اللاذعة . يحملك على أجنحة خياله إلى الزمن الأبعد فيريك ذلك الزمان واضحاً بما يكسوه من الصور الجديدة الفتانة ، فتحسب أنك تعيش فيه وأنك بين قومه الغابرين . يصور لك أم أمين ، رحمها الله ، كيف كانت تشيع ولدها الحبيب عند كل رحلة ، فتحوطه برسم الصليب على وجهه ، وعلى جسمه كله ، ثم تسلمه أمانة للعذراء حبيبتها . ولا يحرم أمين مكاريه وبغلته التى اسمها (محبوبة) من وصف دقيق ، وتصوير يبلغ التمام ، ثم يقص عليك ما كان يدور بينهما من حديث فيريك نباهة وبلاهة هذا المكارى الذى يتأمر حيناً ويطيع أحياناً .

يذكرنى أمين فى كثير من مواقفه فى رحلاته بأحمد فارس الشدياق وكتابه الفارياق ، فهما من طراز واحد فى السرد وإن اختلفا فى الاحتجاج . احتجاج الشدياق صاخب صارخ ، رائحة أحماضه حريفة ، واحتجاج أمين فولتيرى ناعم ، يمعن فى النكاية كالشدياق ولكنه لا يستفز . قد رأيتهما يتفقان فى أمور كثيرة حتى فى الراهب (الأخ حنا) فلكل منهما راهب يسايره ويماشيه ، ولكنهما يظلان مختلفين أسلوباً ، ونكتة وظرفاً ، فهما لونان مختلفان فى أدبنا العربى ، وإن كتب كلاهما أشياء تخصه يدور عليها كتابه .

فكتاب قلب لبنان يعرفك ، فى معرض الحديث ، على مؤلفه فى لبنان فقط ، يريك كيف نشأ أمين تلك النشأة القروية الساذجة ، فكان لها أبعد أثر فى تكوين شخصية أمين الإنسان. إن أمين الإنسان موضوع خطير يستحق اهتماماً كبيراً ، وهذه الإنسانية قد ظهرت واضحة بارزة الخطوط صارخة الألوان فى وصيته ، كما ظهرت من قبل فى جميع ما كتب. كان أمين نصيراً للحق فى جميع مواقفه ، يكره النفاق والكذب والرياء والدجل ؛ يخاطب الملوك والقادة بصراحة تدل على شخصية حرة تحترم الإنسانية فى جميع البشر وتقدسها .

يتحدث أمين فى (قلب لبنان) بقلم طليق من كل قيد فلا يحيد مقدار شعرة عن خطته المعلومة ، يطرى المكارم ويعالج المساوئ بالسخر منها والاستهزاء بها . وهو فى كل ذلك لا يتنكب عن جادة العذر لمن يلوم ، ولا ييأس من الصلاح والإصلاح .

وكتاب قلب لبنان معرض تاريخى لشعوب لبنان ، والملوك والقواد والفاتحين والعلماء الذين جاءوا لبنان غازين ومنقبين وباحثين ، وهو يشارك جميع هؤلاء فى نقد شخصياتهم وسياستهم وبحوثهم . فمن وصف فنى إصلاحى ، إلى تهكم لاذع

إلى آراء فلسفية إجتماعية أدبية . يربط بالحاضر فبينا تراك معه في أعمق الأعماق إذا به يطير بك إلى أبعد الآفاق . ينقلك بلمحة خاطفة من أبعد أبعاد التاريخ إلى حيث نحن اليوم مستعيناً على ذلك بنفسيته وشاعريته وعلمه وثقافته الواسعة ، ولا تعجب أن رأيت الريحاني في قلب لبنان مؤرخاً ، وكما يكون التاريخ اليوم ، فأمين كان ذا مواقيت لا يتخلف عنها ولا يتأخر ، وهو ذو مكتبة ذات قيمة كبرى وخصوصاً فيما يعنيه من تاريخ الأمة العربية ، فخزانته تحتوى على أصدق المراجع وأدقها في هذا الموضوع ، وإذا أضفت إلى ذلك سياحاته العديدة وملكته النقدية التي مكنته من تمحيص ما رأى وسمع ، عرفت قيمة كتب رحلاته ، فهو لا يكتب فصولا خيالية ليقول ما شاء وكيف شاء .

وإذا قلنا هذا فلا نعني أن تلك الكتب وقلب لبنان تاريخ جاف لا خيال فيه . لا يا سيدى ، إن في قلب لبنان فصولا من الشعر المنثور تعد من روائع الشعر المنظوم ، وأمين كما علمت هو أبو هذا اللون من الكلام في أدبنا العربي ، عبر به عن أفكاره حين كان رومنطيقياً ، صوفياً ، وهو لم يطلقه الثلاث حين أصبح كاتباً عاملا يسعى في الأقطار العربية لتكوين الجامعة العربية التي لم تقر عينه بها حياً ، وإن ارتاحت إليها نفسه ميتاً .

فإذا قرأت هذه القصائد المنثورة في قلب لبنان عرفت أن أميناً رومنطيقى بالمعنى الأتم يهب الحياة للصخور والأشجار والأودية ، والحوادث التى لا تلهم شيئاً . إن هذه الحوادث تحيا وتتحرك تحت قلم أمين كما كان يحيا الحجر تحت أزميل ميكالنج ، والقماش تحت ريشة رافايل . اسمع كيف يتحدث عن الضيافة اللبنانية ، إنه يبدأ هكذا :

« قال فكتور هيغو : الضيافة مفتاح الإخاء الإنسانى ، والشعوب المضيافة عماد الإنسانية . وقال كاتب إغريقى قديم : الحرية وحسن الضيافة هما عنوان العظمة فى الشعوب .

فالشعب اللبنانى العربى فى عرف الإفرنسى الشهير هو عماد الإنسانية لأنه مضياف ، ولكنه فى عرف الكاتب الإغريقى لم يبلغ من العظمة إلا نصفها أو بعضها أى القسم القائم بحسن الضيافة . أما القسم الآخر ،أى الحرية ، فهو لا يزال مفتقراً إليه. هو لا يزال ينشد الحرية ويتغنى بها ويسلى نفسه بخيالها وقصائد شعرائه فيها .

ليس أجمل من لبنان فى جبال الأرض . وإن الله ليكلأ هذا الجمال ، ويصونه فى شكله كما فى جوهره فلا خوف عليه فى الحالين . أما الشعب اللبنانى فمن يكلأه يا ترى ، ويصونه فى حسن ضيافته ؟ الحرية .

الضيافة مع الحرية تدوم ، أما بدون الحربة فالشك فى دوامها أقرب إلى الذهن منها اليقين » .

وهنا أيضاً لم يدرك أمين ما كان يصبو إليه من استقلال وحرية للبنان. مات المجاهد فى سبيل الحرية ، ثم عاشت بعده ، وهكذا يحيا الخالدون .

وبعد ، فلم يمتعنا أمين فى « قلب لبنان » بفصول رائعة من نقده الأدبى العذب كما فعل فى ملوك العرب وقلب العراق . ولكنه انتقد (على الماشى) كما نقول ، فلذع وتهكم . فإذا قيض لك أيها القارئ العزيز أن تقرأ هذا الكتاب فلا تظن أن الريحانى يكيل المدح للناس بالمد ، أرجو منك أن تقرأ ما بين السطور لتدرك ما يقول أمين ، وما يقصد ، وما يعنى ، ولا يغرك ظاهر الكلام . ثم لا تظنن أننى عرفتك بهذا الكتاب معرفة كاملة ، فهذا لا يتم لك إلا إذا اطلعت عليه فتعرف الريحانى ومن شاء أن يعرفك بهم كما عرفهم هو ويريد أن تعرفهم أنت . ولا يليق بنا أن ندعوك إلى مأدبة أمين الحافلة بكل طريف شهى ثم لا نريك ولو لقمة صغيرة منها ، فدونك يا عزيزى ، هذا الصندويش ، فنحن فى عصر العجلة ، وقل فينا من يشترى كتاباً يتمتع هو به ويبقيه لذريته من بعده . إذن هذه بعض نتف من شعر أمين المنثور ، وأننى أذكرك بأن

اللغة الشعرية منثورة فى صفحات الكتاب كلها وقلما خلا وجه من معنى أو صورة شعريين طريفين ، اسمع قليلا من قصيدة الأرز :

« إيه ربة الأشجار ، وسيدة الجبل الجبار .

أنت الرافعة أعلامك الخضراء ، بين هذه الصخور الدكناء .

بنت الجديدين وأخت القمرين ، حدثينى .

حدثينى وعلمينى ، وارفعينى إلى علياء إيمانك .

حدثينى عن ريح الشمال .

— تجيئنى مولولة نائحة ، فأوقفها لتستريح ، فتستحيل أنفاساً عطرية .

— حدثينى عن الغيث إذا همى .

— هو يرقص على الصخور حولى ، فتقهقه هازئة ، ويضرب على أوتار قيثارتى فتسمعه أغانى البلابل والأمواج .

— حدثينى عن العواصف .

— هى تصعد هائجة من الأودية ، وتهبط مجلجلة من الآفاق ، فتدق حولى طبولها ، فأفتح لها قلبى ، فتدخل ثائرة ، ثم تسكن وتنام ، تحت أجنحة السلام .

— حدثيني عن الصخور .

— هي المحدثة قبلي وبعدي . منها تربي وإليها مصيري . وهي في حياتي قرة عيني ، وزينة نفسي ، بل هي هيكلي الخالد ، العامر اليوم بي ، السائل غدا عني » .

وعلى ذكر الصخور ننتقل بك إلى قطعة من هذا النشيد الخالد : نشيد الصخور . خبرنا أمين : أن أحدهم سأل جده المطران باسيل عبد الأحد : « ما فائدة الصخور؟ فأجابه فوراً : « الصخور عظام الأرض » وكأني بأمين نظم قصيدة للصخور إحياء لذكرى هذا الجد الأبعد ، فاسمع كيف تدب الحياة في الصخور تحت قلم الشاعر الملهم ، قال :

« والصخور ؟

هل وقفت مرة بين الصخور ، تتأمل تكوينها وأشكالها ، ومعاني جمالها وجلالها .

وهل نظرت خلال الهياكل الطبيعية المتهدمة إلى ما وراء العمد والجدران — إلى روح الكيان ويد الزمان ؟

هل في شموخها غير العز ، وفي روعتها غير الصولة ، وفي هولها غير الأخطار ، وفي رسوخها غير القوة ، وفي تخاريبها غير الضعف ، وفي صفوفها غير الفوضى ، وفي منعرجاتها غير الجهل والحيرة .

الصخور الشاهقة المحلقة ، الصخور الرابضة والواتية والهاوية ، والصخور المانعة الواجمة المنذرة ، الصخور المتكاتفة والمتخاذلة هل وقفت مرة تتأملها ، وتحاول الدخول إلى قلبها ، إلى السر المكنون فيها ؟

إن فى قلبها النواة التى كانت تموج تحت الأمواج ، وفى قعور البحار .

إن فى قلبها جرثومة الحياة الأزلية الأبدية .

إن فى قلبها الذرة السرية التى تحيا بالتحطيم ، فتغدو غذاء وشذى فى الأشجار والأزهار .

إن فى قلبها سجن الأنانية وصمت الأحزان .

إن فى قلبها الرمز الخالد لسوط الزمان .

إن فى قلبها رسالة التصعيد حتى فى الجلاميد .

من قعور البحار إلى أعالى الجبال من الظلمات الموحلة المجرثمة المطحلبة ، إلى أوج النور . والتبلور والصفاء .

هذه مرحلة الصخور بل ملحمتها .

وهل فى شموخها غير العز والمجد؟ إن فيه ضرائح التضحيات ، وأحاجى الموت والحياة .

وهل فى روعتها غير الصولة والجلال ؟ إن فيها الصبر

القائم ، والعزم الواجم ، والصمت الدائم .

وهل فى هولها غير الأخطار ؟ إن فيه نبأ البراكين والسعير ، وقصة الزلازل والأعاصير .

وهل فى نخاريبها غير الدليل على الضعف والوهن ؟ إن فيها الدليل على عطف لا يزال فى قلبها حيا ، وعلى حنان لا يزال نديًّا . إن فى نخاريبها بيتاً للعصفور ،ومأوى للحلزون ، وإن فيها نايات للرياح .

وهل فى صفوفها غير الفوضى ؟ إن فيها تتمثل أوليات الحياة فى التحرير والتقييد ، وسنن الحياة فى التنوع والتوحيد .

إلى أن يختم قصيدته هذه بقوله : هى الصخور الحافظة للأرز الأبواب ، الضاربة حول الأرز الأطناب ، الحاملة عرش الأرز على المناكب والرقاب » .

وهنا يجب على أن أقص عليك بإيجاز خبر تحول أمين من شاعر صوفى روحانى إلى كاتب وشاعر نضال جسدانى . ساء الفيلسوف أن يظل الشرق غافياً ، والناس يضجون حوله فثار على الشعر الباكى لا للحط من مقام شاعره الأمثل بل للنهوض بأمة كاد يقتل رجولتها ذاك الشعر المخنث .

كان أمين فى فجره الأدبى يخاطب الدورى والغورى . ثم أفاق من تلك الغفوة الهانئة ليخطب الناس فى سفح الأهرام ،

يوم كرموا جهاده ، فقال شعراً منثوراً بلسان الشرق بدأه هكذا :

« أنا الشرق .

عندى فلسفات ، وعندى أديان ، فمن يبيعنى بها طيارات » .

هذا ما قاله منذ ثلث قرن ، كما مر بك ، وها نحن نرانا اليوم فى أمس الحاجات إلى ما دعا إليه أمين وتمناه .

وإذا قرأت « قلب لبنان » ترى الريحانى لا يبرح دائرته تلك ، فهو هو فى عقيدته ، تجدها أينما طلبتها ، فأمين لم يبرح نقطة دائرة فكرته .

تأمل كيف يخرج النقد اللاذع حين يتحدث أثناء مروره با (المشنقة) حيث حفرت فى صخرة صورة صراع أدونيس مع الخنزير البرى ، فقال يغمز قناة الابتداب :

« اشغل غليونك ، وافتح عيون خيالك . احرق من تبغ هذا الزمان على ذكر أدونيس فتى الفتيان ، أدونيس المعبود الأعلى ، إله الحب والألم والبعث والخلود . وهل هناك مفر وانعتاق ؟ هل يخلو الحب من ألم ؟ وهل ينجو الألم من الموت ؟ وهل يحرم الموت النعمة الكبرى : — البعث والخلود » .

« فلو كان أدونيس متجسداً اليوم ، ومقيماً فى هذا الجبل

اللبنانى لرأى الخنزير البرى فى أسواق المدينة وفى دوائر الحكم . لا فى الأودية والغابات ، ولصرع فى قتاله كما صرع الرؤساء والزعماء فى هذه الأيام . على أن صرعة الإله لغير صرعة السياسيين ، كهاناً كانوا أو تجاراً . ولا عجب . إن صرعة فيها شجاعة الإيمان والتضحية لتثمر روح التضحية والإيمان فى أجيال من الناس . أما الصرعة التى فيها إرادة غاوية ، ذات عين لاوية ، يقاد صاحبها بدعوة إلى مأدبة ، أو برشوة ووسام ، فماذا تثمر يا رعاك الله . »

وعلى ذكر كرونس إله الفينيقيين ذى الثمانى أعين يقول أمين : «أما العيون فإن لنا منها ، نحن اللبنانيين ، أكثر مما كان لكرونس إله الفينيقيين . إن لنا من الخيال والأحلام والأوهام ، مائة عين وعين فنرى الفراديس ونحن نائمون ، وننام ونحن ماشون إلى الهاوية . . . »

إن الريحانى فى قلب لبنان كاللاعب بالسيف والترس ، يضرب ويتلقى بخفة ورشاقة مستعيناً بجميع مواهبه ، ولم يسلم من لذعه شىء حتى أسماء الناس .

أعجبته ضيافة سابا بطرس أبريانوس وحرمته ، وأعجبته كلمة (حرمة) وفضلها على زوجة وعقيلة وقرينة ومدام فقال : « ليس فى (الحرمة) ما تشتم منه القيود — عقيلة الرجل — مصفدته

قرينته . فى الحرمة احترام ومحرم ، وفى الحرمة عروبة صافية . ولكن اسم زوجها إبريانوس؟ ماذا تفعل به يا رجل؟ ومن أين جاء إبريانوس ، إن هذا الاسم ليقتل كل أمل بالوحدة اللبنانية اليمانية . على أن هذا الرجل ذا الأسماء الثلاثة الفظيعة — سابا بطرس ابريانوس هو خير الرجال . يقرى الضيف ويضرب بالسيف ، ويبنى بيته ، مثل صنوه فى (خولان) ، ومثل إخوانه النسور بين الصخور . . . . إن الحياة لا تصفو لأحد من الناس . وإن صفت فى نبعها فقد تتعكر فى جرن العمادة » .

إن ضجة أمين حول « سابا بطرس إبريانوس » لا أثر للكلفة فيها لأنه ، رحمه الله ، كان يكره هذه الأسماء الطائفية حتّى التطير ، وقد يكون هذا التأثر نجم فى نفسه منذ نومته مع والدته ، والغرزوزية الحسناء ، فى كنيسة كفيفان وفاء لنذر أمه التقية ، فشفيع دير قديس كفيفان اسمه قبريانوس . . .

رحم الله من ربى الريحانى وربانا ، فقد جرت الرياح بما لا تشتهى السفن ، ولولا المشيئة التى يحيرنا ممشاها لما جاء (قلب لبنان) كتابا فريداً .

المغرب الأقصى

سار الريحانى من لبنان مهد الأساطير إلى الجزيرة سرير النبوة حيث درج وشب النبى العظيم، ثم فتح الدنيا دينه الجديد، ودانت لسلطانه وسلطان خلفائه أمم الأرض . وكأن الأمين الذى لم يتنكر قط لرسالته العربية أبى أن يحرم المغاربة منا مما جاد به على المشارقة ، فشمر الأردان ومشى إلى المغرب الأقصى .

وعاد من ذلك الفردوس ليكتب عنه هذا الكتاب الضخم الحامل بين دفتيه تاريخاً قديماً وحديثاً . وكأنه خاف على كتابه من القراء الذين تعودوا أكل السندويش فقال فى المقدمة يحذر قارئه :

« فلا يزال هذا الكاتب صديقك القديم يقول كلمته ويمشى ، مشيت أنت معه أو وقفت وتخلفت ، فهو لا ينتظر ، وهو لا يتوقع من أحد الرفقاء — القراء — أن يماشيه حتى النهاية ». وأخيراً ختم هذه المقدمة بما يأتى : « إن فى المغرب طبخة يسمونها الحريرة ، هى شبيهة بالحساء ، ولكنها تشتمل على الكثير من أنواع اللحم والخضر والأبازير ، فيرسب الأكبر فى قعرها ،

فلا تحظى أنت به إلا بعد أن تصل فى احتسائك إلى القعر — إلى النهاية .

فإلى قعر الحريرة — إلى النهاية » .

حقاً إن كتب أمين لا تعطيك المتعة كاملة إلا إذا قرأتها برمتها . فآراؤه وضحكاته ، وقرصاته ولسعاته تعثر بها أنى اتجهت فى كتابه ، ولكن (التاريخ) الذى لا يستطيع أن يهمله ، فى كتاب كهذا ، قد يعرقل حركة السير . إنه شر لا بد منه لمن يكتب مثل هذه الرحلات ، ولكنك فى قراءة ما يكتبه أمين فى التاريخ لا تجمد ولا تمل ، لأن فى خرج هذا (المغربى) الجديد عقاقير مختلفة ، فهى كفيلة بتجديد نشاطك مهما تبلدت .

يتحدث أمين فى الفصل الأول وعنوانه « من الاستقلال إلى الحماية » عن تطاحن الدول فى المغرب الأقصى ، ويتعرض أخيراً لسياسة القروض الهدامة لحرية الدولة فينقل كلمة المؤرخ جوليان : عندما وقع الباى وثيقة ذلك القرض حكم على تونس بالموت ، « فهل يتعظ سلاطين المغرب ؟ وهل يتعظ أمراء الشرق وملوك الغرب ؟ وهل تتنبه الشعوب العربية ؟ »

ويعبر عن سياسة الانتهاز فى هذا الفصل بقوله : هى سياسة المطرق والحديد الحامى . اضرب وعجل بالضرب .

وعجل كذلك بالبيان ، اطمئنانا للمضروب ، وإن كان لا يحسن الظن بالضارب . . . »

وإذا ماشيت الريحانى ، ولم تتركه يمشى وحده ، تحظى بتهكمه اللاذع كقوله، مثلا ،حين تكلم عن تسمية الأندلس: « فما هى (البنسولا) بلغة قحطان ؟ يقول صاحب محيط المحيط ، الناقل عن الفيروزابادى والمكمل لأغلاطه ، يقول بعد أن يحدد الجزيرة تحديداً صحيحاً : (وإذا أحاط (الماء) بها إلا من جهة واحدة قيل لها شبه جزيرة وبحيثجزيرة . فمن أين جاء المعلم بطرس بهذه البحيثجزيرة ؟ إن كان المعلم بطرس ناقلها أو مخترعها ، فهو يستحق أن يذكر فى صلوات الأب أنسطاس الكرملى المحترم » .

ويرى أمين مدينة (سبتة) فتستيقظ عروبته ويقول ، ولكن هل نامت عروبته ساعة من العمر حتى نقول استيقظت ! قال :

« كنت أتوقع أن أرى على شاطئ أفريقيا مدينة أفريقية عربية ، فرأيت مدينة أوربية إسبانية فى كل أحوالها ومظاهرها — فنبا القلب وخاب الأمل » .

وأمين كما عرفت ، من الكتاب القلائل الذين يجسدون فى تصويرهم المرئيات حتى يخيل إليك أنك تراها . يصف لنا

مناظر الأندلس الطبيعية بل كل ما فى الأندلس من عمل الله والإنسان . رأى شيخاً يؤلف من الطين قطعة من الفسيفساء ، فقال له أمين مشيرا إلى الرسوم أمامه : هذه ؟

فأجابه فوراً : « منها القديم المقلد، ومنها الجديد المولد » قالها بالعربية الفصحى فأعجب بنطقه أمين وقال : ولكن الأستاذ من المتعلمين وإن لعب بالطين . . . »

وهنا فليسمح لى صديقى أمين أن أذكره ، أن (الأستاذ الأعظم) كان أول اللاعبين بالطين ، فجاء فى تماثيله عباقرة ومجانين . . .

ومما أعجبنى من مبتكراته الكلامية فى هذا الكتاب تعبيره عن ابتسامة دليله الصفراء : «فكانت لهجة دليلى مذهبة بابتسامة الرضى » وقوله فى مكان آخر : « أما المدينة فهى تفدى نفسها بالمال وأما الديمقراطية أختها بالسفاح ، فإن لها مثل القطط سبعة أرواح ، فلا خوف على الاثنتين ولا هما تحزنان » .

ويحدثنا عن طريقة فى سجن المجرمين من أطرف الطرق وخيرها وأحدثها ، فكأن المجرمين فيها يعيشون أحراراً ، ثم يخرجون رجالا فاضلين مستغنين بالعمل عن الإجرام .

وفى معرض الكلام عن « العرب والبربر » يجدد أمين عهده للعروبة فيقول : « ووجهة نظرنا هى وطنية إنسانية ،

ووطنيتنا هى عربية قومية لا عربية إسلامية . فقد جهرنا بذلك مئة مرة ومرة ، ولا ننفك نجهر به فى كل ما نكتب عن هذه الأمة العربية ونهضتها ، وأشواقها وآمالها إن كان فى المشرق أم فى المغرب . وإن لنا فى الوطنية غرضاً أكبر فيها . ذلك الغرض ناشىء عن الحقيقة التاريخية الظاهرة الباهرة ، وهى أن العرب عنصرهم من العناصر الإنسانية المتحضرة ، العريقة فى الحضارة الناشرة أعلامها فى العالم . وإن لها مطالب قومية وأمانى سياسية ، لا تتجاوز حد تحقيقها إلا لتكون والأمم الأخرى على ولاء تام ، وعاملة لتحقيق الإخاء الإنسانى ، والسّلم الدولى العام فى العالم » .

وقد كتب فى « أشبيليه » فصلا شعريًّا كما فعل فى قلب لبنان وغيره من كتب رحلاته .

ويتحدث عن الفن الأندلسى الإسبانى حديث ناقد خبير ثاقب النظر ، فيصف أدق أسراره ، ويكشف للقارئ خبايا جماله ، ويقول حين يتكلم عن النهضة العربية الثقافية الوطنية «إنها لا تزدهر ازدهاراً شاملا إلا بعد أن يخرج الأجانب المسيطرون من البلاد العربية » .

وبعد هذا يرسم للجنرال فرنكو صورة ناطقة مستخرجاً من ظاهره ما يدلك على باطنه . وقصارى القول فى هذا الكتاب أنه

طاووسى الشكل ، فنصيحتى لمن يقرأه — ويجب أن يقرأ — ألا يدعه قبل أن يأتى على آخره . فهو ينتقل فيه من فصل ممتع إلى فصل أمتع . وحسبك أن تقرأ فصل « الريسونى » لتوافقنى فى كل ما قلت .

ونبلغ فصل « بطولة الأولين » فنسمع كلمة حر صادق ما حابى طول حياته أحداً حتى أعز أحبابه وإخوانه ، قال : « ليس فى الفاتحين شعب يضاهى العرب اقتدارا وانتصاراً ، وليس فى المتقهقرين من يستطيع أن يشق غبارهم . سقطت قرطبة ، فتعددت القرطبات الساقطات » .

ويروى أشياء عن ثورة فرنكو يطيب لك أن تقرأ تفاصيلها الغريبة ، وخصوصاً حكاية الجنرال مسكردو وولده التى تذكرك بجهاد العرب الأولين وتضحياتهم العظمى .

هذا ما حدثتك به هنا عن كتاب المغرب الأقصى ، وقد مر بك أشياء عنه فى مواضع متفرقة . إن التلخيص كماء الورد ، أما قراءة الكتاب كاملا ففيها ما يبهج الحواس جمعاء .

فإلى حديقة « المغرب الأقصى » يا صاحبى .

رضيت من الغنيمة بالإياب

الريحانى الذى مات عن لا شيء من الثروة إلا ١٥ ليرة لبنانية فى بنك إسكندر حداد ، و ١٢ مثلها فى بنك دى روما ، وخمس ذهبات فى جيبه . والريحانى الذى كان يقول لأخته سعدى حين يعطى السائل كل ما يملك : الكفن لا جيب له يا سعدى . هذا الريحانى قد عاد من رحلاته كلها ولم تكن يده السفلى أبداً ، اللهم إلا بعض هدايا : سيف ابن سعود الخاص الذى حارب به ابن الرشيد ، قرابة من ذهب ونصله يرجع تاريخه إلى الفتح الإسلامى فى إيران .

وأهدى الشيخ خزعل إلى جلالة عبد العزيز سجادتين يوم كان الريحانى عنده ، فقال الملك : نحن سكان خيام ، أعطوهما للأستاذ الريحانى . اسم إحدى هاتين السجادتين شجرة الحياة ، واسم الثانية الكرة الأرضية .

وهناك هدية ثالثة من الطويل العمر وهى فرس أصيلة مسماة نوره باسم شقيقته .

وأهدى إليه سلطان لحج صندوقة نحاس مزركشة ، و « مداعة » طول نربيجها ١٨ قدما .

وعرض عليه الملك حسين الألقاب والأوسمة فأبى ، ولكنه

قبل منه خنجراً — شريفاً — وقطعة من كسوة الكعبة ، وهذه لم يحزها مسيحى .

وقد رأيت فى البيت مسبحة مسيحية قيل إنها هدية من البابا لزوجة أمين ، وقد حولتها تلك الزوجة إلى أم أمين . أما أثاره فركوة قهوة وغلايين ، وريش ، وضبوة وقليل من التبغ ، وقلم حبر وقلشين وعصا ، والساعة وبندها المشهور أى لقطتها التى كانت تتدلى على صدر أمين فيبدو بها كأحد رجالات فجر القرن التاسع عشر .

ورغم جهاد الريحانى ونضاله لم نفكر حتى الآن بتشييد ضريح له . وقد صنع المهاجرون تمثالا له وأرسلوه إلى سوريا لينصب فى هذه الديار ولكنه ما زال نائماً نومة أهل الكهف .

رحم الله الريحانى الذى عاش ومات أميناً .

مائدتى

تحت هذا العنوان كتبت عدة رسائل إلى أصحابى ورفقائى الذين غادروا هذه الدنيا الباقية ، فكان أولها هذا الكتاب ، إلى الريحانى حين حالت (المراقبة) فى (الحرب الثانية) دون الكتابة عنه .

أخى أمين .

يا سبحان الله ، ما كنت أحسب أنك ستكون أول مدعو إلى مائدتى. وكأنى أراك بعينى ، وأسمعك بأذنى تتساءل وتقول: « وما مائدتك يا رجل .

ليست مائدتى أكلا وشرباً ، بل براً وسلاماً كملكوت الله . هى سفرة بلا ملاعق . أمدها فى هذه الزاوية من « المكشوف » داعياً إليها الناس من بنى وبنى . . . كثيراً ما أجلس المدعوين عليها ، أما حضرتك فمدعو، اليوم للجلوس إليها ، ويا ألف مرحباً .

كيف حالك اليوم ، لا شك أنك عندك خير منك عندنا . السؤال بارد ، والجواب صقيع وجليد . إياك والجواب .

دع هذا المنديل الأخضر المعصوبة به عيناى . إنه أشد التقاطا لرسوم الأحلام والأمانى من منديل فيرونيكا الفوتوغرافى . وما أظرف تلك الشياطين التى توسوس فى صدورنا فنضحى بمنافعنا المحسوسة لنتحقق أمنية قد تكون أكذب من أخواتها وأبشع منهن .

ما لنا والفلسفة . كيف حال من عندك ؟ كيف أخونا جبران ، وصاحبنا فليكس ، وعمنا رشيد ، ماذا أحدثوا بعدنا . أأنجز جبران صورة سلمى كرامه ؟ هل انتصب فليكس خطيباً أمام الشيخ السرمدى . وهل التقى أبو أمين بأم القميص الزهر ، أم تراه أنشد البطرك إلياس أحد أزجاله . هل غضب غضبته (الهاشمية) ساعة عوقوك عن الدخول ؟

أكان (أخوك فيصل) أول من اجتمعت به تحت زيتونة الجنة ؟ يا الله ! ! كدنا ننسى أستاذنا الشميل .

كيف صحته ، أيطبب يا ترى ، أم يناقش توتنخمون فى المذهب الدروينى ؟ .

لا تقل ما هذه الرقاعة ، أبهذا الكلام الفارغ تودع أصحابك ؟ غض النظر يا أمين . والله العظيم ، نهضت للقيام بالواجب فوقع الطبق ، وكبت الصحون . يا ليت . تكسرت كلها . . .

يعز على الأوس بن تغلب ساعة　　يسل على السيف فيها وأسكت

أنت « بعبع » يا أخي ، قبل الموت وبعده . وإلا فكيف يخنق قلم يودع صديقه الراحل ! إن تشييع المقضى عليهم بالصلب غير محرم .

تذكر كلمة ذاك الوزير فى الجاحظ : أثق بظرفه ولا أثق بدينه . أما أنا فوثقت بظرفك ودينك معا . أثبت أنك ممن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فأبوا ذلك على وعليك . أنت والله أشد إيماناً من ابن طيما . وحسبك أنك قلت : ليس فى حقائق الوجود كلها أنصع من حقيقة البعث والخلود . « فيصل الأول ص ٢١٦ » .

أواه ! ! لولا تعطينى بعض هذا اليقين فأقول لصنين : « تعال إلى هنا فيجى. صدقنى يا أخى إذا قلت لك: ما زلت كما فارقتنى . مثل ذاك المطروح عند بركة « حسدا » ليس من يرمينى فيها إذ يحركها الملاك ، ولا من يصيح بى : احمل سريرك وامش . فما أنكد عيش المخلعين .

لا تسألنى عن شيء ، فحالى وحالك كبطرس كرامه مع أميره بشير حين أرسله رائداً فكتب إليه : الصندوق فى سطمبول والمفتاح فى لندره . أما صرت روحاً خالدة فافهم عنى واتركنى إلى حين ، إلى الساعة التى ينطلق فيها قلمى فيتجسد

رأيي فيك كتاباً . إنك تاريخ حقبة مر فيها العقل الشرقي بأزمات حاولت أنت أن تفرجها ، فمت ولما تستول على الأمد . أما الآن : فنحن سكوت والهوى يتكلم .

خضت المعارك لا تخشى من الرمد ، فمن فراشة فى شعرك المنثور إلى نسر قشعم جثم على قمم المنابر . وحملق بشمس الحقيقة بعينيه الثنتين .

أوه ، الحمد لذاكرتى لم أنس أن أقص عليك خبراً فرّحنى جداً . خبرنى صديق الطرفين الأستاذ خليل تقى الدين أنك (عدت) إلينا وقرأت فى (المهد) عدد المكشوف الخاص هاشا باشا . أما ألف باء الأرواح فأنبأتنا أنك تائه فى برية كالدهناء . . . وفيما أنت تتكلم إذا بروح تطلع علينا طلوع صموئيل على عرافة عين دور ، احزر روح من هى .

كان محدثنا الشميل ، قال : أمين لم يصل بعد . الحبائل نصبت فى طريقه . عدّوه خطراً على العرش . ولكن شفاعة أمه ستقضى على تلك الدسائس .

بحياتك يا حبيبى ، جاوب عن كل هذا أوّل بأول . ليتك تتلفن فيرتاح بالنا . قد تكون تلك السقطة نستك بعض الأرقام . اطلب عاليه رقم ــ١ ــ ٤٨ تجدنى منتظراً .

(سرا) حيرنى ، والله ، ختام مكتوبى هذا ، لا أدرى

كيف انتهى . ألك كيان فأقبلك ، أو أكتفي بالتحية من بعيد . . .

أخوك مارون

عاليه ٣ / ١٢ / ١٩٤٠

الجديد فى المحفوظات العربية

أربعة أجزاء

تأليف

لجنة من أساتذة البلاد العربية

طبعة جديدة معدلة مزينة بالرسوم الملونة تقدم للطالب فى مختلف مراحل التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى مجموعة منتخبة من الشعر والنثر تزوده بثروة وافرة من الفصحى وتصقل ملكاته وترهف فيه الإحساس والشعور .

دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

أنشئت سنة ١٨٩٠

- الدار العربية الأولى التى قفزت بالكتاب العربى إلى أوج الكمال .

- الدار العربية الأولى التى تخرّج على كتبها المدرسية القيمة الأنيقة أفواج الأدباء والمتعلمين فى القرن العشرين .

- أعدّت عدّتها لتزويد الطلاب عند افتتاح العام الدراسى بمجموعة وافية من الكتب المدرسية وكتب الأطفال والشباب .

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو المتعـــة والثقافـــة وسمو النفس .

تصدرها

دار المعـــارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد

عبد السلام فهمي

البساط السحري

الرادار والراديوفزيون

اقرأ ١٣٢
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٣٢ - أول ديسمبر ١٩٥٣



العجائز وبساط الريح

لو أننا تذكرنا الآن ما كانت تلقنه لنا العجائز فى طفولتنا من أحاديث « الشاطر محمد » و « خاتم سليمان » الذى كان يتنقل به إلى « بنت السلطان » فى لمحة من الزمان ، لقلنا إن ذلك كان يعد بالأمس من ضروب الإفك والبهتان ، ولكنه أصبح اليوم حقيقة ماثلة للعيان ، فلقد استطاع الإنسان أن يطير فوق « بساط الريح » إلى أى مكان فى المعمورة ثم يعود أدراجه بعد طرفة عين وهو لم يبرح فراشه الوثير ! فما أحكم هؤلاء العجائز فقد صدقت نبوءتهن عن عجيبة اللاسلكى الذى ولد الرادار .

ما هو الرادار ؟

تعال معى يا أخى نذهب إلى سفح الجبل ثم نادنى هنالك بأعلى صوتك فماذا أنت واجد ؟ . . أفلا تسمع صوتك وهو يرتد إليك من الجبل ؟ . . . فلنسم هذا الانعكاس . « بالرادار الصوتى » .

وإذا أردت — بعد أن استمعت إلى صوتك — أن ترى وجهك فماذا أنت صانع ؟ . . أفلا تنظر فى مرآة ؟ فكيف

يا ترى قد تمت المشاهدة ؟ أليس ذلك بانعكاس الأشعة الضوئية ؟ . . هذا ما يشبه الرادار إلى حد كبير على اعتبار أن انعكاس ضوء المرآة يقع فى الهواء بخلافه فى الرادار فإنه يحدث فى الأثير .

وإذا ما أردت معرفة الفرق بين الهواء والأثير فاستحضر زجاجة من الشراب الطهور ؛ ودعنى أطرح عليك سؤالا من شقين : إذا شربت هنيئاً ما فى الزجاجة فما الذى يتبقى بها ؟ طبعاً هو الهواء ، أليس كذلك ؟ ولكن إذا ما فرغ هذا الهواء منها فهل تدرى ما عساه يوجد فى الزجاجة ؟ إنه يا أخى هو الأثير الذى تسبح فيه الموجات اللاسلكية .

والرادار هذا كما يسميه الأمريكيون ، أو الكشف المغناطيسى كما يسميه الفرنسيون ، أو الكشف اللاسلكى كما يسميه الإنكليز ، أو صدى اللاسلكى كما يصح أن نسميه بالعربية ، إن هو إلا أداة للكشف والتنظيم بوساطة اللاسلكى كما تدل على ذلك مقاطع الاسم المختار . فالحرفان الأولان « R A » يشيران إلى « Radio » والحرف « D » المتوسط مأخوذ من كلمة « Detection » أى كشف ، والحرف الأخير «R» مشتق من لفظة «Ranging» أى تنظيم . والطريف فى هذا الاختيار أن اللفظ يقرأ من أوله كما يقرأ من آخره .

الرادار الطبيعي

أتذكر حينما ذهبت معى إلى سفح الجبل وسمعت صوتك وعرفت أنه هو الرادار الطبيعي الذى لعب دوره معك فى هذا الشأن ؟ فإذا علمت أن سرعة الصوت فى الهواء هى ١٠٩٠ قدماً فى الثانية ، وأن الزمن الذى عاد فيه صدى صوتك إليك كان ثانية واحدة ، كان من السهل عليك أن تقدر المسافة بينك وبين الجبل بمقدار نصف سرعة الصوت ، أى ٥٤٥ قدماً ، على اعتبار أن السرعة هى للذهاب والإياب معاً . . . تلك طريقة بسيطة لقياس المسافة التى تقع بينك وبين سطح عاكس للصوت ، وهى قياس الوقت الذى مضى بين انتشار صوتك وسماعك صداه ، ثم ضرب نصفه فى سرعة الصوت ، فإن الناتج هو البعد المطلوب . فلماذا لا تطبق هذه الوسيلة نفسها مع صدى الراديو ، وموجاته تسير بسرعة الضوء [١] ، فيمكننا تحديد مواقع ما يسبح فى الجو من طيور أو ما فى باطن البحور من صخور .

وإذ نحن الآن بصدد الحديث عن الرادار الطبيعي فدعنى

---

(١) ينطلق الضوء بسرعة مليون قدم فى الثانية ، وأول من خطر له أن يسخر انعكاس الضوء فى قياس المسافات هو المهندس الفرنسى «إيرمان فيرر» سنة ١٨٤٩ .

أحدثك قليلا عن عظمة الخلاق العظيم التى أودعها فى الخفاش، فقد كان مفتاح الطريق لكشف الرادار . فهذه الطيور الثديية تسترشد فى طيرانها خلال الظلمة الحالكة بانعكاس صريرها من الجدران فيقود زمامها « الرادار الصوتى » ؛ وعلة عدم استماعنا لصرير الخفافيش إنما يرجع إلى صدوره منها فى صرخات ثلاثية : « تات — تات — تات » بمعدل ثلاثين صرخة فى الثانية ذات ترددات تفوق ٥٠,٠٠٠ ذبذبة . ولعل هذا هو سر طيرانها بسرعة فائقة فى فضاء المغارات دون أن تصدم خيطاً رفيعاً مشدوداً فى طريقها بفضل ما وهبها الله من أذن دقيقة تلتقط أخفت الأصوات . والسبب فى عدم سماعنا لصرخات الخفافيش هو أن أجود الآذان البشرية لا تستطيع أن تسمع أصواتاً تفوق تردداتها ٢٠,٠٠٠ ذبذبة فى الثانية ، بل إن أكثرها لا يلتقط إلا ما كان من مرتبة ٨٠٠٠ ذبذبة . وأذن الكلاب تفوق آذاننا من هذه الناحية فهى تقدر على استماع ٣٥,٠٠٠ ذبذبة ، والفيران لغاية ٤٠,٠٠٠ ذبذبة ؛ ولم تصل أذن حيوانية إلى قدرة الاستماع لأصوات الخفافيش !

وقد سجلت أصوات الخفافيش فوجد أنها مطابقة فى تكوينها الكهربى والمغناطيسى لموجات الرادار ، فكل صرخة تصدر منها تستمر حول ٠,٠٠٥ من الثانية ، تعقبها فترة سكون ،

ثم يتردد بعضها فى أثر بعض بهذه الصورة بمعدل ثلاثين مرة فى الثانية . ولقد وجد من دراسة هذه الخطوط المسجلة أن مرات الصرخات تزداد كلما اقترب الحيوان من العوائق . ومن روائع حكمة الله أن الخفاش حينما يصرخ تتسع عضلات أذنيه الداخلية وبهذا يمسى أصم لا يستمع صوت نفسه حتى إذا انتهى من صرخاته انقبضت هذه العضلات وعادت لحالتها الطبيعية كما تعد الأذن نفسها لالتقاط صدى الأصوات الذى يسترشد به فى جولاته . على أن الخفاش لا يفتأ يرسل صرخاته حتى فى أوقات سكونه بمعدل عشر مرات فى الثانية لكى يدرس مواقع ما يحيط به .

أما كيف لا تختلط أصوات الخفافيش بعضها ببعض حينما تطير جماعات فى مكان واحد فإنما مرد ذلك لاختلاف أطوال الموجات الصوتية مما يجعل كل حيوان لا يستمع إلا صدى صوته دون غيره شأننا تماماً فى الاستماع لمحطات الإذاعات حيث لا يذيع المذياع إلا المحطة التى يضبط عليها . فما إن تحقق الإنسان مما لانعكاس الصوت من أثر فى حياة الخفاش حتى دفعه حبه الشديد للتجديد والتقليد لأن يسخر ما رأى من انعكاس الصوت فى انعكاس الضوء ، فكان الرادار . .

قصة الرادار

لست أجد أمامى أبلغ مما قاله شكسبير فى قصته اليتيمة « يوليوس قيصر » من أن العين لا تستطيع أن تبصر نفسها بنفسها ، ولكنها لو شاءت ذلك فإنما بالانعكاس وبأشياء أخرى . وكأنى به وهو يتحدث عن انعكاس الضوء على سطح المرآة فى زمانه كأنما كان يتنبأ بالرادار . . . فمنذ أن كشف اللاسلكى قدر العلماء أن هذه الموجات الخافية يمكن انعكاسها كما ينعكس الضوء من المرآة . ونستطيع فى هذا المقام أن نشبه موجة الرادار بشعاع كشاف يدور ضوؤه فى الظلام فيكشف أمامه كل ما يعترضه من أشباح ، لأن إشعاعات الضوء قد صدت وانعكست أمام العين ، مثل موجات الإذاعة فهى لا تصل إلى أجهزة الاستقبال فى منازلنا إلا بعد انعكاسها من مرآة الجو ، وهى التى تعرف بمنطقة « هيفى سايد » ؛ فلولا هذا الانعكاس — الذى أشار إليه شكسبير — لما استطعنا الإبصار ولما كشف الرادار .

لقد وقف اللورد « بيفر بروك » الوزير البريطانى فى ١٧ يونية سنة ١٩٤٣ خلال الحرب الماضية يذيع على متن الأثير بأنه هو الأثير الذى يفتك بالعدو فى الظلام باحثاً عنه بين

السحاب ، ويبعث إليه بالمقاتلات فتورده موارد الهلاك .
فدهش الناس وهم يستمعون منه هذا الوصف العجيب . وراحوا يقولون لعله قد وفق إلى كشف شعاع الموت . وتبين آخر الأمر أنه إنما كان يقصد الرادار الذى أنقذ إنجلترا مما مر بها من أهوال جسام كادت تقضى عليها . أو لم يصرح السير « ستافورد كريبس » أنه لا يدرى ماذا كان يصيب الإنجليز لو لم يسعفهم الرادار؟! مما دعاهم لأن يستزيدوا من باعهم فى هذا المضمار فأعدوا فى ذاك العام جهازاً متنقلا خاصاً بالمرافئ الجوية لتنظيم إرساء وقيام الطائرات ، وله هوائى مثبت على منارة عليا تتم دورتها فى ثانية ، ويمسح شعاعها سطح المطار ويصور ما يقع على أرضه فتجرى الملاحة الجوية فى سلام . وفى عام ١٩٣٦ لم يكن لدى إنجلترا أكثر من خمس محطات للرادار لحراسة شواطئها فزيدت بعد عام إلى ١٥ محطة ، حتى إذا ما أعلنت الحرب كانت جميع شواطئها قد استوفت حاجتها من هذه المحطات بعد أن صرف على إنشائها ٣٦ مليوناً من الجنيهات. وما قيمة هذا المبلغ أمام الغارات الألمانية « لوفتواف » التى كانت تلهب سماء لندن ؟ وقد وجد الألمان مقاومة عنيفة لم يكونوا يتوقعونها ، ففى أغسطس عام ١٩٤٠ ، أى بعد نشوب الحرب بعام ، بلغت الخسارة فى الطائرات الألمانية بنسبة ١٥ ٪ حيث أسقطت

٩٥٧ طائرة ، وفى موقعة سبتمبر فقد من الطائرات النازية ١٨٥ طائرة من بين ٥٠٠ مقاتلة . وناهيك بما كانت تحدثه الغواصات الألمانية من حصار الشواطئ الإنجليزية لمنع المواد الغذائية من الوصول إليها وما كان من شأن الرادار فى المحافظة على القوافل التجارية ووصولها سالمة ، فكان نعم السلاح الخفى الوفى فى الجو والبحر !

إذاعة الأسرار

« إن الريح لهى خير ناقل للأخبار »

شكسبير — « ريتشارد الثانى »

حينما أعلنت الحرب العالمية الثانية شاع أن هناك كشفاً لاسلكياً جديداً خصص لمقاتلة طائرات العدو ، وأخذ الناس بين هذه الظنون يضربون أخماساً فى أسداس ، فبعضهم يصوره بشعاع يشل حركة الطائرات ويجذبها أرضاً ، وبعض آخر يذهب مذاهب شتى لأنهم كانوا لا يعلمون من الأمر شيئاً حتى إن عمال المصانع أنفسهم كانوا يعدون العدة وهم يجهلون حقيقة ما يعملون ، فلو سألت أحدهم عما بيده لهز كتفيه ، لأن السر كان فى حرز حريز ، ولم تبدأ أسراره تتكشف إلا بعد أن استخدمت أمريكا الرادار فى شئون بحريتها ومطاراتها ،

حتى إذا وقعت فاجعة « بيرل هاربور » ، عرف ما لهذه الأداة من فضل وما لهذا السلاح من قوة .

فيروى أن عامل الرادار الأمريكى « لوكارد » كان يقوم بعمله فى مراقبة أحد المطارات ، وبينما هو يعد عدته للرواح إلى منزله إذا بزميله « إليوت » يحاوره فى شئون الرادار ، مما اضطر الأول لإعادة تشغيل الجهاز ، ولم يكد يفعل هذا حتى رأى على شاشة الرادار منظراً ارتعدت منه فرائصه ، إذ شاهد عليها عدداً هائلا من الطائرات ، كما سجل الجهاز أنها تقع على بعد ١٣٠ ميلا من الجزيرة ، ولكنه لم يلق بالا لما رأى وكذب ناظريه ، بل لقد علل ظهور الطائرات باضطراب أصاب الجهاز ، وأن هذه الطائرات لو كانت حقيقة واقعة فلا بد أن تكون أمريكية وليست معادية لأنه كان نمى إليه قيامها لغرض التمرين فى ذلك اليوم ، فتجمعت كل هذه الظنون لكى تحل الطامة الكبرى بعد أن صدق الرادار وكفر الإنسان بصحة ما دار !

وهل أتاك حديث آخر لإعجاز اللاسلكى ؟ ! ففى أبريل عام ١٩٤٠ بينما كان عامل اللاسلكى « هارولد كوتام » فى الباخرة « كارباتيا » معتزماً الذهاب إلى فراشه ليلا إذ خطر له أن يعود إلى جهازه ثانية لكى يستمع إلى تطورات إضراب

عمال الفحم فى إنجلترا ، ولشد ما كانت دهشته حينما سمع استغاثة لاسلكية من ملكة البحار الجديدة الباخرة « تيتانيك » لاصطدامها بجبل ثلجى فى وسط المحيط ، وأنها بدأت تغرق فوصلت الباخرة الأولى إليها بعد قليل وأمكنها إنقاذ ركابها . ومن ثم تسربت أخبار الرادار إلى الصحف ، وكانت أولى الرسائل تلك التى نشرتها صحيفة « نيويورك هرالد تريبون » بعددها الصادر فى ٤ مايو سنة ١٩٤٣ حيث قالت :

لعل حماتنا هم أول من يقدرون الرادار حق قدره ، وهو تلك الأعجوبة الألكترونية التى تكشف الجو والبحر وترشد عن اقتراب العدو وتحدد لنا مواقعه من بعيد ، ويكفى أنه هو الذى أنقذ أبناء عمومتنا الإنجليز من جحيم المدفعية الجوية « لوفتواف » الألمانية فى معركة بريطانيا ، وهو الذى صدق فى الإخطار عن اقتراب الطائرات اليابانية من « بيرل هاربر » ؛ وكان أول ظهوره فى بلادنا يرجع إلى عام ١٩٢٢ ولكنه لم يستعمل إلا فى الأغراض السلمية ، أما استعماله فى الأعمال الجوية فلم يبدأ إلا فى عام ١٩٣٤ فظل العين الحارسة لنا ليل نهار !

على أن الرادار لم يكن أمره مقصوراً على الحلفاء فى الحرب الماضية فحسب ، وإنما كان معروفاً أيضاً للدول المحور ،

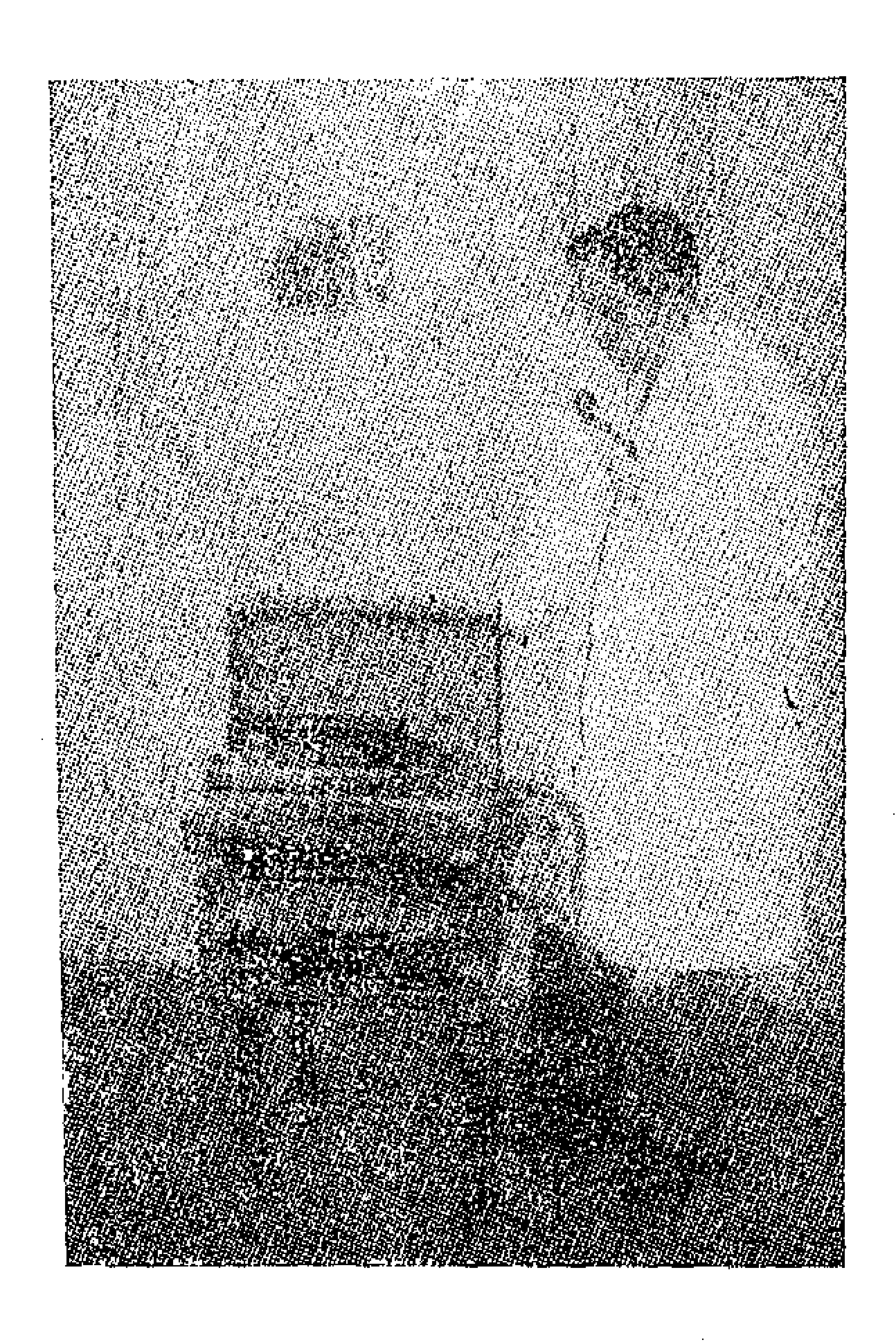
فقد أنشأوا أجهزة لأنفسهم أسر الحلفاء بعضها فى تلك الغارات الجوية التى شنوها على الساحل الفرنسى فى ٢٧ مايو سنة ١٩٤٢ ، حيث استولوا على مهمات لمحطة رادار مقامة فى « برونفال » شمالى الهافر . وكان اليابانيون يطلقون على الرادار « دمياتانشيكى » بمعنى الكشاف الكهربى .. كما أن الألمان كانت لديهم شركة تليفونكن التى أنشأت فى عام ١٩٣٥ أجهزة ذات موجات قصيرة طولها عشرة سنتيمترات تستطيع أن تحدد فى دقة فائقة وفى جو ملبد بالغيوم والأدخنة والضباب موضع الطائرات . وكذلك إيطاليا كانت قد وفقت إلى اكتشاف السر فى عام ١٩٣٦ حينما كانت البحوث فى أمريكا تجرى على قدم وساق .

وبالنسبة لما كان يلعبه الرادار فى الحرب الماضية من الدور الخطير أقدمت إنجلترا فى إحدى ليالى يونية عام ١٩٤٤ على دك أكبر مصنع للأجهزة اللاسلكية فى « فريلركسهافن » بألمانيا . ولما دخل الروس برلين وجدوا مصنعاً أسفل معبد لإعداد أجهزة للرادار فى قدرتها تحديد حجم الطائرات ووزنها بل وسرعتها . فيالها من عقول جبارة !

الوقاية من الرادار

بعد أن كشف الرادار موقع الطائرات من بعيد وهى

فى جوف السماء وسلط عليها أفواه المدافع بصفة آلية ، كان طبيعياً أن يتجه التفكير إلى وسيلة تضلل عمله ، وذلك إما بإضاعة الصدى أو بإضعاف قوة الانعكاس . وليس من شك أن الألمان واليابانيين كانوا يجهدون أنفسهم فى إخراج أكبر عدد من أجهزة الرادار ، لذلك كان أكبر همهم هو تعمية تلك العين المبصرة التى لا تكل من عملها آناء الليل وأطراف النهار ، حتى طلعت علينا أخبار واشنجتون فى أبريل عام ١٩٤٤ عن حيلة لمقاومة الرادار نفذها الإنجليز ونقحها الأمريكيون ، وهى إسقاط الأطنان من قصاصات رقيقة من القصدير يختلف عرضها بين $\frac{١}{١٦}$ و $\frac{١}{٤}$ بوصة وسمكها ٠,٠٠٠٨ من البوصة ، فتسقط فى الهواء ببطء حتى إنها تصل إلى سطح الأرض من ارتفاع ٣٠٠٠٠ قدم خلال ساعتين ، والغرض من إسقاط هذا الوابل من الوريقات المعدنية هو تكوين ستار أسفل قاذفات القنابل ، فتعكس موجات الرادار من ارتفاع كاذب يجعل إصابة الطائرات بالقذائف عسيراً . ثم جاء من بعدهم الألمان وصنعوا هذه القصاصات من الألمنيوم بدلا من القصدير . وكما أن الهدف فى هذه الطريقة هو إعاقة وصول الصدى إلى جهاز الاستقبال فإن هناك طريقة أخرى يعمدون إليها للتشويش على سريان الموجة وعدم وضوح مدلولها



جهاز التليفزيون الإخبارى
يحمل فى القطار



التليفزيون يصور عملية
جراحية خطيرة

على لوحة البيان وذلك بإنشاء محطة لاسلكية ترسل موجات قوية طولها طول موجة الرادار فيختلط البيان ولا يفهم منه شيء وهكذا لابد من كفاح لكل سلاح !

جولة الرادار فى الوغى

« ما أصدق ما تنبئنا به أجهزة الظلام فهى وليدة الريح الساحقة التى لا نراها ! » شكسبير (ماكبث)

فى الحروب الماضية ما كنا لنسمع بنشوب معارك بحرية خلال الليل لتعذر إمكان حدوثها على ضوء الكواكب لعدم كفايته لتحديد الأهداف ، ولكن الحال قد تغير فى الحروب الماضية لأن الرادار قد قلب الظلمة ضياء فيلتقى الجمعان متى شاآ ؛ فحينما تقع سفينة العدو بين شباك الرادار فسرعان ما تزأر تسعة من المدافع التى مقاسها ١٦ بوصة وترسل حممها صوب العدو ، ويشاهد مراقب الجهاز فوق شاشته البيضاء كيف تصيب قذائفه أهدافها، ثم يجرى عليها ما يراه لازماً لتعديل اتجاهها لتجىء إصابتها فى الصميم . كل هذه العمليات تجرى بإحكام دقيق وفى سرعة فائقة بحيث لا يفلت العدو سالماً من شراك الجهاز ، حتى ليحدث أن السفينة يكتشفها الرادار ثم يصيبها بمدافعه إصابات شديدة تغرقها من غير أن

يراها إنسان بعينه ؛ فياله من حارس أمين !

وليس عندى أروع من إغراق البارجة الألمانية « شارنهورست» — حمولة ٢٦٠٠٠ طن — فى ديسمبر عام ١٩٤٣ حيث التقطها رادار المدرعة الإنجليزية « بلفاست » من بعد ١٧,٥ ميلا ، فلما التحم الطرفان فى تبادل إطلاق النيران تهيأت فرصة لتخلص القافلة الروسية من حصار البارجة الألمانية لها . وفى هذه الأثناء كانت المدمرة الإنجليزية « دوق أوف يورك » تسرع إلى البارجة الألمانية بعد أن مر طيفها فوق جهازها وهى على بعد ٢٢٣/٤ ميلا منها ، فباغتتها عن قرب وصوبت إليها قذائف نافذة ، وعاونتها أختها « بلفاست » ، ولم يتركاها حتى أخذت مكانها فى قاع البحر .

ولعلنا لا نعرف ما كان للرادار من دور خطير فى وقوع السفن التى كانت تنقل مواد للوقود إلى « رومل » خارج ميناء طبرق غنيمة فى أيدى الحلفاء قبل وقوع معركة العلمين ، مما جعل المارشال « تيلر » رئيس قوة الدفاع الهوائية بشمال أفريقيا يقرر بأن الرادار قد استطاع أن يشل حركة التموين لقوات « رومل » مما أدى إلى تغيير وجه الحرب وانتصار الحلفاء فوق رمال الصحراء .

ودعنى أقص عليك قصة أخرى تتمثل فيها عظمة الرادار .

فى يونيو عام ١٩٤٣ طار الزعيم الثالث النازى « رودولف هيس » من ألمانيا إلى إسكتلندا ، فأثبت الرادار القائم بحراسة شاطىء « لانكشير » أن هناك طائرة غير واضحة الجنسية ، ويحتمل أن تكون ألمانية ، تقع على بعد خمسين ميلا من الشاطىء ؛ وبعد هنيهة قال المذيع إن الطائرة قد تكون من نوع « مسز شمدت » . وظل يتبع مسارها ، وكانت آخر نشرة أذيعت عنها أنها قد شرعت فى الهبوط حينما اقتربت من ولاية « دوق أوف هاملتون » بمسافة اثنى عشر ميلا . وبفضل هذه المتابعة الدقيقة لم يكد « هيس » يدخل منزل الفلاح الأيقوسى حتى داهمته الشرطة كما لو كانوا معه على موعد من قبل . واعتقد أنها كانت مطاردة كالسحر ، وما هى بالسحر !

وفى عام ١٩٤١ دكت البوارج البريطانية الأسطول الإيطالى بالقرب من « رأس ماتينان » بفضل الرادار ، فأحجمت إيطاليا بعد هذه الموقعة الخاسرة أن تبدى أقل نشاط فى حوض البحر الأبيض فيما بين جزيرة كريت واليونان .

وقبل ظهور الرادار كان نشاط الغواصات الألمانية فى إغراق سفن الحلفاء ، خاصة ما كان منها يحمل مواد التموين ، قد بلغ أشده ، ولكم أغرقت قوافل فى شمالى الأطلنطى ؛

فلما زودت البواخر بأجهزة الرادار فى ربيع عام ١٩٤٤ ، وفطن الألمان إلى ذلك ، منعوا الغواصات من الظهور فوق سطح الماء بعد أن أضافوا إليها أنبوبة « أشنوركل » التى تجلب لها الهواء اللازم لإدارة آلاتها والتنفس وهى مختفية فى أعماق المياه .

الرادار الرائد السحرى

وللرادار فضل عظيم فى إنجاح الغارات الجوية ، فسرب الطائرات المزود بأجهزة الرادار يستطيع أن يقود طائفة منها تساوى قدر عددها ستين مرة وعلى مدى ٧٠٠ ميل . ألا رحم الله العصور الحالية ، فقد حدثنا التاريخ أن سر انتصار إدوارد الثالث على الفرنسيين فى موقعة « كريسى » التى نشبت عام ١٣٤٦ كان القوس الطويلة وتفوقها على القوس الفرنسية . وبعد مائة عام طرد الإنجليز من فرنسا ، وفى عام ١٨٤٣ ظهرت البندقية وحلت فى الحرب مكان القوس والحراب . وفى الحرب الأمريكية المدنية كشفت أسلحة حربية كانت تعتبر وقت ظهورها سرية مثل البواخر المدرعة والغواصات والطوربيد والألغام والبرق . وفى الحرب العالمية الأولى كانت الغواصة قد قطعت شوطاً بعيداً من التقدم والقوة ، كما اتسع نطاق الطيران

واللاسلكى . ولكن أين كل هذا مما أضافته يد التجديد إلى وسائل النار والحديد من قنابل ذرية إلى صونار ورادار وتليفزيون وقذائف صاروخية ؟ ! فالعلم قد قلب الحياة رأساً على عقب وربط بين أصقاع العالم بحيث قد أصبح محالا ترك ناحية منه بمنأى عن الأخرى .

وهل أتاك حديث تلك القنبلة السحرية التى تصيب الهدف فى صميمه ، والتى لعبت دوراً خطيراً فى موقعة بلجيكا ونسف الطائرات اليابانية ، والتى بقى سرها فى حرز حريز ، حتى إذا انقضت الحرب بستة أسابيع بدأت المصادر العليمة بالجيش والبحرية تميط اللثام عن هذا السر الدفين ، حيث عرف أن مجلس الدفاع الوطنى انعقد فى ٢٧ يونيو سنة ١٩٤٠ بمدينة « سلفرسبرج » بإنجلترا للتفكير فى صناعة قذيفة فى حجم زجاجة اللبن تندفع بقوة ذاتية ويقودها اللاسلكى. وتعاون الإنجليز والأمريكان على إنتاجها فوردت الثانية للأولى ٥,٥٠٠,٠٠٠ قذيفة ؛ وكان العمال لا يعرفون من أمر ما بأيديهم إلا أنهم يصنعون « مدام أكس » . وشأن هذه القذيفة أنها حينما تنطلق من فوهة المدفع تولد موجة لاسلكية مستمرة ، وما إن تقترب من هدفها بمسافة تتراوح بين ٧٠ و ١٠٠ قدم حتى تنعكس الموجات اللاسلكية كما يجرى فى الرادار فتتم

دورة الانفجار فتمزق هدفها وهى على كثب منه .

كيف يعمل الرادار

« إنه لأسرع من طيف الخيال ، وأقصر من وميض البرق فى أحلك الليالى ! » شكسبير « ملسمر دريم »

حقاً ما أروع هذا الشاعر وهو يصف حلم الصيف ! فلست أجد أدل من هذا التعبير فى وصف الرادار !

أما كيف يعمل الرادار وكيف يكشف ما وراء السحاب والضباب ويحسب فى دقة بعد الهدف عن سطح الأرض فى طرفة عين ، وأخيراً كيف يسلط بصفة آلية الأنوار الكاشفة والقذائف صوب الطائرات المعادية ، فإليك الحديث :

ليس الرادار إلا ما بين موجة وصداها . ولعلك ألقيت ذات مرة فى اليم حجراً وألفيت ما أحدثه من دوائر تتسع فى الماء حتى تتلاشى كلية ؛ فهكذا سريان الموجة اللاسلكية فى الأثير . ويتركب الرادار من أربعة أجزاء رئيسية : جهاز إرسال للموجات ، وصمام للبيان ، وهوائى متحرك ؛ ثم جهاز لاستقبال الصدى . فحينما تنتشر هذه الموجات المتقطعة من جهاز الإرسال وتصدم فى مسارها جسماً تنعكس ثانية إلى

جهاز الاستقبال ، وتظهر على وجه المنظار فى شكل إشارات وبقع مضيئة يدل موقعها فوق مقياس على بعد ذلك الجسم من الجهاز . فإذا ما تحول الهوائى عن موضعه وصادفه جسم آخر اتخذ له صورة فوق المنظار فترى أن تغيير اتجاه الهوائى فى الرادار من ناحية إلى أخرى للكشف عن مجالات مختلفة هو كتغيير طول الموجات فى أجهزة الراديو للتنقل من محطة إلى أخرى . فإذا نحن جعلنا الرادار يتحكم فى إضاءة الكشافات وإطلاق القذائف من فوهات المدافع فإن الأهداف المهاجمة للسفن أو الطائرات والتى لا تراها العين لن تفلت من هدف هذا الحارس الأمين الذى لا تغمض له عين . وفى اليوم الذى طلعت علينا الصحف معلنة تسليم اليابان فى أغسطس عام ١٩٤٥ عثر على وثيقة يجمل فيها أبناء العم سام عمل الرادار مميطين اللثام عنه لأول مرة ؛ ومما جاء فيها :

إن جهازى الإرسال والاستقبال موضوعان فى صعيد واحد ويعملان غالباً على هوائى واحد ، وتلك الموجات التى تصدر من الرادار فى هيئة نبضات القلب (١) لا تستغرق من الوقت

(١) النبضة اللاسلكية هى طاقة كهربية مغناطيسية قوية لا تلبث إلا بضعة أجزاء من الثانية .

أكثر من جزء من مليون من الثانية ، وبعد أن يتم الجهاز إرسال الموجة يسكن بضعة أجزاء من الألف من الثانية ، حتى يبدأ فى إرسال أختها ؛ والغرض من فترات السكون هذه هو استماع أذن الجهاز لصدى ما يرسل من موجات ، فبدهى أن الوقت الذى يمضى بين صدور الموجة من جهاز الإرسال وبين بيان صداها فى جهاز الاستقبال يحدد بُعْدَ الجسم الذى أرجع الصدى ، سواء أكان جبلا أو بناء أو باخرة أو طائرة من مكان الرادار ، على اعتبار أن هذه الفترة تنقضى بين ذهاب الموجة وإيابها بسرعة الضوء . وسرعة الضوء هى ١٨٦,٠٠٠ ميلا فى الثانية ، أى بمعدل ٣٣٨ ياردة فى كل جزء من المليون من الثانية . فإذا كان هناك جسم يقع على مسافة ١٠٠٠ ياردة من الرادار فإن صدى الموجة يصل إليه بعد ستة أجزاء من المليون من الثانية ؛ ومثل هذه اللمحة العابرة يبدو لنا أن تقديرها عسير ، ولكن العلم جعل من اليسير تقدير الزمن لمسافة خمس ياردات أو عشر . أى بما يساوى جزءاً من ثلاثين من المليون فى الثانية .

هذا عن شأن الرادار فى قياس أبعاد الأشباح التى تعترض مسار موجاته . أما عمله فى تحديد اتجاه تلك الأشباح فيتلخص فى أن الجهاز مزود بهوائى متحرك يمكن توجيهه وفق

الإرادة ، فحينما وقع الشبح رأيت على وجه المنظار ضوءاً يكون أشد وضوحاً وسطوعاً وتركيزاً من أضواء الاتجاهات الأخرى ، حيث يكون وجه الهوائى مصوباً نحو الشبح تماماً ، ويكون هذا الموضع هو الذى تصوب إليه فوهات المدافع المضادة للطائرات أو الغواصات ، وهذه العملية يتولاها الرادار بنفسه قبل أن يغير الهدف مكانه فلا تتحقق الإصابة .

كيف يرى الرادار مدينة وهو طائر فوقها ...؟

يشاهد مراقب الجهاز سطح الأرض كما يراه فيما لو سلط عليه شعاعاً قوياً من كشاف . فالأنهار والبحيرات والبحار تظهر حدودها سوداء ، أما الأرض بما عليها من تلال ومبان وقناطر فإنها تظهر على الشاشة وهى مضاءة ، فإذا مرت طائرة فوق أرض جبلية فإن الرادار يصور منظراً بارزاً كما يظهر وجه القمر خلال عدسة منظار المرصد ، فكما يرى القمر من انعكاس أشعة ضوئه فكذلك الأجسام ترى على وجه الرادار بالأشعة اللاسلكية المنعكسة من تلك الأجسام وفى وسطها بقعة ترشد عن موقع الطائرة .

عليه أن يبين لذلك ثلاثة أشياء : بعدها عن الجهاز ، وارتفاع الطائرة ، ثم مقدار تلك الزاوية التى يصنعها فى الجو مع موقع محطة الرادار . فأما البعد فيقرأ موضحاً بالأميال على وجه الجهاز الألكترونى ، والزاوية الانحرافية هى الزاوية نفسها التى يحدثها الهوائى مع الأفق ، وهى تعتبر زاوية الارتفاع . فمتى عرف بعد الطائرة عن الجهاز ثم مقدار هذه الزاوية أمكن بواسطة حساب المثلثات إيجاد ارتفاع المثلث القائم الزاوية ، أو بعبارة أخرى ارتفاع الطائرة عن سطح الأرض . وطبيعى أن إجراء هذه العملية الحسابية لم يكن من شأن الرادار بل قد خصص لها جهاز خاص يتصل اتصـــالا وثيقاً بحركة الهوائى ، فهو يسجل مقدار هذه الزاوية بالدرجات كما يسجل الارتفاع من غير أن يكلفك أكثر من قراءته وبهذا ترى أن الرادار قد بلغ الذروة كما لو كان ككلب الصيد الذى ينطلق ولا يعود إليك إلا وهو حامل لك صيدك الثمين مهما حالت دونه الحوائل .

أما إذا لم يجد شعاع الرادار أمامه ما يعكسه فإنه يتخذ طريقه منطلقاً فى الأثير على خط مستقيم حتى يفنى فى الفضاء .

والرادار يرسل نبضاته فى هيئة إشارات قصيرة منفصلة عن بعضها للاستعانة بها على قياس الأهداف البعيدة . فحينما تصدر أول نبضة تظهر علامة على ستار الجهاز تدل عليها وحينما يعود صداها تظهرعلامة بعدها ترشد عنها . فالمسافة الواقعة بين هاتين العلامتين هى بعد الهدف الذى عكس الموجة اللاسلكية .

هل يتنبأ الرادار بالتغيرات الجوية

نعم يستطيع الرادار فى بعض الأحوال أن يتعرف على اتجاه هدف الأرياح ، وفى البحر المضطرب يشاهد أن مقدمة الأمواج تعكس الموجات اللاسلكية كما تعكسها حائط صلبة بقوة تفوق مؤخرتها كما يمكن التثبت من هبوب الزوابع عند مرور السحب أمام الجهاز حيث تتخذ الزوابع شكل رقم (6) ، وإذا كانت ذيول هذه الأرقام غير كاملة دلت على وقوع زوابع ممطرة .

ولقد طالعتنا الأنباء الأخيرة أن الكابتن « هوارد أورفيل » رئيس قسم الظواهر الجوية فى الأسطول الأمريكى قد خطر له استخدام الرادار لمعرفة الأماكن التى تهب عليها العواصف الشديدة وتحدث فيها دماراً كبيراً ، وتعقبها من مكان إلى مكان

لتعرف اتجاهها لإنقاذ أرواح الناس وأملاكهم ، وكانت النتيجة نجاة الأهلين بنسبة ٩٨٪ ، أما الأجهزة التي توضع في كل محطة فهي تشمل ما يلي :

١ — جهاز رادار لمعرفة مكان العاصفة وإعطاء القائمين على المحطة صورة عاجلة عن المطر والثلج .

٢ — جهاز لكشف السحب وتسجيل مقدار ارتفاعها .

٣ — جهاز تسجيل أحوال الجو في الطبقات العليا كالحرارة والرطوبة إلى ارتفاع ١٠٠,٠٠٠ قدم . وفي بعض الأحوال تستخدم الطائرات المجهزة بالرادار لتكملة أعمال الوحدات الموجودة على سطح الأرض .

كيف تعرف الطائرة مدى ارتفاعها ؟

إنها تتبين ذلك بمجرد النظر إلى جهاز الارتفاع « التيمتر » وهو يعمل بنظرية الرادار حيث ترسل الطائرة إشارات قصيرة لاسلكية ويتبين من انعكاسها مقدار بعدها فوق الجبال والمباني والتلال وتظل هذه العملية قائمة طالما أن الطائرة محلقة في الجو .

هل تنعكس الموجات اللاسلكية فى طائرة خشبية

لقد وجد أن قابلية الخشب لعكس هذه الموجات لا تتسامى إلى مثلها فى المعادن فأثر الصدى الصادر من الخشب ضعيف .

نماذج الرادار

بالنسبة لاتساع دائرة الإفادة من هذا الكشف الفريد أعدت منه النماذج المختلفة لكى تطابق الأغراض المتنوعة بحسب حالتها ، فمنها ما يصلح للاستعمال الأرضى ومنها ما يصلح للطائرات أو للبواخر أو للوقاية من الحريق .

انطلاق المدافع صوب الأهداف بالرادار

إن المدافع التى يقود زمامها الرادار تستطيع أن ترسل قذائفها نحو الوحدات المغيرة بكيفية آلية لأن هوائى الجهاز يلوز بحركة نظامية حول نفسه وتتبعه فوهات المدافع فتصيب أهدافها أينما كانت .

(الرادار يقيس سرعة الأجسام المتحركة)

معلوم أن كل موجة لاسلكية لها ترددات خاصة بها فحينما تصدر بصفة مستمرة فى إثر بعضها وتصدم فى مسارها جسماً

قادماً إليها أو متباعداً عنها . فإن جزءاً من هذه الطاقة يعكسها الجسم بترددات تغاير ما كانت عليه من قبل ، وهذا التغيير الحادث فى الترددات — وهو الذى يعرف بتأثير دوبلر — يشبه صفير القاطرة التى تمر عليك حيث تسمعها بدرجات متفاوتة فى قوتها كلما ابتعدت عنك ، فإذا لاقت موجة الرادار بناء شامخاً أو بالوناً رابضاً فى مكمنه فإن صداها يعود بنفس الذبذبات التى صدرت بها الموجة فيعلم من ذلك أن الهدف ثابت غير متحرك أما إذا صادفتها طائرة متحركة فإن ترددات الموجة المرتدة من الانعكاس تزداد أو تنقص قيمتها تبعاً لسرعة الطائرة فالفرق بين هذه الترددات يستدل منه على مدى السرعة من مقياس خاص .

الرادار يميز بين الأشياء

إن الرادار يستطيع أن يميز مثلا بين الطائرات الصديقة والطائرات المعادية ، فهناك إشارات لاسلكية متفق عليها تعرف بإشارات « FF » أى تمييز الصديق من العدو ، فالطائرة أو الباخرة الصديقة ترد الإشارات بحسب الاصطلاح المعروف لديها .

وهو يستطيع أن يفرق بين الجزيرة والباخرة الحربية ،

فمن المران على استقراء صور الرادار يمكن بسهولة التعرف جيداً عما إذا كان الصدى حادثاً عن سطح معدنى أو من انعكاس أرضى ، بل إن هناك نوعاً خاصاً من أجهزة الرادار يستطيع أن يحدد شكل الهدف وحجمه .

ولما كانت الأسطح تختلف فى قوة توصيلها للموجات اللاسلكية فإن آثار انعكاسها تنم عنها ، حتى إن الخبير فى شئون الرادار ليقدر فى الطائرة أن يحكم على أى سطح يمر عليه بمجرد النظر إلى الستار المبين فى الجهاز ، حيث إن الأسطح المائية تدل عليها جودة التوصيل ، فى حين أن الأرض الجافة أو الصخرية تعرف من رداءة توصيلها ، أما المبانى والتلال فإنها تُظهر ذات ظلال .

ويتبع جهاز الرادار عادة المكان الذى يعد له ، فمثلا الأجهزة الخاصة بالطائرات يراعى فيها دقة الحجم وخفة الوزن بقدر الإمكان بخلاف الأجهزة الأرضية فإن زنة أجزائها قد تصل إلى عدة أطنان .

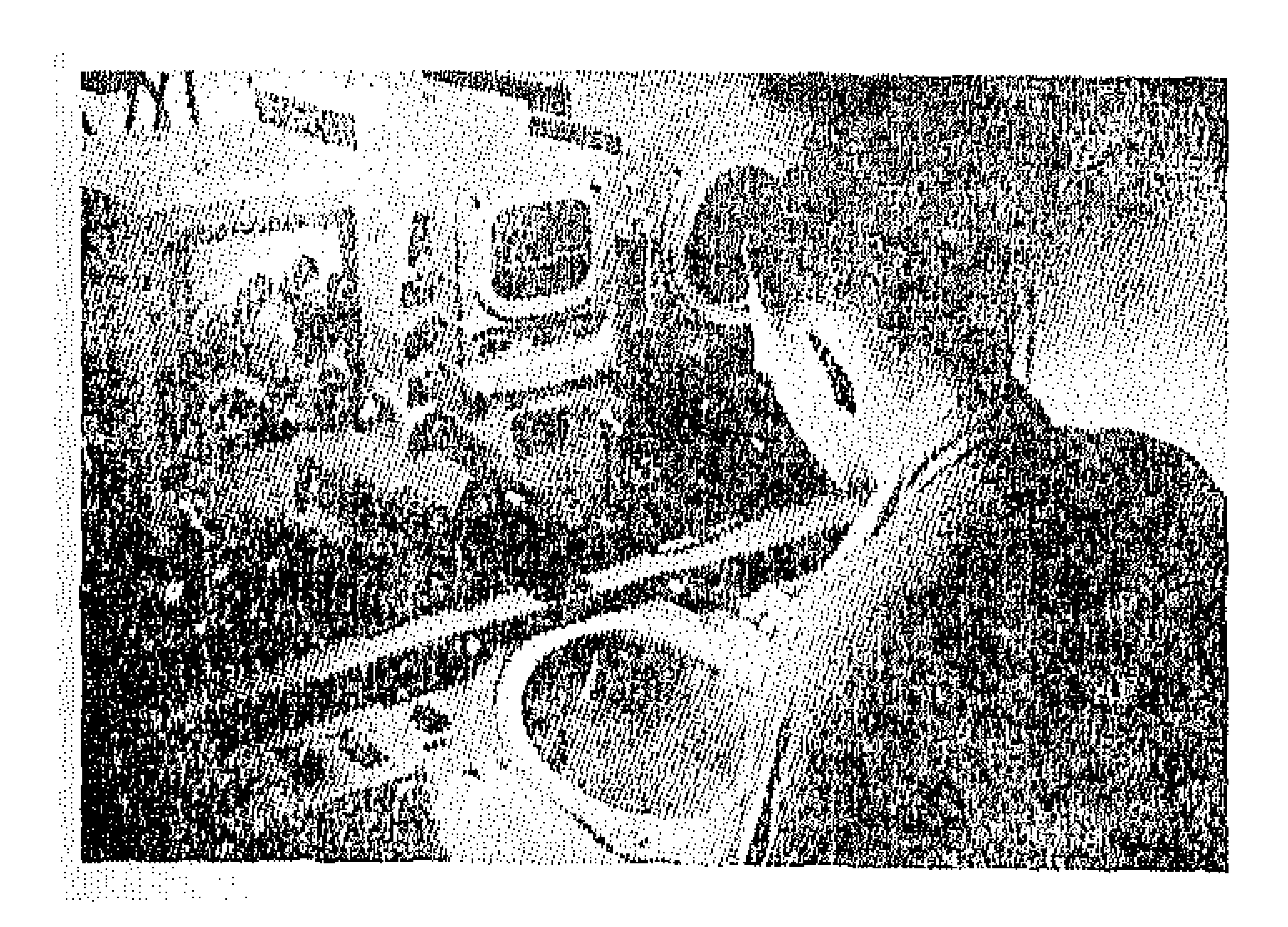
وليس هناك ما يمنع من إقامة هوائيين لجهاز الرادار ، ولكن التبسيط فى الشئون يتطلب الاكتفاء بواحد فقط لأن المستقبل والمرسل لا يعملان فى وقت واحد بل يعمل أحدهما فى الوقت الذى يكون فيه الآخر ساكناً .

الرادار لا يرشد عن الغواصات

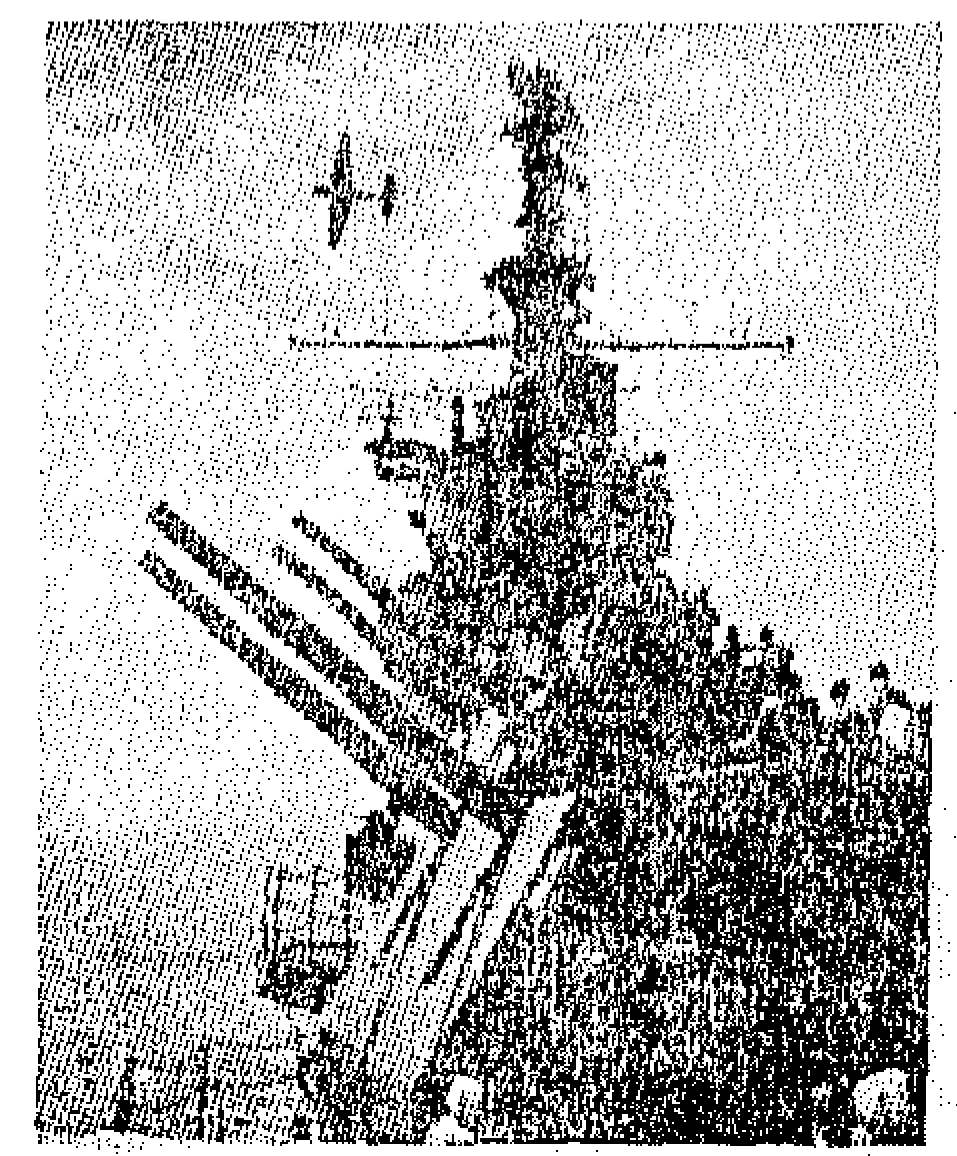
إنه لا يستطيع الإرشاد عن الغواصات لأن الموجات اللاسلكية ليست لها قدرة اختراق طبقات الماء فى البحار حيث لها موجات خاصة تعرف « بالصونار » ، ولهذا تعمد الطائرات إلى الطيران بالقرب من سطح المياه ، وتطير على ارتفاع عشر أقدام من سطح البحار لأن موجات الرادار تعجز حينئذ عن كشفها ، لأن سطح البحر يعمل على انعكاسها خاصة إذا ما كان مضطرباً فلا يستطيع الجهاز أن يفرق فى هذه الحالة بين الانعكاس الصادر من الطائرة والانعكاس الحادث من سطح البحر فيختلط الأمر . فكأن الطيران قريباً من الماء حيلة فنية قصد بها التخلص من رقابة الرادار .

المهمة الأولى للرادار

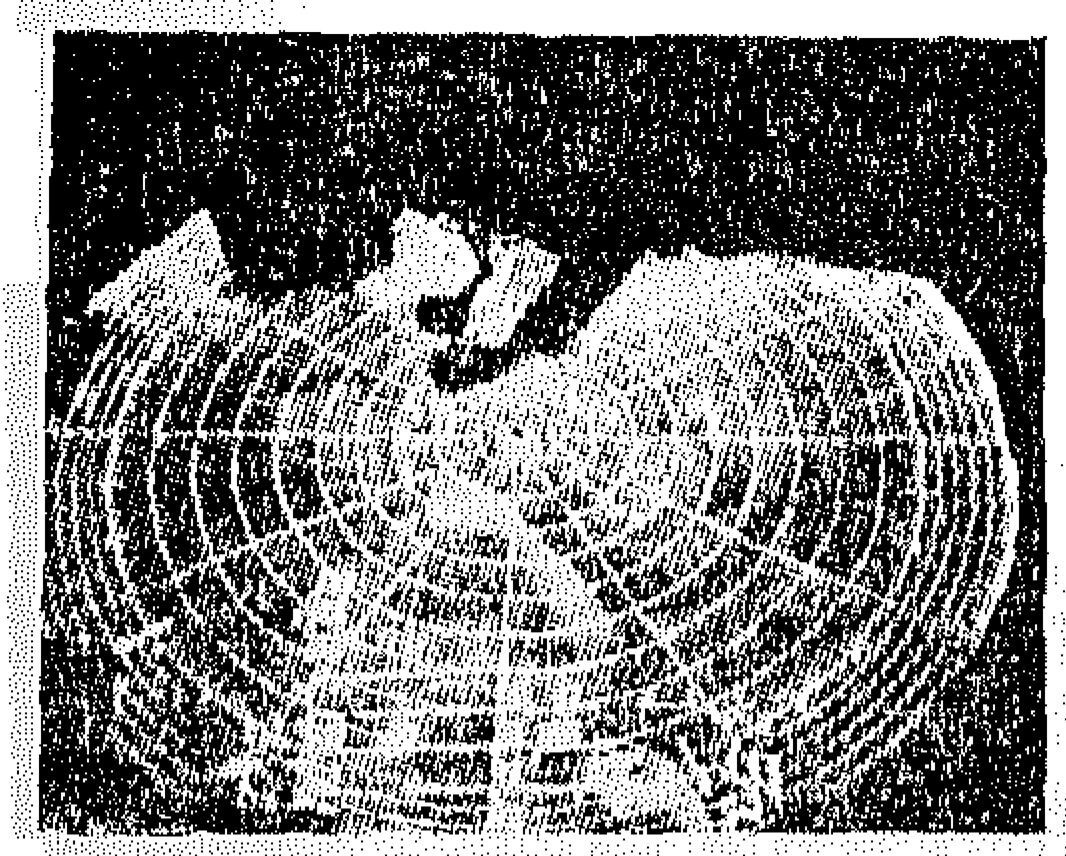
إنها ولا شك الإنذار بهجوم الطائرات المغيرة قبل وصولها بوقت كاف لقيام الطائرات ومقاتلتها خارج الحدود ، وقد كانت هذه هى الوسيلة التى نجت بها إنجلترا من السيل المنهمر الذى كانت تشنه ألمانيا عليها ، فكانت الطائرات المقاتلة تدفع هذه الغارات على حدود المانش حينما تكشف أمرها مجموعة



قائد البارجة يتطلع
إلى الرادار



بارجة يطلق مدافعها الرادار



خريطة يرسمها الرادار

من أجهزة الرادار تملأ الفضاء بموجاتها التى ترسلها فى جميع الاتجاهات وفى كل المسافات .

وإن الرادار يستطيع أن يوقع فى شباكه طائرة على ارتفاع ٢٠,٠٠٠ قدم وهى مختبئة فى طبقات السحاب العالى ويحدد مكانها فى خطأ لا يتجاوز مائة قدم ، وسرعان ما يعلن أمرها للطائرات المقاتلة ويرشدها كيف تستطيع مقابلة العدو وعلى أى ارتفاع هو وبأية سرعة يسير ؟

السطح المصقول والسطح الخشن

لا يمكن أن يتعادل السطحان فى درجة الانعكاس ، فالسطح الأملس أجود من أخيه ، لأن خشونة السطح تعمل على الانعكاس فى جملة اتجاهات مختلفة وعلى ذلك فلا يصل إلى جهاز الاستقبال انعكاس مركز بل انعكاس جزئى لا يكاد يظهر أثره بوضوح .

مضار الرادار

لم يخل هذا الكشف الجزيل الفائدة من آثار ضارة فلقد لوحظ أن موجاته تسقط الأمطار فى غير مواسمها وتثير العواصف وتحدث القحط وتضعف غلة المحاصيل الزراعية . ودهش

الناس من اختراق هذه الموجات للأجسام البشرية ورفع حرارتها كأثر الحمى وإحداث صداع فى الرءوس ناهيك بما تنتجه من عقم لدى الرجال مما دعا إلى النصح بعدم الاقتراب من هذه الموجات بأقل من أربعة أقدام ووضع موظفى الرادار تحت رقابة طبية .

كاشف الرادار

لم تكن تلك الخطى التى قفز إليها الراديو والرادار بأعينه الخارقة التى لا تنام من عمل إنسان فى ليلة من الزمان بل كانت عصارة أفكار علماء أعلام ، فكما أن السيارة قد جمعت بين عجلات العربة التى تجرها الدابة وبين هيكل المركبة الفاخرة ، فكذلك الرادار تراه قد جمع بين فن اللاسلكى والأجهزة الألكترونية . فكان وليد الحاجة ، والحاجة دائماً أم الاختراع . ولقد قال الدكتور « هويت تيلور » الذى يعتبر أباً للرادار بأن هذا الرادار لم يكن اختراعاً قائماً بذاته وإنما كان تحسيناً وتنقيحاً لجهود الآخرين ، كما كان الراديو ميداناً لعبت فيه الآلاف من الأيدي ، فلقد ظل « ماركونى » يعمل بين هؤلاء لغاية عام ١٩١٤ حتى حصل على لقب « مكتشف اللاسلكى » مع أنه

كان قد بعث بأولى إشاراته عام ١٨٩٦ ، ومما يطالعنا به التاريخ أن أول محاولة فى استخدام انعكاس الموجات اللاسلكية لقياس المسافات ظهرت فى المدينة الأمريكية « هنريش لويس » فى ١٧ يولية عام ١٩٢٣ ولكن إنجلترا كانت هى السباقة فى نشر أخبار اللاسلكى بين العالم فاعتقدت طائفة من الناس أن اللاسلكى هو اختراع إنجليزى . ولو كانت الغارات الألمانية فى الحرب الأخيرة وجهت إلى أمريكا بدلا من إنجلترا لحسب الناس أن الرادار أمريكى الوطن .

بعث الرادار فى أمريكا

فى منتصف شهر سبتمبر عام ١٩٢٣ لاحظ الدكتور « تيلور » أحد أعلام البحوث اللاسلكية بأمريكا أن الأجسام المصنوعة من المعادن والأبنية المسلحة بالصلب تنعكس منها الموجات اللاسلكية ، كما لاحظ أن مرور البواخر بين جهازى الإرسال والاستقبال كان أثره ملموساً فى الموجات ، وقد تبنى رجال البحرية هذه المشاهدة ووجدوا فيها ما يحقق أهدافهم وراحوا يقولون : ماذا عليهم لو أنهم استعانوا بهذه الفكرة لكشف مدمرات العدو حتى إذا ما تحققت كانت أكيدة الأثر حتى فى أوقات الضباب التى تتعذر فيها الرؤية ، فكان

هذا التفكير هو بدء ميلاد عصر الرادار ، وتعهدت هذا الوليد عناية العلماء ويد التجديد وبدئ في إعداد الأجهزة الكفيلة بحراسة قناة بناما وقد كانت الطريقة فى اقتناص الطائرات المغيرة قبل ظهور الرادار تجرى على استجماع الصوت الصادر من محركات الطائرة والاسترشاد به على موقعها . وطبيعى أن هذه الوسيلة لم تكن دقيقة البيان لسرعة الطائرة الفائقة فأين هذه الطريقة من نتائج الرادار الذى يحدد موقع الطائرة وارتفاعها ثم يسقطها فى لمح البصر ، حتى لقد أغرقت سفن يابانية فى الحرب الماضية فى بحر الصين تقدر حمولتها بـ ١١٠٠٠٠ طن خلال شهر واحد وكان ذلك بفعل الرادار .

وفى صيف عام ١٩٤٠ قامت بعثة فنية من إنجلترا صوب أمريكا وهى تحمل معها فتحاً جديداً فى عالم الرادار هو جهاز ليوليد موجات أقصى ما تكون قصراً وأشد ما تكون قوة لشئون الرادار فعبئت من أجلها الجهود حتى إذا ما حل شهر نوفمبر من هذا العام كان الأمريكيون قد وفقوا إلى كشف أشعة فاقت فى القصر تلك التى حملها إليهم علماء الإنجليز وأحدثوا بها إنقلاباً ذا بال فى عالم الرادار حيث أعدت الأجهزة التى تضيق الخناق على الطائرات وتتولى إطلاق القذائف صوبها فى إحكام وزودت بها المقاتلات الجوية فى عام ١٩٤٢ سواء

تلك التي كانت تعمل فى مياه الأطلنطي أو فى المانش .

وفى فبراير عام ١٩٤٤ عندما اشتدت وطأة الغارات الألمانية على شاطئ (رأس أنزيو) نجحت السيارات المتنقلة بأجهزة الرادار فى اقتناص الطائرات المهاجمة التي كادت تفلح فى دك هذا الشاطئ ، فأقبلت ذات ليلة قافلة من اثنتي عشرة من قاذفات القنابل ، فلم تكد تقترب من هذا الشاطئ حتى واجهتها نيران أربعة مدافع لمجموعة رادار متنقلة فأسقطت سبعاً من الطائرات وعادت أخواتها الخمس الباقيات وهى قانعة من الغنيمة بالإياب . ولم تستأنف الغارات الألمانية بعد هذه الموقعة الخاسرة إلا بعد أسبوع بغارة أخرى لم تكن أسعد حالا من سابقتها ، وكان هذا النجاح الفريد عائداً لنشاط الموجات الحديثة التي تصدر بمعدل ألف نبضة فى الثانية من سيارة متنقلة يبلغ وزنها عشرة أطنان ويقودها ثلاثة لكل منهم عمل خاص به فالأول يدقق فى منظار الجهاز على أن يعثر على طيف طائرة فما إن تدل الأصداء الواردة على ذلك حتى يسرع الثانى يوضح أهذه الطائرة صديقة أم عدوة ، وبعد أن يتبين صفتها هذه يراد إسقاطها فإن مهمة الثالث تبدأ بتشغيل التصويب الآلى . ولقد بلغت هذه الأجهزة شأواً بعيداً حتى إنها لتدرك السفن وهى على بعد خمسة وعشرين ميلا من الشاطئ فى أسوأ الظروف

الجوية بدقة لا تتفاوت خمس ياردات فى أى اتجاه مما رؤى أخيراً تعميم استعماله فى المرافئ لإرشاد السفن القادمة إليها حتى ولو كانت البواخر غير مزودة بالرادار فإن جهاز الشاطئ يستطيع الاتصال بها لاسلكياً ويقود زمامها حتى ترسو فى سلام. ولقد بذلت أمريكا من لدنها الشيء الكثير فى غضون الحرب الماضية لتدعيم وتقويم هذه الصناعة حتى بلغ مجموع ما صرفته خلال خمسة أعوام الحرب نحو ١٠,٦٥٩,٠٠٠,٠٠٠ ريال كان منها ٤,٤٣٣,٠٠٠,٠٠٠ ريال لأجهزة اللاسلكى ثم ٣,٧١٩,٠٠٠,٠٠٠ ريال للرادار و ٢,٥٠٧,٠٠٠,٠٠٠٠٠٠ ريال لأجهزة المخابرات الحربية ، فلا عجب بعد هذا أن تظهر أمريكا على العالم بأدق أجهزة الرادار المعروفة فهى تبين مواقع الطائرات على وجه التحديد وتحذق فى إصابة الأهداف وفى إعداد الخرائط المساحية وهى أروع ما تكون دقة وتفصيلا ، ومن هذا يمكن القول إن أمريكا هى التى احتضنت بحق هذا الوليد وأحاطته بالرعاية.

الرادار فى السلم

بعد أن أدى الرادار واجبه فى الحرب خير أداء وأبلى فيها أحسن بلاء أبى إلا أن يعود بعد انتهائها ليسطر صفحات

خالدات فى ميدان السلم لتحقيق الطمأنينة للإنسان حيثما كان . وإذا كانت صناعة الرادار قد التهمت خلال الحرب بضعة ملايين من الريالات فإنها بعد انقضائه استهلكت مليونى ريال . ولم لا يكون هذا وما فتئت مدارج العمران تتطلب المزيد من التجديد ؟ ! وإذا كنا نرى فى الرادار اليوم تعقيداً فلسوف نراه غير بعيد يوضع فى الجيب . وعند ذلك اليوم تنطلق عجلة الحياة سريعة الخطى فلا يعنى بأمر الضباب أحد ولا تصطدم الطائرات برؤوس الجبال أو بناطحات السحاب حينما تتعذر رؤيتها . وسوف تتقى قطر السكك الحديدية بعد أن تزود بالرادار أخطار التصادم وترى ما أمامها أوقات الضباب والزوابع ، وسوف تستطيع البواخر أن تسير فى المرافئ ليلا من غير أن تجنح فى الظلام وستتمكن الطائرات من الهبوط بمفردها بدون إرشاد خارجى . وحسب الرادار فضلا أنه قد بدأ خدماته السلمية فى أعقاب الحرب الماضية حيث تلقت محطة الرادار فى مدينة « بوستن » من سفينة تقع على بعد ٢٠ ميلا لتدل على مرض أحد بحارتها فسرعان ما هرعت إليه طائرة ونقلته إلى مستشفى المدينة .

وإذا كان الرادار قد أصبح العين المبصرة للطائرات والبواخر تسير بهديها فى أوقات الضباب التى تعز فيها الرؤية فلم لا يكون

عما قريب للأعمى نصيب فى هذا الحقل الخصيب ؟ فليس بعيداً ذلك اليوم الذى يهيأ فيه للأعمى أن يحمل راداراً فى جعبته يتلمس به كل ما يعترضه من عقبات قبل أن يصل إليها بثمانى أقدام على الأقل حسب المدى الذى يضبط عليه الجهاز . . وهنالك تفكير فى إعداد عين للأعمى تعمل على غرار الرادار وترسل شعاعاً ضوئياً بدلا من الموجة اللاسلكية يحملها صاحبها فى جعبة دقيقة لا يزيد وزنها على تسعة أرطال ، فحينما ينبعث منها الشعاع الضوئى ويقع على جسم أمامه ينعكس منه ثانية على عين كهربية تحول الضوء إلى تيار كهربى يسرى فى سماعة ويحدث صوتاً يتناسب مع بعد هذا الجسم . ومن المران على تمييز هذه الأصوات يمكن التعرف على تقدير المسافات بل يمكن أن يعين حامل الجهاز اتجاه الجسم المقابل له بالاستماع إلى الأصداء فى أوضاع مختلفة للجهاز فأشدها قوة يحدد هذا الاتجاه .

ثم ماذا لو حدثتك عن نشاط الرادار فى الكشف عن مواطن الخامات فى بواطن الأرض ، فقد رأى « ماركونى » أنه إذا أرسلت موجة قصيرة على سطح الأرض فإنها تنطلق صوب جوف الأرض كما تنطلق فى الفضاء ، فإذا صادف الموجة صخرة فلزية فإن الموجة ترتد ثانية إلى الجهاز ، إلا أن هذه

الطريقة تخفق فيما لو كان الخام تعلوه طبقة مائية أو تربة رطبة أو مادة موصلة فإنها تمتص الموجة من غير أن يرتد منها شيء .وفى أمريكا بلد العجائب قد أحيطت جدران السجون بأمواج الرادار حتى إذا ما حاول سجين الهرب قطع جسمه هذه الموجات الخفية وأحدث صدى الانعكاس إنذاراً للحراس .
وقد شرعوا فى إعداد خرائط مساحية بوساطة الرادار لبقاع العالم التى يتوقعون أنها تكون ميادين للحرب المقبلة . ومثل هذه الخرائط قد بلغت من الدقة أنها توضح كل كوخ قد يكون يوماً مخبأ لمدفع وكل طريق قد يكون وقتاً ما ممراً للجيوش ، ويكفى أن تعلم أن الخطأ فى هذه الخرائط التى تعد بسرعة خاطفة لا يتجاوز قدماً فى كل ١٠,٠٠٠ قدم مع أن أضبط الخرائط التى تقاس من الطبيعة قد يصل الخطأ الممسوح فيها إلى قدم فى كل ٢٥,٠٠٠ قدم . ثم ما قولك فى التوجه إلى القمر لقياس بعده عنا بطريقة علمية صحيحة ، فلقد سلطت موجات الرادار إليه فعاد صداها بعد ثانيتين ونصف ، أى ما يتكافأ مع ٢٣٨,٨٠٠ ميل ، وهو بعد القمر عن سطح الأرض . ولعل ما ذكرناه لم يكن إلا أول الغيث .

عندما عرف أن للصوت صدى عمد « لانجفان » إلى الإفادة من هذه الظاهرة فى كشف الغواصات خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) . وفى قياس أعماق البحار باعتبار أن سرعة الصوت فى الماء هى خمسة كيلومترات فى الثانية ، وأول صدى عرفه العلم كان فى عام ١٩٢٢ حينما أثبت السير « إبلتون » أن الموجات اللاسلكية ما كانت لتعود ثانية إلى سطح الأرض لولا أنها صدى لانعكاسها من طبقة متأينة فى الفضاء تعرف بطبقة « هيفى سايد » . ونظرية صدى الرادار قائمة على مشاهدة معروفة قبل أن يولد اللاسلكى ، ومفادها أن أى موصل للكهربا يقع بين مجال مغناطيسى تتولد فيه كهربية إشعاعية تصير الجسم مصدر إرسال لأصداء كهربية مغناطيسية هى تلك التى يستقبلها الرادار من الأهداف الموصلة والتى تعكسها إليه ، على أن الأجسام تختلف عن بعضها فى قوة أصدائها إذ بعضها يعكس الموجة كما جاءت إليه وبعضها الآخر يمتص جزءاً ويعكس جزءاً قد لا يكون شيئاً مذكوراً ، فتتفاوت بذلك الصور المستقبلة فى درجة وضوحها ، وهذا هو السبب الذى من أجله لم تنضج صناعة الراديو إلا بعد عام ١٩٣٤ حينما

أمكن توليد الموجات القوية الفائقة القصر التى يبلغ طولها بضعة سنتيمترات بدلا من الأمتار التى كانت تصل للمائة وكانت أسطح الطائرات والبواخر تكاد تمتصها عن آخرها ولا تعكس منها شيئاً . وقد رأت فرنسا أن ترسل موجات طولها ١٦ سنتيمتراً فى عام ١٩٣٤ ، وعدلت إنجلترا موجاتها إلى ثلاثة سنتيمترات فى عام ١٩٣٥ لأغراضها البحرية . وجدير بنا الآن أن نعلم أن قوة المجال الذى يصل إلى الهدف إنما تتناسب تناسباً عكسياً لبعده عن محطة الإرسال، أما قوة الصدى فتتبع نسبة عكسية لمربع المسافة .

هوائى الرادار

إن مهمة الهوائى فى محطة الرادار تهدف إلى إشعاع الكهربية فى هيئة حزمة من الأشعة الخفية التى تختلف فى قوة تركيزها تبعاً للحالة التى يستعمل فيها الجهاز ، فحينما تكون الموجات مترية الطول بعد الهوائى فى شكل ستار ذى مرآة قد يمتد طولا إلى مسافات كبيرة تصل إلى عشرة أمثال طول الموجة ، بمعنى أنه إذا كانت الموجة ثلاثة أمتار فإن طول الهوائى يبلغ ثلاثين متراً ، ولكن حينما تستعمل الموجات الفائقة القصر السنتيمترية يتخذ الهوائى شكل عاكس ذى قطاع ناقص . وكان أول من

فكر فى هذا الإخراج الفرنسيان (داريو » و « كلافيه » فى عام ١٩٣٣ حينما كانا يعملان لإعداد محطة للمواصلات اللاسلكية عبر المانش بين « دوفر » و « كاليه » ، ثم رؤى أخيراً جعل الهوائى فى شكل بوق مخروطى أو هرمى بأبعاد تقرب من طول الموجة حيث أدت هذه الفكرة إلى نتائج حسنة عند استعمال الموجات الفائقة القصر بالنسبة لصغر الحجم وإمكان تحريك الهوائى بسهولة فى جميع الاتجاهات.

مبين الرادار

يتركب هذا المبين من صمام ألكترونى أو عدة صمامات تعمل على تحويل إشارة كهربية إلى إشارة ضوئية تظهر على شاشة الجهاز، ويتغير موقع هذه الإشارة الضوئية فوق الشاشة، كما يتغير شكلها وحجمها تبعاً لطبيعة الإشارة التى يستقبلها الجهاز ، وتوجد هذه الصمامات عادة على نوعين : أحدهما يعد لقياس المسافات ، والآخر يختص لقياس زوايا الأهداف مع الأفق ومنها ما يبين الخرائط المساحية فى صور بقع ضوئية تفصل معالم الطبيعة ، فالماء يظهر أسود اللون

بخلاف المبانى والبواخر فإنها تظهر فى علامات مضيئة ، وهذه الصمامات فى أجهزة الرادار الحديثة هى التى تحدد الأهداف وتطلق صوبها القذائف بصفة آلية .

رادار الإنذار

لما كان الرادار الحارس الأمين الذى لا ينحرف درجة عن واجبه إلى اليسار أو اليمين . فمن أولى واجباته فى أوقات الحروب الإعلان عن اقتراب الطائرات المغيرة والإرشاد فى أوقات السلم عن طائرات تبغى الهبوط فى المطارات ، كما أن الشركات الملاحية أخذت تزود كبرى بواخرها بأجهزة الرادار لكى تتقى بها شرور المصادمات . وكانت السفينة الفرنسية « نورماندى » أول باخرة ركب بها منذ عام ١٩٣٥ رادار يعمل على موجة طولها ١٦ سنتيمتراً تكشف من مدى عشرة كيلومترات. وهل ينسى الإنجليز فضل الرادار عليهم فى موقعة « إنجلترا » عام ١٩٤٠ حيث أسقطوا فى المدة بين ٨ و ٣١ أغسطس عام ١٩٤٠ نحو ٩٥٧ طائرة ألمانية . وإن ينس — أبناء العم سام — فلا ينسون ذلك اليوم المشأوم الذى وقعت فيه الغارة على (بيرل هاربور) حيث سجلها الرادار وهى على بعد ٢٠٠ كيلو متر وقبل وصولها بخمسين دقيقة ولكن القضاء المحتوم قد ألقى غشاوة

على بصيرة الجندى « لوكهارد » المراقب للجهاز فلم يلق للأمر بالا فكان ذلك منه شراً ووبالا .

مهمة الرادار على الأرض وفى البحار

لقد اختص الرادار فى جميع أنواعه بالقدرة على تحديد مواقع الأجسام بدقة متناهية فى جميع الظروف الجوية وفى كل الأوقات بحيث لا يعدو خطؤه بضعة أمتار مهما بلغت المسافة . انظر إلى ما أصاب الأسطول الإيطالى فى الحرب الماضية حينما كشفت باخرتان بريطانيتان بأجهزة الرادار مرور مدمرتين إيطاليتين برأس « ماتبان » فى شهر يونية عام ١٩٤٢ فهرعتا إليهما وأرسلتاهما تواً إلى قاع البحر .

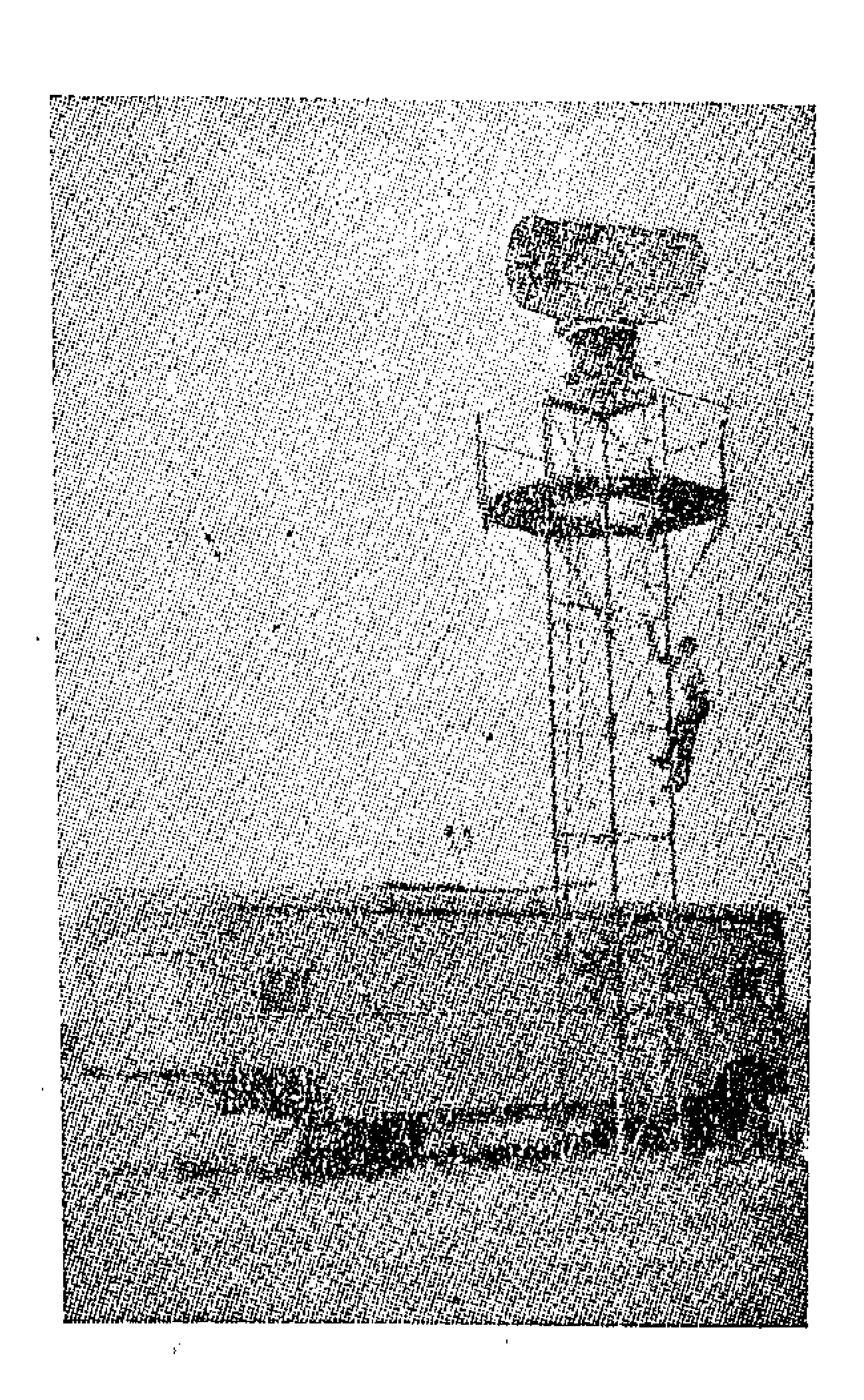
دور الرادار فى الطائرة

لقد أصبح الرادار فى الطائرة المقاتلة عصب الحياة فيها إذ عليه تترتب نتيجة العراك الجوى الذى يدور رحاه فى ظلمات بين ظلمات ، وتعد هذه الأجهزة لأغراض مختلفة ، فمنها مايتخصص بإدارة دقة الملاحة الجوية خلال المعركة ومنها ما يتولى إطلاق القذائف . فأما أجهزة الرقابة فهى تنشر لواءها فوق الجو والبحر باحثة عن الغواصات التى تطفو على وجه الماء لتفتك بسفن

القوافل التجارية ، وقد كانت إنجلترا أول من صنع هذه الأجهزة فى عام ١٩٤١ ، وكانت تعمل بموجات طولها ١½ من الأمتار وتصل قدرة كشفها إلى عشرين كيلومتراً ، ولكم سببت خسائر فادحة فى إغراق الكثير من الغواصات الألمانية حتى لقد صعق الألمان من هذا الإغراق الخاطف حيث لم يعد ينفع الغواصات تسترها وراء ظلمة الليل أو الاختفاء بين طيات الضباب كما كان شأنها من قبل ، وما لبثوا أن كشفوا فى عام ١٩٤٢ أمر تلك العين التى ترقبهم من فوق هامات السحاب ، وعمدوا من فورهم إلى إمداد الغواصات بأجهزة ترقب بلورها صفحة السماء؛ حتى إذا ما سجلت ما يرشد عن غريمها وجدت لنفسها فسحة من الوقت للهروب فى أعماق الماء ، وهكذا فقد كان الرادار الأداة الخفية التى عملت على إغراق ٧٠٪ من الغواصات فى الحرب الماضية .

قنبلة وليدة الرادار

لم يقف نشاط الرادار عند حد ما ذكرناه ، فقد امتد أثره إلى إلهاب قنبلة بعد أن تصير فى مواجهة الهدف ، وهى تعرف بقنبلة « بروكسيت » ، وقد ابتكرها الإنجليز قبيل الحرب الماضية فكانت سلاحاً فتاكاً للمدفعية ، وهذه القنبلة العجيبة



الرادار المتنقل لحراسة الشواطىء

يركب فى مقدمتها جهاز للرادار فيرسل موجات طولها ديكامتر ، وجهاز آخر ليستقبل أصداء هذه الموجات فحينما تنطلق القذيفة من فوهة مدفع مضاد للطائرات سرعان ما يتولد فيها تيار كهربى من توربين هوائى يعمل من فوره على إرسال موجتين إحداهما صوب الطائرة والأخرى صوب الأرض فترتد إلى جهاز الاستقبال إشارتان لا تولدان التأثير المباشر لتفجير القنبلة إلا متى اقتربت من الهدف بمقدار نصف الموجة اللاسلكية فلا تبقى من هدفها شيئاً ولا تذر . وإذا كانت هذه المروعات هى هدية الرادار وطول موجته ما فتئت إلى الآن بعد الحرب الماضية ثلاثة سنتيمترات فما عساه لعمرى يهديه إلينا لو تحققت جهود الباحثين الجارية الآن فى خلق موجة طولها ملليمتر حيث تزداد قوة وانتشاراً ؟ !

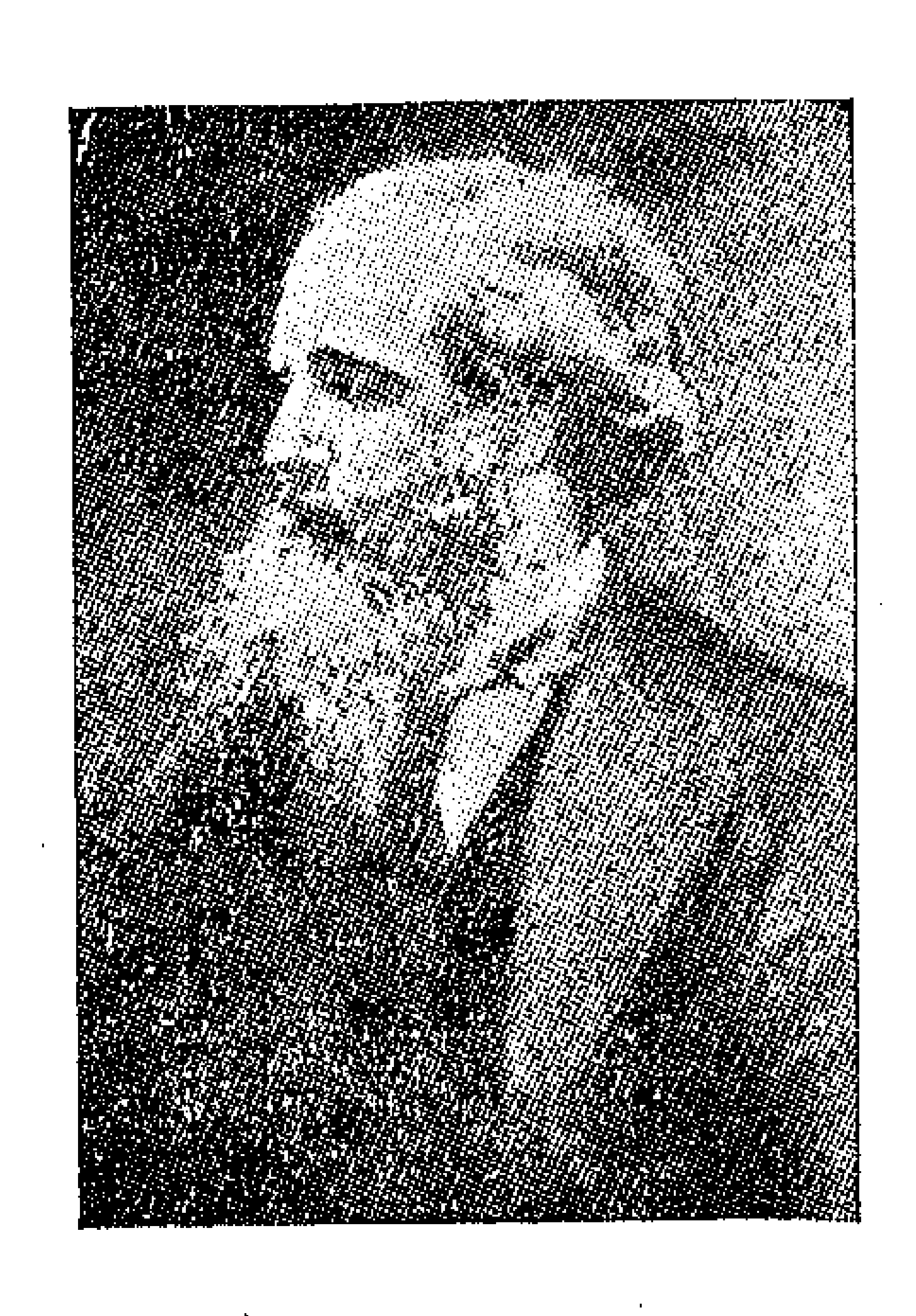
الرادار وقياس الارتفاعات

كانت وسيلة الطائرات فى تقدير ارتفاعها عن سطح الأرض تجرى عن طريق قياس الضغط الجوى بوساطة البارومترات ، ولكن هذه الطريقة لم تكن دقيقة البيان فى الضغط المنخفض خاصة ولم تكن عملية؛ لأن الطائرة لا تظل على ارتفاع واحد . ولكن الرادار قد جاء حلا مطابقاً موافقاً

إذ أن بياناته يعكسها سطح الأرض المعتبر كالمرآة . وما كان جهاز « الألتيمتر » وهو مقياس الارتفاعات إلا صورة ناطقة منه ، يعمل بموجات تختلف أطوالها بين ٧٠ و ٨٠ سنتيمتراً ويعين الارتفاعات التي تقع بين ٢٠٠ و ٨٠٠٠ متر . وبالنسبة لأن ترددات الموجات عند صدورها من الجو تختلف عنها عند انعكاسها من الأرض إلى المستقبل فعلى هذا الفارق بين الترددات تدرج لوحة الجهاز .

من ماكسويل إلى الرادار

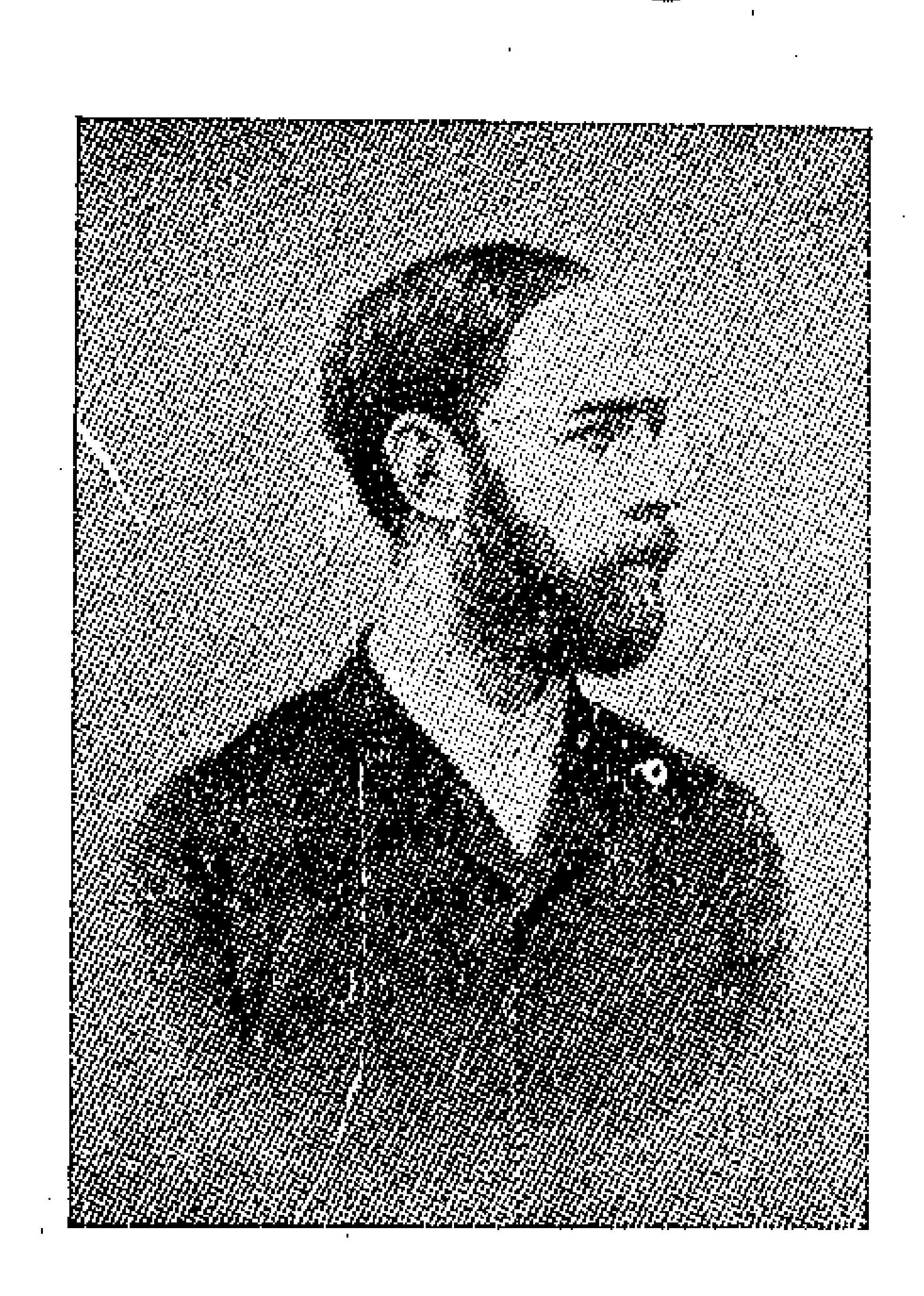
عند قرابة نهاية القرن التاسع عشر ، أو فى عام ١٨٩٥ على وجه التحديد حينما بزغ فجر اللاسلكى يكون قد مضى نحو مائة عام على كشف الكهرباء وتسخيرها فى خدمة الإنسانية . وقد قامت أعباء المرحلة الأولى فى اللاسلكى على سواعد عالمين هما « الإنجليزى ماكسويل » (١٨٣١ — ١٨٧٩) ثم الألمانى « هرتز » (١٨٥٧ — ١٨٩٤) فقد اشتق ماكسويل فى عام ١٨٦٧ مما تعلمه عن سلفيه « أمبير » و « فاراداى » نظريته القائلة بأن التيار عند مروره فى الموصلات النحاسية يولد حولها مجالا مغناطيسياً متعامداً على مجال التيار وذلك فى شكل موجات متلاصقة فى إثر بعضها ، فكان أول



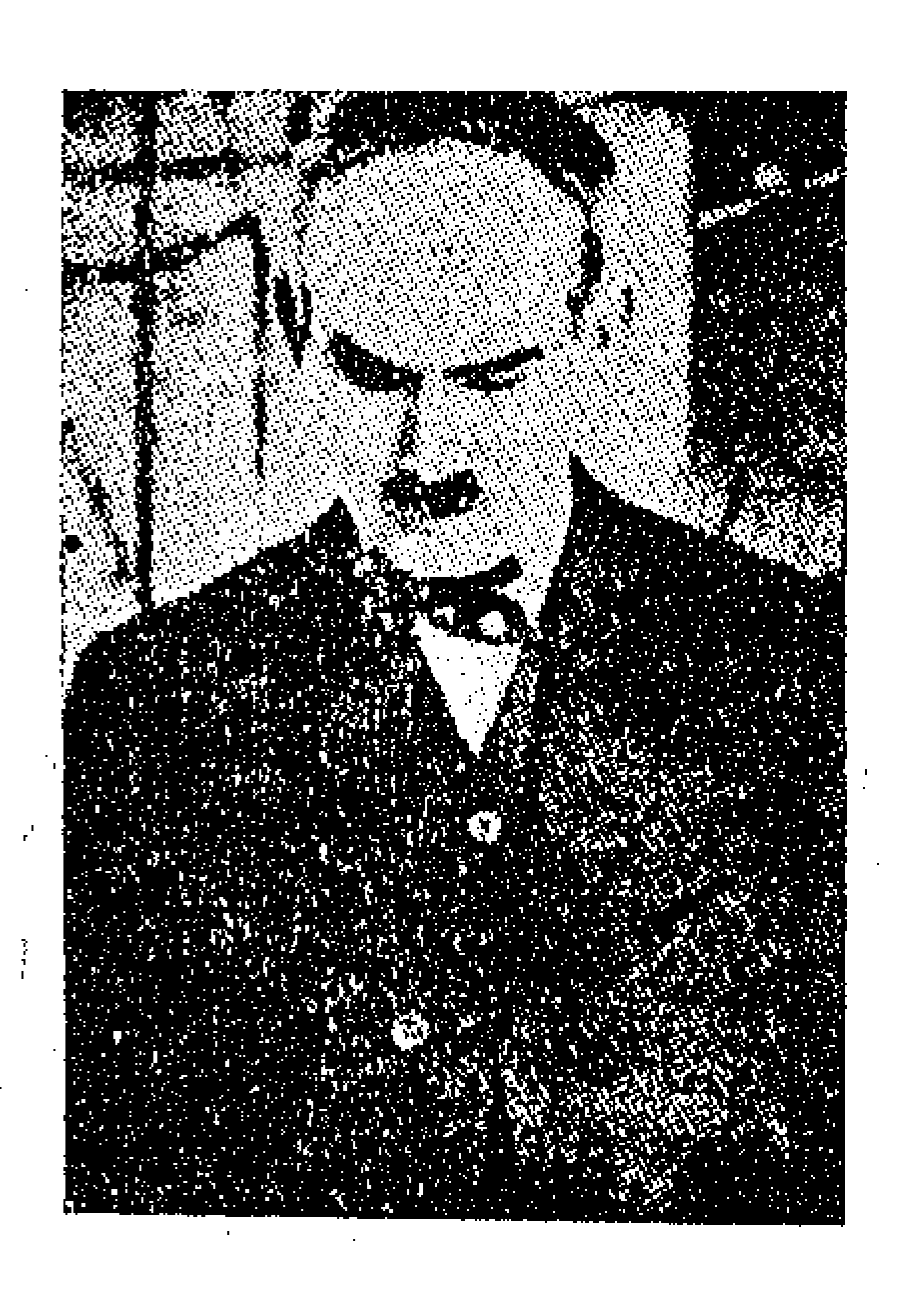
ج . ك . مکسویل



امبروز فلمنج



ه . ی . هرتز



لی دی فورست

من أثبت أن بين التيار والمغناطيسية ارتباطاً وثيقاً لا انفصام له ما بقى التيار . كما ذهب إلى أن الموجات الضوئية لها هذه الخواص نفسها ثم جاء من بعده « هرتز » وأيد صاحبه فى نظرياته ، وهو على ما نعلم مكتشف الموجات التى تنسب إليه ، ثم تتابع فى أثرهما الباحثون وقتلوا هذه الفكرة بحثاً ودراسة إلى أن نهض من بين هؤلاء الفرنسى « برانلى » (١٨٤٤ — ١٩٤٠) وأنشأ فى عام ١٨٩٠ أول كشاف للموجات اللاسلكية ولحق به الروسى « بوبوف » وعمل أول هوائى لالتقاط الموجات « الهرترية » وهى التى تتوالد فى الطبيعة ونعرفها بالموجات الطفيلية (البارازيت) من مسافة عشرات الكيلو مترات ، ومن ثم يبدأ الإيطالى « ماركونى » (١٨٧٤ — ١٩٣٧) ليلعب دوره اللامع فى هذه الحلبة إذ عكف على دراسة طبيعة الموجات وأثبت أنها تنقص فى قوتها بنسبة عكسية مع المسافات ، وأن شدة الكهربية الإستاتيكية والمغناطيسية تنخفض سريعاً بنسبة عكسية مع مكعب المسافة ثم استطاع أن يطلق أولى إشاراته اللاسلكية فى ٢ يونية سنة ١٨٩٦ وأرسلها عبر المانش بين « كاليه » و « دوفر » لمسافة قوامها خمسون كيلو متراً ، ثم أتبعها بمحاولة أخرى عبر شمال الأطلنطى بين « إرلندا » ومحطة قائمة فى شمال « الولايات المتحدة » . وظل مواصلا هذه الجهود المستمرة حتى

عام ١٩١٤ ، حيث سطر لنفسه سجلا عامراً فى عالم اللاسلكى. وتشاء الظروف أن تشحذ الحرب الهمم فى إجادة أداة اللاسلكى للزومه فى جبهتها قبل لزومه فى مؤخرتها . فقد استطاع الألمان فى موقعة « تانبرج » أن يسرقوا الرسائل الحربية اللاسلكية الخاصة بالروس، ووقفوا منها على خطط عدوهم اللدود فكانت بحق حرب الموجات اللاسلكية . ومن عجيب أمر المصادفات التى أدت إلى كشف الحجر الأساسى فى هذا اللاسلكى أن « أمبروز فلمنج » رغب فى عام ١٨٩٦ أن يصلح العيب الذى ظهر فى المصباح الكهربى الذى اخترعه الأمريكى « إديسون » سنة ١٨٧٩ من حيث إن زجاجته كانت دائماً يقتم لونها ، فخطر له أن يضيف إلى تركيبه لوحاً وضعه قريباً من الفتيل، حتى إذا توهج فإن الألكترونات التى تنبعث منه تنجذب إلى اللوح بدلا من رسوبها فوق الزجاج وتعمل على اسوداد لونها . وقد أدى هذا التعديل إلى إخراج صمام « فلمنج » ذى القطبين ، الذى أمكن به تحويل التيار المتغير إلى تيار مستمر ثم صلاحيته لأن يكون كشافاً للموجات اللاسلكية . إلا أن الأمريكى « لى دى فورست » لما وجد أن هذا الصمام لا يفى بجميع أغراض اللاسلكى هداه تفكيره إلى إخراج صمام ذى ثلاثة أقطاب فى عام ١٩٠٧ ، هى عبارة عن الفتيلة واللوح

والشبكة وسمى صمام « أوديون » . وقد كان ظهوره فتحاً مبيناً لدنيا اللاسلكى ؛ فقد بدأت محطات الإذاعة فى أن تبدأ عملها فى عام ١٩٢٠ حيث أنشئت أولى محطات الإرسال فى فرنسا وهى محطة راديولا لتذيع من برج « إيفل » عام ١٩٢١ ، كما بدأت أمريكا ترسل إذاعاتها السياسية فى عهد الرئيس « هاردنج » ، كما أذاعت وصفاً للملاكمة التاريخية التى جرت بين « دامبسى وكارنييرى » ، ولما وجدت أن فى الفضاء طبقة « كينلى هيفى سيد » التى تعكس الموجات اللاسلكية لتعيدها إلى الأرض ثانية فتصاب هذه الموجات من وراء امتصاص هذه الطبقة لجزء منها بتغيير فى مدى انتشارها ، يتناسب مع عكس مربع طول الموجة — تطلب الأمر التفكير فى إيجاد موجات قصيرة تصلح للأسفار البعيدة عبر المحيطات ، وهى التى أدت إلى كشف الرادار .

(التليفزيون)

لقد سحرنا هذا البساط — والحق — حينما رأيناه قد نقل « الشاطر محمد » إلى ابنة السلطان ، ولو أن النقل لم يكن إلا عن طريق الآذان . وها هو ذا ينقلنا الآن نقل العيان فتكون النبوءة قد تحققت قلباً وقالباً ، بل تحققت أمنية من يتحرق قلبه لرؤية الحبيب من قريب . وأعتقد أن هذه الصور المتحركة التى أصبح ينقلها الأثير ليست فى الواقع إلا لوناً من صور الخيال التى كنا نلهو بها صغاراً . ولكى نستطيع أن نفقه سر هذه العين الساحرة يجب علينا أن نفهم أولا ماذا يجرى من التحدث أمام الميكروفون فى محطة الإرسال ، وهو أن قرص الميكروفون حينما يتأثر من الموجات الصوتية يأخذ يتذبذب ذبذبات صادقة تتكافأ مع هذه الموجات الصوتية وتتأثر منها حبيبات دقيقة من الكربون يتكئ عليها الحاجب ، ومن اهتزازات الحاجب تتغير مقاومة الكربون وبالتالى قوة التيار بالنسبة لشدة الأصوات التى صدرت أمام الميكروفون فتأتى منقولة بحالتها الطبيعية . ثم تبدأ المرحلة التالية حيث تجمع هذه التيارات المعدلة وتكبر بوساطة الصمامات إلى طريقها فى

الأثير . تلك هى المرحلة التى يتم فيها تحويل الكلام إلى طاقة كهربية مغناطيسية تسير فى ركاب الأثير ، فلكى تنقل صورة الجسم متحركاً كان أم ثابتاً من مكان إلى آخر عبر الفضاء وجب علينا أن نطبق الطريقة نفسها . فمحطة إرسال الصور لابد لها من ميكروفون ضوئى يصلح لنقل جزئيات الضوء بدلا من جزئيات الصوت ، وهو فى هذه الحالة « العين الكهربية » التى من شأنها تحويل الأشعة الضوئية المارة بها إلى تيار كهربى يتكافأ فى شدته مع كثافة الضوء،ويرجع الفضل فى كشف «هذه العين السحرية» إلى «هولواك» حيث لاحظ فى عام ١٨٨٨ أن بعض الفلزات تتأثر من تعرضها للضوء وترسل بسبب ذلك ألكترونات ، وهى جزئيات دقيقة من التيار الكهربى ، وبمعالجة هذه الملاحظة أمكن تحسين نتائجها بوضع الفلز الشديد الحساسية للضوء فى غلاف زجاجى مفرغ من الهواء، وينتهى بقطبين حيث يمكن الحصول منها على تيار من الضوء ، يقدر بجزء من المليون من الأمبير ، وإنما تختلف هذه الشدة تبعاً لكثافة الضوء . ولكن تعال معى بعد ذلك لنرى ما عساه يحدث لو أننا أذعنا تلك التيارات الناتجة من تأثير الضوء ثم قمنا باستقبال هاته الإشارات بأجهزتنا اللاسلكية ، إن ما سنراه هو أن محطة الإرسال لو شرعت ترسل هذه الإشارات الضوئية

بمعدل ستين ومضة فى الثانية مثلا فإننا نسمع أزيزاً تبلغ تردداته ستين ذبذبة فى الثانية ، ومن هذا التطبيق العملى ترى إمكان نقل صورة على صفحة الأثير لو استعضنا عن استقبال الأزيز باستقبال نقط متكافئة للإشارات المحدثة له فتصبح الصور مجموعة من هذه الإشارات الصوتية التى لا يمكن رؤيتها بحال ما ، ونخلص من هذا التبسيط إلى أن عملية التلفزة ليست إلا مكبرة للإشارات الصوتية المنقولة التى تحمل فى طياتها مركبات الصورة وتحويلها إلى موجات ضوئية مختلفة الكثافة . فياله من مكبر عجيب حقاً ؟ ولكن يظهر أننا سوف لا ننتهى من هذه العجائب طالما أننا نجرى فى حلبة البساط السحرى .

إن هذا المكبر لم يكن غير مصباح قد ملىء بغاز النيون ، فحينما يتأثر من مرور التيار يضىء فى لون قرنفلى وتختلف درجة سطوعه تبعاً لكثافة التيار الذى يمر بالمصباح . ورب قارئ يحلو له أن يسأل : ألا يصلح المصباح العادى لهذا العمل ؟ والجواب عليه أن مصباحك هذا يا أخى يتطلب لكى يضىء أن تسخن فتيلته حتى تصل حرارتها إلى درجة التألق ، ومثل هذه المرحلة تستلزم وقتاً يمر بين لحظة توصيل التيار ولحظة الإضاءة . وهو من أجل ذلك لا يكون أداة صالحة لنقل الإشارات التى يتطلب التعبير عنها جهازاً سريع التأثر مثل

مصباح النيون الذى يضىء من تحركات ذرات الغاز وليس من تسخين فتيلة مثل المصباح العادى فضلا عن إمكان إضاءته وإطفائه مرات تصل إلى ١٠٠,٠٠٠ فى الثانية مما لا تستطيع عين الإنسان أن تلاحقه؛ حتى ليخيل لها أن المصباح مضىء أمامها وكأنه لم ينطفىء .

أعتقد أننا وقد وصلنا إلى هذه المرحلة نكون قد عرفنا بعض الشىء عن ميكروفون الضوء ومكبر الضوء وهما عنصرا التليفزيون.

وقد لا نكون بمنأى عن فهم ما يجرى لنقل صور الأجسام المتحركة إلى مسافات بعيدة ثم استقبالها على شاشة بيضاء ، وتتلخص تلك الطريقة بتسليط شعاع ضوئى قوى ينفذ من ثقوب ترسم شكلا لولبياً على سطح قرص يدور بسرعة على جزئيات الجسم المطلوب نقل صورته كل جزئى بعد الآخر على دفعات عدة حتى يمر الشعاع الدائر على دقائق الجسم كلها كما لو كان قلماً يصور هذا الجسم . لقد قلنا إن عملية الكشف هذه لا تتم دفعة واحدة ، وتفصيل ذلك إنه إذا وضع الجهاز أمام وجه رجل فإن أول ثقب يضىء هو قمة الرأس ويعقبه الثقب الثانى فيضىء ما يقع أسفل القمة ثم يجىء الثقب الثانى فيضىء ما يقع أسفل القمة ثم يجىء الثقب الثالث فيكشف ما بعدها وهكذا حتى إذا ما أتم القرص دورته

يكون الجسم قد نقلت صورته بأكملها . ولزيادة الإيضاح نرى أن الشعاع الضوئى عند ما يقع على سطح الجسم يعكسه بالتالى إلى العين الكهربية أو كما سبق القول إلى الميكروفون الضوئى ، فإذا افترضنا أن القرص الكشاف غير متحرك ثم بزغ الشعاع صوب شعر أسود اللون لا تستقبل العين الكهربية شيئاً منه لأن اللون الأسود يمتص الضوء ولا يعكسه ، وبذا لا تولد العين تياراً ألبتة ، فإذا غيرنا وضع القرص حتى ينقل الشعاع إلى الجبهة مثلا نراها تعكس حزمة قوية من الضوء إلى الميكروفون الضوئى فيولد تياراً متناسباً فى شدته مع قوة الضوء ، وكذلك إذا سقط الضوء على جهة فى الوجه يقع عليها الظل فلا هى بالمضيئة ولا بالمظلمة فإن العين تولد تياراً متكافئاً مع هذه الحالة ، ويلزم لنقل الصور ثلاثة أجهزة للإرسال . فالأول خاص بدائرة الميكروفون الضوئى وتتخلله جملة صمامات التكبير التيارات المتولدة من تأثير الضوء ، والثانى يذيع على موجة تخالف الأولى لإحداث التوافق بين سرعتى قرصى الإرسال والاستقبال ، ثم جهاز ثالث يرسل على موجة خاصة لإذاعة الأحاديث والموسيقى . أما كيف نستقبل هذه الومضات الضوئية وكيف تتكتل هى وتكون الصورة المنقولة فإليك البيان :

حينما يكون الثقب الأول من قرص الكشاف فى محطة

الإرسال متخذاً وضعاً خاصاً أمام الجسم المراد نقل صورته يكون الثقب الأول المماثل له فى القرص الكشاف فى محطة الاستقبال متخذاً الوضع نفسه ، فتستقبل هذه الإشارة على موجة طولها ١٩١ متراً ثم توضح وترسل إلى مصباح النيون ، وهو بمثابة مكبر الصوت فى جهاز الراديو ، وتراه مركباً خلف القرص الكشاف فى جهاز الاستقبال . فإذا نظر الإنسان عن كثب من هذا القرص خلال فتحة مستطيلة الشكل (٣ × ٢,٥ بوصـــة) إلى تتابع الومضات الضوئية فإنه يتمثل أمامه الجسم المنقول صورته . وكما قلنا إن الشعاع الضوئى حينما يصدم سطحاً أسود اللون يمر فيه تيار ضعيف فى العين الكهربية وينقل إلى جهاز الاستقبال تياراً يحاكيه ضعفاً ، وعلى العكس من هذا إذا مر هذا الشعاع الكشاف المرسل بقطعة من الألماس فإنما يقابل توهجاً شديداً فى مصباح النيون المستقبل ، وعلى هذه الوتيرة تنتقل نقط الجسم على بساط الأثير من مكان إلى آخر . ومن الضرورى أن نعلم شيئاً عن مدى مثابرة العين على الرؤية ، فأنت إذا بهرك ضوء صاعقة انسابت من السماء فإن نظرك يبقى متأثراً بها وقتاً ما بعد اختفاء الصاعقة ، وقد قدر هذا الوقت بأنه لا يقل عن $\frac{١}{١٦}$ من الثانية ، وعلى هذه القاعدة رتبت سرعة عرض الصور المتحركة على الشاشة البيضاء ،

فحينما تقع العين على منظر يظل عالقاً بها حتى يروح ويجىء مكانه المنظر التالى له ، وبعبارة أخرى تبقى العين عمياء بالنسبة للمنظر التالى زهاء اللمحة السابقة ، وعلى هذا فإن الصور المتحركة تعرض بمعدل ١٦ صورة فى الثانية ، وهى السرعة التى وجدت موافقة لمثابرة العين على الإبصار ، وبناء على تلك المشاهدة وجب أن يدور القرص الكشاف بهذه السرعة نفسها ، بمعنى أن هذا القرص المرسل يكشف جميع نقط الجسم المطلوب نقله بمعدل ١٦ مرة فى الثانية ، ثم يقابل ذلك أن القرص الكشاف المستقبل يكون هو الآخر ١٦ صورة فى الثانية ، وبهذا تتابع العين كافة التغييرات التى تحدث من بعيد فيرى الجسم كما لو كان ماثلا أمامها . وطالما أن الموجات التى تحمل نبرات الصوت متجاوبة فى سرعتها مع الموجات التى تنقل جزئيات الجسم فإن الأصوات تصدر من المذياع وهى متطابقة مع تحركات الشفاه ، ولو أن عملية التلفزة تتطلب كما رأينا ثلاثة أجهزة للإرسال والاستقبال أحدها لنقل الصورة الحية والثانى للأصوات والثالث لضبط أوضاع الأقراص الكاشفة إلا أنه من الممكن الاكتفاء بجهاز إرسال الإشارات الضوئية ، وتنظيم التوافق بين أوضاع الأقراص للكاشفة يدوياً إلى أن يتسنى نقل الضوء والصوت عبر موجة واحدة .

تلخيص للحديث

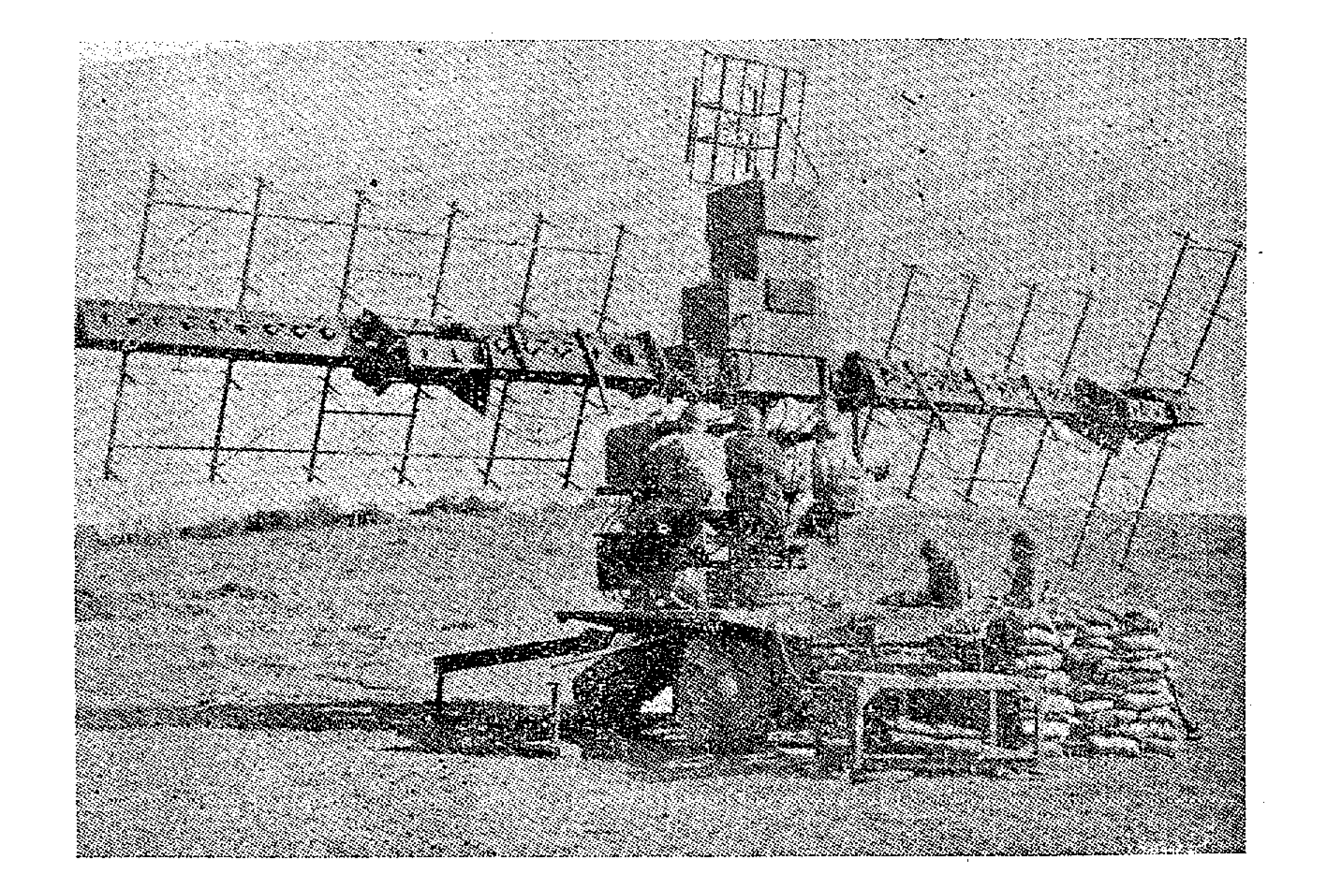
لقد رأينا كيف أمكن فى « التليفون » تحويل الصوت إلى كهرباء عند الإرسال ثم تحويل هذه الطاقة الكهربية إلى طاقة صوتية أى بصورة عكسية عند الاستقبال وها نحن أولاء نرى الآن كيف توصل العلم فأوجد حالة جديدة فى التليفزيون حيث تحول الطاقة الضوئية عند الإرسال إلى أخرى كهربية ، ثم تحول عند الاستقبال إلى طاقة ضوئية ، وإذا كنت فى حاجة إلى أن تعرف سبب إرسال الصور نقطة فنقطة فحسبك أن تعلم أن ذلك لم يكن إلا محاكاة للإنسان حينما يتصفح صفحة من كتاب ، فطريقة العين هى أن تقرأها سطراً فسطراً ثم تقرأ السطر كلمة فكلمة حتى تنتقل الصفحة بهذه الطريقة المجزأة كاملة إلى الذهن ، وعلى هذا المنوال وجب أن يقرأ الضوء الصورة نقطة فنقطة كما تقرأ العين الصفحة كلمة فكلمة . والطريقة البدائية فى عملية التلفزة تعرف بطريقة « بيرد » ، وفيها يبقى الجسم ثابتاً ويحوم حوله شعاع ضوئى يقرأه نقطة فنقطة حينما ينفذ الشعاع من ثقوب تبلغ الثلاثين مرتبة فى شكل حلزونى فوق قرص معدنى يدور بمحرك كهربى ، فالثقب الأول يصدر منه شعاع ويسقط على الصورة فى وضع خاص حتى إذا

تلاه الثقب الثانى سقط الشعاع إلى وضع أسفل من سابقه ، وهكذا حتى تظل بقعة الضوء تكشف أجزاء الجسم كلها حتى يتم القرص دورته على أنه يدور بمعدل ١٦ مرة فى الثانية ، وهى السرعة التى وجدت ملائمة لبقاء التأثير على الشبكة كما سبق القول ، ومن تتابع هذا العرض يخرج الضوء من الثقوب الكاشفة لينعكس من بين الجسم بشدات مختلفة ليؤثر على الخلية الكهربية (التى هى بمثابة الميكروفون للصوت) فيتحول الضوء إلى كهرباءتضاعف قوتها بوساطة مكبرات خاصة ، ومن ثم إلى صمامات للتقويم فالاهتزاز فإلى هوائى الإرسال حيث تنطلق عبر الأثير ، فهيا بنا إلى إعداد الشباك لاقتناصها فنمد لها هوائياً يلتقط الموجات المذاعة ويبعث بها إلى صمامات تفصل التيار الحامل (العالى التردد) عن التيار المعبر عن الصور لتحويله إلى إشارات ضوئية تتجاوب مع التيارات المؤثرة على مصباح النيون، وتنفذ هذه الإشارات الضوئية من ثقوب القرص الكاشف وتستقبل على جلسة خاصة حيث نشاهد صورة الجسم واضحة خلالها ، فكأنما جاءت دورة الاستقبال عكسية لدورة الإرسال فى هذه الطريقة . إلا أنه لما كانت هذه الطريقة لا تصلح لنقل صور الأجسام السريعة الحركة كالطيور والمباريات فقد أعدت أنبوبة زجاجية للاستقبال تحاكى

الناقوس شكلا وهى مفرغة من الهواء ، فحينما يسلط عليهـــا التيار يصدر من فتيلتها وابل من الألكترونات تنطلق صوب القاعدة المتسعة فيتألق غشاؤها المدهون بمادة بيضاء باهتة اللون بأضواء مختلفة ترسمها البقعة الضوئية الحائرة فوق الستار طوراً من اليمين إلى اليسار وطوراً من أعلى إلى أسفل نتيجة تحكم زوجين من الألواح داخل هذه الأنبوبة بحيث إذا أثرت كهربية موجبة على لوحى أحد هذين الزوجين تحركت البقعة الضوئية بين الأعلى والأسفل . وفى حالة ما إذا أثرت الكهربية الموجبة على لوحى الزوج الآخر نتج من ذلك تحرك البقعة بين اليمين واليسار ، وهكذا ، فترسم هذه البقعة الحائرة فوق الستار ما ينم عن الأجسام المنقولة صورتها هذا ما نراه يجرى فى الجهاز المستقبل الحديث، ولا بد لنا أيضاً من أداة للإرسال تغنينا عن الأقراص الكاشفة وما يتطلبه من تعقيد إدارتها فى حالة توافقية بين محطتى الإرسال والاستقبال كما يتم نقل الصورة نقلا واضحاً لا اهتزاز فيه مما يتطلب تنظيم سرعة محرك القرص المستقبل بتأثير التيارات الناقلة الصورة نفسها فتتحكم بتأثير المغناطيسية على السرعة وتنظمها بما يجعلها مطابقة السرعة المرسلة ، وهذه العملية هى دعامة الدقة فى التليفزيون ، وحسبنا أن نذكر مثلا عملياً يتكفل بتفسير هذا المعنى ، ذلكم ما كان يجرى فى الخيالة

الناطقة حين بدء ظهورها ، فقد كانت المناظر تعرض من الشريط فى حين كانت الأصوات تصدر من الأسطوانات التى يديرها الحاكى ، فى هذه الحالة إن لم تتحد السرعتان ويتفقا معاً فى البداية والنهاية حدث اضطراب فى العرض ، كأن يصدر الصوت مثلا قبل أن يظهر صاحبه على الشاشة أو حينما تكون شفتاه مغلقتين ، ويكون هذا الخلط نتيجة عدم التوافق فى العرض فيسبب المتاعب التى ووجهت فى النقل بهذه الطريقة الميكانيكية ، فقد قام أحد علماء الروس « زوروكين » وكون جهازاً ساكناً للإرسال وأطلق عليه اسم « ايكونوسكوب » وهو مشتق من لفظة « ايكونولوجى » بمعنى تفسير الصور . ، وهذا الجهاز أنبوبة زجاجية على شكل الناقوس قطرها ٣٠ سنتيمتراً تعمل على نظرية تفريغ المكثفات للتيار بعد ما تشحن به من جملة خليات كهربية مثبت بها ستار من مادة حساسة مشبعة بمحلول النوشادر ويودور البوتاسيوم فيؤثر التيار المستقبل على الأيودين فيحدث من النشا نقطة سوداء ، كما أنه يوجد جهاز آخر للاستقبال الساكن يوضع بداخله لوحان من الزجاج يشغل ما بينهما جرافيت من نوع خاص فحينما تنتشر فى داخل أنبوبة الجهاز الأشعة المغناطيسية المتولدة من التيار المستقبل تفسح أمامها حبيبات الجرافيت بحسب الصورة المنقولة فيمر بينهما

الضوء مكوناً على الستار الشكل المطلوب ، وقد خطا هذا الكشف بالتليفزيون خطاً واسعة من حيث الدقة والوضوح حيث أمكن بهذه الطريقة الحديثة إرسال خمسين صورة فى الثانية على ٥٠٠ خط ، وربما يصل الأمر أحياناً إلى نقل ٣ مليون نقطة فى الثانية فى حين أن الطريقة الميكانيكية الأولى لم يمكن أن يرسل بها أكثر من ٢٥ صورة على ١٨٠ خطاً فقط . ولقد بدأ التليفزيون يخطو خطوة إلى الأمام بنقل الصور والمناظر وهى بألوانها الطبعيية ، وذلك بإدارة طارة قطرها عشرون سنتيمتراً بمعدل ١٠٠٠ لفة فى الدقيقة وتحمل على جانبها عشرين مرآة مائلة بزوايا مختلفة عن بعضها فى درجة الميل وتعكس الأشعة الضوئية على قرص آخر يدور بسرعة ٥٠٠ لفة فى الدقيقة وبه اثنى عشرة نافذة مستطيلة الشكل ذات عدسات ملونة على هذا الترتيب : الزرقاء فالصفراء فالحمراء وهى الألوان الأساسية فى الضوء — وليس ببعيد أن نرى فى بلادنا دوراً خاصة تعرض فيها الحوادث العالمية بالتليفزيون دقيقة فدقيقة كما يجرى فى إنجلترا وألمانيا وأن تخصص له دور الخيالة عرضاً من برامجها مما يدر عليها الربح الوفير ، فلقد قامت شركة الإذاعة البريطانية (B.B.C) بعرض من هذا القبيل فعاد عليها بربح قدره ٣٧٥٠ ريالا فى الساعة الواحدة .



محطة ساحلية للرادار

تليفزيون فى الظلام

التليفزيون ، كما سبق أن أوضحنا ، عبارة عن نقل الصور إلى مسافات بعيدة ، وقد رأينا كيف أن هذه العملية لا يمكن أن تتم إلا بتأثير الضــوء ، فكان عجيباً حقاً أن تسمع أنه يجرى فى الظلام ، ولكن شركة راديو (R C A) الأمريكية قد وفقت أخيراً إلى إيجاد عدسة تستطيع أن تصور على ضوء عود ثقاب أو فى حجرة مظلمة تشيع فى أرجائها الأشعة تحت الحمراء وهى التى لا يمكن رؤيتها ، وأجرت هذه الشركة تصوير عرض تمثيلى فى الظلمة الحالكة حيث كان الممثل لا يرى زميله الذى يحادثه وهو بجانبه ومع ذلك فقد أمكنت المشاهدة فى جلاء على ستار جهاز التليفزيون — أما تصميم هذه العدسة العجيبة فما يزال سراً حربياً حتى الآن نظراً لاستخدام هذا الكشف فى الإرشاد عن الأهداف التى تدمرها الطائرات الحاملة للطوربيدات والتى تسير من غير قائد بتأثير الموجات اللاسلكية حيث تحمل هذه العدسات وتصور بها مواقع العدو ثم ترسلها إلى جهاز القيادة المستقبل للمرئيات ، حتى إذا ما تحدد الهدف تماماً أسقطت القذيفة عليه كما حدث ذلك عند تدمير قاعدة اليابانيين فى « رابون » . ولعمرى إن هذه

الأنبوبة « أورليكون » التى فاقت حساسيتها كل تقدير وبلغت مائة مرة من قدرة العدسات المعروفة سيكون لها صدى بعيد الأثر فى الوصول بالتليفزيون إلى الذروة إذ سيتسنى بها تصوير الحوادث والمناظر الطبيعية أنى ومتى كانت حتى بعد غروب الشمس من غير ما حاجة إلى إعداد مصادر قوية للإضاءة .

إبراق الصور

كثيراً ما تطلع علينا الصحف وبها صور مكتوب بأسفلها أنها منقولة بالراديو ، ولما كانت هذه العملية من بنات التليفزيون فكان لزاماً علينا أن نشير إليها ، وتفصيل ما يجرى فيها أن يلصق الرسم المطلوب نقله عبر الأثير حول أسطوانة معدنية تتحرك من اليسار إلى اليمين أو العكس ، وهى تدور فى الوقت نفسا بمحرك كهربى ، فإذا ما سلط ضوء على هذه الأسطوانة وهى فى حركتها المترددة الدائرية فإن الشعاع الضوئى يقرأ الرسم نقطة فنقطة وتنعكس النقط فرادى على الخلية الكهربية بقدر كثافتها الضوئية، فتقوم هذه بدورها كما سبق القول بتحويل الطاقة الضوئية إلى طاقة كهربية تجسم قوتها بالصمامات اللاسلكية وتنقل أخيراً على متن تيار عال التردد عبر الأثير ، وعند الاستقبال تلتقط الموجات من الهوائى وتكبر الإشارات الواردة

وهنا يتولى الصمام الكاشف فصل التيار المعبر عن الضوء عن التيار الحامل له فيأخذ هذا طريقه إلى الأرض لعدم الحاجة إليه ، وبعد تكبير قوة التيار المعبر عن الأضواء ، يؤثر هذا على مصباح نيون فيحول الطاقة الكهربية إلى طاقة ضوئية على عكس الدورة التى اتبعت عند الإرسال ، فتؤثر هذه الطاقة الضوئية على فيلم حساس بتأثير الضوء وهو يدور أمامه بنفس الطريقة المترددة الدورية الحادثة فى محطة الإرسال للأسطوانة الحاملة للرسم المنقول . وبعد أن تتم عملية الاستقبال يؤخذ الفيلم ويحمض وتطبع منه الصور الإيجابية ، وهكذا يتم نقل الصورة عبر آلاف الأميال فى وقت قد يقصر عن استحضارها من طابق إلى آخر .

وفى الحق أن هذه الفكرة ليست من حسنات القرن العشرين إذ يرجع التفكير فيها إلى عام ١٨٤٣ حيث بدأ « بان » تجاربه بأن استحضر أسطوانة معدنية كمحطة إرسال ورسم عليها شكلا بمداد عازل للكهرباء ثم كون دائرة كهربية تتخللها بطارية وأسطوانة أخرى متباعدة عن الأولى (كمحطة استقبال) مكسوة بورق مشبع بمحلول يودور البوتاسيوم ويرتكز على كل من هاتين الأسطوانتين إبرة معدنية . فعند إدارتهما فى دورة توافقية يلاحظ أن الإبرة التى تكشف الصورة على الأسطوانة المرسلة

حينما تلامس سطح الصورة ينقطع التيار الكهربى فى الدائرة بطبيعة الحال ، أما إذا لامست ما حول الصورة من السطح المعدنى فإن التيار يسير إلى الإبرة المستقبلة وهنا يحدث تحليل كهربى فى محلول يودور البوتاسيوم حيث يتجزأ اليود تاركاً خلفه بقعة سمراء ، وبهذا النسق تظهر الصورة على الأسطوانة المستقبلة ، وقد نقلت كما هى من مكان إلى آخر . وقد كانت هذه الطريقة البدائية لبنة أساسية فى تدعيم نقل الصور عبر الأثير، حتى لقد أوشكت طريقة إرسال الكلمات بالبرق اللاسلكى بتعبيرات النقطة والشرطة- أن تقضى نحبها بسبب مزاحمة هذه الطريقة لها ، وحسبنا على سبيل المفاضلة أن نقدر مدى الوقت الذى تستلزمه عملية نقل أخبار صحيفة تتكون من آلاف الكلمات عبر المحيط بكل من الطريقتين ، فنرى أن طريقة النقطة والشرطة فى أقصى سرعتها ، وهى ١٥٠ كلمة فى الدقيقة ، تتطلب وقتاً طويلا فى حين أن الطريقة الأخرى تنقل ٥٠٠ كلمة فى الدقيقة ، وقد أخذت مدارج التحسن تتوالى حتى أخرجت شركة تليفونكن الألمانية طريقتها المعروفة باسم «سيمنس كارلوس تليفونكن» وهى تتلخص فى تمرير شعاع ضوئى قوى فى سلسلة من العدسات والمنشورات العاكسة صوب الصورة المطوية على أسطوانة تدور بسرعة خاصة فتعكس من الصورة

أضواء تتناسب مع شكل السطح ولونه وتؤثر على خلية كهربية حيث تتحول إلى تيارات تتجاوب مع كثافة الضياء المؤثرة عليها ، وفى جهاز الاستقبال تلف ورقة فوق أسطوانة من أوراق التصوير الشمسى حيث تتأثر من الأشعة الضوئية الناتجة من موجات الأثير بوساطة خلية خاصة تعرف « بخلية كر » ، وهذه الخلية العجيبة هى عبارة عن وعاء زجاجى به قطبان يفصلهما محلول عازل الكهرباء مثل ثانى كبريتور الكربون أو نيتروبنزين ، فمن شأنه توليد الأشعة الضوئية من الموجات اللاسلكية المستقبلة وهى التى تؤثر فى الورق الحساس وترسم الصورة المنقولة .

عين التليفزيون

لقد كان محتوماً أن يكون للتليفزيون عين تبصر الأشياء وتكون بمثابة ميكروفون ينقل الضياء بدلا من الصوت ، فكما أن هذا الميكروفون تجده فى محطات الإذاعة وأجهزة التليفونات يتأثر من الذبذبات الصوتية ويحولها إلى تيارات كهربية فإن هذه العين الكهربية تمثل دور الميكروفون بحذافيره ، غير أنها بدلا من أن تتأثر من الصوت تتأثر من الضوء ثم تحيله إلى تيار كهربى يتماشى مع كثافة الضوء فى قوته ، فالشعاع الخافت

يدل على تياره الخافت والشعاع القوى ينم عنه تياره القوى . وتلك العين كان « هولواش » قد استنبطها منذ عام ١٨٨٨ حيث لاحظ أنه إذا وصل لوحاً من الزنك بقطب سالب لبطارية أكسبه شحنة كهربية سالبة ، فإذا عرضه بعد ذلك لتأثير الضوء فوق البنفسجى رأى ظاهرة عجيبة وهى بدء الشحنة المتجمعة فوق اللوح فى التقلص . ولكنه لما عاد وأكسب اللوح شحنة موجبة لاحظ بقاءها بعد تعرض اللوح لتأثير هذه الأشعة القصيرة مما دله على تولد الشحنات الكهربية المختلفة النوع من تأثير الضوء ، وتلك المشاهدة كانت أساساً لابتكار عين التليفزيون . وهى فى مختلف أشكالها ليست إلا فقاعة زجاجية مثبت بنهايتها قطبان للتوصيل الخارجى منهما فقطبها الموجب مثبت به ملف من سلك دقيق أو شبكة معدنية ، والقطب السالب يتخذ عادة شكل راسب معدنى حساس بتأثير من الضوء مثل الليسيوم والروبيديوم والكاديوم حيث إن من خواصها انبعاث الألكترونات منها عند تأثرها من الضياء حتى إن مركب « أندريد البوتاسيوم » ليتأثر من أضعف الأشعة الضوئية التى لا تدركها العين البشرية ، أما عين التليفزيون فتهيأ على شكلين : عين غازية وأخرى مفرغة . ففى النوع الأول تفرغ الفقاعة الزجاجية ثم تشحن بقليل من أحد هذه الغازات النادرة وهى الأرجون والنيون

والهليوم حيث إنها جيدة التوصيل للكهرباء عند مرور الألكترونات المنتشرة خلالها وتعمل بذلك على سرعة نقلها إلى القطب السالب بخلاف النوع الثانى فإن الألكترونات تنطلق فيها بسرعة التفريغ وكلا النوعين يكون عازلا للكهرباء فى الظلام وموصلا حينما يتعرض للضوء .

عين التليفزيون تطل على أغراض أخرى

إن من بين التموجات الضوئية العديدة الألوان ما لا تدركه العين البشرية ؛ إذ هى لا تتأثر إلا من الأشعة الحمراء التى تبلغ ذبذباتها ٤٠٠ مليار كيلو سيكل والأشعة البنفسجية وذبذباتها ٨٠٠ مليار كيلوسيكل والصفراء وذبذباتها ٥٠٠ مليار كيلوسيكل ، وأما ما عداها من الأشعة الأخرى التى تقل ذبذباتها عن هذا المدى إلى مليار كيلوسيكل فلا تدركها العين إطلاقاً ، كما تعجز الأذن عن سماع التموجات الصوتية التى تخرج اهتزازاتها عن الدائرة الواقعة بين ١٦ و ٤٠ كيلوسيكل فحاسة الإبصار عندنا يتوقف عملها على مدى التحليل الكيميائى الذى يحدثه الضوء فى شبكة العين فهى لذلك لا تدرك التموجات الصوتية أو اللاسلكية ولا تلك الأشعة المعروفة بتحت الحمراء التى لها قدرة اختراق الضباب ولا ترى حتى فى الظلام الحالك

فلكي يتسنى الانتفاع عملياً بهذه الأشعة استعين بعين التليفزيون في هذا المضمار وذلك بتوليد تيار من هذه الأشعة عن طريق انعكاسها بمرآة على جهاز حراري يولد الكهرباء « توموكابل » ثم تكبير هذه التيارات التي تتولد بقوة ٠,٢٧ ميكرو أمبير وبضغط يختلف من ١,٦ إلى ٤٥ فولت ، أو بترسيب طبقة من كبريتات أي فلز ثقيل الوزن النوعي مثل السليوم على وجهي عدسة عازلة من الصوان ثم توضع بين قطبين فيرى أنه في الحالة العادية إذا وصل تيار بين هذين القطبين فلا يستطيع المرور بالنسبة لوجود عازل بينهما ، ولكن حينما تتأثر الكبريتات بالأشعة تحت الحمراء تصير جيدة التوصيل للكهرباء ويمر التيار عبرها بين القطبين ويدق ناقوس الخطر في حالة ما إذا وضعت العين لحراسة المصارف . وتستخدم هذه الطريقة في كشف مواقع الصخور وفي ميادين السباق حيث يسجل الوقت بدقة تصل إلى جزء من مائة من الثانية ، وفي المصانع إذ يمكن وقاية العمال من خطر الآلات بوقف حركتها في حالة تعرض عضو من جسم العامل للضرر ، هذا إلى أن إصدار الصوت في دور الخيالة إنما تؤديه هذه العين السحرية ؛ فضلاً عن استخدامها في تنظيم حركات المرور في الميادين وكذلك للإرشاد عن شبوب نيران الحرائق وهي في بدء ظهورها .

لسان التليفزيون أو مصباح النيون

إذا سألتك عن اسم شخص يجاورك فليس لك إلا أن تتجه إليه كى تراه أولا بعينك ثم تنطق بلسانك معلناً اسمه ، فكذلك الحال فى التليفزيون فله عين تبصر الأشياء ، وقد أتينا على شرحها ، كما أن له لساناً يعبر به عما يراه وهو مصباح النيون . والأول يوجد فى محطة الإرسال والثانى فى محطة الاستقبال وهى مكان التعبير ، وقد أطلق عليها اسم النيون نسبة إلى الغاز الذى يضىء بداخلها وهو أحد الغازات النادرة التى كشفها «رامساى» بالإضافة إلى غازات الكريبتون والإكسينون والأرجون والهليوم ، ووزنه الذرى ٢٠,٢ . ولقد كشف الطبيعى الألمانى «جيسلر» فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أن غازات معينة تتوهج إذا ما وصل إليها تيار مرتفع الضغط ، وعلل ذلك بأن هذه الغازات حين تتوهج تولد موجات تختلف فى طبيعتها تبعاً للتكوين الذرى لها . وخلص من بحوثه إلى أن درجة التوهج تختلف تبعاً لطبيعة الغاز ولضغط التيار المسلط عليه ، فبعضها لا يضىء إلا من ضغط مرتفع ، وبعضها يتأثر من الضغط المنخفض . ولما كانت أغراض التليفزيون تتطلب مصابيح حساسة فمن أجل هذه الناحية أختير غاز النيون من بين هذه

الطائفة ، ومع أن مصابيح النيون قد تعددت أشكالها إلا أنها تتخذ شكل أسطوانة مستقيمة فى أكثر أنواعها ذيوعاً ومثبت بها قطبان من صفائح النيكل ، وهو يتوهج من ضغط ١٦٠ فولت وبعضها من ضغط ٥٠ فولت ، وما عمل هذا المصباح فى التليفزيون إلا أن يترجم بلغة الضوء تغيرات التيار التى تبعث بها الخلية فى محطة الإرسال ، فكلما ارتفع الضغط بين طرفى مصباح النيون ازداد توهجه ، وبالمثل حينما ينخفض الضغط بين طرفى المصباح يتضاءل إشعاعه القرنفلى شيئاً فشيئاً حتى ينطفىء بريقه أى أننا قد أصبحنا بهذه الوسيلة قادرين على أن نتحكم فى قوة الأضواء المعبرة عن حقيقة الأشياء لا سيما أن هذا المصباح قد بلغت حساسيته بحيث يستجيب لكثرة التغييرات التى يتعرض لها ، إذ يكفى أن تعلم أن هذا المصباح يتوهج وينطفىء بمعدل ١٠٠,٠٠٠ مرة فى الثانية ، وفى الواقع أن ما يجرى بداخل مصباح النيون ليس إلا تفريغاً كهربياً كالذى نشاهده حينما نسلط تياراً مرتفع الضغط بين قطبين متباعدين عن بعضهما من حدوث شرر بينهما ، وفى كل أنواع الغازات توجد جماعة من الألكترونات الطليقة حينما تقع بين قطبين موجبى التكهرب تزداد سرعتها وتتجه وهى متكتلة صوب النهاية الموجبة مما يجعلها صالحة لتمييز القطب الموجب من السالب للتيار المستمر .

(خلية السلنيوم)

هى من أهم أدوات التليفزيون . وإذا كان لنا أن نسند الفضل إلى أهله فلنذكر الكيميائى السويدى « جون جاكون برزيلوسن » ، فقد كان أول من كشف الخواص الكيميائية لهذا الفلز ، ثم تناولته من بعده يد « ويلوباى سميث » فى عام ١٨٧٣ حتى كشف بدوره خصائصه الكهربية ، فقد خلص من بحوثه إلى أن السلنيوم هو موصل ردىء للكهرباء حتى ليمكن اعتباره عازلا ضعيفاً حيث إن مقاومته على وجه التحديد قدر مقاومة النحاس رقم ٣و٨ مضروباً فى عشرة أمامها عشرة أصفار ! ولكنه إذا طرق وهو فى درجة حرارة تقرب من درجة سيحانه لفترة طويلة وترك ليبرد تدريجياً فإنه يتبلور وتنخفض مقاومته للكهرباء كثيراً جداً ويصير حساساً لتأثيرات الضوء ، وقد وجد الطبيعى « أدامس » أن التغيير الحادث فى المقاومة يتغير طردياً بنسبة مربع كثافة الضوء ، بحيث إن هذه المقاومة إذا بلغت فى الظلام ٣٠٠ أوهم فإنها تنخفض فى ضوء الشمس إلى ١٥٠ أوهم أى بنقص قدره ٥٠ ٪ وفى الواقع أن خلية السلنيوم لا تختلف فى عملها عن مصباح النيون السابق الذكر إلا فى كونها تعمل على أساس تغيير المقاومة من أثر الضوء

ويتبع ذلك تغيير فى قوة التيار المستقبل فى حين أن أثر الضوء فى مصباح النيون كان انبعاثاً للألكترونات ، فكانت النتيجة واحدة فى الحالين ، ولو أن خلية السلنيوم قد ذاع أمرها فى التليفزيون بالنسبة لرخص ثمنها عن مصباح النيون خاصة بعدما أمكن إعداد خليات من السلنيوم تختلف مقاوماتها بين ١٠ ومليون أوهم تبعاً للأغراض التى تستخدم فيها ، ومعلوم أن لكل خلية من هذه الخلايا لمحة من الوقت تمضى بين لحظة سقوط الشعاع الضوئى عليها ولحظة انخفاض مقاومتها بعد تأثرها منه ، وتلك اللمحة تراعى جودتها عند تحضير السلنيوم وتصميم الخلية ، ولقد وجد أنه كلما ارتفعت مقاومتها ازدادت حسناً وقل زمنها إلى جزىء من الثانية ، هذا وتقدر حساسية الخلية المذكورة بنسبة مقاومتها فى الظلام إلى مقاومتها بعد تعرضها إلى الضوء ، فالخلية المتوسطة الجودة تتراوح هذه النسبة فيها بين ٢ — ١ و ٣ — ١ ، وقد تصل فى أجود أنواعها إلى ما بين ٤ — ١ و ٥ — ١ ، وقد دلت التجارب على أنه من الأوفق أن يؤثر الضوء على سطح متسع من السلنيوم وأن يكون فى شكل رقائق دقيقة السمك وتراها من أجل ذلك قد تعددت أنواعها وكان أبسطها تركيباً خلية « بيدويل » التى هى عبارة عن قطعة من ورق الميكا يلف عليها سلكان من النحاس وهما

متباعدان عن بعضهما بمسافة مليمتر ونصف ثم يملأ ما بينهما من الفراغ بالسلنيوم . وهناك نموذج ثان أنشأه « تونسند » يعمل بلف شريطين من النحاس فوق بعضهما ويفصلهما ورق الميكا العازل للكهرباء ثم يجرى السلنيوم على السطح الخارجى للملفين ، ومن ذلك يرى أن خلية السلنيوم إن هى إلا موصلان يفصلهما عازل للكهرباء ويشغل السلنيوم ما بينهما من فراغ . والسلنيوم هذا يوجد بين المواد المعدنية النادرة ويعثر عليه بين مخلفات تكرير النحاس ويتخذ شكل الغاز ويباع فى هيئة أسطوانات قطرها ½ بوصة وطولها ٤ بوصات ، وتكفى الأوقية منه لإعداد الكثير من الخليـــات ، والسلنيوم النقى يغلى فى درجة ٦٩٠ فارنهيت ، ووزنه الذرى ٧٩,٢ ، وقد يحضر السلنيوم بطريقة كيميائية بأن يعد محلول من إذابة حامض السلنيوم فى الماء بنسبة ١٠ ٪ ثم يسلط غاز حامض الكربونيك على هذا السائل حتى يرسب السلنيوم فى شكل مسحوق دقيق يجرى غسيله فى ماء جار ويترك حتى يجف فوق ورق الترشيح على أن تجرى هذه العملية فى الظلام وقد أصبح يباع محضراً فى زجاجات وهو مذاب فى محلول ثانى كبريتور الكربون بنسبة ١ ٪ حتى إذا ما دهن به السطح المطلوب ترسيب السلنيوم فوقه تبخر ثانى كبريتور الكربون وترك خلفه مادة السلنيوم ، ولا بد بعد

ذلك من إدخال الحلية فى فرن درجة حرارته ١٨٠ لمدة ١٢ ساعة ثم يطرق ويترك لكى يبرد تدريجياً ولا تستعمل الحلية إلا بعد انقضاء عشرة أيام على تحضيرها .

كاشفة التليفزيون

إن هذه الأداة الكاشفة لهى إحدى المركبات الرئيسية فى عملية التليفزيون بشقيها فى الإرسال والاستقبال ولو أنها بسيطة فى تركيبها وزهيدة فى تكاليفها إلا أن مهمتها دقيقة فى نقل الصور ناطقة وهى قرص به ثقوب تتخذ شكلا لولبياً وطريقة ذلك أن يقسم القرص إلى ٣٦ قسماً ثم تمد أنصاف الأقطار المكونة لهذه القطاعات الدائرية المتساوية ، وترسم ٣٦ دائرة على سطح القرص وهى متباعدة عن بعضها بمقدار قطر الثقب ثم يشرع فى إجراء الثقوب مع تقاطع أنصاف الأقطار بالدوائر بالتوالى فى أثر بعضها بحيث لا تثقب كل دائرة إلا فى موضع واحد ، وهذا هو المعروف بقرص « نيكو » الذى ظهر فى عام ١٨٨٤ ويصنع من الألمنيوم بالنسبة لخفة وزنه وسهولة تصنيعه وموافقته للسرعات العالية المطلوبة فى أشغال التلفزة . وقد يصلح إلى حدما الورق المضغوط إذا ما أجيد تثقيبه ، ومعلوم أنه كلما ازداد عدد الثقوب حسن الأداء والقليل منها ينتج صورة مشوهة

كما أن عدد الثقوب ومقدار أقطارها تحدد حجم الصورة فالصورة التى مسطحها ٥٤ بوصة مثلا تتطلب عملية كشفها قرصاً قطره عشر أقدام ، ولو أن لهذه الأقراص مكانتها الأولى فى هذا الشأن إلا أن لها نظائر أخرى ناجحة فهناك طريقة قوامها إدارة شريط رفيع ممدود فوق طارتين وتوزع على سطحه الثقوب توزيعاً لولبياً بنفس الوتيرة السابق بيانها ، ويتوسط الشريط المصدر الضوئى ، وفى هذه الطريقة يكون عرض الصورة متمشياً مع عرض الشريط ، على أن ما يلفت النظر عند تصميم هذه الأداة الكاشفة أن تؤدى إلى كثرة عدد الوحدات التى تقسم إليها الصورة . فلو نحن دققنا النظر إلى الصور التى نشاهدها يومياً فى الصحف المطبوعة بطريقة الألواح لوجدناها مكونة من نقط عديدة وطبيعى أنه كلما كثر عددها قربت الصورة إلى حد الكمال وهكذا يكون الحال فى عملية التلفزة .
أفلا تنظر إلى ضوء الكهرباء كيف تجده ثابتاً أمامك مع أنه يتذبذب فى تكوينه وتمر به فترات يتلاشى فيها ، ولكن بالنسبة لكثرة مرات حدوث هذه الذبذبات بواقع خمسين مرة فى كل ثانية فإنه يظهر كما لو كان مستمراً فى تكوينه ، ولهذا فإن الشركات الأمريكية حينما تنقل صوراً أبعادها ٧٥ بوصة فإنها تنقلها وكل بوصة مربعة منها مكونة من ١٠,٠٠٠ نقطة ،

أى بما يساوى نحو ٣٥٠,٠٠٠ نقطة للصـــورة كلها ، ولا يتطلب إرسالها أكثر من سبع دقائق إذا كانت الصورة منقولة من الصحف أو لمنظر أشباح ثابتة ، أما إذا كانت الصورة لكائن حى فإن العملية سوف لا تستغرق أكثر من $\frac{١}{١٦}$ من الثانية ، ومثل هذه اللمحة الخاطفة يتطلب أن تصل الترددات إلى ٧٠٠٠ مرة من قدرها عند نقل الصور الثابتة أو بما يقع فى نطاق ثلاثة ملايين ذبذبة .

التوافق فى التليفيزيون

أداة التوافق فى عملية التلفزة هى عمادها وعصب حياتها فهى التى توحد بين أوضاع تحركات الأقراص الكاشفة عند محطتى الإرسال والاستقبال كيما تظهر الصورة المنقولة وهى صادقة الإيحاء لا اهتزاز فيها ، ولإحكام هذا التوافق رأى الدكتور « ألكسندرسون» أحد أقطاب شركة « جنرال الكتريك » أن يدار محركان كهربيان فى كل من محطتى الإرسال والاستقبال على أن يكونا من صناعة واحدة ، وبقدر تنظيم السرعة بينهما فإنه تمكن إجادة الإخراج فى التصوير ، وبما أن إحداث تغيير فى السرعات يتطلب إقحام المقاومات فى طريق التيار فلابد إذن من استخدام محركات تدور بالتيار

المستمر وتختلف قوتها بطبيعة الحال تبعاً لحجم الأقراص الكاشفة التى تديرها ووزنها ، فمثلا إذا كان قطر القرص قدمين وسمكه $\frac{٣}{١٦}$ من البوصة ويدور بسرعة ١١٠٠ دورة فى الدقيقة فإن حمل المحرك فى هذه الحالة يكون مائة وات وتوضع له مقاومة منظمة قدرها عشرون أوهماً (وحدة المقاومة) وتتحمل تياراً قوته ٣,٥ أمبير (وحدة قياس شدة التيار) وإذا ما أريدت سرعات عالية تستخدم مقاومات مناسبة لها ، ولو أنه قد تعددت هذه الوسائل إلا أن أكثرها ذيوعاً وأفضلها من الوجهة العملية هى تلك التى ابتكرتها « معامل تليفونات بل » بتثبيت محركين على عمود إدارة مشترك بينهما أحدهما يدور من التيار المحلى فى حين يكون الثانى محركاً خاصاً توافقياً عالى التردد حيث يدور بذبذبات قدرها ٢٠٠٠ ومهمته أن يتحكم فى سرعة المحرك الآخر ويجعلها مطابقة لما تدور بها المجموعة الأخرى فى الناحية البعيدة .

هوايتك عندى

إن لك عندى تسلية ذهنية فى إعداد جهاز للتليفزيون بنفسك تنقل به صوراً من حجرة لأخرى كتطبيق عملى لما سبق شرحه ، وطبيعى أن الهواية فى مثل هذه الشئون لا تتطلب منك

أن تعمل كل جزء فى الجهاز بنفسك فدون ذلك خرط القتاد ، وإنما يكفى أن تستحضر الأجزاء وتعمل على تركيبها وتشغيلها وفق ما درسته عنها فتشعر بسرور ليس بعده سرور . . فكل ما تحتاج إليه محرك كهربى سرعته ١٥٠٠ لفة فى الدقيقة وقوته ١/٤ حصان تقريباً ذى منظم يدوى للسرعة وقرصين كشافين ومكبر للتيار ، ثم خلية كهربية ومصباح نيون ، ويحسن إن تعذر الحصول على ضوء قوى من مصباح قوسى أن يقتصر على نقل الصور الثابتة دون الأجسام المتحركة وسيتبع حجم الصورة المنقولة حجم الأقراص الكاشفة ، وعدد النقط المكونة للصورة يناسب عدد ثقوب القرص وأقطارها كما سبق التنويه عن ذلك ، ثم يشرع فى توصيل النهايتين الخارجيتين من مكبر التيار (الامبلفاير) إلى مصباح النيون فى حجرة الاستقبال فى حين توصل النهايتان الداخلتان إلى الجهاز المكبر مع قطبى الخلية الكهربية الموجودة فى حجرة الإرسال . أما الطريقة البسيطة لضبط عملية التوافق فهى تثبيت القرصين الكاشفين على عمود إدارة واحد يصل بين الحجرتين وتأتى إليه الحركة من طارة فى وسطه تستمد دوراتها من سير جلدى ينزلق على طارة أخرى مثبتة على عمود المحرك ، ويراعى عند تثبيت القرصين أن تكون الثقوب اللولبية فى وضع توافقى صحيح بالنسبة لبعضهما

بمعنى أن يكون الثقب الأول فى القرص المستقبل متخذاً نفس الوضع الذى يثبت عليه الثقب الأول فى القرص المرسل ، على أن تراعى جودة تثبيت الأقراص حتى لا يختلف وضع أحدهما عن الآخر من تأثير الدوران السريع ، إذ يلاحظ أن القرص الكاشف الذى يبلغ قطره بضع أقدام ويدور بمعدل ١٧٠٠ لفة فى الدقيقة تصل سرعته الخطية إلى عدة أميال فى الدقيقة فإذا كسر وهو بهذه السرعة العالية فإنه يحدث أضراراً بليغة قد تكون قاتلة إذا ما أصاب شخصاً مواجهاً له . ويختلف قطر عمود الإدارة تبعاً لطوله وإلى عدد مواضع ارتكازه ، فإذا أريد الاقتصار على موضعين فقط وكان قطر العمود نصف بوصة فلا يصح أن يمتد طوله كثيراً خشية ما يتولد فيه من الذبذبات غير المرغوب فيها لأنها تحدث اهتزازاً ظاهراً يخل بجلال الصورة ، ثم توضع الخلية الحساسة للضوء فى الحجرة المرسلة وهى بداخل صندوق دقيق حولها وله نافذة بحجم الصورة وتكون بحيث تمر بها ثقوب القرص الكاشف وفى مقابلة الخلية السابقة يثبت إطار معدنى أو خشبى ذو فتحة تطابق حجم الصورة ، ومن سداد الرأى دهان هذا الإطار والقرص الكاشف باللون الأسود لحجب الانعكاسات الضوئية ، أما مصدر الضوء المكمل لهذه العملية فيكفى لها مصباح عادى قوة

١٥٠ وات موضوع فى صندوق معدنى له عاكس وفتحة تتكافأ مع حجم الصورة وتعد به فتحات لتصريف حرارة المصباح . وفى حجرة الاستقبال يثبت مصباح النيون فى صندوق معدنى بحيث تكون ألواحه فى مستوى اللوح الكاشف ، وأخيراً تعد فتحة فى لوح معدنى ويعلق أمام الجانب الآخر من اللوح الكاشف مقابل الخلية حيث تكون هذه الفتحة هى المنظار الذى ترى فيه الصورة المستقبلة خلال عدسة مكبرة ، على أن يلاحظ أن تكون الصور المستعملة فى الحجرة المرسلة صوراً سلبية .

التليفزيون يساجل السينما

قبل أن يظهر التليفزيون كانت السينما وما زالت كما نراها قبلة الجميع حتى خشيت دور التمثيل أن تغلق أبوابها . . ولكن الزمان قد دار دورته فإذا بهذه السينما قد أخذت تعد نفسها للبكاء والنحيب من التليفزيون منافسها الرهيب . حتى لقد سمعنا صوت البكاء يجيئنا عالياً من « هوليود » وهى عش السينما صارخاً بأن التليفزيون أصبح الآن مهدداً لكيان السينما ، فقد صار فى وسع أولئك الذين يملكون أجهزة التليفزيون وقد أربى عددهم على سبعة ملايين شخص أن يستمتعوا بمشاهدة

الروايات المختلفة الأنواع على شاشة الأثير وهم على فراشهم الوثير وأصبحوا وهم فى غير حاجة إلى التردد على دور السينما !

ثم قدر رجال السينما ما يهدد صناعتهم من هبوط مستواها الفنى بالنسبة لأن صناعة التليفزيون بدأت تجذب إليها نوابغ الممثلين والممثلات من مهد السينما (هوليود) لأن محطات التليفزيون تقدم لهم أجوراً خيالية لا تستطيع هوليود أن تقدمها لهم ، ولأن مدة العرض فى التليفزيون قصيرة ، وبذلك لا يشعر الممثلون والممثلات بمجهود أو إرهاق فى حين أن العمل فى أستديوهات هوليود يستغرق وقتاً طويلا ويكلف الممثلين والممثلات جهداً كبيراً يبلغ فى بعض الأحيان حد الإرهاق كما حدث للنجمة اللامعة « فيفيان لى » التى يقال إن السبب الأول فى انهيار قواها العصبية هو المجهود الكبير الذى كانت تبذله فى « هوليود » . ولقد دخلت الحرب الباردة بين هوليود والتليفزيون فى طور خطير أخيراً فقد شن بعض رؤوس هوليود حملة عنيفة على التليفزيون فوصفوه بأنه مفسد لذوق النظارة لأن برامج التليفزيون تعتمد أولا وقبل كل شىء على الإعلانات التجارية المأجورة فى حين أن هوليود لا تلوث فنها السينمائى بمثل هذه الإعلانات ، واتهم رجال هوليود التليفزيون بأنه يفسد أيضاً ذوق الممثلين والممثلات الذين يجذبهم سحر الدولار لأن هؤلاء

مضطرون أحياناً إلى القيام بأدوار تافهة لا تمت إلى الفن بصلة غير ناظرين إلا إلى ملء خزائنهم . وكان طبيعياً بعد أن شن رجال هوليود هذه الحرب على التليفزيون أن ينهض الطرف الثانى مدافعاً عن نفسه فيقول إن هوليود قد أفلست من الناحية الفنية وإن فشل المشرفين على صناعة السينما فى اجتذاب النظارة هو الذي دفعهم إلى مهاجمة التليفزيون والتحامل عليه بالحق وبالباطل . والدليل على ذلك انصراف النظارة عن السينما وتحولهم المستمر إلى التليفزيون . وقالوا أيضاً إن العصر الحالى الذى اخترعت فيه القنبلة الذرية هو عصر السرعة والاقتصاد فى الوقت ، فالفرد الأمريكى العادى الذى يضطر إلى العمل طيلة النهار وأغلب الليل لا يملك من الوقت ثلاث ساعات يقضيها فى مشاهدة أحد الأفلام التافهة ولذلك فإنه يفضل التليفزيون على دور السينما لأن برامج التليفزيون قصيرة وواضحة وطبيعية .

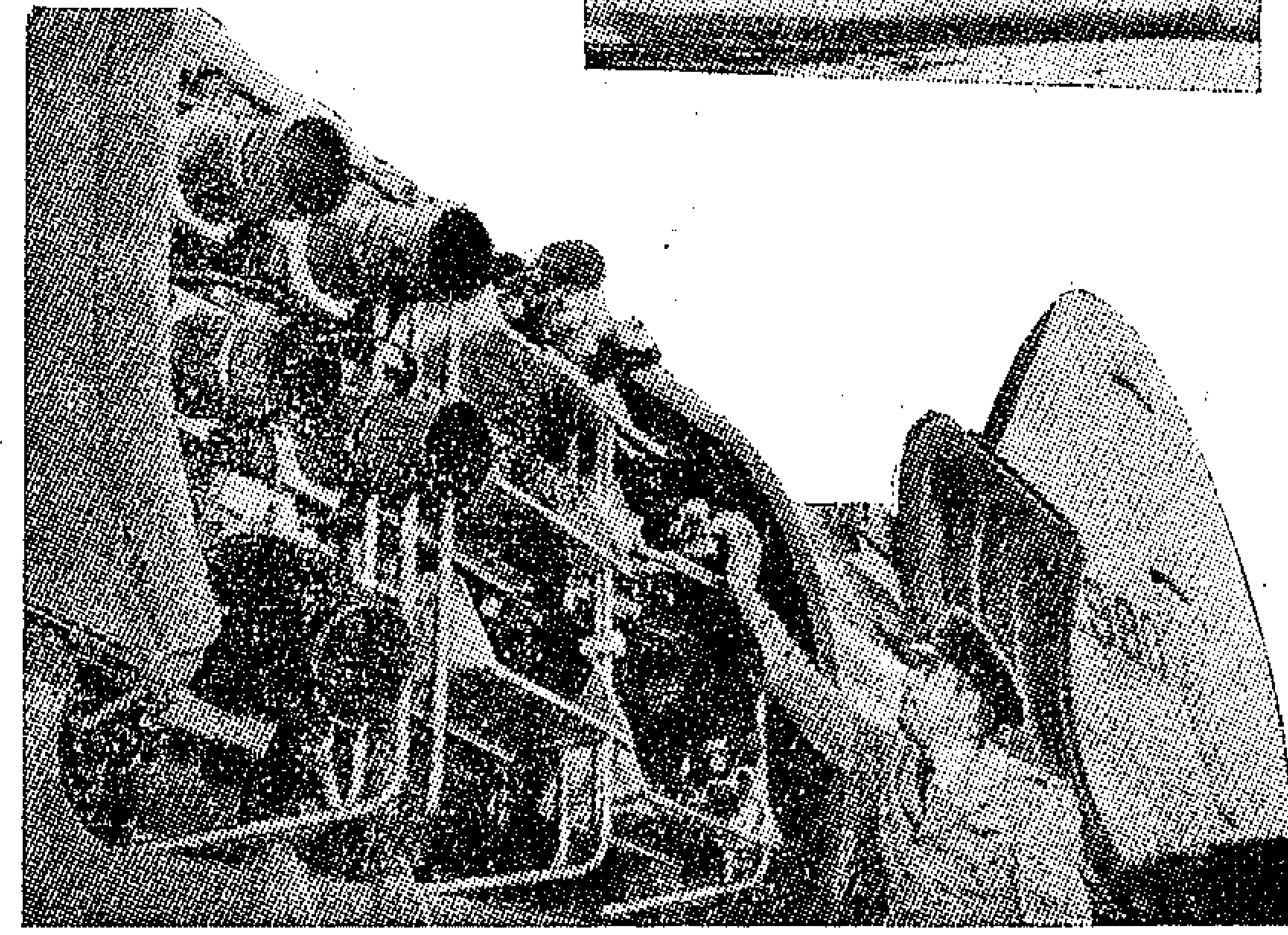
وحسبنا أن تعلم أن محبى التليفزيون فى أمريكا الذين أصبحوا يمتلكون أجهزته فى نهاية عام ١٩٥٢ قد أربى عددهم على الستين مليوناً أو ما يقرب من ٤٠ ٪ من عدد السكان !

التليفزيون جريدة أخبارية

أى شيء أروع من أن ترى سيارة جبارة تهرع إلى مقر



لا تكاد سحب القنبله الذرية تعلو
حتى تصورها هذه الطائرة المزودة
بعدسات التليفزيون



الحادثات حين تدور وإلى قمة البراكين وقت أن تثور . فتصور لك ما يجرى على شريط كأشرطة السينما وتسجل على جوانبه صوت المذيع وهو قائم بشرحه ، ثم يحمض ويثبت لوقته ويشرع فى إذاعته بحيث لا تستغرق هذه الدورة بين التصوير والإذاعة أكثر من دقيقة ونصف . وتعد هذه الأشرطة بحيث تكون بالغة الحساسية ، وهذا ما يدعو إلى تزويد أجهزة التصوير بثلاث عدسات مكثفة مختلفة المدى لإمكان التصوير من بعيد وفق الإرادة ، فالعدسة الأولى معدة لمسافة ٤٠ متراً ومدى الثانية ٢٥٥ متراً والثالثة ٦٤٠ متراً ، وبتسجيل مثل هذه الأشرطة يمكن إذاعتها مراراً شأن تلك الأشرطة التى تستمع إليها وهى تذاع بين الفينة والأخرى .

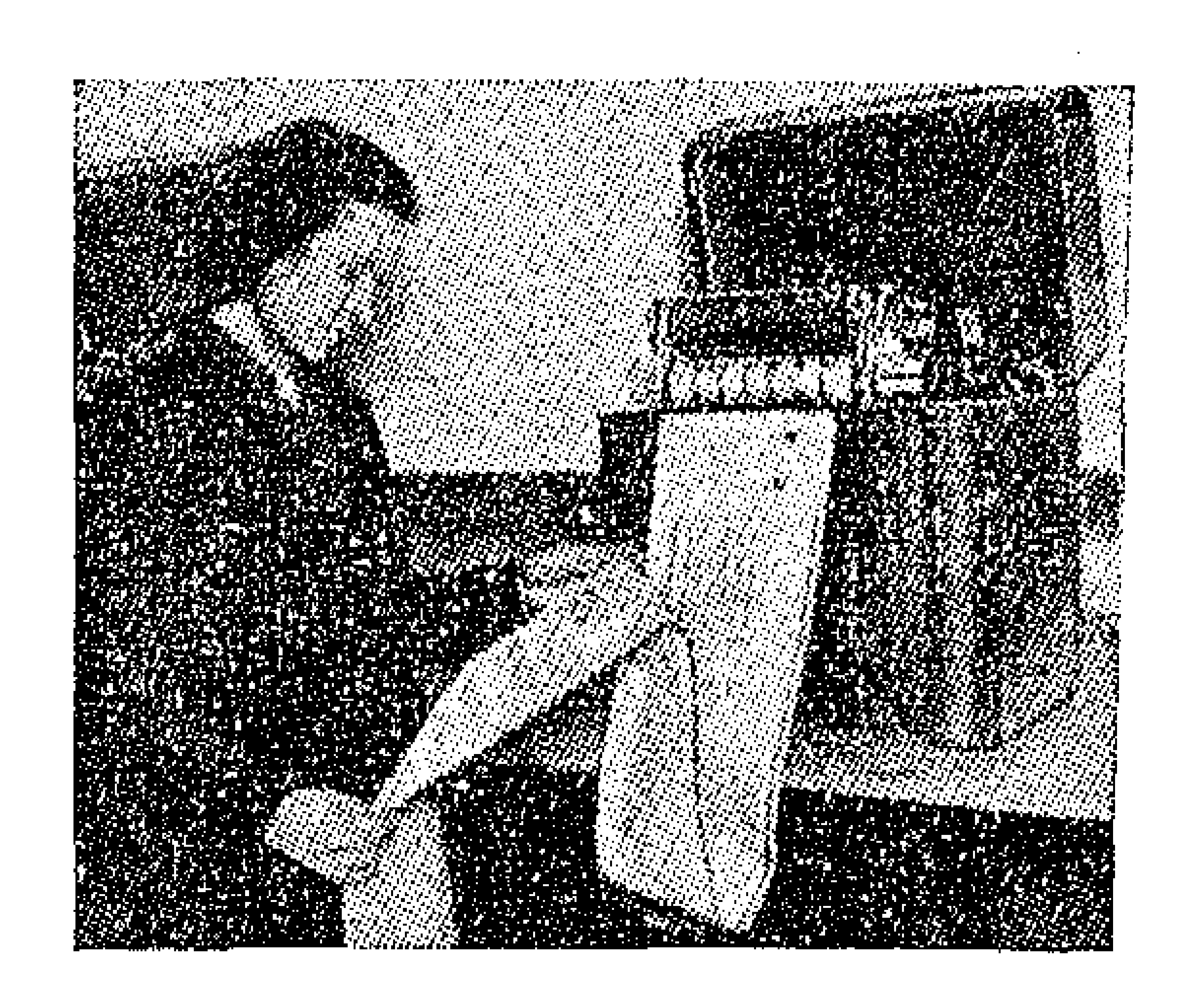
التليفزيون والشمس

معلوم أن قرص الشمس لا يمكن رصده بطريق مباشر إلا فى بضع حالات نادرة وهى تلك التى يقع فيها الكسوف الكلى ، إلا أن مهندساً أمريكياً خطر له أن يطبق طريقة الاستقبال فى التليفزيون فى هذا الشأن حتى يتسنى رصد الشمس فى أى وقت أريد فجعل « اسكلت » ضوء الشمس يتبع خطاً حلزونياً فى مركز قرص كالذى رأيناه فى كشف

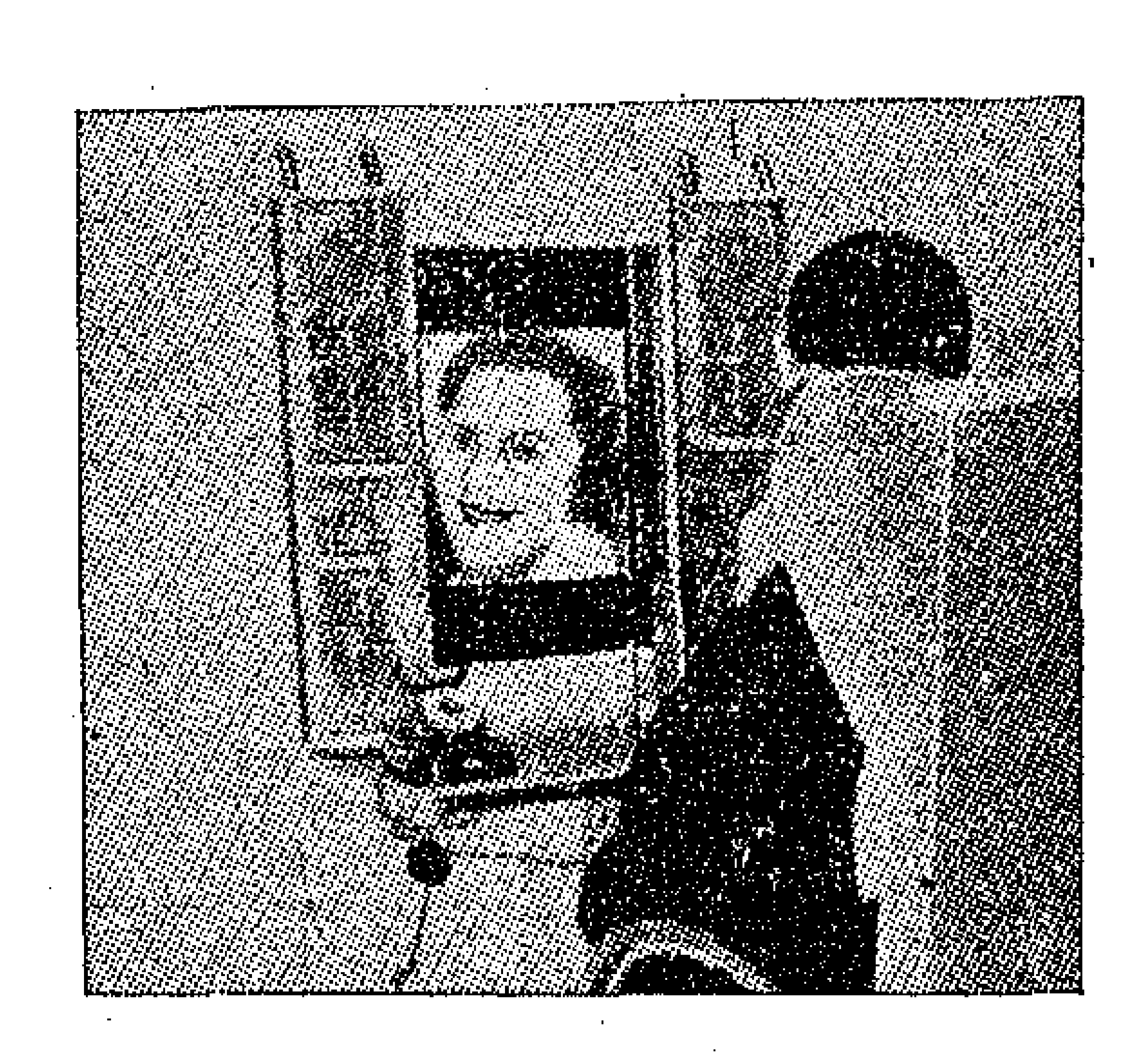
التليفزيون ، فالتغيرات الضوئية التى تتولد خلال هذه العملية تترجم إلى تيارات كهربية تحول إلى علامات ضوئية تصور ما يجرى بداخل القرص .

التليفون المتلفز

ثم هل أتاك حديث هذه الأعجوبة التى تجعلك ترى صورة من يحدثك وأنت تسمع صوته فى التليفون كما لو كان معك جنباً إلى جنب ! لقد أصبح ذلك حقيقة واقعة حيث أنشىء خط تليفونى بين برلين وليبزج وهما تبعدان عن بعضهما بمسافة ١٥٠ كيلومتراً ، وأعدت لهذه العملية موصلات أرضية خاصة لتنقل تيارات عالية التردد من مرتبة ١,٢٥٠,٠٠٠ ذبذبة فى الثانية وتوضع فى الطرق مكبرات للتيار بين كل ٣٥ كيلومتراً . أما تلك الموصلات الأرضية التى يتوقف عليها نجاح العملية فتعد بطريقة خاصة فيمتد فى داخلها موصل نحاسى وموصل خارجى عبارة عن أشرطة نحاسية ملتفة فى خطوة حلزونية تفصلهما ملفات حلزونية من مادة عازلة (ستيروفلكس) تستخرج من المواد العضوية الراتنجية ، أما الحديث فينتقل بالموصلات العادية . فقل لى بربك ماذا بعد هذا ؟



ها هى ذى تقرأ فى دارها صحيفتها التى حررها لها التليفزيون



التليفون المتلفز

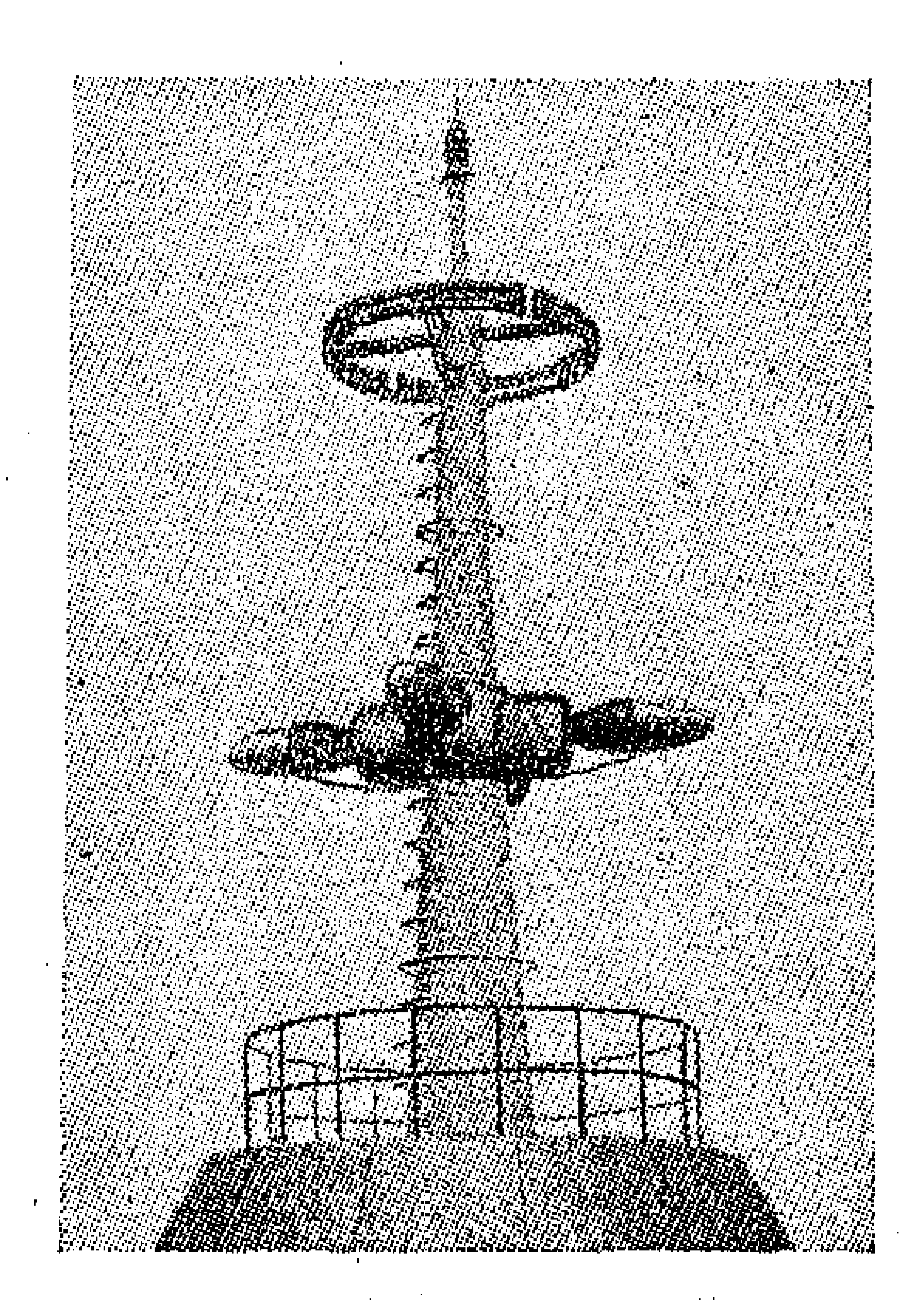
التليفزيون الملون

لقد كان الطبيعي الإنجليزي « بيرد » هو صاحب هذا الإخراج البديع حيث أجرى عرضاً ناجحاً نقلت فيه صور الممثلين بمناظرهم الطبيعية ، وتجرى عملية التلفزة بهذه الطريقة بكيفية آلية محضة فتسلط الأضواء القوية صوب المنظر المطلوب نقله ، ودورة الكشف تتولاها طارة قطرها عشرون سنتيمتراً يدور بسرعة ٦٠٠٠ لفة فى الدقيقة ويحمل على سطحه الجانبي عشرين مرآة مثبتة على زوايا متزايدة وهذه المرايا من شأنها أن تعكس جزئيات الصورة بوساطة عدسة مضاعفة التحدب على قرص مثقوب بطريقة خاصة يدور بسرعة ٥٠٠ لفة فى الدقيقة وثقوب هذا القرص تعد فى شكل نوافذ مستطيلة كل منها يختلف بعده عن مركز القرص ويثبت على هذه الفتحات زجاج ملون : الأزرق فالأخضر فالأحمر ، فكلما خرجت حزمة الضوء من أى فتحة أثرت على قطب « الروبيديوم » فى خلية الكهربا حيث يترجم الضوء إلى تيار فتضاعف قوته ويرسل عبر الأثير ، وقد روعى فى هذا التركيب أن كل نصف دورة من دوران القرص يتم فيها كشف الصورة بأكملها وأن ترسل ١٦,٦ صورة فى الثانية الواحدة ، وأما الطارة

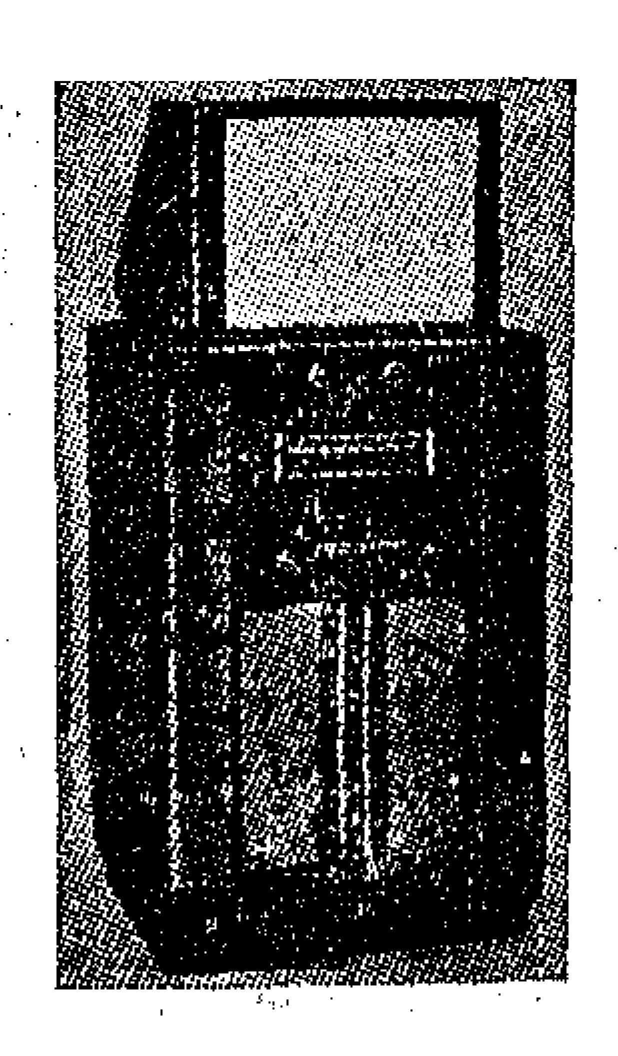
التى تحمل العشرين مرآة فإنها تلف ست دورات حتى يكمل كشف الصورة . وعملية الاستقبال تجرى بطريقة مشابهة ، فبعد أن تلتقط الإشارة تكبر بنقل تيارها إلى خلية « كر » التى ينغمس قطباها فى سائل « كبريتيد الكربون » أو « نيترو بنزين » حيث تستقبل التيار الكهربى وتعطى بدلا عنه ضوءاً تتكافأ كثافته مع جهد هذا التيار ، وتوجه حزمة الضوء إلى قرص ذى ١٢ نافذة مستطيلة يشبه قرص الإرسال السابق شرحه ، ومن ثم يعكس على الطارة ذات العشرين مرآة ، وأخيراً تستقبل الأشعة فوق الشاشة فإذا بها الصورة بألوانها الطبيعية .

التليفزيون يحرر صحيفتك بمنزلك

أبت أمريكا بلد العجائب إلا أن تضيف إلى حسنات التليفزيون عجيبة جديدة فقد هيأته لأن يعد لك صحيفة يومية بأحدث الأخبار مصورة فى ثوب قشيب لا يقل روعة وجمالا عما تطالعه فى الصحف اليومية حيث يوافيك الجهاز بأهم أخبار الشركات الأخبارية العالمية مثل هافاس وروتر عدة مرات يوميًّا . وهذه الوسيلة الجليلة مستمدة من الطريقة التى تمد كبريات الصحف بصور ما يقع فى أقصى المعمورة من



هوائى التليفزيون



جهاز التليفزيون

الحوادث بعد أن أمكن إعداد الأجهزة الناقلة فى حقيبة لا يزيد وزنها عن خمسين كيلوجراماً فتنقل إلى حيث يشاء مراسل الصحيفة ، وتحققت بذلك الأمنية التى طالما خفق بها قلب كل إنسان منذ أن وجد التصوير الشمسى . فلبى الدعاء الفرنسى « إدوار بيلان » حيث وفق فى عام ١٩١٣ إلى إخراج أول جهاز متحرك ، وفى هذا الوقت لم يكن الصمام الألكترونى قد ظهر فكان لابد من حيلة ولابد للأمر من وسيلة فكانت الصور التى يراد نقلها تطبع أولا على « الجيلاتينا » حيث تبرز على سطحها جزئياتها ثم تلف حول أسطوانة قطرها ٦٦ ملليمتراً وطولها ١٣٠ ملليمتراً وتدور كأسطوانة الحاكى عند بدء ظهوره وعليها إبرة دقيقة مثل سماعة « البك آب » المعروفة حيث يترجم هذا الميكروفون ما يلاقيه من نتوءات إلى تيارات كهربية تنقل إلى أسطوانة مستقبلة ملفوف عليها ورق كيميائى تتحلل مواده من تأثير الكهرباء ، فكل نقطة فى الصورة المرسلة تنقل بحذافيرها على الأسطوانة المستقبلة . ولكن ما إن أمكن تكبير قوة التيارات بوساطة الصمامات الألكترونية وأدلت الخلية الكهربية بدلوها فى الدلاء حتى مهد السبيل لإنشاء أجهزة الإرسال والاستقبال الحديثة .

البساط السحرى

البساط السحرى أيها القارئ الكريم ليس إلا تعبيراً مجازيًّا لموجات الأثير التى تطوف حول الكرة الأرضية فى مجال يزيد عن خمسين كيلومتراً وتسبح هذه الموجات اللاسلكية بسرعة الضوء وهى ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر فى الثانية ، فحينما تصدر من أسنة الهوائى تنطلق بهذه السرعة فى الأثير فتقطع بطاقتها الأصقاع والبقاع . وكلما طال بها المطاف يضعف مجالها الكهربى بنسبة عكسية لبعدها عن محطة الإرسال . وعلى هذا المجال يتوقف مدى الوضوح فى الاستقبال وفق ما أثبته ماركونى عام ١٨٩٧ ، وبين الإرسال والاستقبال سموات فوق سموات تجتازها هذه الموجات . فهناك طبقة فى الأجواء العالية تقع على ارتفاع ٣٠٠ كيلومتر وهى لا تتكون إلا ليلا ثم تتقدمها أخت لها على ارتفاع ١٢٠ كيلومتراً ولكنها لا تظهر إلا نهاراً ، وطبقة ثالثة قد اكتشفت أخيراً تقع على بعد ٧٠ كيلومتراً وهى التى يعزى إليها امتصاص الموجات اللاسلكية وجميع هذه الطبقات تتكون بين الألكترونات التى تقذفها الشمس ، ولهذه الطبقات المتأنية التى تكون (اليونوسفير) عمل مضاعف فهى لا تعكس بوجهها الأسفل الموجات اللاسلكية التى تصدر

من الأرض لتعيدها إلينا ثانية فحسب بل إنها تعكس بوجهها الأعلى الإشارات التى تصدر فيما يلى النطاق الخارجى الذى لا يعرف مداه غير الله لتحول دون وصولها إلى سطح الأرض . فكأنما كانت كالحجاب الحاجز فى الجسم الذى يفصل جزأه العلوى عن جزئه السفلى لكى تستقيم الحياة .

وقد وجد أن هذه الطبقة المزدوجة الأثر لا تحول بين مروق الموجات اللاسلكية الفائقة القصر كما وأنها لا تمتصها إلا قليلا ولكن الموجات التى تقع أطوالها بين مترين وسبعة أمتار وهى المرتبة التى تصدر بها ضوضاء الشمس الكهربية المغناطيسية لا تستطيع أن تنقل شيئاً من الأصوات نهاراً غير تلك الضوضاء الشمسية كما وأن الموجات التى يمتد طولها إلى ١٥ متراً فإنها هى الأخرى لا تكون نقية الأداء ليلا بالنسبة لتوافقها مع أطوال موجات الضوضاء الصادرة من الأجرام السماوية .

بين أحضان البساط السحرى

أبت عظمة الله سبحانه وتعالى إلا أن تتجلى فى خلقه السموات والأرض فى كل شيء من خلق الأرض آية ناطقة وشاهدة بآثار هذه العظمة . وأما خلق ذلك البساط السحرى

فما خفى من أمره وما استتر من شأنه لأعجب ألف مرة من كل عجب وما أوتى الناس من العلم عنه إلا قليلا — أن مدى ما وصل إليه العلم عن محيط الأثير فى الطبقات الجوية العليا ما فتئ ضئيلا إذا لم يعد ذلك حتى بداية هذا القرن حد دراسة الطبقات التى تقع على ارتفاع عشرة كيلومترات وهى التى تقع فيها أكثر الظواهر الجوية المعروفة لنا وأطوار الأمطار ولكن منذ أن طير الطبيعى الفرنسى (تيسرين دى بورك) منطاد الاستكشاف عام ١٩٠٠ فقد ثبت خطأ الاعتقاد السائد بأن درجة الحرارة تتناقص طردياً مع الارتفاع المستمر بواقع ست درجات لكل كيلومتر إذ أنها تثبت على ٥٠ أو ٦٠ درجة مائينى على ارتفاع اثنى عشر كيلومتراً وقد أطلق على هذه الطبقة التى تكاد تثبت فيها درجة الحرارة (استراتوسفير) أو المنطقة الجوية التى تمتنع فيها التحركات الرأسية للهواء وهى تمتد فوق بعضها أطباقاً ولكن أحداً لا يدرى للآن مدى نطاقها إذ أن البالونات الاستكشافية لم تصعد إلى أكثر من ٣٦ كيلومتراً وآخر ما علمناه فى إبريل الماضى عن ذلك. الصاروخ الذى أطلق لكشف الطبقات العليا وكانت آلته تزن ٤٥٣ كيلوجراماً وطوله ٤,٨٠ متراً وعرضه ٠,٧٥ متراً لم يستطع الوصول إلى أعلى من ٦٧ كيلومتراً ولم يكن أمام العلم بعد هذا إلا أن يطبق :

نظرياته على ما يجرى فى الطبقات التى تفوق هذا الارتفاع فمثلا نحن نرى أن النظريات المسلم بصحتها أن درجة الحرارة تأخذ فى الازدياد ابتداء من ارتفاع ٤٠ كيلومتراً حتى إنها لتصل إلى النهاية العظمى وهى درجة ٢٠٠ مائينى على ارتفاع ٦٠ كيلومتراً وأن لهذه النتيجة أثرها فى الكشف عن الظواهر الجوية ودراسة قابلية الجو لتوصيل الصوت وأما المنطقة التى تقع على ارتفاع ٩٠ أو ١٠٠ كيلو متر فهى أم العجائب بما حوته من ظواهر تدعو إلى الدهشة وتأخذ بالأبصار مثل التألق الذي يشاهد فى المناطق الشمالية ثم انعكاس الموجات الأثيرية الذى أدى أخيراً إلى كشف منطقة جديدة فى السماء تعرف بالطبقة المتأينة ionosphere ومعنى هذه الكلمة يفسر الغرض المقصود منها وهى العثور فى الطبقات العليا من الجو على عدد هائل من الذرات المتكهربة بين أيونات والكترونات .

كتلة وحجم الطبقة المتأينة

يجمل بنا أن نبحث ضمناً شأن هذه الطبقة ومبلغ أثرها فيما يحيط بنا من الأجواء . فأما عن الكتلة فرقمها النسبى ضئيل جداً لا يكاد يذكر بخلاف حجمها فإن الرقم يزيد عن الوحدة وذلك لأن الضغط الزئبقى فى المناطق التى تقع على مدى ١٠٠

كيلومتر يقرب من جزء من ألف من الملليمتر وفى هذا دلالة على أن كتلة هذه الطبقة المتأينة لا تعدو جزءاً من مليون من الجو وإذا كان لنا أن نعجب لشيء فلهذه المنطقة لما لها من عظيم الشأن مع ضآلة كتلتها . فهى التى تستقبل الإشعاع الشمسى وتمتص الأشعة فوق البنفسجية التى لا تحتملها الحياة كما وتنقيها مما تحمله معها من الجسيمات المادية التى تقذفها الشمس بحسبانها (القنبلة الذرية الكبرى) وأن توهجها ليس إلا نتيجة احتراق حادث بين ذراتها فكانت إذن هذه المنطقة رحمة وبركة على العالمين . وأما حجمها فحدث عنه ولا حرج إذ يقدر امتدادها على الأقل بألف كيلومتر . ومن قائل إن الضغط فى المناطق العليا يتناقص تدريجياً بنسبة تقل عنها فى المناطق المنخفضة ولكن هذا التناقض وجب أن يكون ثابتاً مع الارتفاعات تبعاً لقانون (لابلاس) بافتراض أن الطبقات الجوية العليا لا تختلف كثيراً عن المجاورة منها لسطح الأرض فى حين أن نتائج البحوث لا تساعد على تدعيم هذا الافتراض فقد قيل بأن السنتيمتر المكعب الواحد فى الطبقات التى تقع على ارتفاع ٣٠٠ كيلومتر يحتوى على ألف ذرة مع أن النتائج دلت على زيادة عدد الذرات عن هذا القدر كما وأن الضغط الجوى وجد أنه يتناقص بنسبة مليون إلى واحد فى

الطبقة التى تعلو سطح الأرض بمقدار مائة كيلو متر ولكن هذه النسبة تصير ٢٠٠ إلى واحد فى الطبقة التالية التى تقع بين ١٠٠ و ٢٥٠ كيلو متراً ومن هذا يتبين لنا كيف أن الجو المحيط بنا يمتد إلى حد غير عادى لا يدركه إلا علام الغيوب .

طبيعة الطبقة المتأينة

غير خاف أن فى الجو العالى طبقات موصلة وعاكسة للموجات الأثيرية وإلا لما ارتدت إلينا بعد انتشارها فى الجو وتلك الموجات من طبيعة الضوء ، وتسرى فى وسط متجانس وهو الأثير فى اتجاه مستقيم وقوة احتمالها للانكسار تضعف إذا صادفتها فى هذه المنطقة انعكاسات تجعلها تتبع فى مسارها تقوسات سطح الأرض وتحكى فى أثرها ما يعانيه الضوء من السراب وتتوقف درجة انكسار الموجات الأثيرية على ما تحتويه من وحدة الحجوم من الذرات المتكهربة فهى تقل كلما ازدادت كثافة الكهربية بمعنى أنه إذا صادف شعاع صاعد فى الجو منطقة مليئة بالألكترونات فإنه سرعان ما ينحرف عن مساره ويمتد ثانية إلى الأرض والواقع أن درجة الانكسار هذه لا تتوقف على ما تحتويه وحدة الحجوم من الذرات المتكهربة فحسب وإنما تتبع الشحنة وكتلتها وذبذبات الموجات وقد

يستعان بالرادار على قياس ارتفاع هذه المناطق الفائقة العلو بأن ترسل إشارة لاسلكية ويستقبلها جهاز مجاور فيرى أن كل إشارة ترسل تقابلها إشارتان يشبهما جهاز الاستقبال إحداهما حادثة من طريق أرضى مباشر وهو جهاز الإرسال عند إصداره للإشارة ، وأما الثانية فهى آتية عن طريق انعكاسها من الطبقة المتأينة والفترة الواقعة بين الإشارتين هى الزمن اللازم لصعود الإشارة إلى الطبقة العاكسة ثم عودتها إلى الجهاز . فإذا علمنا أن انتشار الموجات الأثيرية يجرى بسرعة الضوء أى ٣٠٠ ألف كيلومتر فى الثانية فيكون من السهل تعيين الارتفاع كما سبق .

مم تتكون الطبقة المتأينة ؟

فى الليلة الظلماء أو فى يوم الشتاء تتكون هذه المنطقة من طبقتين الأولى تقع على ارتفاع ١٠٠ كيلو متر- وتبلغ عدد الألكترونات فى السنتيمتر المكعب من ١٠٠ إلى ٢٠٠ ألف وتتذبذب مائة ألف مرة فى الثانية وهذه هى التى تعكس الموجات الطويلة وأما الثانية فارتفاعها ٢٥٠ كيلومتر ومن شأنها عكس الموجات القصيرة ويختلف عدد الألكترونات فى السنتيمتر المكعب من ١٠٠ — ٢٠٠ ألف وتتذبذب ألف مرة فى الثانية وأما فى الأوقات العادية الأخرى فتتكون فى النهار فقط طبقة

ثالثة تمتد على ارتفاع عشرة كيلومترات ليس لها خاصية عكس الموجات ولا عمل لها إلا امتصاص هذه الموجات ولعل هذا السبب هو الذى يجعل الإذاعة ليلا أكثر وضوحاً منها فى النهار نظراً لاختفاء تلك الطبقة وأما نواحيها التى يسطع فيها ضوء الشمس بشدة فإن الطبقة المرتفعة تتفرع إلى اثنتين تقع إحداهما على ارتفاع ٢٢٠ كيلومتراً والثانية على ٣٠٠ كيلومتر وقد يحدث أحياناً أن الطبقة الأولى التى تقع على مدى عشرة كيلومترات تحجب الموجات القصيرة فجأة فتتوقف فى هذه الأحوال أجهزة الاستقبال عن التقاط إذاعة الموجات المتوسطة والقصيرة كما حدث ذلك كثيراً بين ٣٠ يناير و ١٤ فبراير سنة ١٩٤٦ وتستمر هذه الفترة خمس عشرة دقيقة تبقى خلالها الطبقتان العاليتان دون أدنى تغيير وأما المنطقة التى تقع قبل ارتفاع مائة كيلومتر فتكون مشبعة بالأيونات لامتصاصها الموجات اللاسلكية دون عكسها ويعزى تكون هذه الطبقات المتأينة لدفع الشمس لوابل غير عادى من الضوء (فوق البنفسجى) بحسب أن الضوء يكهرب الذرات ويستخلص منها الألكترونات وذلك كما يجرى فى العين الكهربية ولا تقف أعجوبة هذه الظاهرة عندما ذكرنا فحسب بل إنها تكون السحب الليلية المضيئة وهى غير السحب الشفقية ذات الألوان الخلابة التى

تظهر كثيراً فى المناطق القطبية على ارتفاع ٢٥ كيلومتراً إذ تتجمع فى شكل طوائف متصلة الأطراف على ارتفاع متوسطه ٢ ، كيلومتراً تسبح صوب الغرب من الشرق بسرعة عظيمة تفوق ٥٠٠ كيلو متر فى الساعة وغالب الظن أن هذه السحب المضيئة تتكون من ذرات دقيقة وقطرها جزء من ألف من المليمتر من الأتربة الكونية كما تقول به بعض الآراء أو من بللورات ثلجية كما تذهب إلى ذلك أقوال أخرى .

ضياء السماء الليلى

يحدث فى المناطق الشمالية أن ترى السماءمضيئة كضوء الفجر . ولما كانت دراسة هذه الظاهرة متشعبة الأطراف فلنحصر بحثنا فى تلك الشئون الطبيعية التى تخص الطبقات العليا من الجو ويكون لها أثر فى إحداثها أن تلك الهالة السماوية إن هى إلا إشعاع للطبقات الجوية العليا وهو ناشئ من تدمير ذرات مكهربة ترسلها الشمس على ارتفاع ١١٠ كيلومترات فتمتص هاته الطبقات خلال النهار الطاقة الشمسية وتردها طاقة ضوئية فى الليل وبقدر ضغطها بما يقرب من ١٠ مليار فولت وتنطلق بسرعة تقل ٣٠ سنتيمترا عن سرعة الضوء .

فترات التألقات السماوية

قد دلت الإحصاءات الدقيقة التى عملت منذ أكثر من نصف قرن على أن أغلب هذه التألقات وأجملها منظراً تقع تقريباً كل أحد عشر عاماً حينما تكون الشمس فى أكبر نشاطها وتكون عند وقوعها عادة مصحوبة بزوبعة مغناطيسية أرضية يظهر تأثيرها من انحراف الأجهزة المغناطيسية فى جميع بقاع الأرض وهى تعم أنحاءها فيما عدا المناطق الاستوائية . وكانت أولى هذه المشاهدات عام ١٥٩ حيث شوهدت فى جميع أنحاء أوربا والأمريكتين وأستراليا ثم ظاهرة أخرى فى ٤ فبراير سنة ١٧٢ وهى التى أضاءت الدنيا بأسرها فيما عدا المنطقة التى تنحرف ٢٠ درجة من خط الاستواء وثالثة فى ٢٣ مارس سنة ١٩٢٠ شوهدت فى نرويج مع أنها أضاءت سماء أوربا .

الحالة الذرية للطبقات العالية.

إنه الجو ملىء بالعجائب حقاً . فلقد افترض من قديم بأن الأكسيجين عنصر غير متحد فى الأجواء المرتفعة بسبب قوة امتصاصه للأشعة فوق البنفسجية التى تتراوح طول موجاتها بين ١٧٥٠ و ١٢٠٠ انجستروم (وحدة تساوى جزء من

١٠ مليون من المليمتر) . وينتج من هذا الامتصاص نفس التأثير الذى تحدثه العين الكهربية وهو توليد الألكترونات من فلز يعرض للضوء ولما كانت الطاقة الممتصة تعدل الطاقة الحادثة من انفلاق ذرة الأوكسيجين فإن الإشعاع الحرارى المتولد آنئذ يصل إلى ٦٠٠ درجة مائينى إذا كان طول موجة الضوء الممتصة ١٠٠ انجستروم وأما إذا كان طولها ١٢٠٠ انجستروم فإن الحرارة قد تعدو ١٠,٠٠٠ درجة ولو أن الهواء قد عرف بعنصريه الأوكسيجين والأزوت إلا أن البحوث قد دلت على أن هواء الطبقات الجوية العليا التى تقع على ارتفاع مائة كيلومتر يحتوى أيضاً على إيدروجين وهليوم .

جبهة جديدة فى السماء

كنا إلى ما قبل عشر سنوات فقط منذ نعومة أظفارنا ونحن ندرس الجغرافيا لا ندرى من أمر هذا العالم إلا ما كان أرضاً أو بحراً أما عن ذلك المحيط الهوائى الذى يمتد فوق سطح الأرض بما يعدو سمائة ميل حيث تسبح ذرات الهواء فى الفراغ فلا ندرى عنه شيئاً حتى أتاحت وسائل العلم غزو السماء فكشف ما بها من عجائب خافية . وأولى هذه المشاهدات أن الطائرة عندما تصل سرعتها قدر سرعة الصوت أى ٦٦١ ميل فى الساعة

وكانت تسبح على ارتفاع ٤٠,٠٠٠ قدم حيث تكون درجة الحرارة ٦٧ فرنهيت فلا تستطيع ذرات الهواء آنئذ أن تخرج من طريقها لكى تمر على الأجنحة فتحدث القوة الرافعة مما يؤدى إلى هدم بناء الطائرة أو اختلال قيادتها وتمزيق أجنحتها وفى المناطق المرتفعة الباردة التى تقع على علو ٦٣,٠٠٠ قدم يغلى دم الإنسان نظراً لضعف الضغط الجوى فضلا عن أن قلة الأوكسيجين فى الهواء تفقد الطيار قوة إدراكه وتنهك قواه وتجعله كالثمل الذى لا يميز شيئاً ولا يعرف حالته وهذا يتطلب استنشاق غاز الأوكسيجين الذى تتزود به الطائرات كما وأن الصوت فى مثل هذه المناطق المتخلخلة الهواء لا ينتقل بسهولة فى الارتفاعات التى تعلو ٢٠,٠٠٠ قدم حتى إن الإذاعات اللاسلكية التى يرسلها الطيار لا يمكن سماعها إلا بعد تكبيرها مراراً .

مم يتكون محيط الهواء

ورد فى الذكر الحكيم (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) إنها لآية صغيرة المبنى كبيرة المعنى تدل على أن خلق السموات وما بينها وبين الأرض ليس بالأمر الهين ولكنها خلقت سبعاً

طباقاً مليئة بالعجائب التى يجهل كنهها أكثر الناس فهنالك الكثير غير السحب البيضاء وزرقة السماء والفضاء الخالى من الهواء فنحن نعيش فى أعمق هذا المحيط كما تعيش الأسماك فى قاع البحار . وأن هذا الجو الذى نعيش فيه تمتد طبقته المنخفضة إلى ارتفاع ١٥ ميلا وإلى عشرة أميال حول خط الاستواء ومن أربعة إلى ستة أميال حول الأقطاب وتعرف بمنطقة التغيرات حيث تتقابل دفعات الهواء البارد الجاف مع موجات الهواء الرطب الساخن ويبرد الهواء عادة خلال هذه الطبقة مع الارتفاع فيها كما وأنه يبدأ التخلخل حتى إنه على ارتفاع ٢١,٠٠٠ قدم لا تشتغل الشمعة نظراً لقلة الأوكسيجين بل إن الطائرات إذا ما وصلت إلى ارتفاع ٣٥,٠٠٠ قدم فإن وقودها (الجازولين) يأخذ فى الغليان والتبخر كما يغلى الماء على النار وعلى ارتفاع ٣٠,٠٠٠ قدم تظهر السماء أرجوانية اللون إذ أن الهواء لا يستطيع أن يبرد ضوء الشمس بقدر هواء المنطقة السفلى فلا تكون لذلك زرقاء اللون . ثم يلى هذه المنطقة أفق آخر يكون فيه الهواء رائقاً خالياً من الأتربة والسحب والمطر ولقد وجد أن ٩٥ ٪ من وزن الجو يقع فى الطبقة الأولى التى يبلغ ارتفاعها ١٣,٧١ ميلا وأما الكمية الباقية منه وهى ٥ ٪ فإنها تنتشر بين مئات الأميال العالية وأما على ارتفاع ١٥ ميلا فيمتد نطاق من

الأوزون يحجب عنا الأشعة فوق البنفسجية القاتلة وهى لعمرى غير الأشعة البنفسجية النافعة التى يمتصها جسمك خلال حمامك الشمسى، ومن غريب أمر هذه المنطقة أن جوها يميل إلى الصقيع ويتغير بين الشمال والجنوب وتبلغ درجة البرودة ١١٢ فارنهيت حول خط الاستواء، ولكنه عند الارتفاعات التى تقع بين ٣٥,٢٥ ميلا ينقلب جواً صحراوياً ساخناً حتى يصل إلى ١٧٠ فارنهيت (أى ٧٧ مائينى) وهو ما لا يصادفه الإنسان حتى بين الرمال اللافحة ويعزى سبب ذلك إلى امتصاص نطاق الأوزون للأشعة فوق البنفسجية وحجزها فى هذه المنطقة، ثم تجىء فى أثرها بعد ارتفاع يختلف من ٤٠ ـ ٦٠ ميلا فوق سطح الأرض المنطقة المتأينة أو مرآة الراديو وهى تمتد إلى ارتفاع ٢٥٠ ميلا وتتكون من ثلاث طبقات تختفى القريبتان منها إلينا خلال الليل مع اختفاء أشعة الشمس بخلاف الطبقات العليا فإنها تظل قائمة ليل نهار وتجيد عكس الموجات اللاسلكية فى بعض الفصول عن غيرها وفى أوقات المساء الباكر عن بعض الأوقات الأخرى ولقد أمكن الألمان أن يدفعوا الأسهم النارية حتى اقتحمت الطبقة الأولى من المنطقة المتأينة ووصلت إلى ارتفاع ٧٥ ميلا وهو ما لم تستطع الوصول إليه الطائرات والبالونات .

أمطار من نار

هنالك من الأفق العالى يهطل وابل إلى محيط الهواء ولكنه ليس من ماء منهمر بل تراه من شهاب مستعر ، وإن أغلب هذا السيل يسقط فى صورة شهب ؛ ذلك أن الملايين العديدة من الذرات الدقيقة التى لا تزيد فى حجمها عن حبة الرمال وتسبح فى فلك الأجرام السماوية والتى كان منشؤها تدمير النجوم الذنبية حينما تحتك مع الهواء فإنها سرعان ما تسخن إلى درجة التألق لحظة تصير بعدها رماداً . وأظننا كثيراً ما شاهدنا ذلك وحسبناها نجوماً تحترق وهى ليست بنجوم وقد يحدث أن بعض هذه الشهب تسقط حتى تصل إلى ارتفاع ٤٥ ميلا من سطح الأرض قبل أن تحترق وقد تكون بقايا الشهب المحترقة مع بعضها طائفة من السحب الليلية التى تمتد على ارتفاع ٥٠ ميلا ووقوعها على مثل هذا الارتفاع الشاهق يجعلها تستضىء من نور الشمس الذى يأتيها من صعيد آخر فى الأرض ثم يعقب هذا الصنف من الغيث الذى يفيض فى محيط الهواء وابل آخر من ذرات مشحونة من الشمس تجذبها مغناطيسية الأرض صوب الأقطاب الشمالية والجنوبية وتصدم ذرات الهواء حين سقوطها وتجعلها تتوهج وهذه هى الظاهرة التى يتكون بها التألق السماوى

الذى يشاهد على ارتفاعات تقع بين ٦٠ و ٧٠ و ٦٠٠ ميل أحياناً . وأما النوع الثالث من هذا الفيض العجيب فيكون فى شكل وابل من الإشعاعات الكونية وسميت هكذا لأنها تتولد من الكون وهى ذرات مشحونة بالكهربية التى تكتسبها من كواكب أبعد من الشمس فتغرق سطح الأرض به وتخترقها إلى أعماق المناجم ، وفى الواقع أن هذا النوع من الأشعة ليس إلا طاقة ذرية تفوق فى قدرتها طاقة القنابل الذرية وهى تخترق جسمك بواقع عشرة أو عشرون مرة فى الثانية .

القنابل الصاروخية تغزو السماء

لما دعت حاجة العلم إلى كشف مجاهل هذا الملكوت اللانهائى فقد استخدمت طاقة الغازات المشتعلة فى دفع الطائرات والصواريخ إلى الآفاق العليا ، وليس ببعيد أن نقذف نحن إليها فى القريب بالطاقة النفاثة . ولقد وجد أن هذه الطريقة لا تحتاج إلى الأجنحة الدائرة خاصة وأن الهواء فى الطبقات المرتفعة يخف قوامه ولا يجد الجناح عند دورانه ما يكفى منه لإحداث القوة الرافعة وآلات الصواريخ ليست بها أعضاء متحركة ، إذ كل ما بها هو مزج غاز الأوكسيجين السائل مع زيت الوقود أو الكحول ثم إشعالها فتتولد غازات ساخنة ذات

ضغط هائل تخرج متدفقة من نافورة فى ذيل الصاروخ فتدفعه فى أقصى سرعة ،والقنبلة الصاروخية هذه تزن ١٤ طناً منها تسعة أطنان وقود وطولها ٦٤ قدماً وتنطلق فى اتجاه رأسى بسرعة ٣٥٠٠ ميل فى الساعة ويكفى الوقود لدفعها إلى ارتفاع ٢٠ ميلا ثم تستمر منطلقة بالقوة المخزونة حتى تصل إلى ارتفاع ٧٥ ميلا وبعدها تبدأ فى الهبوط وحينما ينطلق الصاروخ فى الاتجاه الرأسى يسير بادئ ذى بدء بسرعة بطيئة لا تعدو ٩٥ كيلومتراً فى الساعة حتى تصل إلى ارتفاع ٥٠ متراً ومن ثم تبدأ سرعته فى الازدياد حتى لتصل إلى ٤٥٠٠ كيلومتر قبل أن تنتهى الدقيقة الأولى ولما يشرع فى الهبوط فإنه يسقط بسرعة ٤٨٠٠ كيلو متر فى الساعة ويمكن الحد من هذه السرعة بوساطة جهازى (باراشوت) يعلقان به وقد بلغ أقصى ارتفاع الصاروخ ١٦٧ كيلو متراً .

الطيران العالى

إن الطيران بسرعة تفوق ٥٩٠ ميلا فى الساعة أى بمعدل ١٠ أميال فى الدقيقة يكون مقارباً لسرعة الصوت وهى تعد أقصى حدود السرعة على أنها تختلف تبعاً لدرجة الحرارة فهى تكون ٦٦١ ميلا فى المنطقة الباردة على ارتفاع ٤٠,٠٠٠ ميل

فى حين أنها تبلغ ٧٦٠ ميلا فى المنطقة الدافئة المجاورة لسطح البحر فالطيران عادة بمثل هذه السرعة لا يخلو من أخطار ذلك لأن الهواء يندفع بسرعة شديدة أمام جناح الطائرة تفوق سرعة الصوت فى حين أنها تنخفض فى الجهة الخلفية من الجناح فالفرق بين هذين التيارين المختلفين فى السرعة يحدث هزة عنيفة ينشأ منها اختلال توازن الطائرة . والإضرار بأجزائها كما أن الطيران العالى قد تهدد ظروفه حياة الطائرين بشتى الأخطار ، إذ أن الطيران فى هذه الأجواء المرتفعة التى تقع على مدى ٤٠,٠٠٠ ميل يتطلب استنشاق الأوكسجين من قناعات خاصة وفضلا عما تحدثه هذه من المضايقة للطيار وعدم إمكانه التكلم فإن غازالأوكسجين النقى لا يحفظ الحياة فى الارتفاعات التى تزيد عن ٤٠,٠٠٠ ميل بالنسبة إلى أن الضغط الجوى يبلغ من القلة بحيث لا تستطيع الرئتان أن تدفع الأوكسجين الكافى للدورة الدموية ، هذا إلى أن جوف الطائرات يكون دائماً مليئاً بالهواء الذى يسحب من خارجها ويضغط فى داخلها بضغط ١٢ رطلا على البوصة المربعة لكى يكون الجو الداخلى ملائماً للحياة من غير ما حاجة إلى قناعات الأوكسجين ؛ إذ أن الضغط الجوى خارج الطائرة لا يعدو ثلاثة أرطال فلو حدث أن ثقب جدار الطائرة برصاص المدافع المضادة للطائرات أو من

شهب قريبة لانخفض الضغط الداخلى من ١٢ رطلا على البوصة المربعة إلى ثلاثة أرطال ، وإزاء هذا التغير المفاجئ تتمدد الغازات الداخلية التى فى جوف من بالطائرة ويخرج الهواء من الرئات .

حيث يزن الرجل نصف طن

وليت الأمر يقف عند هذا الحد فحسب فهنالك ما هو أدهى وأمر إذ يزداد الوزن زيادة هائلة فالرجل الذى يزن ١٦٠ رطلا ينقلب وزنه فجأة إلى نصف طن فالدم يتثاقل حتى ليصير كالرصاص الذائب وطاقة القلب تعجز عن أن تدفع الدم الكافى إلى المخ وتمر به فترة يكون خلالها أعمى وأصم . فياله من بساط سحرى حقاً .

من سحر الكهرباء

أما وقد ارتوينا بعض الشىء من سحر البساط السحرى فلا أقل من أن نستمتع بالقليل من سحر الكهرباء وهى ساحرة هذا البساط .

قلى البيض فوق لوح من الثلج

هات منضدة صغيرة يعلوها غطاء لا تظهر منه قوائمها ثم ضع من فوقها لوحاً من الثلج فإذا قبضت فى يدك على آنية نحاسية مستديرة بداخلها زبد وبيض صاف ثم وضعتها على لوح الثلج فلا تلبث قليلا حتى ترى البيض وهو يقلى قلياً حقيقياً . وتفصيل ذلك أن يوضع ملف مغناطيسى له قلب من الحديد يبرز قليلا من سطح القاعدة ويكون الملف الابتدائى كمحول ،أما الآنية النحاسية التى تصل إليها الخطوط المغناطيسية مخترقة لوح الثلج فإنها تكون الملف الثانوى له . ولما كانت الحرارة الحادثة من التيار تتبع قانون مربع التيار فى المقاومة فبالنسبة لأن مقاومة سطح الآنية منعدمة تقريباً فهى لذلك تمتص تياراً هائلا يعمل على تسخينها فإذا كنت قد فتنت بهذه الأعجوبة فقم واعمل منشوراً رباعياً من صفائح الحديد بأبعاد ١٥× ٣ × ٢ بوصة وهى تزن نحو ١٧ رطلا ثم تلف حوله ثمان طبقات من السلك المعزول بالقطن مما يساوى قطره ٢,٥ مم ويلزم لذلك نحو عشرين رطلا حتى يصير قطر الملف ٤,٥ بوصة . وقد احتسبت مقاومة الملف لتتحمل تياراً قوته ١٠ أمبير بضغط ١١٠ فولت .

مصباح يضيء من الهواء

فإذا لم تقنع بهذه التجربة فهاك تجربة لا يقل سحرها عن سابقتها . معروف أنه لكى يضىء مصباح الكهرباء فلا بد له من سلكين ينقلان إليه التيار فما قولك فى مصباح ما إن تضعه قريباً من سطح المنضدة السابقة حتى يضىء وهو بين يديك بقدرة قادر . وبسحر ساحر وتفسير هذا الطلسم أنه لا يخرج فى تطبيقه عن كونه تنويعاً للتدريب السابق إذ يثبت المصباح على قرص من الخشب قطره ست بوصات وبداخله ملف دقيق من السلك المعزول بالقطن يعمل كملف ثانوى للمحول الموضوع أسفل المائدة ويلزم لإعداد هذا الملف الثانوى ١٤٠٠ لفة من سلك قطره $\frac{٣}{١٠}$ من المليمتر وتتصل نهائياً بقطبى المصباح فحينما يقربه اللاعب من سطح المائدة وبدون أن يلمسها فإن التيار المتولد فى الملف الثانوى يضيئه من غير أن يفقه أحد من النظارة شيئاً إلا أن يحكموا على اللاعب بأنه حقاً (بن جلا) .

ألحان من الجان

يظهر لى أننى سأنتقل بك من عجيبة إلى أخرى إن لم تكن هذه أعجب أخواتها فكيف كان ذلك .

يقف أمامك العازف ولا شيء حوله من أدوات الموسيقى غير صندوق مقفل بداخله بعض أجهزة الراديو ويتدلى منه سلكان متعامدان فإذا ما حرك العازف بيديه أمامهما بحركات فى الهواء نظامية فإنك سرعان ما تسمع شجى الألحان تحسب أنها ليست من صنع الإنسان .

ولفهم سر هذه العجيبة وجب علينا أن نفهم أمرين الأول أن الأصل فى إحداث الصوت إنما هو ذبذبة الجسم المحدث له وما سبب اختلاف الأنغام الموسيقية إلا راجع لاختلاف عدد ذبذباتها ، فأنغام البيانو الرئيسية مثلا تبدأ ذبذباتها من اليسار من ٢٦ وتنتهى عند ٣٨٤٠ ذبذبة وكما أن اختلاف الذبذبات قد تنشأ عنه اختلاف الأصوات فإنه يسبب كذلك اختلاف الألوان ، فالضوء الأحمر يتذبذب بمقدار ٤٠٠ مليون كيلوسيكل والأصفر ٥٠٠ والأزرق ٦٥٠ والبنفسجى ٨٠٠ . أما الأمر الثانى فهو أن التيار المتغير بالنسبة لأنه يتذبذب عند تكوينه مرات عديدة فى الثانية فإننا نسمع له صوتاً فى المحولات وغيرها من تأرجح ألواح الحديد الرفيعة حينما تتذبذب متجاوبة مع التيار محدثة نغمة لا تختلف فى شيء عن (صول دييز) فى البيانو . وبناء على ما كشفه العالم الإنجليزى (كليفن) من إمكان تغيير عدد الذبذبات بوساطة المكثفات أو ملفات



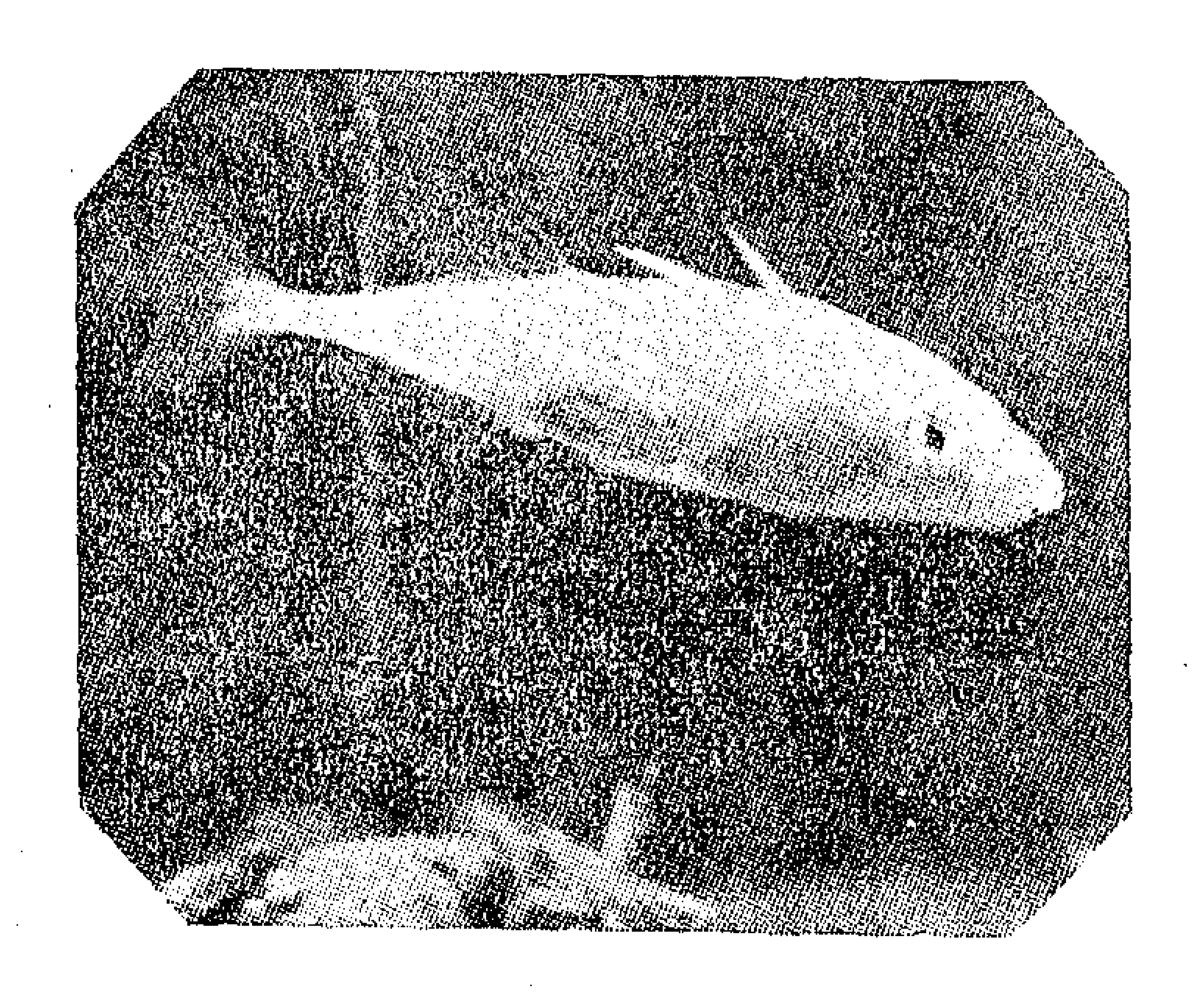
الطبيعى أبلتون أحد مكتشفى
الطبقات الجوية العاكسة

التليفزيون المتنقل

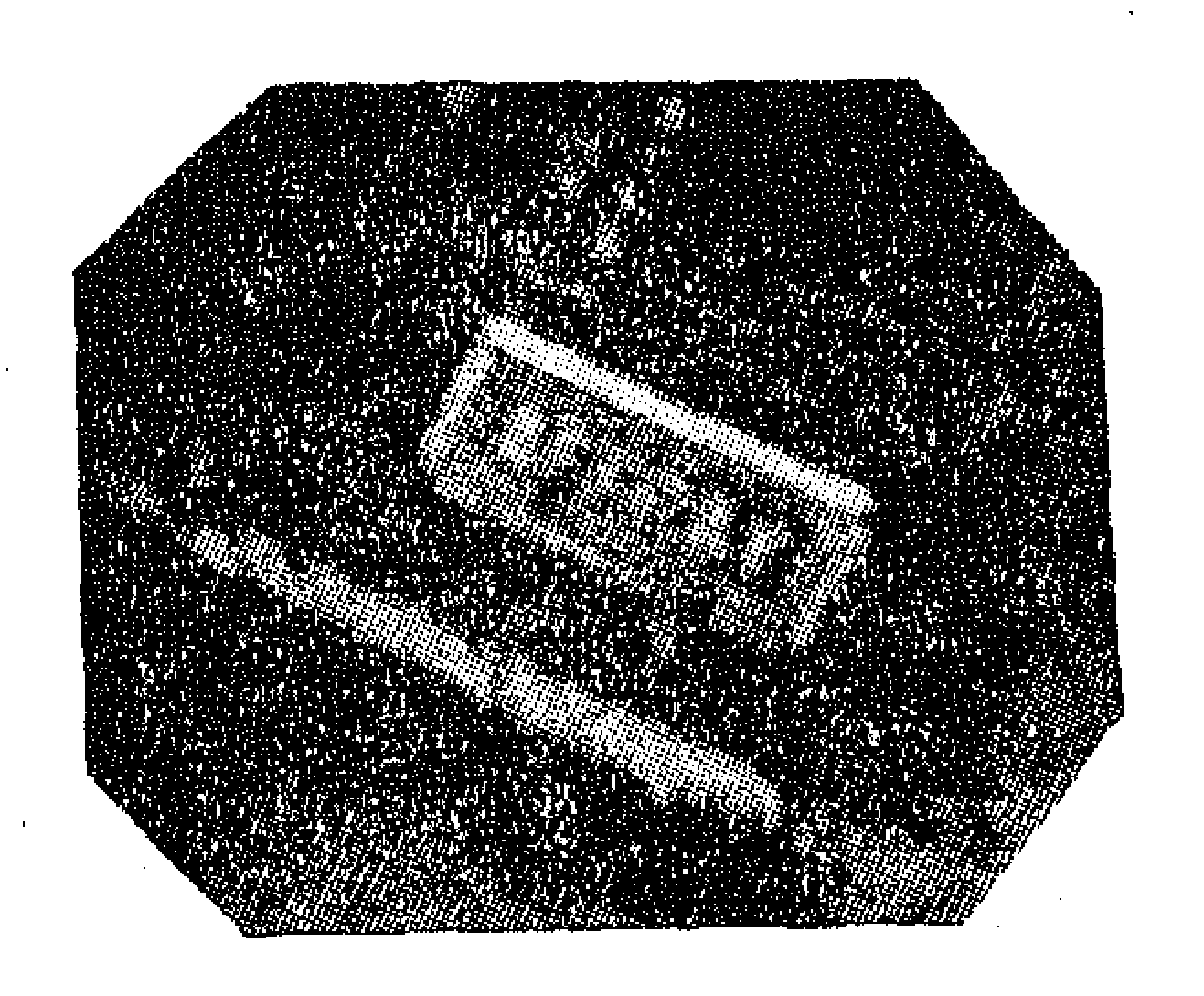
التوليد فقد فكر المهندسان (ترمن وجولدبرج) فى أن يستخدما طريقة المكثفات فى تغيير ذبذبات التيار وتبعاً لذلك تتغير الأنغام الصادرة ، والمكثف هذا يتركب من موصلين يفصلهما عازل وقد عمد المكتشفان إلى فكرة المكثف لكى يستخدما جسم الإنسان كموصل للكهرباء بما يجرى فى خلاياه من ماء مالح فى تغيير المسافة بين الموصلين بتلك الحركات التى تقوم بها اليدان فى الهواء، فكلما قربت المسافة المذكورة كلما ازدادت الذبذبات واشتدت قوة الصوت والعكس بالعكس . ومن كثرة المران يجيد العازف التعرف على أوضاع يديه التى تتفق مع الأنغام .

التليفزيون فى قاع البحار

لم يقنع التليفزيون بنشاطه الجم على وجه الأرض . بل راح يغوص فى أعماق البحار لكى يكشف ما فيها من أسرار ويرشد عما ابتلعته الأمواج من عائمات كبار . وكان أول تطبيق عملى له من هذا النوع قد تنفذ فى الكشف عن موقع للغواصة الإنجليزية (افراى) التى غرقت فى يونية عام ١٩٥١ واستقرت فى قاع المانش على عمق ٢٨٠ قدماً فأنشئت أول عدسة فى بريطانيا للاستدلال عليها . وتم إعدادها خلال ثلاثة أسابيع بعد الكارثة



التليفزيون بين سكان قاع البحر



التليفزيون يكشف لوحة الغواصة الغريقة أفراى

وأسفرت النتيجة عن الاهتداء إلى موضع الغواصة وهكذا فقد أصبح التليفزيون فى هذه الأحوال أداة طيعة قيمة يستدل بها عما يبتلعه اليم ويستعان به على نشر الإضاءة على أعماق ٦٠٠ قدم بمصابيح ذات فتلات معدنية قوة ٢٠٠٠ وات، وقد يستخدم فى الأعماق البعيدة المدى مصابيح زئبقية من ذوات الضغوط العالية أما عدسات التصوير فهى عدسات عادية. فقط توضع فى غلافات من الصلب لوقايتها تكون أبعادها عادة ١٠ × ٢٢ بوصة ولا يزيد وزنها عن ١٠٠ رطل . وقد وجد أن أقصى عمق تستطيع أن تعمل فيه هذه العدسات هو ١٠٠٠ قدم فقط وتدار عملية التلفزة من فوق سطح السفينة حيث نشاهد مناظر القاع على الشاشة ثم يجرى تصويرها للاحتفاظ بها ويقوم الغواصون بتوجيه العدسات والأضواء لتصوير ما يحيط بهم، ومن ذلك يرى كيف أصبح سهلا الكشف بهذه الوسيلة الحديثة إلى ما سبق ذكره على حالة حوائط الموانى السفلى وجدران العائمات الثقيلة وصيانتها بين الحين والحين مما لم يكن متيسراً من قبل .

التليفزيون والانتخابات

لم يقتصر سحر التليفزيون على ما ذكرنا فله فى كل يوم آية .

وكانت آخر يد ظهرت له فى معركة انتخابات الرئاسة التى دارت رحاها بأمريكا عام ١٩٥٢ بين (أيزنهاور ومنافسه استيفنسون) حيث لعب التليفزيون دوراً هاماً فيها فكانت أول انتخابات استخدمت التليفزيون كوسيلة أخبارية وأداة عملية للدعاية . ولما كانت هذه الطريقة مستحدثة والنفوس تميل دائماً بطبيعتها إلى كل جديد فقد هرع الناس إلى شاشات التليفزيون يطالعون فيها أخبار المعركة فى كل مكان . ولا غرو فى هذا الغزو الخاطف فإن ٤٠ ٪ من الأمريكيين يستحوزون على أجهزة للتليفزيون فى منازلهم ونحو ٥٣ ٪ غير هؤلاء كانوا ممن شاهدوا جولات المعركة من أجهزة متنقلة حتى إن قارئى الصحف والمجلات الذين تبلغ نسبتهم ٧٩ ٪ قد هبطوا بعد الانصراف إلى التليفزيون فى هذه المعركة الانتخابية إلى ٢٨ ٪ وليت المعركة مع هذا قد قصرت رحاها على الانتخابات فحسب بل كانت معركة حامية الوطيس دائرة ضمناً بين التليفزيون والراديو والصحف والمجلات كما تتجلى صورة المنافسة من الجدول التالى بحسب الإحصاءات الانتخابية موضحة بالنسب المئوية .

تليفزيون	٤٨
راديو	١٣
صحف يومية	٢١
مجلات	٤

وكان تلخيص الناخبين موضحاً بالنسبة المئوية كما يلى :

	بالتليفزيون	بالراديو	بالصحف	بالمجلات
المصوتون لأيزنهاور	٤٣	٤٠	٤٤	٥٤
المصوتون لاستيفنسون	٣٨	٣٥	٣٣	٢٢

فياله من افتتاح . قد لاح . فى صورة اكتساح .

الجديد فى المحفوظات العربية

أربعة أجزاء

تأليف

لجنة من أساتذة البلاد العربية

طبعة جديدة معدلة مزينة بالرسوم الملونة تقدم للطالب فى مختلف مراحل التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى مجموعة منتخبة من الشعر والنثر تزوّده بثروة وافرة من الفصحى وتصقل ملكاته وترهف فيه الإحساس والشعور .

دار المعارف بمصر

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو
المتعـــة والثقافـــة وسمو النفس .

تصدرها
دار المعارف بمصر
بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد

اقرأ

الدكتور احمد فؤاد الأهواني

النّسْيان

النّسيان

الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

النّسْيان

اقرأ ١٣٣
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٣٢ – أول يناير ١٩٥٤



فوائد الذكر وغوائل النسيان

أدام الله عليك نعمة الثقة بالنفس وعمر قلبك بالإيمان ، وأيدك بفضيلة الذكر وأبعد عنك آفة النسيان .

وقد رجوت منك – أيها الأخ الصديق – أن تذكر ما طلبته منك ، فزعمت أنك لا تنسى !

اللهم وجل منْ لا يسهو . سبحانه وتعالى فهو القائل فى محكم التنزيل « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » . فكيف تذهب فى ثقتك بنفسك واعتزازك بها واطمئنانك إليها واعتمادك عليها إلى دعوى العصمة من النسيان .

حقاً إن الثقة بالنفس فضيلة فى كل شخص يريد أن يعيش فى هذه الحياة سيداً لا مسوداً ، وحاكماً لا محكوماً ، وعزيزاً لا ذليلا . وهى ألزم الفضائل لمصر فى عهدها الجديد . وهى أول شرط من شروط التذكر ، لأن الذاكرة ليست شيئاً آخر إلا « النفس » ، فالثقة بها حياة الذاكرة ، أو حياتها .

ولا تحسبن أنى ألعب بالألفاظ حين أجعل النفس مرادفة

للذاكرة ؛ فأنت تعرف ولا ريب مذهب برجسون ، وتعرف كتابه المشهور « المادة والذاكرة » الذى يقابل فيه بين الجسم والنفس ، بين المخ والشعور ، إلى أن يقول فى ختام كتابه : « بالذاكرة نصبح حقاً فى ميدان النفس » .

وسأزيدك بهذه النظرية بياناً خلال فصول هذا الكتاب .

وإنك لعلى حق حين عوّلت على الذاكرة وأودعتها ثقتك ، لأنّ فوائد الذاكرة فى الحياة النفسية والاجتماعية من الخطر بحيث تبطل كل حياة تخلو من الذاكرة ، وترتقى الأحياء مع سعتها وشمولها وحسن استخدامها .

ولعلك تعجب من نسبة الذاكرة لسائر الكائنات الحية كالنبات والحيوان . ولكن عجبك يزول بعد النظر إلى أصناف الذاكرة ،أو إلى قسميها المشهورين : الآلية والشعورية .

يقسم برتراند رسل فى كتابه « تحليل العقل » الذاكرة قسمين : ذاكرة العادة وذاكرة المعرفة Habit-memory, Knowledge-memory . وإلى مثل ذلك يذهب برجسون أيضاً مع قليل من الاختلاف . وهناك أقسام أخرى لامحل لذكرها الآن.

والعادة ميل إلى أداء عمل من الأعمال نتيجة التكرار ، حتى يصبح هذا العمل « آلياً » كالمشى والكتابة وتناول الطعام وما إلى ذلك .

٧

ويتجه معظم علماء النفس المحدثين إلى إخراج هذه الأعمال الآلية من ميدان الذاكرة التى يقصرونها على الأمور التى ندركها مع شعور ومعرفة .

ومع ذلك فنحن نلاحظ فى حياتنا اليومية اختلال بعض الأعمال العادية التى نكررها آلياً ، ولا يمكن أن نعلل هذا الاختلال إلا بالنسيان . مثال ذلك الذى يصلى العصر وهو يعلم أنه أربع ركعات ، يكررها اعتياداً ، وقد ينسى فيزيد ركعة أو ينقص ركعة من غير أن يدرى ، إذا كان مشغول البال . ورأيت زميلا فى أيام التلمذة منذ أكثر من ثلاثين عاماً وقد لبس وهو ذاهب إلى المدرسة « لبدة » فوق رأسه ، بدلا من الطربوش ، فلما نبهته إلى ذلك عاد إلى منزله مسرعاً وغيّر لباس رأسه . ذلك أنه كان معتاداً أن يصلى الصبح مغطياً رأسه بهذه اللبدة ، فنسيها على رأسه مع العجلة .

ويروى عن أديسون – فيما أذكر – أنه أخذ يحل مسألة رياضية عويصة اشتغل بها عقله وهو فى الشارع ، فأخرج من جيبه قطعة من الطباشير ، ورأى أمامه عربة أجرة ظهرها أسود كالسبورة ، فشرع يكتب عليها ، حتى إذا سارت العربة رأى الناس رجلا يجرى وراءها وهو ممسك بالطباشير ولا يزال يكتب .

من أجل ذلك عدَّ بعض علماء النفس الأعمال العادية من جملة الذاكرة ، وفسروا اختلالها بالنسيان ولو أنه صادر عن اللاشعور .

ولنرجع إلى بيان فوائد الذاكرة بوجه عام ، دون اقتصار على ذاكرة المعرفة والشعور ، فقد تفسر لنا هذه النظرة الشاملة حقيقة الذكر وطبيعة النسيان .

فالذاكرة تظهر كما قلنا مع أدنى الكائنات الحية درجة ، لأن الكائنات النباتية والحيوانية الأولية تحتفظ بآثار التغييرات التى تؤثر فيها . فهناك زهور تتحرك مع الضوء فى النهار ، فتظل حركتها بعض الوقت حتى بعد حلول الظلام . وتظهر بعض الحيوانات المائية على رمال شاطىء البحر مع الجزْر وتعود إلى الماء مع المد ، فإذا وضعت فى إناء زجاجى استمرت تفعل الحركة نفسها الدورية عدة أيام . ودرس الدكتور مارتن نوعاً من الديدان البحرية يعيش على شاطىء المانش ، يسمى كونفولوتا Convoluta ، وأثبت وجود هذه الدورات الحيوية واستمرارها حتى بعد انعدام المؤثر الذى يحدثها .

وتتبع العلماء نشأة الذاكرة فى أنواع الحيوان كالأسماك والزواحف والطيور والثدييات المختلفة ، وانتهوا إلى هذا القانون الخاص بالذاكرة وهو : يزيد النسيان مع الجذر التربيعى

للزمن الذى ينقضى بعد الحفظ والاكتساب .

وهذا القانون ، قانون النسيان الذى ينطبق على الحيوانات ، ينطبق كذلك على الإنسان ، مما يدل على أن الطبيعة تجرى من حيث الحفظ والاكتساب ومن حيث النسيان تبعاً لقانون واحد .

فالعادات التى تكتسب مع التكرار تسهل العمل وتجعله أدق وأسرع وأتقن .

ولا نود الإطناب فى بيان فوائد الذاكرة الآلية ، ولنتحدث عن مزايا ذاكرة المعرفة التى تمتاز بالشعور وبإدراك الزمان الماضى .

فالمدركات الحسية تحتاج فى معرفتها إلى التجارب السابقة . انظر إلى الأشياء التى تحيطك ، والتى يخيل إليك أنها مألوفة لا تحتاج إلى ذكريات ماضية ، تجد أنها لولا معرفتك السابقة بها ما استطعت الآن إدراكها . هذا كتاب ، وهذا قلم ، وهذا باب ، وهذه نافذة ، وهذه منضدة ، وهذا الشخص الواقف أمامك هو أخوك محمد أو صديقك حسن . أيمكن أن تنسى هذه الأشياء فلا تعرفها ؟ نعم إذا أصيبت الذاكرة بعارض من العوارض ، فيحس المرء ولكنه لا يعرف ما يحسه . فهذه حالة فتاة تسمى موديست Modeste ، ذكرها الدكتور

چان ديلاي فى كتابه «أمراض الذاكرة»[1] قال: «تبلغ موديست الثالثة والعشرين، أصيبت برصاصة مسدس فى الجانب الأيمن من المخ، فأصبحت لا تعرف إذا كانت مغمضة العينين الأشياء المألوفة التى توضع فى يدها اليسرى. إنها لا تزال تحتفظ بإحساسات اللمس، ولكنها لا تميز نوع الأشياء. قالت عن قلم رصاص وضع فى يدها اليسرى: «إنه صلب، ناعم الملمس، طويل، مخروطى، فى نهايته نقطة مدببة». وعن ملعقة: «شيء صلب بارد، معدنى، رفيع من الوسط، إحدى نهاياته مفرطحة، والأخرى أضخم، بيضاوية الشكل، محفورة». وهكذا تجهل موديست الأشياء المألوفة، مع أنها تعرفها إذا وضعت فى يدها اليمنى، كأن يدها اليسرى قد نسيت ما تعلمه اليمنى».

لقد ارتدت هذه الفتاة كالطفل الرضيع قبل أن يدرك، فالطفل فى الشهر السادس يبدأ يمسك الأشياء التى تحيطه بيديه، كالكوب مثلا أو الصندوق، فيضع يده بداخله، ويتحسس جوانبه، ويظل على هذه الحال مدة طويلة، لأن إدراك الصندوق بالبصر لا يؤدى إلى معرفة طوله وعرضه وعمقه، بل تتدخل فى معرفته عدة إحساسات بصرية ولمسية،

---

(١) Jean Delay: Les Maladies de la Mémoire, Paris 1942, P. 31

وسمعية أيضاً لإدراك صلابته ، وهذه كلها تجتمع وقتاً بعد وقت ، وترتبط بعضها ببعضها الآخر ، حتى يدرك الطفل بعد اجتماع هذه الخبرة على مر « الزمان » فى صفحة « الذاكرة » أن هذا الشيء صندوق .

والذاكرة هى التى تعين الإنسان على التصور وعلى التخيل السليم أو المريض . فإذا استحضرت صورة صديق لك فى ذهنك فإنما تستعين بالذاكرة على استحضارها . وإذا تخيل مهندس مشروعاً مثل زراعة الصحراء والبحث عن الوسائل المختلفة لريها فإنه يلجأ إلى معلوماته السابقة .

والتمييز بين الذاكرة والتخيل معروف من قديم ، فهذا أرسطو يقابل بينهما لأن الذاكرة تشمل الصور التى سبق إدراكها فى الماضى واختزنتها الذاكرة كما تحتفظ الخزانة بالأشياء . فالتذكر فى هذه الحالة يؤدى إلى التمييز بين الماضى والحاضر، وبين الحقيقى والمتخيل. إننا نتذكر الواقع ، ولكننا أحرار أن نتخيل ما نشاء . وفى ذلك يقول كانط : « إذا تخيلتُ منزلا فى إمكانى أن أتمثل السقف فى أسفله والأساس فى الهواء ، ولكنى حين أتذكر منزلا فأساسه دائماً فى أسفل وسقفه فى أعلى الهواء » . وهذا التأليف الوهمى يعتمد على معرفة عناصر البيت وأجزائه التى سبق إدراكها واحتفظت الذاكرة

بها . والحال كذلك فى الأحلام .

والذاكرة أساس الشخصية .

وليس للطفل الوليد شخصية ، إذ ليس له ماض ، وليست له ذاكرة . وهو عند ولادته ، ويظل كذلك بضعة أشهر ، جزء من العالم كنقطة من ماء البحر ، حتى يبدأ فى تمييز أنيته ، والشعور بوجوده ذاتاً مستقلة هى « الأنا » فى مقابل ما عداه أى « اللا أنا » . وإذا تأملت الطفل فى الشهر السادس تجد أنه يقبض على الأشياء بيده ثم يلقيها بعيداً عنه ، ثم يطلبها حتى إذا قبض عليها ألقاها ثانية ، وهكذا حتى يثبت عنده ، أو فى « ذاكرته » أن هذه الأشياء مختلفة عنه ، وأن « أنا » الطفل مغايرة لهذه الأشياء . فإذا تتبعنا تكوين هذه الأنا ، وهى النفس ، وهى الشخصية التى تميز هذا الشخص عن ذاك وهذا الفرد عن هذا الفرد ، رأينا أنها ليست شيئاً آخر إلا اجتماع الذكريات واختزانها عن الأشياء الخارجية التى ندركها ، وهذه الأشياء ذات فائدة لنا وهى التى نتعامل وإياها . وكلما كبر الطفل اتسعت أمامه دائرة هذه الأشياء ، وأصبح لكل فرد عالم خاص يعيش فيه ويذكره أكثر من غيره .

سألنى تاجر صديق تلقى تعليما يسيراً فقال إنه يحاول أن يستكمل تعليمه وبخاصة اللغات كالفرنسية والإنجليزية لفائدتهما فى

عمله ، ولكنه لا يحس فى نفسه إقبالا ، ويضيق صدره إذا قرأ كتاباً ، وتعلم اللغات يحتاج إلى ذاكرة جيدة ، مع أن النسيان ليس طبيعة فيه ، لأنه يتذكر « فواتير » الحساب بأرقامها حتى بعد مضى عدة سنوات ، فما سبب هذا الفتور ، وما علة ضعف ذاكرته فى غير التجارة ؟ وتعليل ذلك يسير ، لأن شخصيته شخصية تاجر ، فهو يذكر كل ما يتعلق بفنه ، والتجارة عنده هى العالم الذى يعيش فيه ولا يحفل بسواه . والحال كذلك فى كل صاحب صناعة . فالممثل المطبوع يحفظ أدوار تمثيليته ولا يجد فى ذلك مشقة . فالشخصية تمتص من العالم الخارجى ما يلائمها وتذكره ولا تنساه . إنها تفاعل بين الأنا واللاأنا تحتفظ فيه الأنا بأمور وتغفل غيرها ، وهذه الأمور التى تحتفظ بها لا تتوقف على تأثير اللا أنا فقط بل على استعداد الأنا الطبيعى . وهذا هو السبب فى أن الأشقاء تختلف شخصياتهم مع أن تأثير البيت واحد . وكذلك تلاميذ المدرسة الواحدة الذين يعيشون معيشة داخلية ويخضعون لنظام واحد ويتأثرون بمعلمين بأعيانهم يختلفون فيما بينهم باختلاف أخذهم عن هذه التأثيرات .

والصفات المكونة للشخصية يكتسبها صاحبها من البيئة وتستقر فى نفسه بالتذكر ، ونعنى بهذه الصفات الميل إلى

الاجتماع أو الانطواء على النفس ، وإلى العدوان أو المسالمة ، وإلى النظام والترتيب أو الفوضى ، وغير ذلك . فالشخصية هى مجموعة ذكريات معينة تكتسب فى الماضى وتظل مستمرة فى الحاضر .

والذاكرة أساس الحياة العقلية

ذلك أن المعانى الكلية ، وهى حجر الزاوية فى الحياة العقلية ، تكتسب من النظر إلى المعانى الجزئية ، فيحتفظ الإنسان بالمتشابه منها ويرتفع إلى تكوين معنى كلى . وهذا ميل طبيعى ، نعنى القدرة على التعميم ، تعين الذاكرة عليه . ويبدو هذا الميل عند الطفل الصغير ، فهو يعرف أباه ويميزه رجلا لأن له شارباً ، فإذا رأى رجلا آخر له شارب قال عنه « بابا » . وعندما يكبر بعض الشيء يجد أن الشارب ليس من الصفات الجوهرية التى تميز الرجال . وعلى هذا النحو يدرك الطفل عندما يبلغ الثالثة أو الرابعة المعانى الكلية العامة للأشياء التى تحيطه كالتفاح والبرتقال والباب والنافذة والعصفور والقطة والكلب وما إلى ذلك ، حتى إذا قدمت إليه تفاحة ميزها وعرف أنها من هذا الصنف .

وعلى هذا النحو أيضاً تنشأ المبادىء العقلية التى تكتسب من التجارب وتحتفظ بالذاكرة ، مثل مبدأ التشابه الذى رأينا

أنه أساس تكوين المعانى الكلية ، ومبدأ السببية ، وهو عماد العلوم . وقد أنكر الفلاسفة حقيقة هذا المبدأ وناقشوا صدقه وذهبوا إلى انعدام الضرورة التى تربط بين الأسباب والمسببات ، كما فعل الغزالى وهيوم وكثير من المحدثين . ويقول الغزالى فى كتابه تهافت الفلاسفة » ليست النارهى التى تحرق القطن إذ يجوز فى المستقبل أن ينعدم فعل النار . ولكن الطفل الصغير الذى لا يعرف النار ولا يعرف أنها تحرق ، يرى ذلك لأول مرة ، ويجرب ذلك على نفسه ، فإذا اقتربت يده من النار وأحس بألم إحراقها ، ثبت ذلك فى ذاكرته ، فلم يعاود اللعب بالنار ، وأصبح يدرك أن النار « علة » الإحراق ، بل أكثر من ذلك يعمم الطفل السبب ويطلقه على الأمور المشابهة ، ولذلك جاء فى أمثال العامة : « اللى يخاف من التعبان يجرى من الحبل » .

حتى إذا ارتقت الإنسانية ، واجتمعت لديها التجارب جيلا بعد جيل ، اشتد ساعد العلم ، وصاغ العلماء القوانين والنظريات . وليست القوانين العلمية إلا تلخيصاً واسعاً للمشاهدات يستند إلى الذاكرة ، مثل قولنا الحرارة تمدد الأجسام ، والخشب يطفو على وجه الماء ، والجسم المغمور فى الماء يندفع من أسفل إلى أعلا بقوة تساوى حجم السائل المزاح ، وهكذا .

وليست هذه القوانين من عمل فرد واحد ، بل هى أثر اجتماعى نتيجة الحضارة ونتيجة الذاكرة الاجتماعية وتقدم التجارب البشرية على مر الأجيال . حتى إذا ازدحمت العقول بالمعلومات ، وعجز الفرد الواحد عن استيعابها فى صفحة ذاكرته ، احتاجت الإنسانية إلى وسيلة أكثر رسوخاً لحفظ هذه المعلومات فاخترعت الكتابة ثم الطباعة وأنشئت المكتبات التى تزخر بآلاف المجلدات والتى تختزن تاريخ الأمم وسير الأفراد والملوك وأنواع العلوم المختلفة مما لا يمكن أن تعيه ذاكرة فرد واحد .

وكلما رتقت الحياة الاجتماعية وتقدمت الحضارة أصبحت حاجة الإنسان الى المعرفة الواسعة بالأحداث الجارية والماضية ، وبالفنون المختلفة والصناعات المتباينة، وبالعلوم التى تقوم عليها هذه الفنون والصناعات أشد وألزم حتى يستطيع مسايرة ركب الحياة . هذا إلى أن الحياة الحديثة لا تحتاج إلى الثقافة العامة الواسعة فقط بل إلى « التخصص » الشديد فى كل فن، حتى لقد انقسم الطب إلى فروع ، واختص فى كل ناحية من كل فرع إخصائى لا يتعدي أحدهم على اختصاص غيره . وهذا هو الشأن فى الزراعة، كالذى يختص بزراعة القطن، أو القمح أو الأرز ، أو الخضر ، أو الفاكهة . وقد رأيت فى الريف قوماً

ينقطعون إلى زراعة الطماطم ، وآخرون إلى غرس الموز ويسمى الواحد منهم « موازاً » . وحدثني مزارع أنه مختص بزراعة البطاطس فقط . وكذلك الحال فى التجارة وسائر الفنون والصناعات .

ولما كانت هذه المعلومات لا تحصل إلا بعد زمان طويل ، يقضى المرء بعضه فى المدرسة ، وبعضه فى الحياة العامة ، وكانت هذه المعلومات واسعة سعة عظيمة تشمل المطولات من الكتب ، احتاج الطلاب ولا ريب إلى ذاكرة قوية منظمة يستعينون بها على تحصيل هذه المعلومات ، وبخاصة لأن المجتمع الحديث يحكم عل الفرد بمقدار علمه ، أى بمقدار تحصيله ، فلا يقبل صاحب العمل عاملا أو موظفاً إلا بعد امتحان ، ولا ينجح الطالب فى المدرسة إلا بعد اجتياز الامتحان . ومن أجل ذلك برزت قيمة الذاكرة عاملا هاماً من عوامل النجاح فى الحياة .

ونشأت عن ذلك دراسات حديثة تهدف إلى بيان أقوم الطرق للتذكر وأحفظها عن النسيان ، وأجرى العلماء تجارب استخلصوا منها قوانين التذكر وقوانين النسيان ، وانتهوا إلى أن السبيل القويم لحفظ المعلومات واستحضارها عند الحاجة إليها هو حسن تنظيمها وتصنيفها، ثم ربطها بعضها ببعضها

الآخر ، وأن يكون الإنسان سيد ذكرياته بطلبها حين يحتاج إليها فتستجيب له حتى لا تصبح عبئاً ثقيلا لا قيمة له .

ومع هذه الفوائد الكثيرة للذاكرة فى سائر أنواع الحياة ، فالنسيان مفيد فى كثير من الأحيان ، بل قد يكون ضرورياً . والذاكرة فى واقع الأمر مزيج من الذكر والنسيان ، حتى لقد ذهب بعض علماء العربية إلى أن لفظ الإنسان مشتق من النسيان .

ولا تعجبن من قولنا إن النسيان ضرورى للحياة النفسية ، لأن ما تقع عليه أبصارنا كل يوم وكل ساعة وكل لحظة لا يدخل تحت حصر ، وكذلك جميع ما يصل إلينا بطريق الحواس ، فلو ذكرنا كل شيء لاختلط الجليل بالتافه ، وامترج المفيد باللغو والباطل . وقد حدثتك عن ميل الطفل الطبيعى إلى صوغ المعانى الكلية التى يركز فيها المجموعة الواسعة من المحسوسات ، وحدثتك عن اتجاه الحضارة إلى تلخيص العلوم فى صيغة قوانين عامة تغنى عن الجزئيات .

ثم إن الحياة بطبيعتها متطورة متغيرة يحتاج فيها المرء إلى ملاءمة نفسه مع هذه الألوان المتغيرة من الحياة ، فيضطر إلى تحرير نفسه من الماضى بنسيانه ليتسنى له التوافق مع الحياة الجديدة . لذلك كان النسيان ضرورياً لحرية الإنسان ،

فلا يعاود حياته الماضية كما هى .

هذا إلى أن كثرة ترداد الذكريات الماضية يجعلها عادية أوتوماتيكية ، فيصبح المرء كالآلة ، أو كالحيوان الذى يتصرف بالغريزة ، ويصبح عبداً لها لا سيداً حاكماً صاحب سلطان عليها .

ويحتاج استخدام الذاكرة إلى اختيار ، وينبغى أن نحسن هذا الاختيار إذا أردنا النجاح فى الحياة ، فلا ينفك المرء عبداً لحياته الماضية يعيش فيها أبداً ولا يخرج عن دائرتها .

وكثيراً ما يكون النسيان رد فعل طبيعى لسلامة الحياة واستقامتها ، فقد تمر بالإنسان ذكريات فاجعة كلما استعادها تألم الألم الشديد ، كالذى ذهبت ثروته أو فقد ابنه الوحيد ، فإذا لم يستطع إلى النسيان سبيلا بإرادته ، أو لم تعينه الطبيعة بفقدان الذاكرة ، فضل الموت على حياة مملوءة بالآلام ، فأقدم على الانتحار . والشواهد على ذلك كثيرة فى التاريخ نذكر منها مأساة كليوباطرة ومارك أنطوان :

صفحات الماضى وأغوار الزمان

ذاكرة المرء كتاب تسطر صفحاته على مر الأيام ، فهى أشبه بالمفكرة التى يسجل فيها الإنسان يومياته ، ويكتب فيها الأحداث التى مرت عليه ليرجع إليها فى المستقبل عند الحاجة يقرأ ماضيه . وكل منا يكتب يومياته فى مفكرته على نحو معين هو الذى يهمه ، وكذلك ذاكرة كل واحد منا لا تحتفظ إلا بما شاء أن يسجله ، فهى تثبت وتمحو ، تثبت ما يهمنا وتغفل ما لا نحفل به . فلا تحسبن أن الذاكرة تسجل كل بادرة وخاطرة وواقعة .

وكما تصاب اليوميات بآفات فتتآكل منها صفحات ، ويبهت الحبر الذى تكتب به بعض الصفحات وبخاصة القديمة منها ، وقد ينتزع منها بعض الصفحات فتتطاير وتضيع ، وقد تصاب بخرم تذهب معه بعض الأوراق ، كذلك الذاكرة الإنسانية تصيبها مثل هذه الآفات ، فتضيع منها صفحات ، ويبهت بعضها الآخر ، ويمحى بعضها الثالث ، وكل ذلك فى صفحات الماضى الذى سجله المرء خلال الحياة . وهذه الآفات هى التى يعبر عنها بأمراض الذاكرة ، وهى التى تحدد أنواع

النسيان ، مما نفرد له فصلا برأسه فيما بعد .

أما الآن فنود أن نتحدث عن هذا الزمان الذى يضم فى صدره هذه الذكريات ، ما هو ، وعلى أى هيئة يكون ؟

الزمان هو الماضى والحاضر والمستقبل .

أو هو ما فات وما هو آت .

أما الآن أو الحاضر فهو نقطة وهمية فى بحر الزمان ، لأنك كلما أردت الوقوف عندها مر بلك الزمان ، فإذا بها تصبح من جملة الماضى .

وإذا وقفت عند الحاضر واستغرقت فيه نسيت الزمان ، ويطول هذا النسيان بمقدار استغراقك فيما أنت فيه واستمتاعك به . وقد تمر بلك الساعة كأنها لحظة ، أو تمر بلك اللحظة وكأنها دهر . ومن المعروف أن الناس يقطعون الوقت بالحديث والسمر والاستماع إلى الموسيقى والذهاب إلى السينما أو دور التمثيل . فأنت تقطع الوقت بأن تستغرق فى شىء خارجى ينسيك نفسك فينسيك الزمان .

من أجل ذلك كان التذكر وثيق الصلة بالزمان ، أو هو الزمان عند بعض الفلاسفة .

قد ترى شخصاً فتحدث نفسك أين رأيته ، وتفتش فى فى ذاكرتك وتقلب صفحات كتابها حتى تدرك أنك رأيته

فى الإسكندرية فى مكان معين من العام الماضى ، وقد تحدد الوقت أكثر من ذلك فتعرف اليوم والساعة . مهما يكن من شىء فالذى يهمنا هو استحضار الذكرى من الماضى إطلاقاً ، أما تحديدها فى مكان معين وزمان معين فهذا شىء آخر مكمل للذاكرة الجيدة . ولنفرض أنك دخلت حجرة لأول مرة فأدركت فيها الأثاث موضوعاً بشكل معين وأدركت الصور المعلقة على الجدران ، ثم دخلت هذه الحجره نفسها بعد عام فإنك تدرك فى الحال أنك قد سبق لك رؤية هذه الأشياء فى زمن مضى سواء عرفت الوقت الماضى تماماً فى اليوم والساعة ، أو عرفت فقط أنه كان فى الماضى . أما إذا نسيت ، ووقفت فى هذه الحجرة وكأن كل شىء فيها جديد بالنسبة إليك، أصبح الماضى الذى مرّ بك كأن لم يكن ، وإذا أنت تعيش فى الحاضر فقط .

فالنسيان فقدان بعض أحداث الماضى ، والنسيان المستمر فقدان الزمان .

وهذه قصة امرأة اسمها نويمى Noémi (عن كتاب جان ديلاى) تبلغ من العمر الرابعة والستين ، وقد أدخلها أخوها فى مستشفى الأمراض العقلية لأنها فقدت الذاكرة تماماً ، وأصبحت لا تعيش إلا فى الحاضر .

إنها تذكر اسمها ولكنها لا تذكر سنها ولا عنوان سكنها . وهى لا تدرى أنها كانت ذات مهنة مع أنها زاولت الطب ٢٥ سنة ، وكانت تشرف بنجاح على إحدى المستشفيات . إنها لا تكاد تقرأ الصحيفة حتى تنساها ، وتنسى الإجابات على الأسئلة ، والزوار الذين يحضرون لرؤيتها ، وتعتقد أنها ترى وجوه المتصلين بها منذ مرضها لأول مرة مع أنها تراهم كل يوم .

وقد خيل إلى بعض الفلاسفة أن الزمان ليس شيئاً خارجياً له حقيقة واقعة ، بل هو من أنفسنا ، كما ذهب إلى ذلك كانط فقال : إن الزمان صورة عقلية أولية نفرضها على الأشياء حين ندركها . ويقول برجسون فى كتابه «المعطيات المباشرة للشعور» : إن التعاقب الذى نراه فى مرور عقارب الساعة إنما يوجد بالنسبة لملاحظ شاعر يتذكر الماضى .

ينشأ إدراك الزمن والإحساس به من تقلب المظاهر الخارجية مع اختلافها فى النوع والشدة وتناسبها فى الإيقاع ، كاختلاف الليل والنهار ، وانتقال الشمس من المغرب إلى المشرق وما إلى ذلك . فإذا كنا فى النهار ذكرنا أننا كنا بالأمس فى الليل ، ولو نسينا ذلك الليل ما أدركنا هذا التعاقب . ولو عشنا فى ليل مستمر ما عرفنا الأيام . وقد حكى مسجون وضع فى زنزانة لا نوافذ لها ولا إضاءة فيها أنه لم يعد يعرف الوقت . وعند

زوال تعاقب الأشياء واختلافها نفقد الإحساس بالزمان الذى يدور ، أو بالأشياء التى تتحرك داخل الزمان . وهذا ما يحدث لمن يجلس على شاطئ البحر الهادئ ويستغرق فى النظر إليه ، فينسى كم لبث وينسى الزمان . ولذلك كان النوم الهادئ العميق من الفترات التى يقطعها المرء خارج الزمان . ونحن لا ندرك كم مضى علينا من الوقت فى النوم إلا حين ننظر إلى المظاهر الخارجية فنرى أن النور قد أشرق ونعلم أن الصبح قد طلع . وفى ذلك يقول تعالى : « أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم »..

ومع ذلك فالإنسان يستطيع إدراك الوقت دون الاستعانة بمقياس خارجى كالساعة الدقاقة مثلا ، يدركه وهو نائم ، فإذا كنت معتاداً أن تستيقظ فى الصباح الساعة السادسة كل يوم لتذهب إلى عملك ، فإنك تستيقظ فى هذا الموعد تماماً حتى لو كان اليوم يوم عطلة . وروى شخص أنه لم يكن معتاداً النوم بعد الظهر أبداً إلى أن اضطجع ذات مرة على أريكة ، فأخذه النوم عصراً واستيقظ عند الأصيل فرأى النور باهتاً قبل الغروب فخيل إليه أنه قد استيقظ فى الفجر قبل الميعاد ، فأغمض عينيه ليكمل نومه ، ولكنه لم يستغرق فى النوم ، ففتح

عينيه ليرى أن الظلام قد أصبح دامساً ، وعندئذ فقط أدرك أنه كان قد نام بعد العصر .

وروى عن بعض الفلاسفة المحدثين أنه لم يكن يحمل ساعة اعتماداً على إحساسه الشخصى بالزمن . وهكذا كان الناس يفعلون قبل اختراع الساعات الدقاقة .

جملة القول الذاكرة هى التى تمدنا بالإحساس بالزمان وتعاقب الأحداث ، وهى التى تهيئ لنا سبيل قياس الزمان .

والذاكرة هى التى تمدنا بفكرة الزمان المستقبل قياساً على الماضى . والواقع أننا لا نبصر المستقبل ، بل نتبصره ، أو نتوقعه . والحياة فى جملتها حركة إلى الأمام يعمل الإنسان حسابها بمقتضى ما فات . ولو ذهب عن الإنسان هذا المعنى لأصبح كالحيوان الذى يعيش فى حاضره، أو تكيفه الظروف الخارجية ، أو تدفعه الغريزة العمياء ، أو كالوليد الرضيع الذى لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولكنه يعيش مع ذلك .

ولسنا نحيا حياة الوليد الذى لم يدرك بعد ، بل حياة العقلاء الذين يعتمدون على ماضيهم فى العمل مستقبلا . ولقد استطاع الإنسان أن يجرد فكرة الزمان ، وأن يستخلصها ، وأن يمضى بها فى المستقبل إلى غير نهاية ، فنشأت من ذلك فكرة « الأبد » وهو لا نهاية الزمان فى المستقبل ، كما أن

« الأزل » لا نهاية الزمان فى الماضى ، وكان الأزل والأبد عماد سائر الأديان عند المتحضرين . بل لقد طبق الإنسان هذه الفكرة على نفسه فاعتقد فى خلود الروح بعد فناء البدن .

فالذاكرة هى التى تمدنا بفكرة الزمان ماضيه وحاضره ومستقبله ، فالذاكرة والزمان متصلان اتصالا وثيقاً .

وقد أجرى بعض العلماء أبحاثاً لبيان هذه الصلة سواء عند الحيوان أو عند الإنسان فيما يختص بما سموه « الزمان الحيوى » أو البيولوجى . والزمان الحيوى متصل بالحاجات البيولوجية كالطعام والشراب واليقظة والنوم وإخراج الفضلات وما إلى ذلك .

وهذا الزمان الحيوى أساس الذاكرة الآلية التى حدثتك عنها .

وقد أثبت العالم الروسى بافلوف هذه الصلة عند بحثه عن الأفعال المنعكسة المتعلقة بشرط . وفى تجربته المشهورة على الكلب ، كان يقدم له الطعام فى وقت معين فيفرز الكلب اللعاب عند رؤية الطعام ، لأن الطعام مؤثر طبيعى يدفع إلى إفراز اللعاب . وكان يدق مع تقديم الطعام جرساً ، وبعد عدة مرات كان يكفى أن يسمع الكلب دقة الجرس حتى يفرز اللعاب .

ونحن كذلك نحقق حاجاتنا الطبيعية فى مواعيد تعلمناها وتعودناها طبقاً لدورة زمانية لا تخطىء . فإذا حان موعد الغداء شعرنا بالجوع ، ويقضى الطفل الرضيع حاجته فى مواعيد دون أن يلوث فراشه . وإذا تعود أحدنا أن يستيقظ فى ساعة معينة استيقظ فى هذا الموعد حتى فى أيام العطلة . وأول أيام الصوم فى رمضان يكون عسيراً لخروج المرء عما ألفه . وفى بعض الأحيان ينسى الصائم فيأكل نهاراً . ومن الفكاهات التى تروى أن صائماً دخل المسجد يصلى الظهر جماعة فتحسس جيبه فوجد فيه بلحاً ، فأخرج بلحة وأخذ يأكلها ، فغمزه جاره يريد أن ينبهه وينهره ، فقال له « والله هذه آخر بلحة وليس معى غيرها » .

وذهب بعض العلماء فى مباحثهم الأخيرة إلى أن الغدة فوق التلموسية Hypothalamic هى التى تحتفظ بالإيقاع الزمنى الناشىء من الدورات الحيوية كالجوع والعطش والنوم وما إلى ذلك ، فهى أشبه بالساعة الدقاقة للكائن الحى .

والذاكرة هى أساس الزمان الاجتماعى ، هذا الزمان الذى اصطلح المجتمع عليه فى تسيير أموره وضبط أحوال معاشه . فقد اهتدى قدماء المصريين إلى السنة الشمسية لحاجتهم إلى الزراعة ومعرفة مواعيد الحرث والبذر والحصاد ، وأصبح الزمان

موضوعياً خارجياً يقسم إلى أعوام، وتقسم السنة إلى فصول وإلى أيام . ولم يكن الزمن فى أول الأمر ثابتاً موضوعياً كما أثبت دوركهايم وماوس فى أبحاثهما الاجتماعية ، بل نشأ أولا فى ضمير الشعوب البدائية لخدمة الاحتفالات الدينية والأعياد والمواسم ثم نشأ التقويم السنوى تابعا لهذه الاحتفالات والأعياد. ثم انتقلت فكرة الزمان من الذاتية إلى الموضوعية وأصبح الزمان عاماً للمجتمع بأسره ، لا ملكاً لشخص ، حتى أضحى الفرد مضطراً إلى التزام توقيت المجتمع الذى يعيش فيه والخضوع لقيوده . وإذا كره الإنسان المجتمع هرب منه ، وهرب من هذه القيود ، وتحلل من هذه الالتزامات ، فترى الطالب يذهب متأخراً إلى مدرسته وكذلك الموظف إلى عمله ، أو يستعين المرء بما يجعله ينسى الزمان ، فينغمس فى شرب الخمر ، أو تدخين الأفيون والحشيش ، وهذا ما بينه مورو دى تور وكوينسى وبودلير فى مذكرات آكل الأفيون ، حيث يخيل للمدمن أن الدقيقة دهر وأن اللحظة التى يعيشها أبد لا ينتهى .

وإنما استطردنا إلى الكلام عن الزمان لأنه أساس الذاكرة يحتوى فى صدره على سر الأحداث الماضية ويطويها فى زوايا النسيان.

وإذا أسفر الزمان عن وجهه أشرقت الذكريات.

وإذا احتجب حجبها معه وغابت عن الأنظار .

فما هو علة إشراقه وكيف تسجل الأحداث على صفحة الزمان .

وما سبب احتجابه وكيف تختفى الذكريات فى خبايا النسيان .

هذا هو موضوع الفصول المقبلة حيث نتحدث فى الفصل الآتى عن طرق التعلم والاكتساب ، وعما سماه العلماء « بخط التعلم» وكيف يتجه صاعداً على مر الأيام ، لأن النسيان متوقف على التعلم ، فكلما كان التعلم أجود وأنظم وأثبت كان النسيان أقل وأبطأ . وإذا أردنا أن نعالج النسيان فعلينا أن نحسن التعلم. ثم نتحدث فى الفصل الذى يليه عن « خط النسيان » الذى يتجه هابطاً على عكس خط التعلم الذى كان يتجه صاعداً . وكلا الخطين يبينان التعلم العادى والنسيان السليم . أما الشذوذ فى النسيان الذى يعد مرضاً فهذا باب آخر .

ولا نود فى هذا الكتاب الصغير أن نشير إلى مذاهب القدماء الذين زعموا أن النفس تعلم كل شىء قبل اتصالها بالبدن ، حتى قال أفلاطون إن العلم تذكر والجهل نسيان . أو مذاهب الذين يعتقدون فى علم النفس بعد مفارقتها البدن سواء فى حالة الحياة أم بعد الموت ، كما زعم الرئيس ابن سينا وغيره ، لأن هذه المباحث تخرجنا عن نطاق العلم .

خط التعلم

حضرت العام الماضى «سيرك مدرانو» الذى نصب خيامه بالقرب من ميدان محطة مصر . ولم يكن الدافع لى مجرد اللهو وتزجية الفراغ أو الترويح عن النفس ، بل للتأمل والدرس والاطلاع على تجارب واقعية ، أو نتائج التجارب التى أجراها أصحاب السيرك ، وهم أشبه بالحواة ، على حيوانات يخيل إليك أنها أبعد الأشياء عن التدريب والترويض ، كالسبع والفيل والنمر والخيل والكلاب وغير ذلك .

وقد يخيل إليك أن السبع يسمع كلام مروضه ، كما يسمع الطفل المطيع كلام أمه وينفذ أمرها ، فيصعد درجاً ثم يقفز من خلال حلقة ملتهبة بالنار ثم ينزل الدرج من الناحية الأخرى. فكيف وصل المروض إلى تدريب هذا الوحش وتأديبه حتى يبلغ به هذا الحد من السلوك المخالف لطبعه من جهة ، والمقيد بنظام دقيق موقوت لا يخطىء من جهة أخرى ؟

فن الترويض خاضع لقوانين نفسانية ، وهذه القوانين تعم الحيوان الأعجم والإنسان الذى يدرك ويفهم .

فالإنسان حيوان ولا يمتاز عن سائر الحيوانات إلا بالكلام ،

ولذلك عرفوا الإنسان بأنه حيوان ناطق .

وهو يتعلم الحركات الآلية كما يتعلم الحيوان ، ويتعلم فوق ذلك كيف يتكلم أي اللغة ، وقد يتعلم عدة لغات إذا احتاج إلى التفاهم مع قوم يتكلمون بغير لسانه ، بل أصبح الإنسان مع تقدم الحضارة وانتشار التعليم فى حاجة إلى تعلم لغة أخرى أجنبية أو عدة لغات ليطلع على ثمار الأفكار وقرائح العقول وأحدث المخترعات وآخر الاكتشافات العلمية حتى يساير ركب الحضارة .

واللغة ألفاظ تحمل معانى . واللفظ رمز إذا لم تفهم معناه أصبح مجرد صوت يصعب تذكره . وليست الألفاظ هى الرموز الوحيدة التى تجرى بين الناس فى المجتمع . فالحساب والجبر والقوانين العلمية المختلفة رموز كذلك . وما معنى س + ص = كذا ، وما معنى جدول الضرب؟ ومع ذلك فالطفل حين يذهب إلى المدرسة مضطر إلى تعلم هذه الرموز اللغوية والحسابية وغيرها ، على الرغم من خلوها من المعنى وظهورها بمظهر الطلاسم . ولذلك يشق التلميذ فى تعلم هذه الأمور ، وليس له من سبيل إلا أن يلجأ إلى الذاكرة الصماء .

فالذاكرة منها آلية حركية ، ومنها لفظية وهى التى سميناها فى أول الكتاب ذاكرة المعرفة ، وهى المخصوصة بالإنسان .

وقد أجرى العلماء تجارب كثيرة على كلا النوعين من الذاكرة .

ولنبدأ بالذاكرة الآلية ولننظر كيف يتعلم الحيوان.

ومن التجارب المشهورة تجربة «المتاهة» ، وهى صندوق يقسم من الداخل بعوارض يتيه فيها الحيوان ، الذى يتحرك بدافع من الجوع وطلب الطعام الموضوع فى الجانب الآخر . ويلاحظ أن الحيوان يندفع هنا وهناك ، وكلما رأى الطريق مغلقاً عاد وجرب الاتجاه فى طريق آخر ، حتى يهتدى إلى الطريق الصحيح . وأول من أجرى هذه التجربة هو العالم النفسانى يركس Yerkes من أئمة المذهب السلوكى ، وذلك منذ نصف قرن مضى ، فوضع سلحفاة فى صندوق متاهة وجلس يراقبها فبلغت الهدف بعد ساعة وخمس وثلاثين دقيقة . وفى المرة الخامسة استغرقت السلحفاة ١٦ دقيقة . وفى المرة العاشرة ٤ دقائق ، وفى المرة العشرين ٣ دقائق و ٢٠ ثانية .

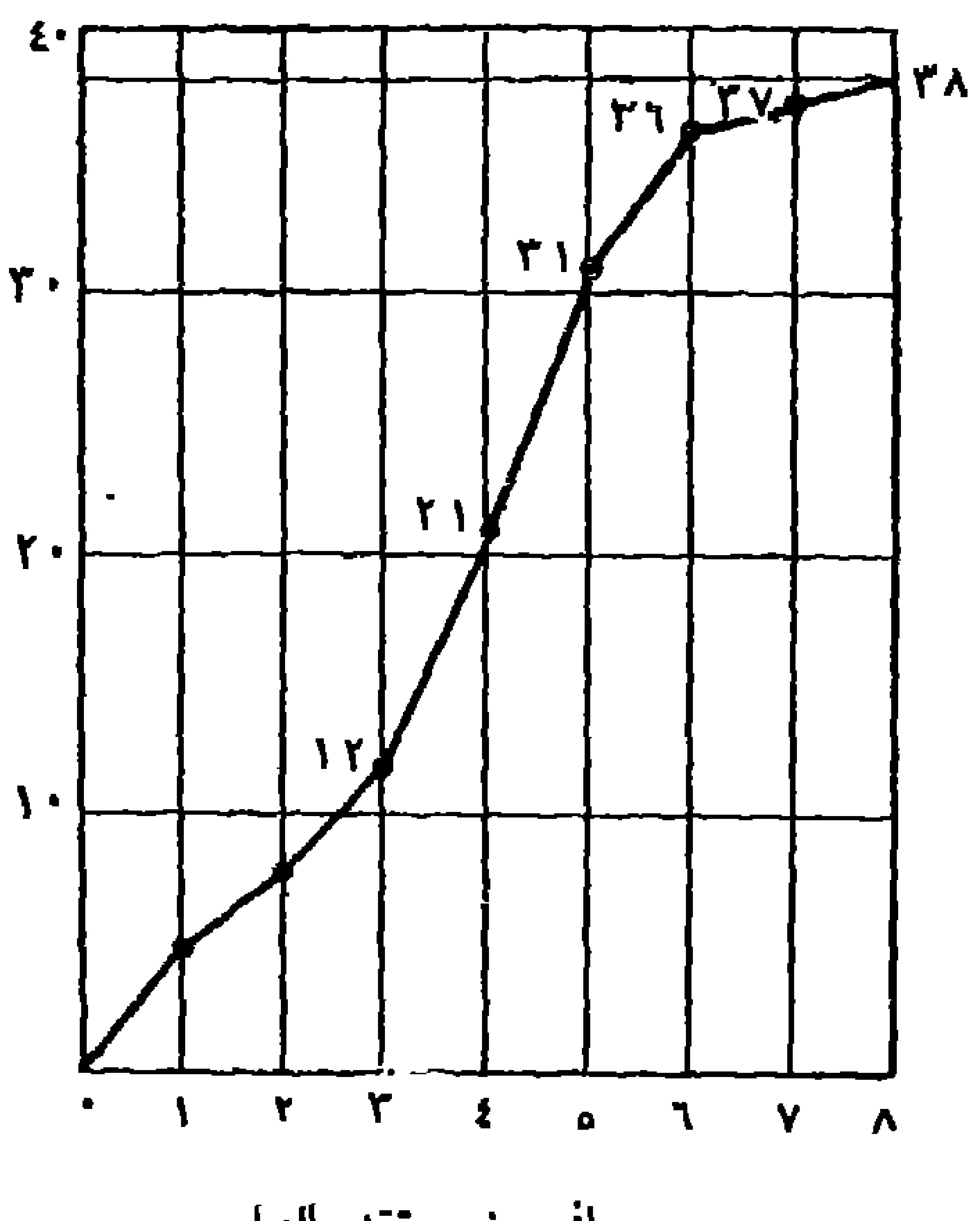
فالسلحفاة تتعلم من التجربة وحذف الأخطاء Trial and error

والإنسان يتعلم على هذا النحو أيضاً . ولنفرض أن السيد مصطفى عبد العزيز أراد أن يتعلم الآلة الكاتبة ، فاشترى آلة حملها إلى منزله ، وجلس أمامها وأخذ يجرب كتابة رسالة إلى صديق وكانت تبدأ كما يلى: «حضرة السيد محمد أبو ريشة» . فلما أراد أن يكتب السطر التالى رأى غلطاً كثيراً فى السطر الأول ، قاف بدلا من ضاد ، واو بدلا من راء ، وهكذا ، فإنه يضيق ويعاود

ثانية ، ويحاول تجنب الأخطاء الأولى ، فيجد أنه تحسن بعض الشيء فى المرة الثانية ، فيعاود ثالثة ، ومن جملة هذه المحاولات التى يتجنب فيها الأغلاط السابقة يتحسن تعلمه و يسير إلى الأمام .

وإليك نتيجة التجربة التى أجراها بيرون Piéron على شخص يجرب بقلم الآلة الكاتبة فى عبارة معينة :

عدد المحاولات	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
عدد الضربات الصحيحة	٥	٨	١٢	٢١	٣١	٣٦	٣٧	٣٨



رسم بيانى يوضح تقدم التعلم

يخضع خط التعلم هنا لأمور ثلاثة : المحرك ، وعدد مرات المحاولة ، والمكافأة .

أما المحرك فهو الباعث الخارجى الذى يشتاق إليه الحيوان أو الإنسان فيندفع بجميع قواه النفسية إلى بلوغه . فالسلحفاة تريد بلوغ العش ، ومصطفى عبد العزيز يريد تعلم الآلة الكاتبة لنفعها فى عمله .

والأصل فى المحرك أن يكون طبيعياً ، ولذلك كان التعلم طبيعياً فى الكائن الحى . فطلب الطعام ، والانعطاف نحو الجنس الآخر ، وبعض الحاجات الفسيولوجية كلها محركات فطرية ، وهى الأصل كذلك فى تحريك الإنسان ، لولا أنه مع الحضارة ظهرت محركات جديدة دعت إليها الضرورة الاجتماعية ، كالمال ، والمنازل الاجتماعية المختلفة التى تجلب السلطان أو الشهرة أو المجد ، والعلم ، وغير ذلك .

ولا تزال الوظائف الحكومية هى المحرك الأكبر لهمة الشعب فى مصر ، والسبيل إلى بلوغها هو الالتحاق بالمدارس والحصول على « الشهادة » لأنها مسوغ التعيين فى الوظيفة . وحين اجتمعت كلمة الأمة على إخراج الإنجليز من منطقة قنال السويس ، ورأى المصريون ألا سبيل إلى إجلائهم إلا بالقتال ، تهافتوا على تعلم السلاح واستعماله ، وأنشئت معسكرات التدريب

فى حرم الجامعة وفى غيرها من الميادين ، فكان إجلاء الإنجليز هو المحرك لتعلم الفدائيين .

فإذا فعل المحرك فعله ، وبعث الهمة ، واندفع الإنسان يتعلم ، فليس يكفى مرة واحدة يجرب فيها السلوك الجديد كى يتقنه ، ولا مرتان ، بل مرات كثيرة يتحسن خلالها ، ويسير « خط التعلم » كما رأينا إلى الأمام بسرعة، ثم يبلغ حداً يقف عنده .

فالتكرار ضرورى فى تثبيت الحفظ وتمكين التعلم .

أما لماذا يميل الحيوان أو الإنسان إلى تكرار ما سبق فعله فذلك متوقف على قانون سماه الأستاذ ثورنديك « قانون النتيجة » Law of effect ، فالسلحفاة حين تبلغ العش وهو هدفها أول مرة ترتاح ، وكذلك الذى يتعلم الآلة الكاتبة حين يصيب الحرف الصحيح يفرح ويشعر بلذة ، هى لذة الظفر والنجاح . والنصر عند بلوغ الهدف مكافأة تعوض الإنسان عن متاعب السعى وتنسيه آلام الكدح . فالعمل الذى يحقق حاجة الإنسان يحتفظ به ويميل إلى تكراره ، هذا هو منطوق قانون النتيجة . ويميل بعض العلماء إلى تعليل هذ القانون بأن الأعصاب تظل فى حالة توتر حتى بلغ الكائن غرضه فترتخى أعصابه ارتياحاً . والحيوان يميل إلى الارتخاء لا إلى التوتر ، ولذلك يكرر

ذلك العمل .

هذا هو تفسير التكرار الجسمانى وأثره فى اكتساب المهارة، أما التكرار اللفظى وأثره فى الحفظ فله تعليل آخر نذكره فيما بعد .

وللتعلم طريق آخر خلاف المحاولات والابتعاد عن الغلط هو « التعلم الشرطى » الذى بى أساسه العالم الروسى بافلوف . وتجربته على الكلب الذى يسيل لعابه عند دق الجرس قد عرفتها من قبل. وقد حدثتك فى أول هذا الفصل عن الحيوانات التى يشاهدها المتفرجون فى السيرك تقوم بالعجيب من الأفعال . ومن المشاهد المألوفة عندنا القرداتى الذى يعرض فنه على الجمهور فيطلب من القرد أن يضرب « تعظيم سلام » فيقف على قدميه الخلفيتين ويرفع يديه للتحية . أو العرب الذين يُرَقِّصون الخيل على صوت الموسيقى . وقد سألت أعرابياً كيف درب حصانه على الرقص ، وعجبت أن الحصان على غير ما أعتقد لا يسير على توقيع الوزن الموسيقى ، بل الراكب هو الذى يشد اللجام شداً معيناً ويضربه بالمهماز ضرباً خاصاً ، بحيث يستجيب الحصان للشد والهمز فيخيل إليك أنه يستجيب من تلقاء نفسه للموسيقى . ويعتمد هذا التدريب كله على مبدأ ربط المؤثر الطبيعى بمؤثر جديد ، بحيث يتعلق المؤثر الطبيعى بهذا « الشرط » ،

ومن أجل ذلك سمى ذلك التعلم شرطياً ، أى متعلقاً بشرط جديد . فنى المراعى الواسعة حين يرغبون فى رد المواشى عن الأسوار ويرغمونها على البقاء داخلها يكهربون الأسوار حتى إذا هجمت عليها البقرة أحست بلسعة الكهرباء فى أنفها ، وفى الوقت نفسه ترى السور ، وعندئذ يكنى أن ترى البقرة السور فتبتعد عنه . ونحن نتعلم ، ونعلم أبناءنا ، ونعلم الشعب ، طبقاً لهذا القانون . نحن نعلم الطفل الوليد قضاء حاجته فى مواعيد وفى إناءخاص. ونعلم أفرادالشعب الذين يقودون السيارات أن يقفوا فى الطريق عند رؤية الضوء الأحمر ، حتى يصبح ذلك عملا آلياً يكنى أن يرى السائق النور الأحمر فيقف ، ومع ذلك قد ينسى ، وهذا منشأ حوادث السيارات .

فما علة هذا النسيان ؟

لا ريب أن الذى يتعلم قيادة السيارات يخطىء فى البداية ، وكلما طال به الزمن ورسخت فى نفسه العادة قل خطؤه . فأول شرط فى عدم النسيان كثرة التكرار ورسوخ العادة . وهناك أسباب أخرى نذكرها فى موضعها .

ونسيان الأعمال الآلية محتمل ، وقد تترتب عليه نتائج نتائج خطيرة ، ولذلك ينبغى أن يأخذ المرء حذره حتى لا ينسى فيضر نفسه أو غيره . فمدرب النمر أو الأسد فى السيرك يمسك

يلمه مسدساً خشية نسيان الوحش ما تعلمه ورجوعه إلى توحشه . وقد ينسى الجراح مشرطاً أو مقصاً فى بطن الجريح بعد إجراء العملية ، ولذلك يعدون المشارط قبل العملية وبعدها توقياً للنسيان .

وهناك مبدأ آخر خلاف المحاولة والغلط والتعلم الشرطى هو التعلم عن طريق « المحاكاة » ، سواء عند الحيوان أو عند الإنسان . ونحن نتعلم كثيراً من ألوان السلوك الاجتماعى عن هذا الطريق، نكتسبها من الأب والأم والأهل فى الأسرة، ومن المجتمع الذى نعيش فيه ، كطريقة الأكل والملبس والمشى والنطق والصلاة فى المسجد أو الكنيسة ، وآداب السلوك المختلفة وغير ذلك .

غير أننا حين نرسل الطفل إلى المدرسة نطلب منه تعلم اللغة والأدب والحساب والجبر والهندسة والطبيعة والكيمياء وعلوم الأحياء ، ولا ننتظر منه أن يتعلم بطريق المحاولة والخطأ أو الشرط أو التقليد ، بل لا بد أن « يحفظ » هذه العلوم ومبادئها عن ظهر قلب ، لأنها أساس لا غنى عنه فى كسب الغلوم بعد ذلك ، مثل القرآن الكريم وهو أساس الدين واللغة والعربية ، أو على الأقل بعض أجزائه ، ومثل المحفوظات فى اللغة نثراً أو شعراً يتأدب بها المرء ويتفصح لسانه ويعلو

بيانه ، ومثل جدول الضرب فى الحساب ، ومنطوق النظريات الهندسية وبعض القوانين فى الميكانيكا والطبيعة والكيمياء وما إلى ذلك .

هذه المحفوظات جميعاً تسمى « لفظية » على خلاف الأعمال العادية التى نتدرب عليها ونمهر فى أدائها . والسبيل إلى تعلمها وحفظها هو تكرارها وتسميعها عدة مرات حتى تثبت فى الذهن وقد أجرى العلماء على هذا الضرب من التعلم اللفظى عدة تجارب وخرجوا أيضاً بخط للتعلم ، وبينوا أثر مرات التكرار ، وفائدة التسميع ، وفضل التكرار الموزع على عدة أيام .

وقد روى عن قوم وهبوا ذاكرة قوية تستطيع حفظ ما يلقى عليهم أو ما ينظرون فيه بعد مرة واحدة . وهذا نوع من الشذوذ لا ينطبق على أغلبية الناس .

روى أنه كان المتنبى يجلس فى شبابه إلى ورّاق فوجد عنده كتاباً من كتب الأصمعى يتكون من نحو ثلاثين ورقة ، فأخذ ينظر فيه طويلا . فقال له الوراق : يا هذا أريد أن أبيعه ، وقد قطعتنى من ذلك ، فإن كنت تريد حفظه فى هذه المدة القصيرة فبعيد . فقال له المتنبى : إن كنت حفظته فمالى عليك ؟ قال : أهب لك الكتاب . ثم أخذ الوراق الكتاب ، وجعل أبو الطيب يتلوه عليه إلى آخره ، ثم أخذه وجعله فى كمه

وقام . فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن . فقال : ما إلى ذلك سبيل ، قد وهبْتَه لى ؛ فتركه عليه .

ويروى عن أحد الخلفاء أنه كان على استعداد أن يدفع وزن القصيدة ذهباً إذا كانت جديدة . وكان عنده ثلاث جوار الأولى تحفظ القصيدة بعد سماعها مرة واحدة ، والثانية بعد مرتين ، والثالثة بعد ثلاث مرات ، فإذا تقدم شاعر إلى بلاط الخليفة ، جعل الجوارى خلف الستر ، وطلب منه إنشادها ، فتسمعها الأولى ، فيقول الخليفة هذه قصيدة معروفة وعندى جارية ترويها ، فترويها الجارية الأولى ، ثم الثانية ، ثم الثالثة . فيخرج الشاعر بغير جائزة . وعرف الشعراء الحيلة ، فتقدم شاعر بقصيدة معقدة يصعب حفظها مطلعها « صوت صفير البلبل » . فعجز الجوارى عن تسميعها .

ويستفاد من هذه القصة أن حفظ الأشياء ذات المعنى أيسر مما لا معنى له . وإنما يسهل حفظ ما له معنى لأنك تستطيع « ربطه » بشىء آخر ، وأن تصله بجملة ما تعلمته من قبل وأدركت معناه .

ويلجأ العلماء فى تجارب الحفظ إلى اصطناع مقاطع لا معنى لها وذلك لقياس المقدرة الصرفة على الحفظ . وفى بعض الأحيان يجرون التجارب على حفظ أرقام ، لأن

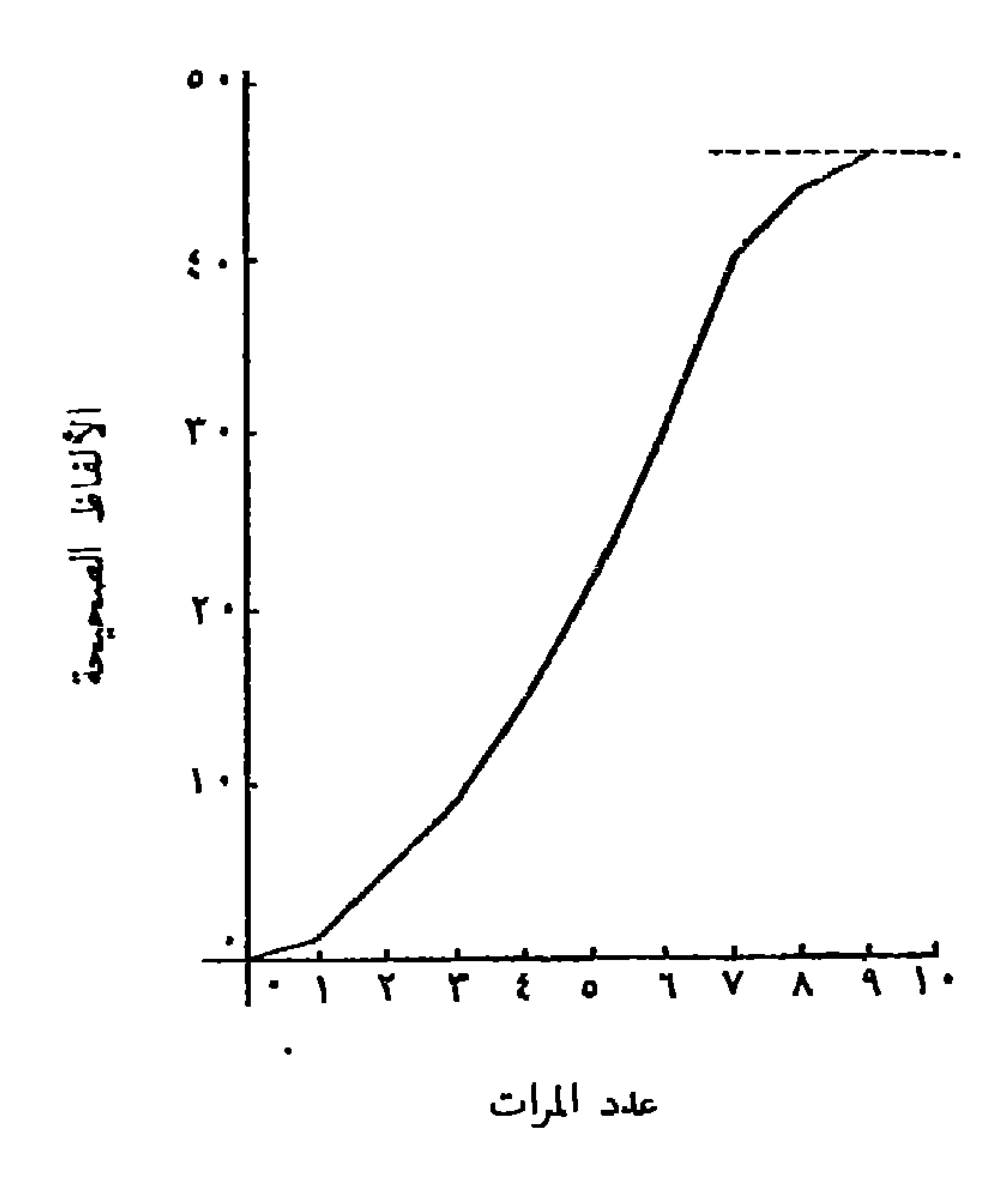
الأرقام لا معنى لها . وكذلك الحال فى حفظ الرموز الجبرية والاصطلاحات . لا ريب أن حفظ هذه الأشياء أبطأ ولكن الذهن البشرى يصل مع ذلك إلى حفظها ، مع التكرار ، وبقانون التلازم أحد قوانين الترابط الثلاثة ، وهى التلازم والتشابه والتضاد .

والتلازم ضرورى فى الحفظ ، وهو عبارة عن تجاور الألفاظ . ومعظم الأطفال يحفظون عن ذلك الطريق ، وتسمى الذاكرة حينئذ « صماء » أى ذاكرة لفظية بغير معنى . ولذلك يلاحظ أن الذين يحفظون بهذه الطريقة يكررون ما حفظوه كالببغاء ، وإذا توقف أحدهم أو نسى ، يكفى أن تذكر له أول كلمة فى بيت الشعر فيكرر البيت .

وإليك نتيجة إحدي التجارب التى أجراها الأستاذ جوييه Guillet على شخص إنجليزى يتعلم ألفاظاً يابانية لا معنى لها بالنسبة له ، لبيان أثر مرات التكرار فى تقدم التعلم .

عدد المرات	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
الألفاظ الصحيحة	١	٥	٩	١٥	٢٢	٣٠	٤٠	٤٤	٤٦

وسوف نتحدث عن « خط التعلم » إطلاقاً سواء أكان خاصاً بالأعمال الآلية أم المحفوظات اللفظية . وقد درس العلماء



هذا الخط ، وتتبعوا أشخاصاً سنوات عدة ، وأجروا عليهم اختبارات كثيرة بين حين وآخر لمعرفة أثر التعلم .

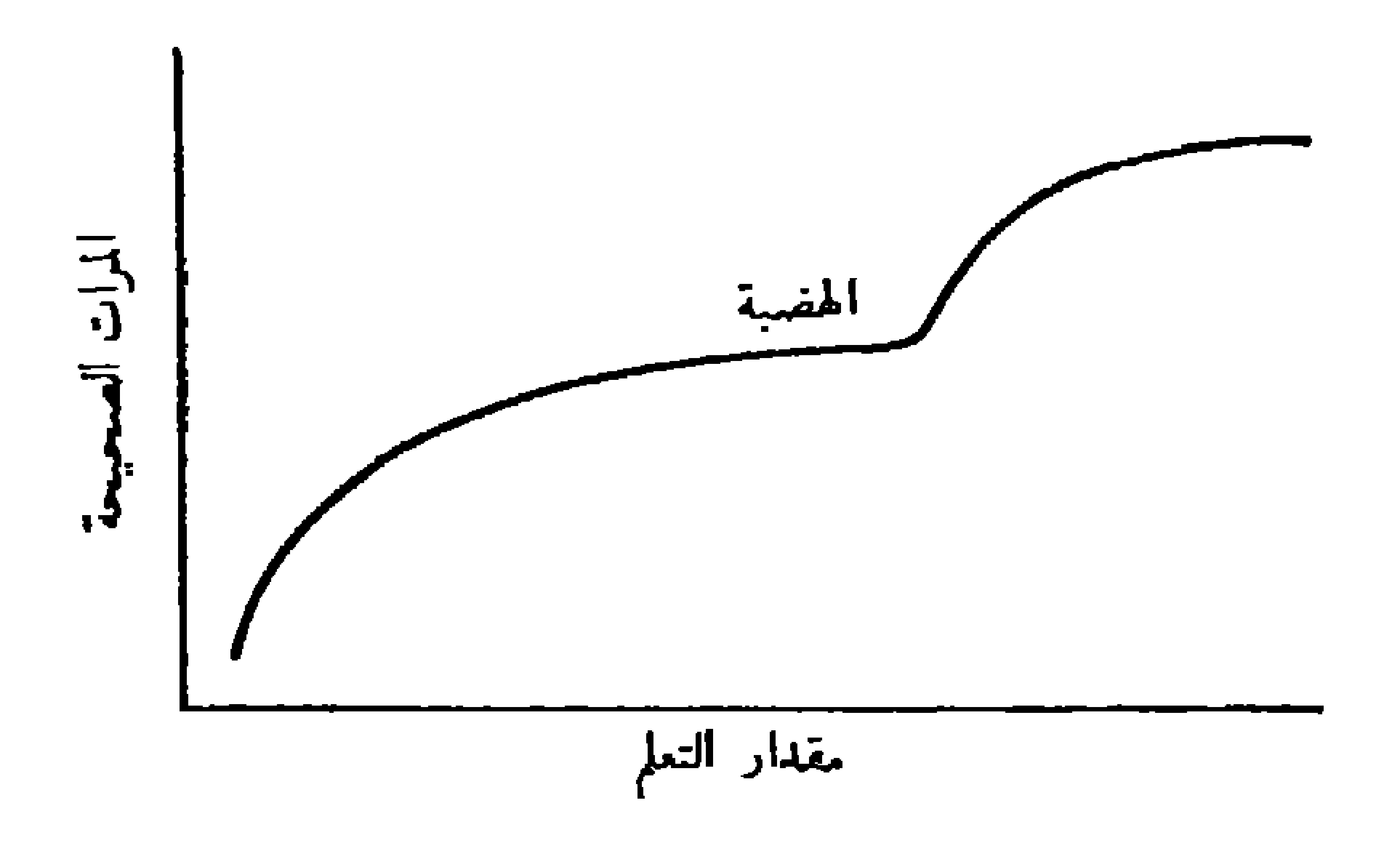
إذا تأملت في الرسم البياني رأيت خطاً أفقياً ، وآخر رأسياً ، وجرت العادة أن يكون الخط الأفقي خاصاً بمقدار التعلم ، والرأسي يعتمد على الأول ويبين إما مقدار الغلط ، أو الزمن المستنفد ، وما إلى ذلك .

ولا يجرى خط التعلم فى استقامة ، بل يعلو ويهبط غير منتظم ، لأن قدرة المرء تتذبذب من لحظة إلى أخرى ومن يوم إلى يوم ، وهذا يرجع إلى الحالة الجسمية التى تتأثر بالنوم والهضم وغير ذلك . يضاف إلى ذلك أن المتعلم لا يستمر إلى غير نهاية بل يتوقف بين حين وآخر ، وقد تطول فترات التوقف أياماً أو شهوراً .

وإذا طال زمن التعلم سنوات أشار خط التعلم إلى ما يسمى بالهضاب . و « هضبة التعلم » تدل على الثبات عند حد معين بلغه الشخص ، ويستمر واقفاً عنده . مثال ذلك الذى يتعلم البلياردو فيصل بعد مدة إلى مستوى معين من الإصابات الصحيحة فى الساعة، وليكن أربعين ، ثم يحاول بعد عام أن يعدل من فنه فيرتفع إلى ستين ، وهكذا .

وهناك عوامل كثيرة تعين على سرعة التعلم .

منها قوة الانتباه ، أو التذكر بالقصد والإرادة . فقد ثبت من بعض التجارب فى علم النفس ، ولم يكن الغرض فيها قياس الذاكرة ، أن المجرب عليهم لم يتذكروا من اللوحة التى عرضت عليهم إلا القليل جداً. ولذلك يجب البحث فى شهادة الشهود فى المحكمة ، إذ قد تقع حادثة أمام عدد من الناس ، فيطلبون للشهادة ، فينسى معظمهم تفاصيل ما دار بين الخصوم



من حديث ومشاجرة وما إلى ذلك ، لأن كثيراً منهم لا يلقون إلى أصحاب الحادثة بالا ، ولا يحسن التذكر إلا من انتبه إليهم بوجه خاص .

يروى فى هذا الباب أن شاهداً أدلى بشهادته أمام محكمة الجنايات فى جريمة قتل ، وأجاب عن أسئلة المحكمة وبخاصة ملابس المتهم ولونها عندما أطلق النار على المجنى عليه . وناقشه المحامى ، فأدار له ظهره ، وسأله ما لون الكرافتة التى يلبسها ؟ وأخطأ المتهم فى معرفة اللون ، فطلب المحامى استبعاد شهادته ، إذ كيف يطمئن المرء إلى شهادته عن المتهم وهو لا يذكر ما يراه الآن . غير أن مرافعة المحامى تقوم على مغالطة نفسانية ، لأن الشاهد كان منتبهاً إلى المتهم فلاحظ ملابسه وتذكرها ؛

ولم تكن هناك حاجة إلى ملاحظة المحامى والانتباه إلى مظهره . ويسمى العلماء هذا الضرب من الذاكرة ، بالذاكرة العرضية Incidental memory ، وأثبتوا أن مقدار ما تحتفظ به أقل كثيراً من الذاكرة الإرادية التى تكون عن قصد . ويعزى إلى هذا العامل أيضاً ضعف ذاكرة الأطفال لأن قدرتهم على الانتباه أقل من قدرة الكبار .

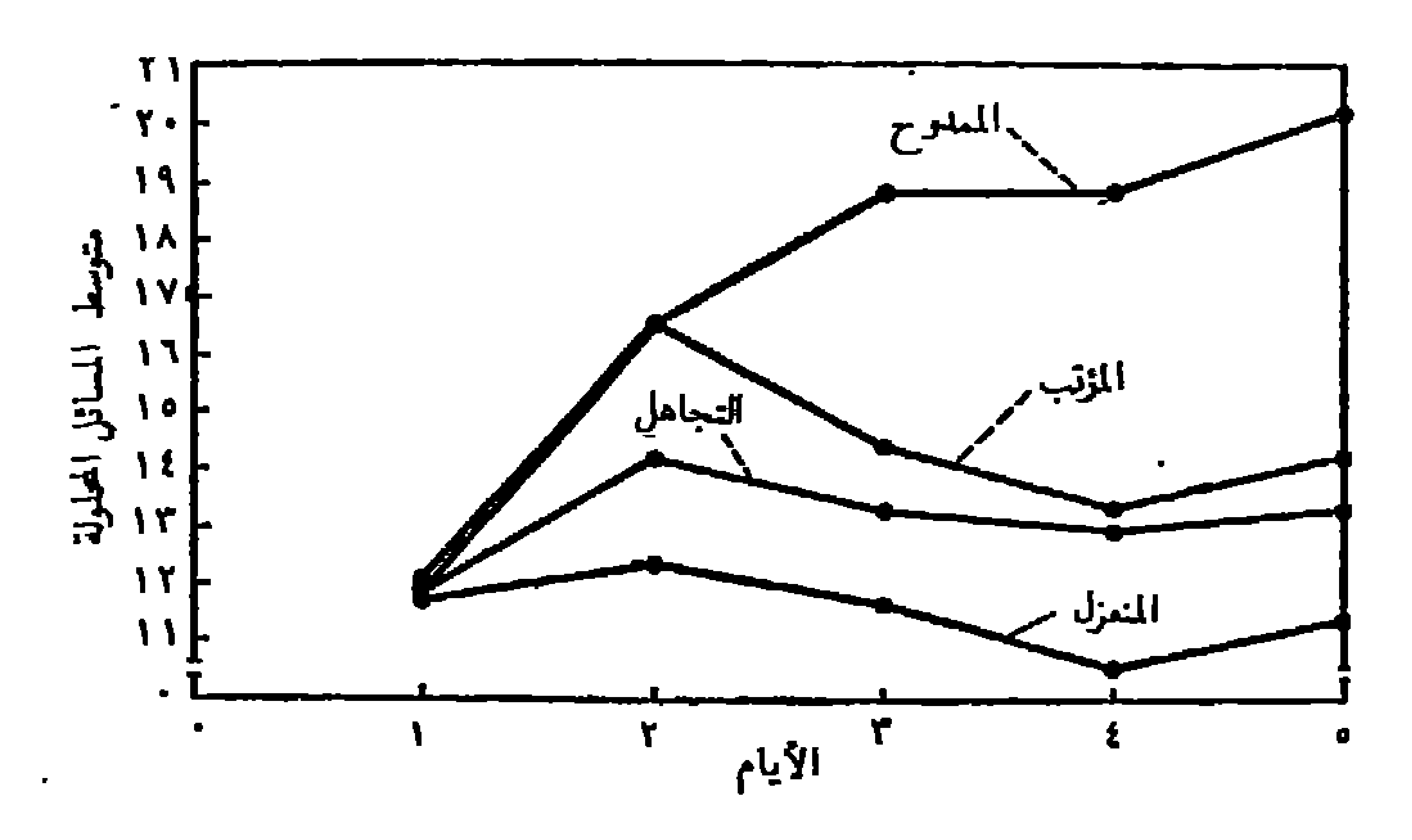
ومن أقوى العوامل على سرعة الحفظ وقوة التعلم وثباته «الاهتمام» Interest . وقد رأيت قوماً يشكون من ضعف الذاكرة ، وبخاصة الطلبة ، على الرغم من انقطاعهم للاستذكار مع كثرة التكرار . والعلة فى ذلك أنهم لا يشعرون باهتمام إلى ما يحاولون حفظه . بل إن هذا النسيان دليل على انعدام الميل . وقد درج الآباء فى مصر على أن يوجهوا أبناءهم فى الدراسة توجيهاً خاطئاً لا يقوم على ميل الطفل ، فالأب يريد من ابنه أن يكون طبيباً ، أو مهندساً مثل ابن فلان ، وقد تكون نزعة الطفل إلى الدراسات الأدبية وإلى معرفة اللغات أو إلى الشعر . ومن الاهتمام ما هو طبيعى ، وهو منه ما هو غير طبيعى ، فإذا لم تجد فى نفسك الاهتمام الطبيعى نحو شىء من الأشياء تريد أن تتعلمه ، فعليك أن « تخلق » هذا الاهتمام فتضمن بذلك سرعة الحفظ وبطء النسيان .

وللانفعالات أثر فى الحفظ وتثبيته ونسيانه أو عدم نسيانه . فالانفعالات السارة التى تبعث البهجة وتشيع الفرح تساعد على سرعة الحفظ ، على حين أن الانفعالات المؤلمة التى تؤدى إلى الضيق والتبرم تمنع الحفظ . ويلاحظ أن الانفعال إذا كان شديداً ألقى ضوءاً على ما يحفظ فلا ينسى . ولكن الخوف إذا بلغ حد الرعب أحدث ما يشبه التوقف والشلل فتمحى الأشياء التى كانت مصدر الخوف من صفحة الذهن . ولا يساعد الضرب على التعلم على عكس ما يتصور كثير من الناس ، لأن الضرب يؤلم حين وقوعه ويكون مصدر خوف للطفل قبل توقيعه ، وإذا كان الضرب شديداً لا يتعلم الطفل شيئاً ، وإذا تعلم لم يثبت مما يتعلمه شيء فى مستقبل حياته . ويعالج التعلم بالعقاب والثواب ، وقد اتضح من التجارب النفسانية أن التعلم بطريق الثواب أشد ثباتاً من العقاب على الأخطاء . مهما يكن من شيء فالعقاب لا بد منه لأنه شيء طبيعى ، كما يمسك الطفل النار فتحرق يده فيتعلم الحذر منها والابتعاد منها ، ولا ينسى لسعتها .

ويتعلم النـ س بالمدح والذم ، أما الثناء فهو من أعظم البواعث على سرعة الحفظ ، وأنت لا تنسى الشخص الذى يثنى عليك ، وتتعلق بالأمور التى تجلب لك المدح . وقد أجرى

بعض العلماء تجربة على ١٠٦ من التلميذات لبيان أثر المدح والذم فى الحث على العمل العقلى ، فأعطاهن عدداً من المسائل الحسابية ليرى كم تحل كل تلميذة فى ربع ساعة . وراقبهن خلال خمسة أيام ، فى كل يوم مجموعة جديدة من المسائل . وقسم التلميذات أربع مجموعات الأولى يثنى على عملها سواء أحسن أم لم يحسن العمل ، والثانية تؤنب علانية أمام الفصل على ما ارتكبت كل واحدة من خطأ ، على حين تمتدح المجموعة الأولى ويثنى عليها الثناء الجميل . ومجموعة ثالثة تركت وشأنها فى تجاهل ، لم تؤنب أى تلميذة منها أو يثنى عليها ، ولكنهن كن يشهدن المدح والذم للأخريات . أما المجموعة الرابعة فوضعت فى فصل على حدتها ، ولم يمتدح عملها أو يذم ، ولم تشهد ما يفعله الأخريات . وكانت النتيجة بحسب مقدار العمل والتقدم فيه على هذا الترتيب : الأولى الممدوحة، والثانية المؤنبة ، والثالثة المتجاهلة ، والرابعة المنعزلة ، كما يتضح من الرسم البيانى .

وللاستعداد الفسيولوجى مدخل عظيم فى المعاونة على الحفظ أو إعاقته ، ولذلك تختلف ساعات النهار وأوقات الليل اختلافاً كبيراً باختلاف هذه الاستعدادات . غير أن نتائج المشاهدات دلت على أن الاختلاف فردى بحت لا يخضع لقانون عام .



أعرف قوماً يطيب لهم الحفظ عند الفجر ، وآخرين فى أول الليل وهكذا . ويختلف الأمر باختلاف الحالة الصحية أيضاً وبخاصة سوء الهضم الذى يؤدى إلى سوء المزاج عموماً .

وقد أجرى العلماء تجارب عدة على الحفظ اللغوى ، كالألفاظ ، والنثر ، والشعر ، وأثبتوا أن ما يحفظ عن طريق القراءة الصامتة والعالية ، أى عن طريق البصر والسمع أفضل من الصامت فقط أو المسموع فقط . ويجد بعض الأفراد عسراً فى فهم الأشياء إذا قرءوا بصوت عال ، ويفضلون القراءة الصامتة . وإذا كتب الإنسان ما يريد حفظه كان ذلك أدعى إلى الثبات .

وقراءة المحفوظات موقعة منغومة مما يساعد على الحفظ ، ولذلك كان حفظ الشعر لأنه موزون أيسر من حفظ النثر ، وحفظ القصائد التى تنشد وتغنى أشد يسراً . ولهذا السبب نظم القدماء العلوم فى أراجيز مثل ألفية ابن مالك فى النحو ، وأرجوزة ابن سينا فى الطب . وإذا تأملت طفلا فى الخامسة تجده يردد ما يسمع فى البيت أو المدرسة منغوماً .

وهناك طرق تساعد على الاقتصاد فى الزمن عند الحفظ ، وهى الطريقة الكلية ، والتكرار الموزع على فترات طويلة ، والتسميع .

فالطريقة الكلية أن تقرأ القصيدة بأكملها لا بيتاً بيتاً أو مجموعات صغيرة من عدة أبيات ، لأن المعنى ينساب فى الكل ويربط جميع الأجزاء . ولذلك يلاحظ أن الطالب الذى يحفظ متبعاً الطريقة الجزئية يقف عند آخر كل جزء ويحتاج إلى من يذكره بأول كلمة فى الجزء التالى . ويحسن بالطلبة الذين يستذكرون دروسهم أن يقرأوا الكتاب كله دفعة واحدة ، ثم يحفظون الفصول فصلا فصلا ، لا صفحة صفحة .

وإذا احتاج الأمر إلى تكرار ما تحفظ عدة مرات ، فالأفضل أن توزع هذه المرات على فترات طويلة ، فالأجدى أن تقرأ القصيدة التى تريد حفظها مرة كل يوم لمدة سبعة أيام ،

من أن تقرأها سبع مرات فى ليلة واحدة . ومن الطلبة مَنْ ينقطع طول العام عن الدرس والحفظ اعتماداً على الاستذكار قبل الامتحان مباشرة فيحبس نفسه شهراً فى البيت يعيد فيه دروسه ، فإذا جاء يوم الامتحان وجد أنه قد نسى . والعلة فى ذلك أن الفترة التى قضاها فى الحفظ قليلة .

وفضيلة التسميع على مجرد القراءة ترجع إلى الاعتماد على الذاكرة ، وإرادة الحفظ ، هذا إلى معرفة مقدار ما حفظه من يسمع فيحثه ذلك على زيادة الحفظ ، إلى جانب أن مرة التسميع تعد من مرات التكرار .

فإذا اتبع المرء الطرق القويمة فى الحفظ كان ذلك أدعى إلى الثبات وأبعد عن النسيان .

خط النسيان

رأيتَ أن خط التعلم يسير صاعداً ، وسوف نبين لك أن خط النسيان علَى العكس يتجه هابطاً .

وهذا الخط البيانى الذى نحدثك عنه يتعلق بالنسيان الطبيعى ، أما النسيان الشاذ ، أو أمراض الذاكرة ، فهذا ما نرجيء الحديث عنه إلى فصل آخر .

وكما أن التعلم أنواع فكذلك النسيان ، فقد فرقنا بين ذاكرة العادة كالسباحة وركوب الدراجة ولعب البلياردو وقيادة السيارة والضرب على الآلة الكاتبة، وبين ذاكرة المعرفة أو الذاكرة اللفظية مثل حفظ سور من القرآن الكريم أو قصائد من الشعر أو جدول الضرب فى الحساب وغير ذلك ؛ وليس نسيان السباحة مثل نسيان سورة قرآنية . ولو انقطعت عن ركوب الدراجة عشرين عاماً وجربت ركوبها بعد ذلك لوجدت أنك لم تنس تلك الخبرة التى اكتسبتها أيام الصبا والشباب ، ولكنك إذا عدت عشرين عاماً إلى الوراء تسترجع قصيدة لامرىء القيس كنت تحفظها أيام الطلب لم يجر على لسانك من أبياتها إلا البيت أو البيتان ، أو شطرة من بيت .

هل يجرى النسيان طبقاً لقانون ؟ وهل يكون النسيان كاملا ؟ وما هى عوامل النسيان ؟

وقد اختلف العلماء فى أمر النسيان ، فذهب بعضهم إلى أن كل ما يدخل فى خبرة المر ويتأثر به لا يزول أبداً ولا يمحى ، وذهب بعضهم الآخر إلى أن الإنسان لا يمكن أن يحتفظ بكل شىء ، وقال بعضهم الثالث إن الأمور التى سبق حفظها حفظاً جيداً وثبتت مع التكرار هى التى لا تنسى ويمكن استرجاعها فى ظروف خاصة ، مثل حالات الهذيان ، أو التنويم المغناطيسى . وقد روى عن شخص تكلم بلغة أجنبية كان قد تعلمها وهو فى سن الثالثة ونسيها تماماً .

ويقول « تين » فى كتابه « الذكاء » ما فحواه : لا يمكن معرفة حدود هذه الذكريات القديمة ، ولا بد أن نسلم بأن أى إحساس مهما يكن عابراً تافها باهتاً له القدرة على الظهور دون أن يفقد منه شىء .

روى أبركرومبى فى كتابه عن « القوة العقلية » القصة التالية قال : أصيبت سيدة بمرض مزمن فنقلت من لندن إلى الريف ، وأحضروا إليها ذات يوم طفلتها ولم تكن تتكلم بعد ، حيث مكثت معها فترة قليلة ثم أعادوها إلى المدينة . وتوفيت السيدة بعد أيام ، وكبرت طفلتها دون أن تذكر شيئاً عن

أمها . وأتيحت لها فرصة زيارة الحجرة التى توفيت أمها فيها . فلما دخلت الغرفة ارتعشت مع أنها لا تعرفها . فلما سئلت عن علة انفعالها أجابت : إنى أحس إحساساً واضحاً كأنى جئت من قبل إلى هذه الحجرة ، وكان فى هذا الركن امرأة راقدة ، يبدو أنها كانت مريضة جداً ، وانعطفت نحوى وكانت تبكى » .

وشبيه بذلك ما رواه كاربنتر فى كتابه « الفسيولوجيا العقلية » قال : ذهب رجل له مزاج فنان مع بعض أصدقائه فى رحلة على مقربة من قصر الكونت دى سوسكس الذى لا يذكر أنه زاره من قبل . فلما اقترب من الباب الكبير أحس إحساساً شديداً بأنه سبقت له رؤيته ، بل تذكر كذلك قوماً يركبون حميراً وآخرين يقفون إلى جوارها . فسأل أمه عن حقيقة الحال ، فأخبرته أنه وهو طفل يبلغ ستة عشر شهراً ذهب إلى ذلك المكان على ظهر حمار ، وأنه بقى بالباب مع الحمير والخدم على حين دخل الآخرون القصر يتناولون الطعام .

وإذا أضفنا إلى ذلك أن بعض علماء النفس الذين يدينون بمذهب اللاشعور وأثره فى الحياة النفسية يزعمون أن أن الذكريات التى يخيل إلينا أنها قد انمحت فى الظاهر

ولا يمكن استرجاعها ، لا تزال موجودة فى اللاشعور تعمل وتؤثر وتحرك صاحبها . وهؤلاء العلماء يفترضون أن كل ما يكسب المرء يظل باقياً فى حالة من الكمون .

ومن ناحية أخرى يضطر بعض العلماء إلى القول بوجود النسيان وضرورته . فهذا تين Taine الذى افترض من قبل الذكر الكامل يقول فى مكان آخر : إننا إذا وازنا بين الإحساسات المختلفة والصور المتباينة والمعانى المتعددة لوجدنا أن نزوعها إلى الذكر ليس بمنزلة واحدة ، إذ ينمحى كثير منها ولا تظهر إلى آخر الحياة . مثال ذلك أنى ذهبت أول أمس لشراء بعض الحاجيات من السوق فى باريس ورأيت فى الطريق مئات من الوجوه الجديدة لا أذكر أى وجه منها .

ويقول دلبيف Delbœuf فى مقالة عن النوم والأحلام فى المجلة الفلسفية . « هناك بعض الحق فى الرأى القائل بأن الذاكرة لا تصاب بالتعب فحسب بل تمحى أيضاً . وإذا لم تطرد إحدى الذكريات صاحبتها ، فهى على الأقل تعوقها عن الظهور ، بحيث يمكن القول بأن المخ يبلغ حداً من التشبع عند الفرد » .

هذه الفكرة نعنى « التشبع » هى التى عول عليها

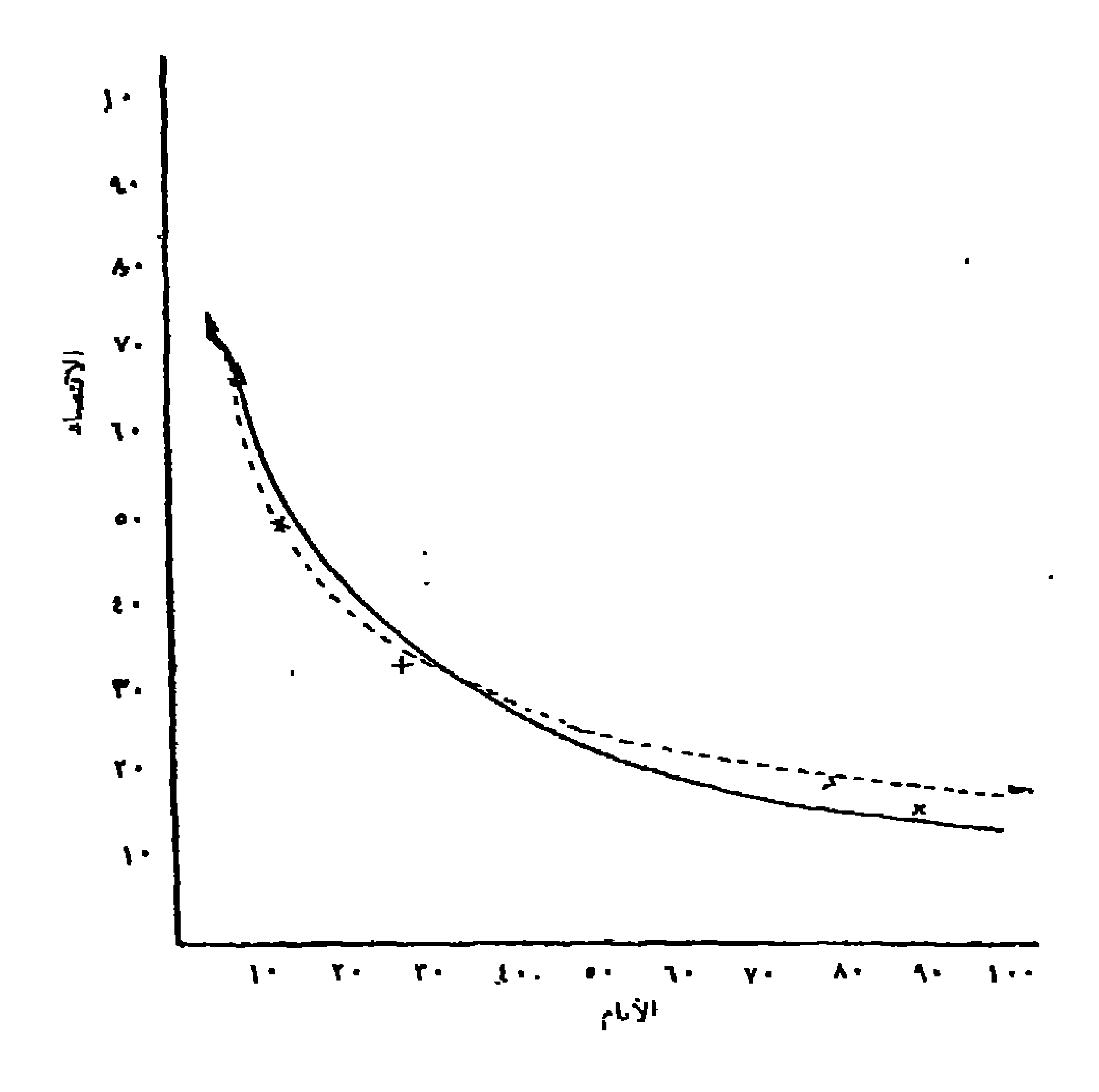
« ريبو » فى بيان أهمية النسيان ، إذ بفضله يتيسر الاحتفاظ بما يكتسبه المرء فترة طويلة من الزمن . ومن أجل ذلك رأى بعض العلماء أن النسيان وظيفة حيوية إيجابية ، وأنه نشاط ذهنى نافع فى حذف ما لا يحتاجه العقل وما لا أهميته له .

وإذا أبعدنا هذه النظريات كلها جانباً رأينا أن النسيان حقيقة لا ريب فيها .

وقد اتجه بعض العلماء فى بحثهم هذا الموضوع اتجاهاً تجريبياً ، وخرجوا بقانون النسيان الذى صاغوه صياغة رياضية خاصة ، ورسموه فى خط بيانى سموه خط النسيان . والفضل فى هذه المباحث للعالم النفسانى إبنجهاوس ، وتبعه فى ذلك كثيرون .

واعلم أن خط النسيان يتذبذب كما هى الحال فى خط التعلم . والواقع أننا لا ينبغى الفصل بين الحفظ والنسيان ، إذ كلاهما مكمل للآخر ، أو قل إن التعلم صراع بين الحفظ الذى يتميز بالممارسة والنسيان الذى يزيد بالترك . ولذلك قيل فى الأمثال « آفة النسيان الترك » . وتتضح هذه الحقيقة من الرسم البيانى الآتى .

وتُجرى التجارب على النسيان بأن يحفظ عدد من الطلبة شيئاً معيناً مثل بعض الألفاظ ، ثم يختبرون بعد ذلك ،



البعض بعد ساعة ، والبعض الآخر بعد يوم ، والبعض الثالث بعد يومين وهكذا . وقد دلت التجارب على أن النسيان يكون سريعاً جداً بعد الحفظ مباشرة . وأول من أجرى هذه التجارب هو هرمان إبنجهاوس الذى جرب على نفسه

أن يحفظ مقاطع لا معنى لها ، ثم اختبر نفسه فى اليوم التالى فوجد أنه لم يسترجع إلا ثلثها تقريباً ، واستمر النسيان بعد ذلك ولكن ببطء .

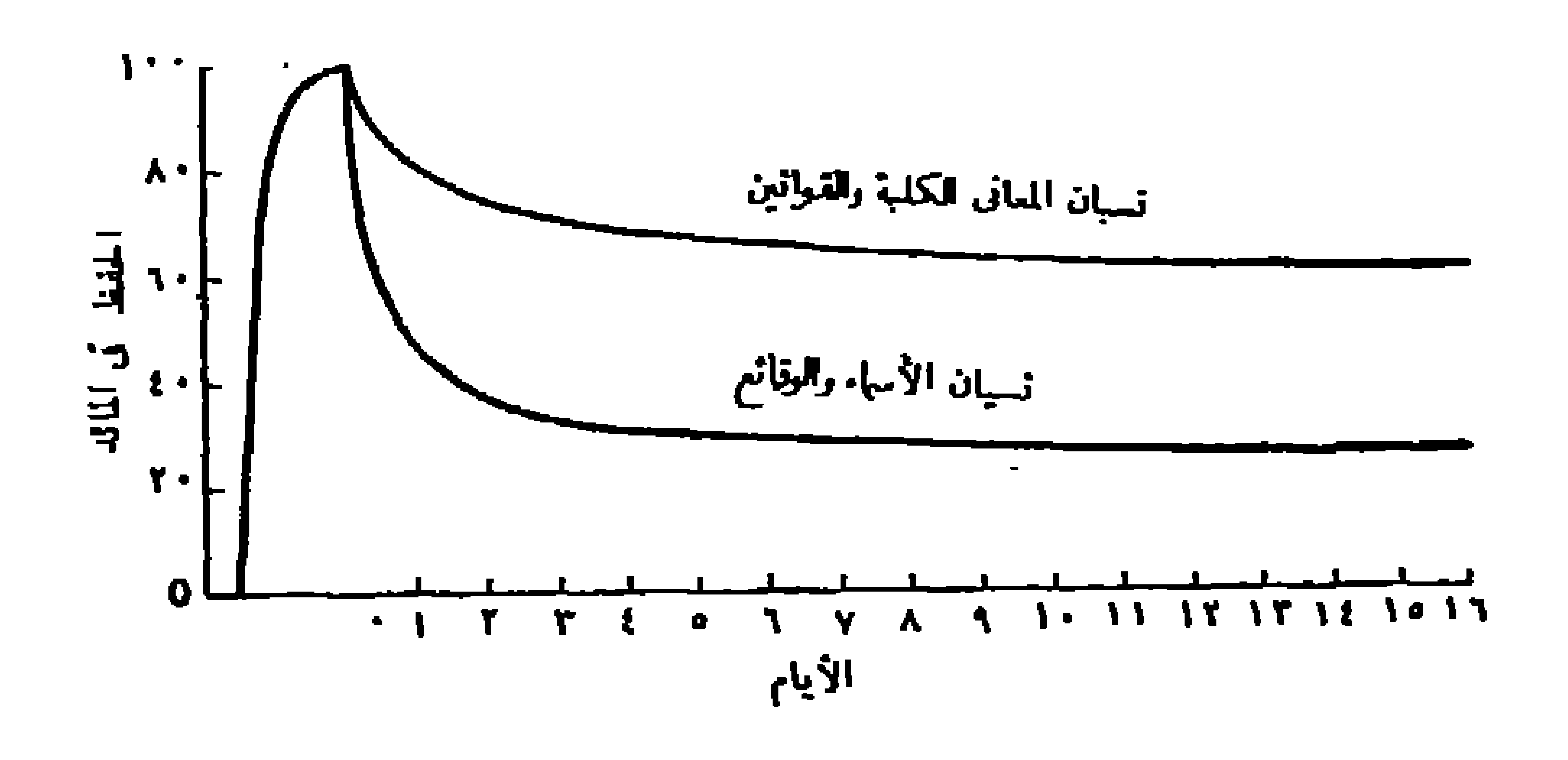
على أن قيمة تجارب إبنجهاوس ترجع إثبات هذه الحقيقة وهى أن ما سبق اكتسابه ونسى يمكن أن يحيا باكتساب جديد مع الاقتصاد فى الزمن . وهذا دليل على بقاء أثر ما حفظ . مثال ذلك أنه إذا لزم تكرار مقاطع لا معنى لها ٢٠ مرة لحفظها فإنه يكفى إذا نسيت أن تكرر ٥ مرات ، أى أن نسبة الاقتصاد هى ١٥ إلى ٢٠ أى ٧٥ ٪ ، وتحتاج بعد ذلك إلى اقتصاد ١٠ مرات أى ٥٠ ٪ وهكذا .

ويتضح بمقتضى هذه التجارب أن النسيان أمر طبيعى وتلقائى ومنتظم ، ولو أن بعض العلماء من أصحاب التحليل النفسانى ، وعلى رأسهم فرويد ، يرون غير هذا الرأى فيذهبون إلى أن النسيان راجع إلى « الكبت » وإلى الرغبة اللاشعورية فى هذا النسيان .

وقد حسب كثير من العلماء فى تجاربهم على الاقتصاد فى الزمن واتجاه خط النسيان وطلعوا بنتائج متقاربة . وهذه إحدى التجارب :

الفترة بالساعة	نسبة الاقتصاد
٢٤ ساعة (١ يوم)	٦٨,٩ ٪
٤٨ » (٢ يومان)	٦٠,٩ ٪
١٤٤ » (٦ أيام)	٤٩,٣ ٪
٣٤٦ » (١٤ يوماً)	٤١, ٪
٥٠٤ » (٢١ يوماً)	٣٧,٨ ٪

وهذا هو الخط البيانى للنسيان .



ويصاغ هذا القانون فى معادلة جبرية ، فإذا رمزنا للزمن بحرف م ، وبالمادة التى تحفظ بحرف ء ، وبمقدار الاقتصاد بحرف ق كانت المعادلة كما يأتى :

$$ف = \frac{ك}{لوغاريتم م}$$

هذا القانون عام ، ولكننا إذا نظرنا إلى الأفراد نجد أنهم يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً ، وكذلك إذا نظرنا إلى طبيعة الأشياء التى حفظت ثم تنسى فيما بعد :

فالأعمال الآلية أعظم ثباتاً كما توضح التجارب الآتية :
تعلم شخص الآلة الكاتبة حتى بلغ من المهارة أن يكتب ١١٠٠ كلمة فى الساعة بعد تدريب استمر ٤٨ يوماً . ثم انقطع عن الكتابة سنتين ، فاحتاج إلى عشرة أيام ليبلغ المستوى السابق ، أى باقتصاد قدره ٧٩ ٪

وروى سويفت Swift من علماء النفس أنه قضى ٤٢ يوماً فى تعلم قذف الكرة ، واحتاج إلى ١١ يوماً بعد ست سنوات ليسترجع ما سبق أن بلغه ، أى باقتصاد قدره ٧٤ ٪ .

أما الذاكرة اللفظية فلها شأن آخر ، لأن الألفاظ منها حروف ، ومنها مقاطع لا معنى لها ، ومنها أسماء أعلام ، ومنها أسماء أشياء ، ومنها أسماء كلية عامة ، ومنها صفات ، ومنها ظروف وحروف جر تصل الكلام بعضه ببعضه الآخر ، ومنها أفعال ، وهذه كلها تتبع قانوناً فى نسيانها وضعه « ريبو »

فى كتابه « أمراض الذاكرة » ، أو أنه وضع قانونين الأول خاص بتعلم اللغة إطلاقاً لغة الكلام العقلى، ولغة الانفعالات، ولغة الإشارة ، والثانى خاص بلغة الكلام العقلى .

وطبقاً للقانون الأول تنسى اللغة العقلية أولا ، ثم اللغة الانفعالية كعبارات التعجب ثانياً ، ثم لغة الإشارة ثالثاً .

أما فيما يختص باللغة العقلية فإنها تخضع فى نسيانها لهذا القانون ، وهو الاتجاه من الخاص إلى العام ، كما تعلم الطفل فهو يبدأ بالخاص وينتهى بالعام ، ويسير النسيان بالعكس ، فيبدأ بأسماء الأشخاص أو الأعلام ، ثم بأسماء المحسوسات ، ثم بالصفات ثم بالأفعال . وتستطيع أن تفسر بهذا القانون العلة فى نسيان أسماء الأصدقاء مع الاحتفاظ بصورهم ، فكثيراً ما تلتقى بشخص تذكره جيداً وتذكر عمله ، ولكنك تنسى اسمه . أما فرويد فله فى نسيان الأسماء تعليل آخر .

ويعتمد برجسون على هذا القانون فى البرهنة على أن الذاكرة لا تنطبع فى المخ ، لأن الألفاظ إذا كانت قد حفرت فى المخ فلماذا تختفى أسماء الأعلام دون الأفعال . أما الأفعال فإنها تدل على العمل ، وأن العمل يمكن محاكاته فيكتسب عن هذا الطريق ، وبذلك تدخل الأفعال فى

الأعمال الآلية ، وأن الصفات تكون عملية عن طريق الأفعال التى تحتويها ، أما الأسماء فتحتاج إلى وساطة الصفات ثم الأفعال ، فكلما ابتعدنا عن الأفعال إلى الأسماء ابتعدنا عن الأعمال التى يمكن تقليدها بواسطة الجسم . فهذه هى خلاصة تفسير برجسون لنسيان الأسماء والأفعال .

جملة القول إذا كانت الحياة العقلية تشمل المحسوسات والصور الذهنية والمجردات التى تدل على المحسوسات كالرموز والأرقام والأسماء الشخصية والمعانى الكلية والقوانين العامة ، مثل قانون العرض والطلب فى الاقتصاد وما إلى ذلك فإنها آخر ما تنسى ، ويوضح هذا الخط البيانى نسبة النسيان فى الأسماء والوقائع وفى المعانى الكلية والقوانين العامة .

ومن جملة القوانين التى أوضحتها تجارب علم النفس الخاصة بالتذكر والنسيان ، أن ما يحفظ لأول مرة يغيب فى فى هوة من النسيان تمتد من يوم إلى ثلاثة أيام باختلاف الأفراد ، ثم تذكر بعد ذلك . لنفرض أنك حفظت قصيدة جديدة من الشعر لأول مرة ، ثم أردت استرجاعها بعد يومين فإنك لا تجد إلى تذكرها سبيلا ، وفى اليوم الثالث تذكرها . وتسمى هذه المدة هوة أو فترة النسيان . ولذلك كان من

الخطأ الشديد أن يستذكر الطالب درسه الذى سوف يمتحن فيه ليلة الامتحان . ويبدو أن العقل يعمل لاشعورياً فيربط ما تحصله بجملة ما يحتويه الذهن ويحتاج إلى هذه الفترة حتى يستقر ما يكتسبه .

وقد أجمع المحدثون على أن السبب الأول فى النسيان هو اختلاط الحفظ ، أو تدخل شىء جديد فيما تحفظه أو تدركه . فيعطل أحدهما الآخر . فلو أن تاجراً تقدم إليه شخص اسمه حسن عبد المجيد ، وفى الوقت نفسه آخر اسمه حسين كامل ، وثالث اسمه محمود عبد الواحد ، ثم أراد بعد شهر أن يذكر اسم الأول لنسيه ، أو على الأقل إذا كانت ذاكرته جيدة لقال حسين عبد المجيد بدلا من حسن ، أو حسين عبد الواحد ، فجعل يخلط بينهم . والأغلب أن التداخل يؤدى إلى التوقف والتعطيل . ويلاحظ أن الطالب فى الفصل المدرسى إذا جلس يتحدث مع زميله لم يستطع أن يتذكر درس الأستاذ ، ولذلك ينبغى الهدوء التام ساعة إلقاء الدرس . وإذا استذكر الطالب دروسه فى المنزل بين ضجيج أهل الدار أو أهل الحى وجد صعوبة فى التذكر فيما بعد . وكيف يتسنى للطالب الحفظ على حين يعلو صوت المذياع طول الليل وخاصة فى الأحياء الوطنية ، وهى

أحياء شديدة الازدحام بالسكان ولا يخلو الأمر من وفاة أو زفاف فتقام ليالى المأتم أو الزفاف فى ضجة شديدة ، حتى لقد كثرت الشكوى وأراد بعض أولى الأمر منع استعمال المذياع بسلطة القانون . وأفضل من ذلك أن يقطن المرء فى الضواحى حيث يضمن الهدوء فينصرف إلى عمله العقلى دون أن يعوقه عائق .

وليس من الضرورى أن يكون العائق ساعة الحفظ ، بل قد يكون بعد الحفظ ، وقد يكون مستمراً ، فى صورة الهموم التى تنتاب المرء . وانظر إلى شخص قد توفى ابنه ، أو هو طريح الفراش لا يجد له علاجاً ، أو إلى تاجر قد تراكمت عليه الديون ، تجده شارد الذهن ينسى كل شىء حتى الأعمال الآلية فإذا به يغفل عن طعامه. فالهموم من المعوقات التى تتدخل فى المحفوظات الذهنية فتعطلها .

ويسمى هذا التدخل فى الحفظ بالاصطلاح العلمى « المانع المعاكس » Retroactive inhibition

فإذا شاء أحدنا أن يذكر شيئاً ولاينساه فعليه أن يحفظه وحده . وأن ينقطع له ، ولا يسمح لشىء آخر أن يعوق ما يحفظه.

أما العامل الثانى فى الذكر والنسيان فهو الراحة الجسمية أو التعب والإجهاد . وقد أثبتت التجارب أن التذكر يكون

أفضل بعد « النوم » . ولذلك نصحوا بأن ينام المرء بعد الحفظ حتى يثبت ما يحفظه . ويلجأ بعض الطلبة إلى السهر طول ليلة الامتحان فإذا به لا يستطيع أن يتذكر ما حفظه ، مع أنه لو نام نوماً كافياً ما نسى . ويبدو أن المعلومات تستقر فى الذهن لاشعورياً ، وأن العقل يعمل فى اللاشعور ، بدليل أن الذى يفكر فى مسألة هندسية مثلا يجد حلها فجأة دون أن يفكر فيها بوعى . وفى حالات الجولان النومى Somnambulisme ينهض الشخص من فراشه ويجلس إلى مكتبه يعمل ويؤلف ثم يعود إلى فراشه ثانياً ، حتى إذا استيقظ لم يذكر مما فعله شيئاً . وليس هذا غريباً لأن بعض الناس يتكلمون وهم نيام ، فإذا سئلوا بعد اليقظة أنكروا أنهم كانوا يتكلمون . واعتماداً على هذه الحقيقة ، نعنى وجود المعلومات فى اللاشعور وصعوبة تذكرها فى حالة اليقظة ، يلجأ علماء النفس إلى التنويم المغناطيسى إذا أرادوا معرفة بعض الحوادث التى نسيها المريض. هذا ويعلل بعض معرفة العلماء تذكر المرء الماضى فى حالة التنويم المغناطيسى بأنه يكون منقطعاً انقطاعاً تاماً إلى هذا التذكر ، لا يشغله شىء آخر ، فضلا عن ارتياحه . وليس من الضرورى أن يلجأ العالم النفسانى إلى التنويم المغناطيسى فى استحضار الذكريات الماضية ، إذ يكفى

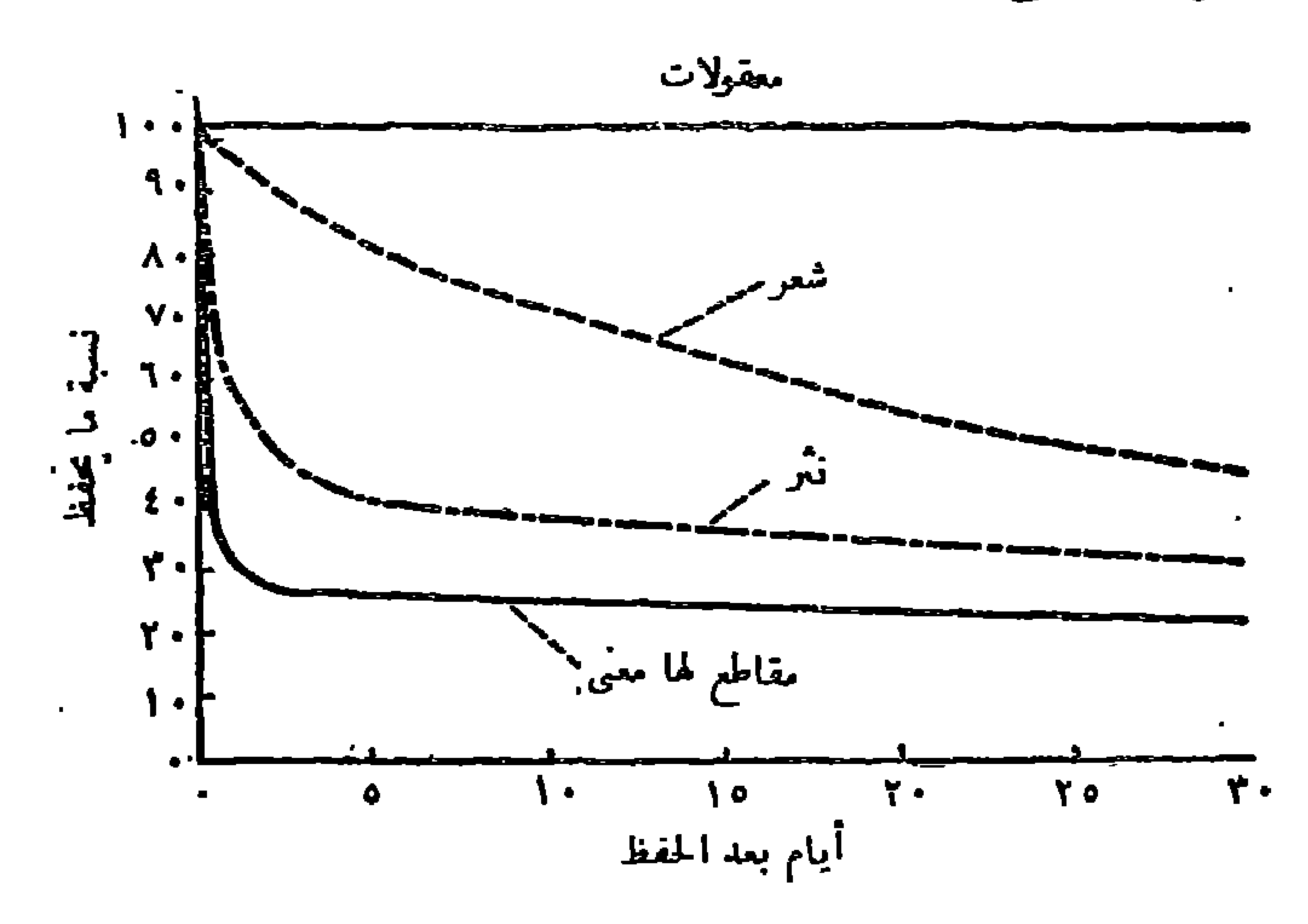
أن يُجلس المريض جلسة مريحة فى مكان هادىء وأن يدعه يتكلم بطريقة « التداعى الحر » . وكثيراً ما يتوقف المريض لأن فى قرارة نفسه أموراً لا يريد إظهارها ، أو يرغب فى كبتها ونسيانها . وبذلك نرجع إلى القاعدة الأولى فى النسيان ، وهى وجود الموانع الحائلة دون التذكر .

وقد فطن القدماء بالتجربة الشخصية إلى ما فطن إليه العلماء المحدثون بالتجارب العلمية ، فهذا أبو تمام يوصى البحترى فى صدر وصيته بالقاعدتين اللتين ذكرناهما وهما الابتعاد عن الشواغل والنوم للراحة . وهذه هى الوصية بألفاظها كما رواها البحترى قال : « كنت فى حداثتى أروم الشعر ، وكنت أرجع فيه إلى طبعى ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه حتى قصدت أبا تمام ، وانقطعت فيه إليه ، واتكلت فى تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لى : يا أبا عبادة ، تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفو من الغموم . واعلم أن العادة جرت فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه وقت السحر ، وذلك أن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحه وقسطها من النوم . . . »

ووصية أبى تمام وصية خبير بالحفظ والرواية عليم بأسباب النسيان ، وكان فيما يقال جيد الذاكرة يحفظ الشعر

إذا سمعه مرة واحدة . فقد اتصل البحترى بأبى تمام وسعى إليه فى حمص فأنشده قصيدة حفظها أبو تمام لأول مرة ، ادعاها ليكدر على البحترى خاطره أو ليعاقبه على تقحمه عليه مواطن الإنشاد ، ثم عاد فأفهمه أنه يداعبه .

ويتضح من ذلك أن حفظ الشعر أيسر من حفظ النثر ، وليس يعلو عليه إلا حفظ المعقولات التى يدركها الإنسان ببصيرة العقل لا عن محاولة وتعثر أو تقليد ومحاكاة . وهذا هو خط النسيان الذى رسمه جلفورد Guilford أحد علماء النفس يبين فيه نسبة نسيان المعقولات والشعر والنثر والمقاطع التى لا معنى لها .



أمراض التعرف

كنت أركب ترام المترو عائداً إلى مصر الجديدة ذات يوم ، وجلس فى المعقد أمامى شخص لم أتمالك من تحيته ، لأنه فضلا عن زمالته فى المدرسة الثانوية فهو صديقى ، وهو يعمل محامياً مشهوراً. ولم يرد هذا الشخص التحية بأحسن منها أو بمثلها ، ولكنه ردها رد متجاهل كأنه لا يعرفنى . فعجبت وتأملته طويلا ، إنه هو هو هيئة وقواماً وشارباً ، فقلت فى نفسى لعله شخص قريب الشبه منه ، ولكنى كلما نظرت إليه لم أجد بداً من الجزم بأنه صديقى الذى أعرفه ، وأنكرت إنكاره معرفتى ، وأردت التأكد من هذه المسألة فقلت له له : ألست فلاناً ؟ فأجاب كلا ، فقلت له : ألست محامياً ؟ فأجاب إنه موظف بإحدى الوزارات .

وكثيراً ما يحدث من الخطأ فى التعرف حوادث غير غير محمودة ، فهناك أشخاص ترتفع بينهم الكلفة إلى حد التبسط فإذا التقى أحدهم بصاحبه احتضنه وقبله ، أو إلى حد الهذر فيضربه أو يشتمه مثلا . فانظر حرج الموقف حين يفاجأ شخص بمن يلكمه أو يزغده . وروى لى صديق

هذه النادرة العجيبة قال : كنت أسهر مع بعض أصدقائى فى مقهى حتى منتصف الليل ، ولأمر ما أخرجت مفتاح منزلى فأخذه منى أحدهم ونسيت أن أسترده منه ، ثم انصرفنا ، وتحسست المفتاح فلم أجده فعرفت أنه مع صاحبى الذى انصرف وكان أعزب زرت منزله مرة واحدة قبل ذلك بعام ، فرجعت مع صاحبى ناحية ذلك المنزل ، ولكننا دخلنا المنزل المجاور الذى كان يشبهه ، وصعدنا الدور الثالث ونقرنا على الباب ، فخرجت لنا خادمة صغيرة ، فقلنا لها : « هل سيدك محمد أفندى موجود ؟ » فقالت : « نعم تفضلوا » فدخلنا إلى صالة صغيرة فيها مائدة عليها طعام ، ولم تكن بيننا وبين صديقنا كلفة ، ورأينا على المائدة طبقاً فأكلنا من الطعام الذى فيه ، ولما غاب صديقنا عن الحضور صحنا به وهممنا أن ندخل عليه حجرة النوم ، وإذا بشخص آخر يخرج وزوجته تنادى به من الداخل أن يرى رأيه فى هؤلاء الأصدقاء الذين يطرقون بابه بعد منتصف الليل . وأصر الرجل أن يصحبنا إلى قسم البوليس للتهجم عليه .

وقد تدخل بيتاً فتحس كأنك تعرف هذا البيت وتعرف حجراته وتعرف أثاثه ، وهذا هو « التذكر العكسى » Paramnesia ، وينشأ فى الغالب من « التشابه » بين المكان

الذى تعرفه وبين المكان الذى تراه ، وينشأ عن ذلك الشعور « بالألفة » .

والتعرف مكمل للتذكر ولا يعده العلماء مرحلة أساسية منه ، إذا كانت مراحل الذاكرة خمس ، الحفظ والوعى والاسترجاع ثم التعرف والتحديد . ولنضرب مثلا يبين هذه هذه المراحل . طالب فى المدارس الابتدائية يعلمه المدرس أن دمشق عاصمة سوريا ، فيحفظ الطالب هذه الحقيقة ، وتستقر فى ذهنه وتظل باقية فى صفحة عقله دون أن ينساها ، وهذا هو الوعى . وعند الامتحان يجيب عن السؤال الآتى : ما عاصمة سوريا ؟ إنها دمشق ، وهذا هو الاسترجاع . أما إذا جاء السؤال على النحو الآتى : هل عاصمة سوريا بغداد أو دمشق أو بيروت ، فأجاب إنها دمشق ، فهذا تعرف ، لأنه لا يسترجع اللفظ بل يتعرف عليه . أما التحديد فهو وضع ما تتذكره فى المكان أو الزمان ، والتحديد مكمل أيضاً للذاكرة .

وقد تعقد بعض الامتحانات المدرسية على أساس التعرف لا الاسترجاع كما بينا فى السؤال السابق ، تسهيلا للطلبة .

وأساس التعرف الحفظ السابق ، لأنك تستعرض ذكرياتك وتطبقها على هذا الشىء الذى تراه أو تسمعه . فإذا حدث خطأ فى التعرف كالأمثلة التى ضربناها ، فعلة

ذلك ترجع إلى أمور كثيرة ، إما من الحفظ ، وإما من عوامل أخرى سوف نذكرها . وقبل بيان هذه العوامل يجدر تمييز أنواع التعرف ، وهى ترتد إلى نوعين أساسيين ، تعرف الألفة ، وتعرف الحكم ، فالأول تعرف وجدانى ، والثانى عقلى .

ومن المشاهد أن الإنسان، والحيوان كذلك ، يحس بإزاء الأشياء التى تحيطه فى البيئة التى يوجد فيها بأحد شعورين إما ائتلاف وإما نفور وغرابة . وكثيراً ما يكون هذا الشعور غامضاً لا يستبين فيه المرء أى ذكرى قديمة واضحة ، ويحدث ذلك عندما نسير فى الشوارع التى ألفناها والأماكن التى تعودنا الاختلاف إليها . ومعظم الحيوانات تجد لذه فى تمضية الوقت فى الأماكن المألوفة لها ، ومرجع ذلك إلى شعورها « بالأمن » وابتعادها عن الخطر الذى تريد أن تتجنبه . والحق أن الخوف من أهم العوامل فى النسيان ، كما أنه من العوامل التى تبعث على الابتعاد عن الأشياء وتجنبها . ونسيانها أحد مظاهر الابتعاد عنها . وإذا لاحظنا الطفل الصغير الذى يبلغ من العمر ثلاثة أشهر أو أربعة نجد أنه يتميز بهذا الشعور ، شعور الألفة الذى يجلب له الأمن والاطمئنان ، ولذلك يقبل على أمه أو أبيه أو خادمته ، ويشيح بوجهه عن

الغرباء ويفزع منهم . وليس ذلك تعرفاً عن حكم عقلى ، بل عن الصلة الآلية التى تشبه الأفعال الشرطية . ومن الألعاب التى يسر لها الأطفال كثيراً لعبة « الاختفاء » حين تخبئ منه لعبته أو تخفى عنه الشخص الذى يحبه ، فيبحث عنه ويسر عند عودته ، وتنبسط له أسارير وجهه .

ومن الأمور التى تعد فى باب العجائب تعرف الكلاب على أصحابها بحاسة الشم . وتستطيع الكلاب البوليسية أن تتعرف على المجرمين إذا شمت آثار الجريمة. وهناك أبحاث قانونية كثيرة فى هذا الموضوع ، ولكن جمهرة المحاكم لا تأخذ بهذا الدليل ، ولا تجعله قاطعاً إذ قد يخطئ الكلب فى تعرفه . وإنما يستطيع الكلب أن يتعرف لأنه يحتفظ فى ذهنه بالصورة الشمية ويطبقها على الشخص الذى يجد فيه هذه الرائحة نفسها . ولكننا لا نملك القول بأن الكلب يميز الماضى ويعرفه ويطبق الموجود فى الحاضر على المحفوظ فى الماضى ، لأن هذه العملية هى تعرف الحكم الذى يختص الإنسان به .

فالشعور بالألفة شعور عام لا يغوص فيه صاحبه مع الماضى ، وهو يوازى الذاكرة الآلية ، أو ذاكرة العادة ، ويتصل أغلب الأمر بالأشياء والأماكن لا بالمعانى والألفاظ. وقد قيل إن التعرف على الأشياء هو التعامل وإياها ، وهذه

نظرية السلوكيين فى علم النفس . فإذا نظرتَ إلى فنجان عرفتَ أنه صالح أن يشرب فيه، وإلى قلم أن يكتب به، وهكذا .

أما تعرف الحكم فيحتاج إلى نظر فى الماضى ، على حين يستعرض تعرف الألفة الماضى . فنحن فى حياتنا اليومية نتعامل مع أشياء كثيرة يكفى أن ننظر إليها حتى نقبل عليها أو ندبر عنها دون الرجوع إلى الصور الذهنية الماضية عنها . روى عن مرضى يعرفون كيف يصفون الأشياء إذا ذكرت أسماؤها ولا يتعرفون عليها إذا شاهدوها . وروى عن شخص أصبح يجهل الاتجاه فى شوارع بلدته التى نشأ فيها ، ومع ذلك فهو يعرف أن هذه الطرق شوارع وأن الأبنية الموجودة على جوانبها بيوت للسكنى . وأصبح لا يعرف زوجته وأولاده، ولكنه مع ذلك يعرف أن هذه امرأة وهؤلاء أطفال . من أجل ذلك أنكر برجسون بعد رواية هذه الأمثلة أنها تدل على « عمى نفسانى » أو على فقدان الذاكرة ، ولكنها دليل فقط على نوع من أنواع أمراض التعرف يرجع إلى اختلال العادة الآلية . ذلك أن الإنسان يتعرف على المدينة بأن يسير فى طرقاتها مرة بعد أخرى ، ثم يصبح سيره فى شوارعها آلياً ، ومن هنا ينشأ الشعور بالألفة .

وانظر إلى الأحوال التي نضطر فيها إلى الحكم عند التعرف ، أى استحضار الماضى وتطبيقه على الحاضر . عندما تضبط مسروقات أو يعثر رجل البوليس على طفل ضل الطريق ، ويذهب أصحاب المسروقات أو أهل الطفل للتعرف على هذه المسروقات أو هذا الطفل ، يرجع المرء إلى الذاكرة ، وبخاصة لأن رجال البوليس لا يكتفون بمجرد التعرف ، بل يطالبون بذكر علامات مميزة .

كانت إحدى الفتيات تلعب فى حديقة عامة مع إخوتها فوقعت منها ساعة يد ، وعثر عليها أحد الصبية ممن كانوا يلعبون فى الحديقة ، ولم يكن يعرف صاحبتها ، ولكنه ظن أنها تكون لإحدى هذه الفتيات ، فذهب إلى منزلهن يعرض الساعة ، ولم تكن صاحبتها موجودة فى ذلك الوقت بل أختها الصغيرة التى تبلغ العاشرة من عمرها ، فلما سألها عن الساعة وعرضها عليها قالت إنها ليست ساعة أختها لأن ساعتها مربعة وهذه مستديرة ، لولا أن سمعت أمهن الحديث فتدخلت فى الأمر وعرفت الساعة . أما السبب الذى من أجله أخطأت الأخت الصغيرة فى التعرف على الساعة ، فهو أنها كانت تطمع أن يكون لها واحدة مثل أختها ، فهى تنفس عليها وتحسدها وتود ألا يكون لها ساعة حتى تحرم منها كما أنها محرومة كذلك .

فهذا نسيان يرجع إلى تخيل صورة تخالف الصورة القديمة .

ويعلل برجسون أمراض التعرف بأمرين : الأول نسيان الصور الذهنية الماضية ، والثانى انحلال الرابطة التى تربط بين تلك الصور وبين غيرها . والواقع أن الذكريات الماضية لا تكون مفردة منعزلة بل يرتبط بعضها ببعضها الآخر ، إلى حد أن الفكرة التى تتكون عندنا عن شىء من الأشياء تتم شيئاً فشيئاً بعد إضافة صور عدة عن الشىء الواحد . فأنت تعرف زيداً من الناس لأنك رأيته فى أوضاع مختلفة وفى هيئات عدة ، فهو مرة جالس وأخرى قائم ، وتارة لابس وتارة غير لابس ، وفى حين باسم وفى حين آخر عابس ، ومع اختلاف هذه الهيئات كلها تعرفه وتميزه دون غيره . فأنت حين تتذكره ، أو حين تتعرف عليه ، لا تستحضر فى ذهنك صورة ماضية عنه بالذات . وكذلك الحال حين تنظر إلى شجرة فتقول هذه شجرة وحين تنظر إلى قطة فتقول هذه قطة وليست كلباً . وليس معنى ذلك أنك تستحضر فى ذهنك صورة قطة معينة بالذات أو صورة شجرة بالذات .

والذى يعين الإنسان على إدراك هذه المعانى الكلية أنه يخلع عليها ألفاظاً تتركز فيها ، على خلاف الحيوان غير الناطق.

واللفظة وعاء أو لباس للمعنى ، ولها شخصية مستمدة من شخصية الأشياء التي تدل عليها . ولكن الألفاظ أصوات ليست مادية كهذه الشجرة أو هذه القطة أو هذا الكلب . ومع ذلك فقد ظن قوم أن الألفاظ المنطوقة مادية ، وأنها تحضر في صفحة الذهن كما تسجل الأصوات على صفحة الأسطوانة ثم تسمع بعد ذلك في الجراموفون . وهذا تشبيه قديم ساد في أواخر القرن التاسع عشر ، ولكن برجسون وغيره اعترضوا عليه اعتراضات كثيرة ، فقالوا: إن كانت الألفاظ مسجلة على هذا النحو فلماذا تسقط لفظة واحدة من بين العبارة المحفوظة ، ولماذا تنسى لحظة ثم تظهر لحظة أخرى .

وكما يتعرف الإنسان على الأشياء المحسوسة وعلى الأماكن التي تحيطه في البيئة التي يوجد فيها ، كذلك يتعرف على الألفاظ والمعاني التي تعرض عليه . كنت في مجلس وجاء ذكر هذه الآية على سبيل الاستشهاد «وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه» فقلت هذا حديث شريف ، فقال صاحبي بل إنه آية قرآنية ، وأصر على رأيه ، وأصررت على رأيي . فلما عدت إلى منزلي راجعت المسألة فاتضح لي فساد تعرفي ، ووجدت أنه آية وليس حديثاً . وأخذت أحلل نفسي كيف

وقعت فى هذا النسيان ، فرأيت أنه يرجع إلى تخليط فى الحكم بين خصائص الأسلوب القرآنى وأسلوب الحديث النبوي . ومعظم أخطاء التعرف ناشئة من الخطأ فى الحكم مع ضعف الحفظ .

ولا ريب فى أن سوء الاكتساب وضعف الحفظ أول أسباب الخطأ فى التعرف . مثال ذلك أنى أذهب بين حين وآخر إلى الريف ، والتفت إلى هذه البيئة الجديدة فأرى فيها مجارى للمياه يسمون بعضها ترعاً وبعضها الآخر مصارف . فالترعة مجرى من الماء العذب الذي يستمد أصله من النيل وهى التى تروى الأرض . والمصرف مجرى من الماء يتسرب إليه الماء من الأرض بعد ريها ، وكلاهما مجرى من الماء . وقد يكون أحدهما مجاوراً للآخر ، كل ما فى الأمر أن المصرف أعمق من الترعة ، وأن جانب المصرف يبدو عليه بياض من آثار الملح . ومع ذلك فإنى لا أزال أخلط بينهما على حين أن الفلاح يتعرف عليهما بكل بساطة . فهذا الخطأ ناشئ عن ضعف العلم بحقيقة الترعة والمصرف . ويشبه موقفى من شئون الريف على وجه العموم موقف خادمة من الريف طلبت منها أن تحضر الكتاب الموضوع على المكتب فأحضرت بدلا منه كراسة . الحق ليس التمييز بين الترعة

والمصرف أمراً عسيراً يصعب اكتسابه ، ولكن المسألة ترجع إلى الميل والاهتمام أو إلى ما يذكره برجسون وهو "الانتباه" ، وعنده أن الاسترجاع ، وكذلك التعرف دورة تبدأ من الانتباه ثم الإدراك ثم التصور ثم الحفظ ثم الاسترجاع ثم التعرف .

وعقد ريبو فى كتابه «أمراض الذاكرة»[1] فصلا عن التعرف والتحديد . وهو يتوسع فى معنى التعرف ويجعله يشمل التحديد فى الزمان ، أي أن هذه الحادثة مثلا وقعت لنا فى وقت معين وفى مكان معين . والسبيل إلى ذلك أن العقل يتخذ من بعض الحوادث «نقط ارتكاز» ، يحدد الحوادث الأخرى بالنسبة لها . وهذا ما يفعله أولئك الذين يحفظون التاريخ ، بل التاريخ نفسه يعتمد على نقطة ارتكاز ، مثل التاريخ الميلادى يبدأ من ميلاد المسيح ، والهجرى من هجرة الرسول . ويتخذ العامة من بعض الحوادث المشهورة بدءاً للتاريخ ، مثل حرب عرابى ، أو الثورة المصرية وهكذا . وهذا ما يفعله كل فرد منا بالنسبة لحوادثه الخاصة ، فهو يتخذ من وفاة أبيه أو زواجه أو بدء عمله نقط ارتكاز تكون أشبه بالدعائم التى تقوم القنطرة عليها ، وترتبط بها سائر الحوادث الأخرى .

---

(١) انظر كتابه ص ٣٢ وما بعدها

هذه النقط هى التى تسهل عملية التحديد فى الزمان . ومن الواضح أن هذه الحوادث التى نطلق عليها اسم نقط الارتكاز تكون أبعد عن النسيان ، لأنها تصبح آلية لكثرة التكرار والاستعمال . أما الحوادث الأخرى المرتبطة بها فإنها تكون عرضة للنسيان وبخاصة كلما ضعفت الصلة بها .

وهنا يوحد ريبو بين التحديد والتعرف ، ويذهب إلى أن التعرف ناشئ عن غموض التحديد . فأنت تقول إذا رأيت وجه شخص: « يبدو أنى رأيت هذا الوجه من قبل ؟ » . ثم تبحث عن الزمان الذى رأيته فيه ، والمكان الذى التقيت به ، فتعجز عن ذلك . فصعوبة التعرف راجعة إلى العجز فى التحديد .

وذكر ريبو من أسباب هذا العجز المرض والشيخوخة ، وضرب مثلا بمشاهير من الرجال لم يتعرفوا على أعمالهم الشخصية . فهذا لينيه Linné كان يلهو فى أواخر حياته بقراءة تآليفه ، حتى إذا استغرق فى قراءتها ، نسى أنه مؤلفها وصاح « ما أبدع هذا ! ليتنى كنت الكاتب » . ولما طعن والتر سكوت فى السن أصبح عرضة لهذا الضرب من النسيان ، فقد أنشدوا له ذات مرة إحدى قصائده فأعجبته وسأل عن ناظمها ، وكانت إحدى مقطوعات قصيدته « القرصان » . وتروى سكرتيرته بلانتين

Ballantyne التى لزمته وكتبت سيرة حياته ، كيف أملى عليها قصة إيفانهو Ivanhoe وهو مريض طريح الفراش ، ثم طبع الكتاب قبل أن يبرح سكوت السرير ، ولم يذكر من القصة شيئاً اللهم إلا فكرتها التى نبتت فى ذهنه قبل المرض .

ويروى أن الشاعر روجرز عندما بلغ التسعين من العمر كان يتنزه فى عربة مع سيدة سألته عن سيدة أخرى لم يستطع أن يتذكرها . فأوقف العربة ونادى على الخادم وقال له : هل أعرف السيدة فلانة ؟ فأجاب الخادم بالإيجاب . ومرت عليهما لحظة مؤلمة ، ثم أخذ يدها بين يديه وقال لها : لا تقلقى يا عزيزتى ، لم أصل بعد إلى الحد الذى أوقف فيه العربة لأسأل هل أعرفك أو لا .

وعندما نحس بالعجز عن التعرف ، كأن نقابل شخصاً وننسى وجهه أو اسمه ، نعود بالذاكرة إلى الوراء نفتش أين رأيناه أول مرة ، فنحدد مكانه وزمانه ، ونربط بينه وبين غيره ممن نعرف . وفى ذلك يقول وليم جيمس: « كلما برزت لنا تجربة مجردة عن موضعها فى الزمان يصعب علينا ألا نعتقد أنها من اختراع الخيال . ولكنها تصبح قطعة من الذاكرة وتتحدد الذكرى شيئاً فشيئاً كلما أحاطت بها

روابطها الماضية ، وكلما أصبحت هذه الروابط أكثر تميزاً . دخلت يوماً عند أحد الأصدقاء ورأيت صورة زيتية معلقة على حائط حجرته ، فأحسست أول الأمر إحساساً غريباً : لا ريب أنني رأيت هذه الصورة من قبل فى مكان آخر ، ولكن أين ؟ وكيف ؟ لم أستطع قولا . وظل هذا الإحساس بأنني رأيتها من قبل يطوف بالصورة إلى أن صحت فجأة : لقد وجدتها ! إنها نسخة من رسم أنجليكو بأكاديمية فلورنسا . نعم لقد رأيتها هناك . لقد وجب أن أحيى فى ذهنى خيال أكاديمية فلورنسا كى أتحقق من صدق الذكرى للصورة » .

فهذه هى الطريقة لتدارك نسيان التعرف : أن تسعى لوصل ما تراه بما سبق أن رأيته من قبل .

نسيان الطفولة ونسيان الأحلام

من أغرب الظواهر الخاصة بالنسيان اختفاء الأحداث التي وقعت في الطفولة المبكرة، ونسيان الأحلام التي تمر بنا في النوم .

وليس من الممكن إجراء تجارب معملية ، أي في معامل علم النفس ، كما فعل العلماء في الحفظ ومعرفة طرقه ، ولذلك نلجأ إلى « التأمل الباطني » أي أن ينظر الإنسان في باطن نفسه ليذكر ما يشاهده فيها . وهذه إحدى الحالات التي نضطر فيها إلى الالتجاء إلى منهج التأمل الباطني أو الاستبطان . ويستطيع كل من يقرأ هذا الكتاب أن يفعل ذلك في نفسه، فيتأمل ذاته ويعود مع الماضي إلى الوراء يبحث عن أول ذكرى يستطيع أن يسترجعها في طفولته .

أما أنا فأقدم الذكريات التي وقعت لي هي حفلة زفاف عمي ، وكنت في ذلك الحين في الثالثة من العمر تقريباً . ولست أذكر أحداث ذلك اليوم بوضوح ، وإنما هي لمحات تضيء بعض تلك الحوادث ، ومنها أني لبست "بدلة" جديدة . لست أدري أكانت أول بدلة لبستها أم لبست قبل ذلك غيرها .

ولا أذكر لونها أو هيئتها . ثم أذكر زحمة شديدة وكأنى كالضائع وسط ذلك الزحام . ثم أذكر عربة مذهبة تجرها عدة جياد ، وكانت تسمى عربة « زينب هانم » ، هى التى تركب فيها العروس وأذكر أنها كانت واقفة فى شارع قريب منا . وفى الليل أتذكر صورة غامضة عن أضواء وموسيقى وأشخاص كثيرين وموائد للطعام ، وأنى بكيت ولا أعرف لماذا .

لعلك تلاحظ معى انقطاع الصلة بين تلك الصور الماضية ، بحيث لا تكون سلسلة مرتبطة ، وتلاحظ كذلك غموض تلك الصور ، وتلاحظ ثالثاً أن الصفة العاطفية هى الغالبة ، عواطف فرح وحزن ودهشة .

وهناك حوادث أخرى بعد الثالثة من عمرى لا أزال أذكر بعضها فى غموض كذلك ، مثل ذهابى إلى كتاب صغير قبل التحاقى بالمدرسة ، حيث تعلمت فى ذلك الكتاب القرآن حتى سورة « عم يتساءلون » ، وكنت أحمل لوحاً من الإردواز . وحادثة أخرى لا أذكر إلا شيئاً يسيراً منها ، هى موت أخ لى كان كان اسمه محموداً ، مات محروقاً وهو يعبث بعيدان الثقاب ، ولكنى لا أتذكر من صلتى بهذا الأخ إلا صورة واحدة وهى أننا نلعب بعد الظهر فى فناء البيت .

ويهمنى أن أذكر من ذلك الماضى البعيد شيئاً كنت أسميه

« الكابوس » ولا أعلم فى أى سن كانت تلك الذكرى ، فهى تدور حول الثالثة أو الرابعة . فى البيت الذى كنا نقطنه ، وهو بيت واسع فيه فناء ، كنا نشغل الدور الثانى منه ، ونتناول الطعام وننفق معظم الوقت فى حجرتين بين الدور الأول والثانى . ولم يكن نور الكهرباء قد عم البيوت بعد ، فالإضاءة بمصابيح الغاز . وحين يقبل المساء ، نتناول العشاء فى تلك الحجرتين ثم يطلبون منى أن أصعد للنوم ويبقون هم ، فاعتذرت مرة عن الانصراف والصعود إلى أعلى واجتياز سلم البيت ، حتى لا أرى « الكابوس » كما كنت أسميه ، وهو عبارة عن أشباح تتراءى على الحيطان تخيفنى .

أشباح وخوف ، هذا ما أذكره .

وهنا نجد تقارباً بين نسيان الطفولة ونسيان الأحلام ، لأن الأحلام أشباح تتراءى ، والأغلب أنها تصبغ بصبغة انفعالية أهمها الخوف ، فالعلة فى نسيان أحداث الطفولة تشبه العلة فى نسيان الأحلام . هذه العلة هى اقتراب الصور من « الحقيقة » أو ابتعادها عنها ، فى الطفولة وبخاصة المبكرة تختلط الحقائق بالخيالات حتى لقد يعيش الطفل فى عالم من الخيال والأشباح ، وفى النوم يرى النائم فى أحلامه أضغاثا من الرؤى يخيل إليه أنها حقائق . أى أن حقائق الطفل خيالات ،

وخيالات الحالم حقائق ، ولا يستبقى الإنسان إلا الحقائق التى تثبت أنها كذلك ، وهو لذلك ينسى أحداث الطفولة لأنه كان يضفى على الحقيقة من خياله ما يجعلها أدنى إلى الأشباح ، وينسى الأحلام لأن عقله الواعى يعلم أنها أضغاث وأباطيل .

هذه إحدى النظريات فى نسيان أحداث الطفولة ونسيان الأحلام، وسوف نعود إلى تفصيلها بعد قليل .

وهناك نظريتان أخريتان إحداهما نظرية فرويد الذى يذهب إلى أن نسيان أحداث الطفولة نتيجة « الكبت » ، وكذلك الحال فى الأحلام . والثانية نظرية جمهرة من علماء النفس ومنهم « بيرون » وهى أن نسيان أحداث الطفولة المبكرة يرجع فيما يبدو إلى سبب عضوى ، هو قصور نمو المخ . ولكن هذه العلة إذا صحت بالنسبة للطفولة فهى لا تعلل نسيان الأحلام . هذا فضلا عن اختلاف الأفراد فى نسيانهم اختلافاً كبيراً ، فبعض الناس يذكر أشياء وقعت له وهو فى الشهر السادس ، والبعض الآخر لا يذكر شيئاً قبل سن الثامنة من العمر .

فى تجارب فكتور هنرى وزوجته والتى أجرياها على ١٢٣ طالباً من المراهقين كانت النتيجة كما يأتى :

السن	٦ شهور	٨	١ سنة	١½	٢	٢½	٣	٣½	٤	٥	٧	٨
العدد	١	٢	٤	٩	٢٣	٢٠	١٩	١٤	١٢	٦	٢	١

أما بلونسكى Blonsky فقد أجرى تجربتين الأولى على ١٩٠ من الطلبة البالغين الروس ، وتراوحت الذكرى بين سنة وثمانى سنوات . والأخرى على ٨٣ طالباً تتراوح سنهم بين ١١ ، ١٢ عاماً ، فكانت النتيجة بين سنة وست سنوات . ويرى بلونسكى أن متوسط السن التى يتذكر فيها المرء أحداث الطفولة هى الثالثة .

وأجرى برت Burtt تجربة على ابنه البالغ من العمر ثمانى سنوات ، إذ جعله يحفظ نصوصاً من اللغة الإغريقية ، كان يقرأ عليه بعضها يومياً لمدة ثلاثة شهور ، حين كان عمره بين خمسة عشر شهراً وثلاث سنوات ، فرأى أن النصوص التى كان قد سمعها وهو طفل أسهل فى حفظها عن الأخرى ، مما يدل على وجود أثر تلك المحفوظات فى تلك السن الصغيرة الغضة .

وقد فطن علماء النفس منذ القرن الماضى إلى احتفاظ الطفل بالآثار التى تقع تحت حواسه ، وإلى ظهورها تحت ظروف خاصة ، ومنها ظاهرة اللغات التى يكون الشخص قد سمعها فى طفولته . مثال ذلك ما رواه ريبو نقلا عن الدكتور

دوڤال من أن حطاباً عجوزاً كان يعيش فى صباه على حدود بولندا ، ولم يكن يتكلم إلا اللغة البولندية . ثم انتقل بعد ذلك إلى المنطقة الألمانية وعاش فيها . وأكد أولاده أنه لم يتكلم اللغة البولندية منذ أربعين سنة ، وما سمعوا منه كلمة واحدة بولندية . وأجريت له عملية جراحية وظل مخدراً ساعتين كان يتكلم فى خلالهما ويصلى ويغنى باللغة البولندية فقط .

ومن العوامل التى تنفض الغبار عن ذكريات الطفولة التخدير بالكلوروفورم أو أنواع المخدرات الأخرى . ومن العقاقير الحديثة التى تستعمل فى ارتياد اللاشعور عقار يسمى سكوبوكلورالوز Scopochloralose وقد لاحظ الأطباء ظهور ذكريات قديمة عندما يقع المريض تحت تأثير المخدر فتبدر منه أشياء تعد من العجائب . من ذلك أن امرأة أخذت وهى تهذى تحت تأثير المخدر تُسَمِّع نصا من لغة أجنبية لا تفهم معناه كانت قد سمعته وهى طفلة دون أن تبذل أى جهد فى حفظه .

وكثيراً ما يلجأ علماء النفس إلى التنويم المغناطيسى لمعرفة الأحداث الماضية التى وقعت للمريض أثناء الطفولة ونسيها . وكان العلماء قد عدلوا عن التنويم المغناطيسى إلى طريقة « التداعى الحر » و « التداعى المقيد » وذلك بأن يستلقى

المريض في استرخاء ويأخذ في سرد أفكاره . إلا أن بعض المرضى يأبون أن يتذكروا ويقاومون ظهور كوامن أنفسهم ، ولذلك عاد العلماء منذ الحرب الأخيرة إلى استعمال التنويم المغناطيسي. مثال ذلك أن امرأة أصيبت بداء الوسوسة وكلما غسلت يديها بالماء خيل إليها أنه دم ، وظلت على هذه الحال ثلاث سنوات ، فاستشارت أحد الأطباء النفسانيين فتذكرت وهي تحت تأثير النوم المغناطيسي أنها حين كانت في الخامسة من العمر شاركت في ذبح دجاجة فتلوثت يداها بالدماء فغسلتهما . ولكن هذا المنظر أثر في نفسها أثراً شديداً في ذلك ذلك الحين ، ونسيته مع الوقت ، إلى أن عاد إلى الظهور لاشعوريا وهي امرأة .

أما فرويد وأصحاب مدرسة التحليل النفساني فإنهم يذهبون إلى أن كل ما يقع تحت حواس الطفل منذ أن يولد يظل باقياً في نفسه لا يزول أبداً ، ويحرك صاحبه لاشعورياً في مستقبل حياته . ويُرْجِع فرويد إلى اللذة الجنسية كل سلوك للإنسان. ويزعم أن الوليد يشعر بلذة جنسية من لمس سطح جلده ، وأن بعض المواضع أكثر حساسية من غيرها مثل الفم عند امتصاص الثدي ، والأعضاء التناسلية وعند التبول والتبرز . ولذلك يعلل فرويد إدمان المدخن على وضع « السجارة » في

فمه إلى تلمس تلك اللذة التى كان يحس بها وهو طفل رضيع يمتص ثدى أمه ، أو الثدى الصناعى .

ويهمنا أن نبسط تعليل فرويد لنسيان الطفولة ، فهو فى مذهبه يتكون حول الخامسة من العمر ، عندما يتكون « الرقيب » وهو عبارة عن حاجز من التقاليد والدين والنواهى التى تفرض على الطفل وخاصة فى الحياة الجنسية ، إذ بعد أن كان الطفل حراً لا يعقل الأمور الجنسية ولا يخفيها أهله عنه لقلة إدراكه ، إذا به يؤخذ بالشدة ويؤمر بإخفاء الأعضاء التناسلية ويحرم عليه الحديث عنها ويجد ستاراً حديدياً مضروباً حول هذه المسائل . وبذلك يتعلم أن « يكبت » الخواطر التى تدور حول الأمور الجنسية ، وهنا يبدأ الرقيب أن يتكون ويصبح حاجزاً يخفى وراءه كثيراً من الأشياء يتعود نسيانها مع الزمان ، ويخاف ظهورها ويهرب من النظر إليها بل ومن التفكير فيها . وليس الحياء الذى يصاحب المرء حين يواجه المسائل الجنسية إلا مظهراً من مظاهر الخوف . ولذلك كان ما يخفيه المرء ، ويكبته ، أو ينساه ، هو ما يخاف منه ، وما يكون مصدر ألم له .

ولا تثبت نظرية فرويد للنقد طويلا ، لأن متوسط سن النسيان لأحداث الطفولة هو الثالثة كما اتضح من التجارب

العلمية ، على حين أن الرقيب الذى يحدثنا عنه فرويد لا يظهر إلا بعد الخامسة . ومن جهة أخرى نرى أن كثيراً من ذكريات الطفولة التى لا تزال حية عند أصحابها هى ذكريات تقوم على الخوف أو الألم، مما يناقض نظرية فرويد فى الكبت .

ونحن نميل إلى تأييد النظرية الاجتماعية فى نسيان الطفولة ، وهى نفسها تنطبق على نسيان الأحلام .

وليس من الممكن تطبيق المناهج العلمية الموضوعية على الأحلام كما يفعل العلماء فى ظواهر نفسية كثيرة . لأن الحلم يدور بينه وبين صاحبه ولا يمكن ملاحظته من الخارج ، بل أكثر من ذلك لا يمكن لصاحبه أن يلاحظ نفسه وهو يحلم إلا بعد اليقظة ، فإما أن يتذكر الرؤيا وإما أن ينساها . وذهب بعض العلماء إلى أن كل إنسان يحلم فى نومه ولكنه لا يتذكر . والأغلب أن الحلم سريع النسيان ، ولذلك نصح العلماء الذين يدرسون الأحلام أن يحتفظ المرء بورق وقلم إلى جانب السرير حتى إذا استيقظ عقب الرؤيا دوّنها مباشرة قبل أن تغيب فى مجاهل النسيان . ويقول بعض العلماء إن الأحلام لا تظهر إلا فى الوقت الذى يخف فيه النوم ، أما النائم المستغرق فى نومه فلا يحلم . وهم يعتمدون فى تأييد هذه النظرية على أن الباعث إلى الأحلام هو الإحساسات الظاهرة أو الباطنة ،

ولا يحس المرء إلا إذا كان فى شبه يقظة .

وعند فرويد أن النوم الصحيح ما كان بغير أحلام ، فإذا حلم المرء كان هذا دليلا على أن صاحب الرؤيا لا يزال يتأثر بالمؤثرات الخارجية والداخلية ، غير أن هذه التأثيرات خارجية كانت أم داخلية أى فى صورة رغبات ومخاوف ، تتحول إلى صور عجيبة فى الحلم فلا توقظ النائم ، ولذلك كان الحلم تحقيق رغبة لا يمكن تحقيقها فى الواقع ، وهو لهذا السبب « حارس النوم » .

وتمتاز الأحلام بأمرين : خروجها عن منطق العقل فى تركيب الصور ، وعدم تقيدها بالزمان . وكلا الأمرين لا يتفقان مع الحياة الواقعية التى يعيش فيها الإنسان مع غيره من الناس ، ويضطر إلى تقييد نفسه بترتيب الأحداث ووضعها فى موضعها من الماضى كى يكون مفهوماً من غيره حين يحدثهم عن هذه الأحداث معبراً عنها بالكلام .

فالحياة الواقعية تضطرنا إلى التذكر ، أى وضع الأشياء فى موضعها الصحيح من الزمان . ويضرب الأستاذ بيير جانيه مثلا لاضطرار المرء إلى التذكر بمعسكر لجماعة من البدائيين وضعوا عليه ديدبانا مكلفاً بمراقبة الأعداء ومعرفة حركاتهم ونقلها إلى رئيس القبيلة ، ويضطر الديدبان إلى رواية

ما حدث من ذاكرته بطريقة مفهومة مرتبة ، فهو يجيب عن أسئلة الرئيس واستفهاماته بأن هذا الشخص جاء « قبل » ذاك ، وجرى هذا الشخص « بعد » ذاك ، ووقع هذا الحادث فى الصباح ، وذلك الحادث عند الظهر ، وهكذا . وإذا نسى الديدبان هذه الحوادث ، أو اضطرب فى روايتها ، أدى ذلك إلى وقوع القبيله بأسرها فى الخطر .

ونحن فى الحياة الواقعية مضطرون إلى التعامل مع غيرنا من الناس فى هيئة معقولة من الكلام ، وإلى ترتيب الحوادث ترتيباً صحيحاً فى سجل الزمان . نحن إذن فى حياتنا الواقعية « مقيدون » . ولا تحسبن أن هذا التقييد الذى تفرضه علينا الحياة الاجتماعية يروقنا ، ولذلك « نهرب » منه ، أى نهرب من القيود . ولكن أين المفر ؟ إننا نهرب فى أحلام اليقظة ، وفى الأحلام ، حيث نكون أحراراً لا نتقيد بترتيب الزمان . فالطالب فى أول العام يتصور وهو فى أحلام يقظته أنه نجح فى الامتحان آخر العام ، والتاجر يرى فى أحلامه أنه كسب فى تجارته ، وكلاهما يحقق رغبته بغير جهد ، ويقفز إلى المستقبل كأنه الحاضر دون أن يمر بمراحله . جملة القول لا يراعى الإنسان فى أحلامه ترتيب الزمان ، ولا يحفل به ، فيرى الماضى حاضرا ، ويجعل المستقبل ماضياً ، وهذا كله اختلال

لا ترتضيه الذاكرة ، ولا حاجة بعد ذلك النسيان ، بل ولا حاجة إلى التذكر أصلا ، وهذا هو سر نسيان الأحلام عقب وقوعها .

ومن هذا الوجه يمكن تعليل نسيان الطفولة أيضاً ، لأن الطفل قبل الثالثة من العمر لا يميز الزمان ، فهو لا يعرف الوقت ولا يدرى اليوم من الأمس حتى ليقول ذهبنا « باكر » إلى الحديقة وهو يريد « الأمس » ، ولو سئل عن الوقت أهو ليل أم نهار لم يميز لأنه لا يعرف ، فهو من أجل ذلك لا يستطيع أن يتذكر ، وهذه هى علة نسيان الطفولة ، نعنى عدم إدراك الطفل للزمان .

وقد مر بنا فى ابتداء هذا الكتاب أن الذاكرة نوعان ، آلية ولفظية ، أو حركية ومعقولة ، ويضيف بعض العلماء إلى هذا التقسيم نوعاً ثالثاً هو الذاكرة « الوهمية » ، فإذا كانت الآلية تعتمد على الإحساس والحركة وتعم الإنسان والحيوان ، فإن الذاكر اللفظية « اجتماعية » لأن الألفاظ المنطوقة التى تعبر عن المعانى إنما نشأت لحاجة الإنسان إلى التعامل مع غيره من بنى جنسه ونقل أفكاره إليهم ، أما الذاكرة الوهمية فهى « لا اجتماعية » وهى التى تظهر عند الطفل فى بدء نشأته ، وعند المريض الذى يهذى ، وعند النائم الذى يحلم . ذلك أن

الصور التى تتتابع فى الأحلام والهذيان تبعث مشاهد من الماضى ، ولكن صاحبها لا يراها قطعة من الماضى بل جزءاً من الحاضر ، لأنها بالنسبة له حين يهذى أو يحلم حاضر وواقع . ذلك أن الذاكرة فى الحلم تعيش فيه كأنه هو الحقيقة ، وقد يعتقد الحالم فى حلمه إلى حد يبعثه إلى الحركة فينهض من فراشه ويأتى أعمالا كثيرة كما هى الحال فى « الجولان النومى » .

ويذهب معظم العلماء إلى أن ظهور ذكريات الطفولة لمبكرة نوع من فيض التذكر أو إفراط فى التذكر Hypermnésie كهذه الأمثلة التى ضربناها عن الذين تذكروا لغات أجنبية سمعوها فى الطفولة . ويفسر جان ديلاى هذا الإفراط بأنه تحرير للذاكرة الوهمية التى تحجزها الذاكرة الاجتماعية عادة وما يتصل بالحياة الاجتماعية من انتباه وتقييد وملاءة مع الواقع . فإذا زالت الحواجز الاجتماعية تحطمت الذكرة العقلية وفاضت الصور على هواها ، وكان ذلك علة أمراض الذاكرة .

جملة القول نحن نذكر ما يهمنا كما قلنا من قبل ، وما يهمنا خاضع لمنطق الواقع فى الحياة الاجتماعية ، اللهم إلا إذا عجز المرء عن مسايرة المجتمع ولى منه عنتاً ، فهو يهرب منه ويعيش فى عالم الوهم والخيال ، ويخلق الصور على هواه . وهذه هى حال الطفل ، وحال النائم الحالم .

ومما يلاحظ أن الطفل يمر بالذاكرات الثلاث على التوالى ، فهو يبدأ بالذاكرة الآلية فتنشأ عنده عادات تقوم على ما يتعلمه بطريق المحاولة وحذف الأخطاء وطريق الأفعال الشرطية . ويمر بعد ذلك وهو فى الثانية والثالثة والرابعة بمرحلة الذاكرة الوهمية التى يعيش فيها فى عالم من الخرافة والأوهام ، لا يميز بين الماضى والحاضر ، ولا يفصل بين الخيالى والحقيقى . وهناك بعض الصبيان المتخلفين يقفون عند هذه المرحلة مع بلوغهم سناً كبيرة . حتى إذا بلغ الطفل الخامسة بدأ فى مرحلة جديدة هى مرحلة الذاكرة الاجتماعية ، وهى ذاكرة منطقية مرتبة تنتظم فى سلك الزمان .

وإذ قد وفينا البحث عن النسيان الطبيعى الذى يعم أغلب الناس ، فلنكتف بهذا القدر ولننتقل إلى الحديث عن النسيان الذى يعد فى باب المرض والشذوذ .

النسيان فى الحياة اليومية

اهتم فرويد بهذا الموضوع منذ أكثر من خمسين عاماً ، وكتب فيه كتاباً اسمه « المرض النفسى فى الحياة اليومية » نقل إلى معظم اللغات الحية ، ما عدا اللغة العربية . وقد قرأت الكتاب منقولا إلى الفرنسية ، وتوجد منه طبعة إنجليزية رخيصة . ولكن ترجمته إلى العربية فى غاية الصعوبة لأن المؤلف يشير إلى أسماء واصطلاحات باللغة الألمانية لا تفهم إلا فى أصلها . والكتاب على الرغم من مخالفتنا لمذهب صاحبه فى غاية الطرافة لأنه يقوم على رواية حوادث شخصية يحللها فرويد على نفسه أو يحكيها عن أشخاص عرفهم وسألوه رأيه . وهو يتحدث فى الفصل الأول عن نسيان أسماء الأعلام وفى الثانى عن الأسماء الأجنبية وفى الثالث عن نسيان الألفاظ وفى الرابع عن ذكريات الطفولة ، إلى فصول أخرى كثيرة .

ونحب أن نقف عند ذكريات الطفولة ليكون الحديث موصولا بما سبق . وليس ن المهم أن نبدأ بباب معين ، لأن فرويد صاحب نظرية عامة يفسر بها جميع المظاهر النفسية . وأساس هذه النظرية الاعتقاد بوجود « حتمية

بسيكولوجية » أى أن أى سلوك إنسانى مهما يكن تافها فلا بد أن يخضع لعلة ، وإذا عجزنا عن معرفة هذه العلة فذلك نقص فى علمنا . ثم يقسم فرويد الحياة النفسية إلى شعورية ولاشعورية وأن الأحداث اللاشعورية هى التى توجه السلوك الشعورى . وهذه الحياة اللاشعورية لها منطقها الخاص ، وإذا أخفيت بعض الأمور نتيجة « الكبت » ، فإنها تظهر فى ثوب مقنع بما يسميه الاستبدال أو الانتقال . ويعتمد فرويد على النسيان فى الدلالة على وجود هذه الحياة اللاشعورية .

ولنرجع إلى حديث نسيان الطفولة . وقد لاحظ فرويد أن أحداث الطفولة المبكرة التى نذكرها هى فى الغالب تافهة وعديمة القيمة، وننسى إلى جانب ذلك حوادث أخرى عظيمة الأثر . فإن قال قائل إن التذكر يقوم على الاختيار ، وأن الطفل قد اختار هذه الأحداث دون غيرها لأن عقليته تختلف عن عقلية الكبار ، رد عليهم فرويد بأن النظر العميق يدل على أن هذه الحوادث التافهة لها دلالتها ، لأنها تخفى وراءها أموراً أخطر ، وترتبط بها بما يسميه عملية الاستبدال Déplacement ومن أجل ذلك يسمى فرويد حوادث الطفولة التى نتذكرها حوادث للتعمية أو التغطية Souvenirs de couvertures ، لأمور جنسية يكبتها صاحبها .

هذا شاب فى الرابعة والعشرين يتذكر وهو فى الخامسة أنه جالس فى حديقة منزل ريفى إلى كرسى بجانب عمته التى كانت تعلمه الإبجدية . ولقى مشقة فى التمييز بين حرف الميم والنون (باللغة الإفرنجية N و M) فطلب من عمته أن تعلمه كيف يميز بينهما ، فأخبرته أن الميم (بالإفرنجية طبعاً) لها رِجْل تزيد على النون . وحول ذلك الوقت أراد أن يعرف الفرق بين الولد والبنت فطلب من عمته أن تخبره عن هذا الفرق فأجابته الجواب نفسه . يقول فرويد إن العلة فى تذكر هذه الحادثة التافهة أى الفرق بين الميم والنون رمز يخفى وراءه التمييز الجنسى بين الولد والبنت .

لفت النسيان نظر فرويد ولم تقنعه تعليلات غيره من من العلماء فأخذ يراقب نفسه يحللها ، كما أخذ يصف ذاكرته وقوتها قال : إنى لا أنسى بسهولة وكنت فى حداثة سنى صاحب ذاكرة فائقة الحد فى القوة . فى عهد التلمذة كان يلذ لى أن أردد عن ظهر قلب صفحة بأكملها عقب قراءتها ، وكان فى استطاعتى إعادة محاضرة علمية بعد سماعها . واستطعت فى امتحان دبلوم الطب أن أجيب عن الأسئلة بما جاء فى الكتب المقررة مع أنى لم أقرأها إلا مرة واحدة قراءة عاجلة . ولم تضعف ذاكرتى منذ ذلك الحين .

وإنما ساق فرويد هذه المقدمة عن قوة ذاكرته ليبين أنه إذا نسي بعد ذلك شيئاً كان الأمر يدعو إلى الغرابة . وهذه إحدى نوادر نسيانه قال : كنت مكلفاً أن أشترى لسيدة جاءت حديثاً إلى فينا صندوقاً حديدياً تحفظ فيه أوراقها وأموالها . وكان فى ذهنى فى الوقت الذى عرضت عليها معونتى صورة واضحة لواجهة محل فى وسط المدينة رأيت فيه هذا النوع من الخزائن . ومع أنى لم أذكر اسم الشارع إلا أنى كنت على يقين من العثور على المحل إذا تجولت فى المدينة لأنى أذكر أنى مررت به مئات من المرات . ولكن العجيب من الأمر أنى عجزت عن معرفة المحل على الرغم من البحث فى الدليل لمعرفة عنوان جميع مصانع الخزائن . ولم أكن فى حاجة إلى ذلك كله إذ لم يكد بصرى يقع على اسم المحل فى الدليل حتى عرفته وتذكرته . ولا ريب أنى كنت قد مررت بذلك المحل مئات المرات من قبل كلما ذهبت لزيارة أسرة « فلان » التى تسكن فى البيت نفسه الذى يوجد فيه ذلك المحل . فلما قطعت صلتى بتلك الأسرة تعودت دون أن أشعر أن أتجنب المرور فى ذلك الحى وبتلك الدار ، نتيجة الشعور بالكراهية لأهل الدار . أما نسيان محل الخزائن فيرجع الى ارتباطه بالدار ، أو على حد تعبير فرويد نتيجة عملية استبدال أو إنتقال .

ومن الأمور التى يشكو كثير من الناس نسيانها الأشياء التى يطلبونها من مواضعها فلا يعثرون عليها ، لأنهم ينسون أين وضعوها ، كالحال فى المؤلف الذى ينسى أين وضع كتاباً أو ورقة . ويروى فرويد أنه لا يجد صعوبة ما فى البحث عن كتاب وضعه على مكتبه ، ولكنه عجز فى إحدى المرات عن إيجاد قائمة بالكتب (كتالوج) استلمه بالبريد ، وكان عازماً أن يطلب كتاباً قرأ عنوانه فيه وهو يتعلق باللغة ، ومؤلفه ممن يحب فرويد أسلوبهم ويقدر آراءه فى علم النفس والتاريخ والحضارة . ويذهب فرويد إلى أن هذا الإعجاب بصاحب الكتاب هو علة نسيان الكتالوج .

ونقل فرويد عن غيره هذه الحادثة للدلالة على أن معرفة سبب النسيان يؤدى إلى ذهاب النسيان قال : أرادت فتاة أن تقص قطعة من القماش فأفسدتها عندما قصت الياقة ، واضطرت إلى استدعاء حائكة ثياب لإصلاح ما أفسدته . فلما وصلت الحائكة بحثت الفتاة فى كل مكان عن القماش ، وقلبت الأدراج رأساً على عقب دون فائدة ، حتى إذا أخذ الغضب منها مأخذه أخذت تحدث نفسها قائلة كيف اختفى القماش ، لا ريب أنى « لا أريد » العثور عليه . ولما عاد الهدوء إلى نفسها تبينت أنها كانت فى خجل أن تظهر الحائكة على عجزها عن

قص ياقة فستا . وبعد أن اطمأنت إلى هذا التفسير قامت من مكانها واتجهت إلى أحد الدواليب واستخرجت منه قطعة القماش .

وأنت ترى من هذه الأمثلة اليسيرة التى نقلناها عن كتاب فرويد أنه لا يُرْجع كل نسيان إلى علة جنسية ، أو إلى علة عميقة الجذور فى الطفولة ، فقد يكون الأمر مجرد بغض أو نفور أو هيبة أو خوف ولكن هذه العواطف تكمن فى اللاشعور وتحرك صاحبها .

والرأى عندى الذى وصلت إليه نتيجة تجاربى الخاصة أن ما يحبه المرء يقبل عليه ويذكره ، وما يبغضه ينفر منه ويبتعد عنه ، إما شعورياً وإما لاشعورياً. فهذه سيدة أغلقت الدولاب بالمفتاح ووضعت المفتاح فى حقيبتها عند خروجها خشية أن تمتد يد الخادمة إلى العبث بالمجوهرات الموضوعة فى صندوق داخل الدولاب وأن تسرقها . ويتضح بعد ذلك أن السيدة حين تنبهت إلى هذا الأمر ونظرت إلى الصندوق كانت قد أخرجته ووضعته على السرير إلى جانب الدولاب ونسيته هناك . فلما عادت من الخارج عجبت كيف نسيت الصندوق على السرير مع شدة عنايتها أن تحفظ حليها من السرقة ، وأن تقفل عليها عليها بالمفتاح . وتبين من التحليل النفسانى أنها ترغب فى تغيير

حليها وشراء حلى جديدة .

وكنت فى صدر شبابى حاد الذاكرة لا أنسى مما أقرأ شيئاً . وكان يكفى أن أقرأ الكتاب مرة واحدة حتى ترتسم صفحاته فى ذهنى ، حتى إذا حضرت الامتحان تمثلت الكتاب أمامى كأنى أقلبه ، ذلك أن ذاكرتى بصرية ، وقراءتى صامتة . واشتريت وأنا فى الثانية عشرة من عمرى مصحفاً صغيراً أضعه فى جيبى وعزمت على حفظ بعض سور من القرآن ومنها سورة «يس» . ثم انقطعت عن قراءة القرآن وحفظه ، وسألنى والدى فيما بعد — وكان كثير التلاوة والعبادة — لماذا لا أحفظ القرآن ، فأخبرته أنى أحفظ سورة « يس » ، فلم يصدق ، فتلوتها عليه فاندهش . ولكن هذه الذاكرة الشديدة القوة قد ذهبت الآن إلى درجة أنى أنسى أسماء الكتب ومؤلفيها مع اشتغالى بتدريسها . وأغرب من ذلك نسيان أسماء الأشخاص الذين أعرفهم والذين تربطنى بهم صلات قوية . وكثيراً ما تحدث لى هذه الظاهرة الضيق والحرج ، إذ أقابل شخصاً فى الطريق أعرفه من شكله ، فأسلم عليه ، ويهدينى السلام ، ويحيينى باسمى ، ونتحدث معا حديث الأصدقاء ، ولكن اسمه يهرب منى ولا يجرى على لسانى ، وقد أذكره بعد أن نفترق وبعد أن أفتش عنه فى ذاكرتى مستعيناً بالروابط الذهنية الماضية .

وينكشف حرجي إذا كان معي صديق آخر ، أو قدم علينا شخص ثالث ، ويصبح من واجبي القيام بتقديم أحدهما إلى الآخر وتعريف بعضهما إلى بعض .

وأخبرني أحد أصدقائي المحامين ، وكنا نتحدث عن عجائب النسيان ، وأخذ كل واحد يذكر نوادره ، قال : كلفني صاحب المكتب الذي أشتغل عنده أن أبحث قضية وأكتب فيها مذكرة ، وبعد يومين سألني عن رأيي في تلك القضية ، فقلت له إني لم أبحثها بعد . قال : كيف لم تبحثها وقد قدمت في موضوعها مذكرة ؟ قلت : إني لم أكتب أي مذكرة . فأخرج من بين أوراقه المذكرة وأطلعني عليها وقال : أليس هذا خطك ؟ وعندئذ فقط تذكرت ، وعجبت لهذا النسيان .

ومن أغرب حوادث النسيان التي وقعت لي أني كنت في زيارة برلين عام ١٩٣٦ في دورة الألعاب الأولمبية ، وكانت النقود التي يصرفونها في ذلك الحين نقود سياحة تقل أربعين في المائة عن السعر الرسمي لاجتذاب السائحين ، على أن يصرف هذا النقد أو المارك مع التوقيع على جواز السفر في صورة شيكات تسمى « الرايخ مارك » وهي لا تصرف إلا من البنك . في صباح اليوم الثاني من وصولي برلين ذهبت إلى البنك

لأصرف الشيكات ، ولكنى نسيت جواز السفر فى الفندق ، فلم أستطع الصرف فى ذلك الصباح . وعدت بعد الغداء إلى الفندق ، وجلست عند الأصيل أكتب بعض الرسائل إلى أصدقائى ولمحت أمامى جواز السفر فقلت ضعه فى جيبك حتى لا تنساه ، ثم تحسست شيكات الرايخ مارك فلم أجدها . فطار صوابى إذ لم يكن معى مال غيرها أنفقه فى ذلك البلد . وجلست أتذكر أين وضعتها ، وأين يمكن أن أكون قد نسيتها ، واستعرضت جميع الأماكن التى ذهبت إليها ، وطرقتها أسألها ، وأخيراً ذهبت صباح اليوم التالى إلى البنك وسألت عنها ، فأخبرنى الموظف هناك أنى نسيتها على المنضدة .

وأحسب أن تعليل فرويد من أننى أكره هذه الشيكات فى اللاشعور تعليل لا يستقيم . وإنما العلة الصحيحة هى تلك القاعدة التى سبق ذكرها من قبل فى باب الحفظ ، وهى عدم التداخل ، لأن ازدحام الذهن بعدة أمور فى آن واحد يؤدى إلى التضارب وإلى الاختلاط . وقد قيل ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

هذا إلى أنى حين أشتغل بعمل عقلى ، كتأليف كتاب ، أو كتابة مقالة ، أو إلقاء محاضرة ، أنصرف إليه انصرافاً تاماً ، فأستغرق فيه ، وأظل أفكر فى الموضوع حتى وأنا أمشى

فى الطريق أو أركب الترام أو أختلف إلى مجلس من الأصدقاء، حتى إذا اجتذبنى التأمل ذهلت عما حولى . وأحسب أن هذا الاستغراق شرط كل منتج وكل مبتكر . وليس من الغريب بعد ذلك أن تسمع القصص عن بعض العلماء الذين نسوا حتى اسم أنفسهم لأن أذهانهم كانت مشغولة بالتفكير فى حل المسائل .

وقد يكون الاستغراق الذى يصرف الذهن عن الناس وعن الأشياء لعلة أخرى غير علة الابتكار والاختراع والتأليف ، لأن انشغال البال قد يرجع إلى الهموم التى تفضى إلى القلق . وما بالك بمن فقد ماله أو ولده أو أصيب بمرض يستعصى شفاؤه وغير ذلك من الصعاب التى تفاجىء المرء ولا يجد لها حلا أو مخرجاً ، فيظل حبيس نفسه تثقله الهموم وتدور فى رأسه الأوهام ؛ حتى ليغفل عما حوله ، وإذا اشتد به الهم نسى كل شيء ، لا بعض الأسماء أو الأشياء فقط . ومن شأن الكوارث إذا نزلت أن تزيد فى حدة التذكر أو تدفع إلى النسيان كما قال البحترى يصف إيوان كسرى :

ذكرتنيهم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتُنسِى

ثم إن اتساع العمران وتعقد المصالح فى الحضارة الحديثة مما تنوء به ذاكرة أى فرد ، ومن أجل ذلك اهتدى الإنسان

إلى الكتابة يقيد معلوماته ، وأصبح يستعين بالمذكرات أو المفكرات يدون فيها مواعيده ويعلم منها مصالحه فى غده وما بعد غده . وهذا التقييد ضرب من التنظيم حتى لا يعول المرء تعويلا تاماً على ذاكرته ، التى قد تثقلها المشاغل والمواعيد .

ولكن فرويد لا يؤمن بهذه الأسباب العامة ، ويحاول أن يلتمس سبباً لنسيان كل اسم يغفل عنه من يريد تذكره . وهو ينعى على غيره من علماء النفس — فى استهلال الكتاب الذى ننقل عنه — أنهم إذا سئلوا لم ينسى المرء اسم صديق قالوا : لأن أسماء الأعلام أقرب من غيرها إلى النسيان . ثم يروى فرويد قصة نسيانه اسم فنان يسمى سنيوريللى Signorelli معللا ذلك بالكبت والإبدال . قال : كنت فى رحلة ومعى أحد الغرباء فى العربة ونحن نجتاز دلماسيا من أعمال البوسنة عام ١٨٩٨ . ودار بيننا الحديث حول إيطاليا وسألت رفيقى هل زار مدينة أورفيتو Orvieto حيث توجد الكتدرائية المشهورة التى صور على جدرانها الأستاذ . . . . . . وهنا نسيت اسم ذلك الأستاذ ، وقفز إلى خاطرى بدلا منه اسم مصورين آخرين هما بوتشيلى Botticelli وبولترافيو Boltraffoi ، عرفت فى الحال أنهما غير مقصودين . وشرعت أبحث عن السبب فى نسيان اسم «سنيوريللى» ،

فرأيت أنه نتيجة اضطراب بين موضوع الحديث السابق وبين هذا الحديث . ذلك أنى قبل أن أسأل رفيقى عن زيارته مدينة أورفيتو كنا نتحادث عن عادات الترك الذين يقطنون البوسنة والهرسك ، وقلت لرفيقى ما نقله إلىّ أحد الأصدقاء من أن هؤلاء الأتراك يثقون ثقة عمياء بالطب كما ينفرون نفوراً قوياً من الموت . وذكرت له كذلك قصة أخرى عن انغماس هؤلاء القوم فى الأمور الجنسية ، وأن أحدهم إذا أصيب باضطراب أو ضعف جنسى جزع جزعاً شديداً لا يتلاءم مع نفورهم من الموت . وروى صاحبى ما قاله له أحد المرضى من أن الأمور الجنسية إذا اضطربت فلن تساوى الحياة شيئاً . وعدلت عن هذا الحديث الدقيق الشائك مع رفيق سفر غريب وحولت مجرى الحديث عن كل ما يتصل بالجنسيات والموت . وكنت فى ذلك الوقت واقعاً تحت تأثير حادثة علمت نبأها منذ أسابيع بعد إقامة قصيرة فى مدينة ترافوا Trafoi ذلك أن أحد المرضى الذين كنت أعالجهم انتحر بسبب اضطرابات جنسية لم يشف منها . وعلى الرغم من محاولتى إبعاد الحديث عن الأمور الجنسية من ذهنى ، فإن تلك الحادثة كانت تلح فى الظهور ، عن لاشعور ، وذلك للصلة بين اسم بولترافيو المصور ، واسم المدينة ترافوا . كنت أود نسيان

ما يتصل بتلك المدينة فأدى ذلك إلى « كبت » ذلك الأمر . حقاً لم أكن أرغب فى نسيان اسم المصور الذى صور على حوائط كنيسة أورفيتو ، إلا أن الرابطة بين ذلك الأمر وهذا الاسم أدت إلى نسيان اسم الشخص رغماً عنى على حين أن عزمى كان متجهاً إلى نسيان تلك الحادثة .

وهكذا يمضى فرويد فى تحليل طويل ليبين فيه الصلة بين نسيان أسماء الأعلام وبين حوادث أخرى يريد الإنسان كبتها ودفعها إلى مجاهل النسيان .

وهناك طائفة من الأمثلة يضربها فرويد على نسيان الأسماء وترجع إلى « عقدة شخصية » أى إلى موضوع يتصل بشخصه ويثير فيه انفعالات قوية هى فى الأغلب مؤلمة . والغريب أن الرابطة بين الاسم الذى ينساه فرويد وبين شخصه رابطة لا يتوقعها ، فهى تقوم على تشابه ظاهرى ، فى الرسم أو الصوت أو المعنى . مثال ذلك أن أحد مرضاه طلب منه أن يدله على عين ماء ساخنة فى الرفييرا ، وكان يعرف إحدى هذه العيون ، بل ويعرف كذلك اسم الطبيب الذى يعالج عندها ، ولكنه عجز عن تذكر اسم تلك العين ، فالتمس من المريض الانتظار بعض الشىء حتى يسأل بعض أقاربه . وقيل له كيف تنسى اسم ذلك الطبيب وقد أمضيت عنده زمناً ، إنه يدعى

نرفى Nervi ، ويعلل فرويد نسيان ذلك الاسم بأنه قريب الشبه من لفظة الأعصاب بالألمانية Nerven ، والأعصاب والأمراض العصبية هى التى تشغل باله على الدوام .

ويروى « يونج » أن شخصاً كان يحب فتاة ثم تزوجت من شخص آخر غيره ، كان يعرفه من زمن طويل لصلة أعمال بينهما ، فإذا به الآن ينسى اسمه كلما أراد أن ينطق به ، وإذا أراد أن يكتب إليه رسالة طلب معرفة اسمه من شخص ثالث .

ولا ريب فى أن مذهب فرويد وأصحاب التحليل النفسانى له وجاهته ، وهو يفسر إلى حد كبير العلة فى نسيان الأسماء والأشياء ، لولا بعض المغالاة التى يتصف بها مذهبه .

فقدان الذاكرة

هذه قصة قرأتها فى جريدة «الأخبار الجديدة» بتاريخ ١٨ / ٩ / ١٩٥٣ عن شاب فى التاسعة عشرة من عمره فقد الذاكرة ، ولا يعرف اسمه ، ولا بلده ، ولا أهله ، ولا صناعته ، ولا تاريخ حياته ، ثم فقد النطق بعد أن فقد الذاكرة .

وأول مرة أغمى فيها هى ٢٦ / ٨ / ١٩٥٣ ، وأصبح لا يذكر شيئاً عن ماضيه قبل ذلك . وقد استيقظ من إغمائه ليجد نفسه فجأة فى منزل رجل فقير لا يعرفه ، أخذ يعنى به حتى إذا عاد إلى نفسه واستمع إلى صاحب الدار يروى له كيف وجده مغمى عليه فى الطريق ، أسرع بالخروج إلى الطريق مرة ثانية . وحاول أن يتذكر عنوانه أو الحادثة التى وقعت له ، أو حتى اسمه ، فلم يستطع . وعندئذ عرف أنه فقد ذاكرته ، فقد أهله ، وفقد ماضيه ، كأنه ولد من جديد . وسار فى الطرقات على غير هدى بلا هدف يحاول البحث عن أهله دون جدوى . وشعر فى أثناء سيره بشارع الأزهر بثقل شديد فى رأسه فقد على أثره الحس . وأفاق من غيبوبته ليجد نفسه فى مستشفى الدمرداش وحوله جمع من الأطباء ، قالوا إنه تناول

مخدراً قوياً أفقده الذاكرة ، فأجرى له غسيل فى المعدة ولم يعثر على أى أثر لمخدر . ثم جاءه ذات صباح ضابط وبعض رجال البوليس وأخذوه من المستشفى إلى قسم الدرب الأحمر حيث حجز خمس ليال ، ثم أخلى سبيله .

وأغمى عليه مرة ثانية ، ولكنه أفاق ليجد نفسه فاقد النطق أيضاً ، وأصبح كالحيوان الأعجم لا يخاطب الناس إلا بالإشارة ، وعندئذ سعى إلى الانتحار بسكين ، بعد أن فقد وعيه ، وعثر عليه أحد رجال البوليس ، ونقل إلى مستشفى الدمرداش ، حيث صوروا المخ بالأشعة فلم يظهر بها أى أثر لاختلال غير طبيعى .

وطلب ورقاً وقلماً ، وكتب ما يأتى : « حياة فارغة . . . عديمة اللون . . . عديمة الطعم . . . لا أهل ولا أصدقاء . . . حتى اسمى الذى حملته ما يزيد عن تسعة عشر عاماً فقدته فى ثوان . . . » .

وطلب الشاب أن تنشر صورته لعل أهله يتعرفون عليه .

ولم أتتبع هذه الحالة لبحثها ومعرفة العلة فى هذا المرض النفسانى . وإنما أحببت أن أبين كيف يقع بعض الناس فريسة فقدان الذاكرة فقداناً تاماً ، وليس هذا من الغريب .

وقد قسم العلماء أمراض فقدان الذاكرة قسمين ، الأول عضوى Organogènes والثانى نفسانى Psychogèncs فالقسم الأول وهو العضوى يرجع إلى إصابة المخ لأى سبب

من الأسباب من عدوى أو سموم أو أورام ، ولذلك يجب أن يتجه الطبيب إلى بحث المخ لمعرفة السبب ، فلو أن فقدان الذاكرة يرجع إلى إصابة المريض بمرض الزهرى ، أو بورم فى المخ ، فإن علاج الزهرى أو استئصال الورم يؤدى إلى شفاء المريض واستعادته ذاكرته . ولا نزاع فى وجود علاقة بين المخ والذاكرة ، بدليل أن الشخص إذا وقع على رأسه أو ضرب ضرباً قوياً على رأسه فإنه يفقد الذاكرة فقداناً « مؤقتاً » ، نعنى لفترة بسيطة من الزمن. قد تكون ساعة أو يوماً أو شهراً ، وقد تمتد إلى الماضى كله كما حدث فى حالة صاحبنا الذى ذكرناه فى أول هذا الفصل ، وقد تمحى صفحة واحدة من الماضى أو عدة صفحات . وهذه كلها أمراض نفسانية لا يكفى فى تفسيرها إصابة المخ . وكان العلماء فى القرن التاسع عشر قد اصطنعوا النظرية المادية فى تفسير النسيان ، واعتنق « ريبو » بوجه خاص مذهب انطباع الصور فى المخ ، وذهب إلى أن إصابة أى مركز من المراكز فى المخ هو الذى يؤدى إلى النسيان . ولكن هذه النظرية لم تقف طويلا أمام النقد القائم على المشاهدات ، لأن الذكريات لا تمحى ، بل تختفى فقط ، ثم تعود إلى الظهور . ومن أجل ذلك درس بعض العلماء القوانين النفسانية التى يخضع النسيان لها ، وصاغ فى ذلك جاكسون Jackson

قانوناً يعرف باسم قانون « الانحلال » Dissolution تتراجع فيه الذكريات من التعقيد إلى البساطة ، ومن الإرادة إلى الآلية . وإذا طبقنا هذا القانون على الحالة المذكورة سابقاً رأيناه مستقيما ، فقد نسي الشاب كل شيء ما عدا الأعمال الآلية ، كالمشي والأكل واللبس ، والكتابة .

وللعلماء تقسيمات كثيرة لأنواع فقدان الذاكرة . فهذا « ريبو » يقسمها قسمين كبيرين أمراض عامة وأمراض جزئية للذاكرة ، أما الأمراض العامة فيقسمها بدورها ثلاثة أقسام ، مؤقتة ، ودورية ، ومتقدمة ، ووراثية . والأمراض الجزئية هي تلك التي تتناول نواحي خاصة ، مثل نسيان الأسماء أو الأشكال وما إلى ذلك . ونحن ننقل عن كتابه « أمراض الذاكرة » بعض الأمثلة .

وينشأ فقدان الذاكرة المؤقت غالباً فجأة وينتهي كذلك بطريقة غير منتظرة وقد يستغرق هذا الفقدان دقائق ، وقد يمتد سنوات . فهذا مريض يذهب لاستشارة طبيب ويصاب فجأة بنوبة صرع ، حتى إذا أفاق منها نسي أنه دفع للطبيب أجره قبل دقائق .

وذهب موظف إلى مكتبه وهو يحس باختلاط في ذهنه ، ويتذكر أنه كان قد طلب طعاماً من أحد المطاعم ، ونسي

كل شىء بعد ذلك . فعاد إلى المطعم ، وهناك علم أنه طلب الطعام وتناوله ودفع ثمنه وأنه خرج متوجهاً إلى مكتبه ، واستمرت هذه الفترة من النسيان ثلاثة أرباع الساعة .

وأصيب شخص بنوبة صرع فى دكان وسقط مغشياً عليه ، ثم أفاق ونهض وجرى من الدكان تاركاً قبعته وبطاقته . ووجد نفسه على بعد نصف كيلو متر من ذلك المكان فبحث عن قبعته فى جميع الدكاكين ، ولم يكن يدرى ما يفعل ، ولم يعد إلى تمام وعيه إلا بعد عشر دقائق .

ويروى عن أحد العلماء أنه اجتمع فى مؤتمر فى فندق باريس ، فخرج عارى الرأس وذهب إلى شاطئ السين ثم عاد إلى مكانه من المؤتمر يشترك فى مناقشاته دون أن يذكر شيئاً مما فعل .

وتزوجت سيدة من رجل تحبه حباً شديداً ثم أصيبت بنوبة إغماء استيقظت بعدها لتنسى كل شىء عن حياتها من بدء زواجها ، ولكنها تذكر ما قبل ذلك . وإذا تقدم زوجها وابنها دفعتهم بعيداً عنها . وجاء أهلها وأخذوا يقنعونها أنها متزوجة وذات ولد ، فكانت تؤمن على كلامهم وتتهم ذاكرتها حتى لا تتهمهم جميعاً بالادعاء والكذب ، ولكنها ترى زوجها وابنها فتعجب كيف تزوجت هذا الرجل وكيف

أنجبت هذا الغلام .

وهذه سيدة أخرى فى الرابعة والعشرين من عمرها أصيبت بحالة تدفعها إلى النوم حتى أصبح من العسير تغذيتها فكانوا يضعون ملعقة فى فمها تبلع منها الطعام . وبعد شهرين شفيت من ذلك المرض ، واستيقظت لتجد نفسها قد نسيت كل شيء ، وأنها فقدت ذاكرتها ، وغاب عنها كل ما تعلمته ، وأصبح كل شيء تراه جديداً بالنسبة إليها ، فهى لا تعرف أحداً حتى أقرباءها الأقربين . ولكنها كانت مرحة شديدة الحركة تبدو كأنها طفلة . وفى أول الأمر كان من المستحيل أن يتحادث المرء وإياها ، فإذا سمعت سؤالا رددته فى صوت مرتفع . ولم يبق فى قاموسها إلا بضع كلمات ، ثم أخذت تكتسب بسرعة كلمات أخرى ، ولكنها كانت تخلط بين الألفاظ ، بدلا من أبيض تقول أسود ، وإذا وصفت الحار قالت إنه بارد ، وهذا ذراعى بدلا من فخذى ، وهذه سنى بدلا من عينى ، وغير ذلك ، وظلت على هذه الحال مدة طويلة . وبقيت فترة طويلة لا تذكر أهلها ، ولو أنها كانت تعرفهم بأسمائهم التى علموهم إياها . وتعلمت القراءة من جديد ، واضطرت إلى تعلم الألف باء لأنها لم تذكر حتى الحروف ، ثم تعلمت المقاطع والكلمات وأصبحت تقرأ فى سهولة .

وهذا شخص آخر فى الثلاثين من عمره فقد ذاكرته عقب مرض شديد وأصبح لا يعرف حتى أسماء الأشياء المألوفة . فلما استعاد صحته بدأ يتعلم من جديد كأنه طفل ، فتعلم أسماء الأشياء ، ثم القراءة ، ثم أخذ يتعلم اللغة اللاتينية ، وكان يتقدم فى تعلمه بسرعة . وكان أخوه هو الذى يقوم بتعليمه ، فتوقف ذات يوم فجأة ، ووضع يده على جبهته ، وقال : إنى أحس فى رأسى إحساساً غريباً ، إذ يخيل إلى الآن أن كل ذلك قد علمته من قبل . واستعاد بعد ذلك ذاكرته .

وإليك قصة سيدة نصف كانت فى صحة جيدة ثم سقطت فى حادثة فى النهر وكادت أن تغرق ، وظلت ست ساعات بدون وعى ثم عادت إلى نفسها . وبعد عشرة أيام أصيبت بإغماء تام استمر أربع ساعات ، فلما فتحت عينيها لم تعد تعرف أحداً ، حتى لقد ذهب سمعها وفقدت النطق ، والذوق والشم ، ولم يبق لها من الحواس إلا البصر واللمس الذى كان شديد الحساسية . وأصبحت بذلك جاهلة بكل شىء ، عاجزة عن التحرك بنفسها ، حتى أضحت كالحيوان الذى انتزع مخه . وكانت ذات شهية جيدة للأكل ، إلا أنه كان من الواجب إطعامها ، وكانت تبلع الطعام بطريقة آلية . جملة القول ارتدت السيدة إلى آلية خالصة . ولم تكن تعمل

شيئاً إلا أن تقطع ما يقع تحت يدها ، كالورق ، أو الزهر ، أو الملابس ، قطعاً صغيرة . وبعد فترة من التعلم أصبحت تشتغل بالإبرة من الصباح إلى المساء ، ولم تكن تميز بين الأيام . ولكنها كالأطفال أخذت تكتسب بعض الخبرات ، وأخذت تتعلم نسج السجاد .

وكان هناك موضوعان يؤثران عليها أشد التأثير ، سقوطها فى النهر ، وقصة غرام قديم . فإذا رأت صورة نهر أو بحر تهيجت هياجاً عظيماً يعقبه صرع وإغماء . وكان صوت الماء يثير فيها خوفاً يجعلها ترتعش ، فإذا غسلت يديها وضعتهما فى الماء وضعاً دون تحريكهما . ومنذ ابتداء مرضها كانت زيارة رجل معين لها تبعث فيها سروراً ظاهراً على حين أنها كانت لا تحفل بغيره . وكان يزورها بانتظام كل مساء ، كما كانت تنتظر كذلك حضوره . ومع أنها لم تكن تذكر شيئاً مما تفعل ، فإنها كانت ترقب بشغف أن يفتح الباب فى الساعة المعلومة ، وإذا لم يحضر صاحبها ظلت واجمة طول الليل . جملة القول إن وجود هذا الرجل إلى جانبها كان يزيد فى تحسن حالتها الطبيعية والنفسية . وأخذت تستعيد ذاكرتها شيئاً فشيئاً ، غير أن الطريقة التى شفيت بها تماماً تعد عجيبة حقاً ، إذ أنها علمت أن حبيبها يغازل امرأة أخرى ، فثارت فيها

عاطفة « الغيرة » ، وأحدثت هذه الغيرة ذات يوم حالة تكاد تشبه حالتها الأولى ، حتى إذا أفاقت من إغمائها إذا بها تسترجع ذاكرتها التى فقدتها مدة عام كامل ، وعرفت جدها وجدتها وأصدقاءها القدماء . ولكنها بعد أن استعادت ذاكرتها الماضية ، نسيت كل شىء عن الفترة التى قضتها خلال المرض حتى ذلك الوقت .

ولا نود أن نطيل فى ذكر القصص التى دونها العلماء عن فقدان الذاكرة ، وفى كتاب « ريبو » الشىء الكثير ، وفيه تتمة الأنواع التى قسم أمراض الذاكرة إليها .

ولكن هذه القسمة أصبحت قديمة ، وأصبحت لا تفسر ظاهرة النسيان المرضية تفسيراً كافياً . ونحن نميل إلى الأخذ بتقسيم الأستاذ جان ديلاى الذى يجعل الذاكرة ثلاثة أنواع ، آلية [حسية حركية] واجتماعية ، ووهمية.

ومعظم هذه القصص التى سقناها عن فقدان الذاكرة ترجع إلى اختلال الذاكرة الاجتماعية ، وتمثل ابتعاد المريض عن المجتمع وسخطه عليه وهربه منه وذلك بنسيان الأحداث التى وقعت له فى هذا المجتمع . وليس الصرع ، أو الإغماء ، أو النوم ، وما إلى ذلك إلا جنوحاً من الشخص إلى الابتعاد عن المجتمع ، وهى دليل على أنه لا يريد أن يفتح عينيه عليه .

والنسيان أحد هذه الصور المرضية ، فهو « غيبة » عن المجتمع ، وصدوف عنه ، وكثيراً ما يختلط النسيان ، أو فقدان الذاكرة ، بأمراض نفسية أخرى كالصرع أو العته dementia . ولكن هذه الذاكرة الاجتماعية حين تفقد ، فإن الذاكرة الآلية تظل باقية ، وكذلك تظل الذاكرة الوهمية ، وما يصحبها من هذيان وخرافة وخيالات .

وقد اختلف العلماء بشأن سبب النسيان ، ولهم فى ذلك نظريات أربعة ، الأولى كيمائية ، والثانية عصبية ، والثالثة مخية ، والرابعة وظيفية . وجميع هذه النظريات من قبيل الفروض التى لم تستطع التجارب تأييدها . ويبدو أن لكل منها جانباً من الصواب .

ويزعم أصحاب النظرية الكيمائية أن كل عمل نفسانى يتم على حساب مادة غذائية تنحل كيمائياً وتتغير باستمرار ، ويعرف العلماء هذا التغير باسم catalytic ، ومن شأنه زيادة التأثير بسبب الفعل . ومثال ذلك الأكسجين الذى نستنشقه مع الهواء ، فإنه يساعد على التذكر ، وقلته تؤدى إلى النسيان . وحاول بعضهم تفسير النسيان بتغير كثافة المادة الهلامية colloid .

أما أصحاب النظرية العصبية فيذهبون إلى أن الذاكرة متصلة

اتصالا وثيقاً بالجهاز العصبي ، وما يحدث فيه من تغيير الخلايا العصبية . وأن اكتساب ذكرى جديدة يؤدى إلى زيادة خلوية [أى نسبة إلى الخلية] من جهة الحجم ، كما تعبد الطرق بين الخلايا حين يمر التيار العصبى . ونحن نعلم أن الخلية العصبية تتكون من نواة ومن زوائد شجيرية وزوائد محورية ، وتتداخل الخلايا دون أن تتلاحم ، بحيث تتداخل الزوائد الشجيرية من الخلية فى فروع الزائدة المحورية من الخلية التى تليها . وتسمى نقطة هذا التدخل « بالوصلة » ، ويتم العبور بين الخلايا العصبية بانتقال التيار العصبى عابراً هذه الوصل ، ويؤدى تكرار انتقال التيار العصبى إلى تكوين العادات أو إلى الذاكرة الآلية . ويؤدى التخدير أو التعب أو السموم إلى مقاومة هذه الوصل وتباعد الخلايا العصبية .

وإذا كانت الذاكرة تابعة لقيام الأعصاب بوجه عام بوظيفتها فإنها أول كل شيء متعلقة بالمخ . والمشاهدة الساذجة تؤيد ذلك ، لأن ضربة العصا على الرأس تفضى إلى الغيبوبة وإلى فقدان الذاكرة . وهناك كما نعرف مناطق للحس والحركة والتفكير والكلام فى المخ . فالصلة وثيقة بين المخ وبين الظواهر النفسية المختلفة .

وزعم كثير من علماء النفس حتى أواخر القرن الماضى

أن المخ أشبه بالشمع الذي تنطبع عليه الآثار النفسانية ، فهو مثل « الجراموفون » ، وأن الذكريات تنطبع أو تحفر فى المخ . ولكن هذه النظرية لا تجد لها سنداً الآن .

وحاول بعض العلماء أن يعد الخلايا العصبية الموجودة فى المخ ، وقدرها أحدهم بأربعة عشر مليار من الخلايا ، وأن كل صورة ذهنية تسجل فى خلية من هذه الخلايا . فلو فرضنا أن رجلا عاش حتى الثمانين فمجموع ما قطعه من الثوانى هو ملياران ونصف ، ولا يمكن أن تبلغ ذكرياته هذا العدد ، لأن قاموس أى شخص من الألفاظ لا يزيد عن ٢٠,٠٠٠ لفظة .

غير أن هذه النظرية أيضاً لم تثبت طويلا أمام النقد ، وبخاصة نقد برجسون ، ذلك أن الصورة الذهنية التى تؤلف الذكرى ليست واحدة ، فأنت تعرف « محمداً » مثلا بعد أن رأيته آلاف المرات وهو فى كل مرة يختلف عن سابقتها ، ومع ذلك فهو شخص واحد . وهناك طائفة كثيرة من أنواع النسيان ترجع إلى فساد الحفظ والاكتساب ، فالذكريات لا تنسى لأنها فسدت فى المخ بل لفساد حفظها ، ومن أجل ذلك كانت الأحداث سريعة النسيان بالإضافة إلى الشيوخ على حين أنهم يحتفظون بالأحداث الماضية . يضاف إلى ذلك

أن النسيان يسير طبقاً لقانون معين يسمى قانون التراجع regression إذ تنسى أولا الأسماء ، ثم المعانى الكلية ، ثم الصفات ، ثم الأفعال ، مما يدل على أن النسيان راجع إلى أسباب نفسانية أكثر منها فسيولوجية .

من أجل ذلك رأى العلماء أن النسيان « وظيفة » حيوية مستقلة للحياة النفسانية ، ووظيفة الذاكرة هى وحدة الحياة النفسانية . وإذا انحلت الذاكرة أدت إلى ألوان من النسيان وإلى أمراض الذاكرة مما بسطناه من قبل .

قواعد لتدريب الذاكرة

يحتاج كل إنسان إلى الاعتماد على ذاكرته وإلى تحسينها وتقويتها وإلى إبعاد شبح النسيان. منا من يشكو نسيان الأسماء والوجوه. ويطمع الطالب أن يحفظ دروسه ولا ينساها عند أداء الامتحان. ويرجو الخطيب ألا تخونه ذاكرته وهو يخطب الجماهير فلا يلجأ إلى القراءة من الورق. وأشد الناس حاجة إلى الذاكرة هم رجال الأعمال كالتجار والموظفين فى المؤسسات التجارية لصلتهم بالجمهور، ولأن نسيان الموظف أو رجل الأعمال شيئاً يؤدى إلى خسارة المال. ولذلك ألف كثيرون كتباً فى تحسين الذاكرة لقيت رواجاً كبيراً، ولجأت المؤسسات الأمريكية إلى هؤلاء العلماء النفسانيين فى علاج الموظفين عندهم من آفة النسيان.

وإنا ملخصون هذه القواعد التى تقوم على مبادئ نفسانية فيما يلى :

١ — اعقد النية على الحفظ :

لنفرض أن أحداً قدم إليك شخصاً اسمه « مصطفى عبد العال » فإنك قد تقول محيياً إياه « تشرفنا » أو « أهلا وسهلا » دون أن تعنى بالتقاط اسم مصطفى عبد العال، لأنك

قد تقول فى بالك ، ولو بغير شعور ، وماذا يهمنى من تذكر اسمه ؟ فلا أهمية لى أن أتذكر ، ولن أقابله مرة أخرى . فإذا قابلته فى مناسبة أخرى فلن تتذكر اسمه ، لأن نيتك انصرفت من أول الأمر عن تذكره . فإذا نسيته فليس معنى ذلك ضعف ذاكرتك بل عدم محاولتك « الحفظ » . ولذلك كانت الأمور التى تسمعها أو تقرؤها أو تراها عرضاً أدعى إلى النسيان .

٢ ـ انتبه إلى ما تحفظ :

إذا عقدت النية على تذكر مصطفى عبد العال ، فسوف « تنتبه » إلى اسمه ، وتحسن التقاطه وسماعه ، كما تتأمل شكله وملامحه وحركاته . وكثيراً ما ينسى التلاميذ ما يلقيه عليهم المحاضر أو المدرس لأن عقلهم فى شىء آخر ، أو بمعنى آخر غير منتبهين . ولذلك لا يفهمون الدرس ، مع أن « الفهم » أساس الحفظ ، وينسى الطالب لأنه لم يفهم المادة التى يسمعها أو يقرؤها . والانتباه هو السبيل إلى الفهم ، ثم إلى الحفظ ، ثم إلى التذكر أو عدم النسيان .

٣ ـ استعمل الصور الذهنية ما أمكنك :

إذا أردت أن تتذكر مصطفى عبد العال ، فاستحضر صورته فى ذهنك . الحظ شكله ولونه ، ولون عينيه وملابسه وهكذا ، والحظ كذلك حديثه ولهجته ، وانتبه إلى « لوازمه »

فكل شخص له لوازم تخصه ولا توجد عند غيره ، وكل شيء كذلك يمتاز بلوازم تخصه وتفرقه من غيره . والحظ كذلك غرائب الأشياء والأشخاص ، فكلما كانت الصورة غريبة، بل مضحكة ، كانت أدعى إلى التذكر .

٤ — اربط ما تحفظ بغيره من معلوماتك السابقة :

هذه القاعدة هي في الواقع أهم قواعد الحفظ ، لأن الترابط أساس التذكر . والترابط قد يكون ظاهرياً وقد يكون جوهرياً . فالترابط الظاهرى ما قام على تشابه وثيق أو على مجرد التلازم والتتابع . أما الترابط الجوهرى فهو الذى يستند إلى علة معقولة مثل رابطة السبب بالمسبب والجزء بالكل وهكذا .

تريد أن تتذكر مصطفى عبد العال ولا تنساه ، فاربطه بصديقك الذى عرفك به ، وبالمكان الذى التقيتم فيه ، وبالمناسبة التى وجدت ، وبعمله ووظيفته وما إلى ذلك .

والذاكرة الجيدة التى لا تنسى عبارة عن شبكة منظمة ، حسنة الارتباط بين الأجزاء ، واضحة الروابط ، بحيث يسهل الوصول إلى أى جزء منها . وفى ذلك يقول وليم جيمس :

كلما ارتبطت الحقائق فى الذهن بعضها ببعضها الآخر استطاع العقل أن يسيطر عليها وأن يذكرها . وتصبح كل حقيقة من الحقائق التى نربط بها الحقائق الجديدة « كالخطاف »

الذى تتعلق به ، أو كالسنارة التى نصيد بها السمك حين يغوص فى الماء ويذهب إلى القاع ويبتعد عن السطح. وتكوّن هذه الحقائق مجتمعة شبكة تلتحم فى نسيج الفكر . ويرجع السر فى الذاكرة الجيدة إلى تكوين روابط متعددة مختلفة بين الحقائق التى نحتفظ بها . وليست الروابط التى ترتبط بالحقيقة السابقة شيئاً آخر سوى التفكير فيها وتقليبها على وجوهها .

٥ ــ احفظ بالنغم أو الإيقاع :

وهذه هى طريقة تحفيظ الصغار ، ولماذا لا يلجأ إليها الكبار ؟ وكان القدماء ينظمون العلوم المختلفة فى أراجيز منظومة ليسهل حفظها ، مثل ألفية ابن مالك فى النحو ، مما لا يزال يحفظ فى الأزهر حتى الآن .

٦ ــ وزع ما تحفظ على عدة أيام .

من أهم الأسباب التى تجعل كثيراً من الطلبة فى مصر يعجزون عن تذكر معلوماتهم عند الامتحان آخر العام أنهم يظلون طول السنة الدراسية يلعبون منصرفين عن الاستذكار ، ثم يكبون آخر السنة طول الليل يستذكرون ، ويكررون قراءة العلوم المختلفة. وفى بعض الأحيان لا يقرأ أحدهم العلم إلا ليلة الامتحان ، أو صباحه . وقد بينا أن التكرار الموزع على أيام أفضل من التكرار المتلاحق ، وقد ثبت هذا بالتجربة ، حتى

يأخذ الذهن فرصة للراحة ، وحتى ترتبط المعلومات الجديد بالمعلومات القديمة المستقرة فى اللاشعور .

٧ ـ اجتهد أن « تُسَمِّع » ما تحفظ :

المقصود بالتسميع أن تكرر إلقاء ما تحفظ ، فتسمع نفسك ، أو يسمعك غيرك . وكانت هذه هي الطريقة فى تحفيظ القرآن ، إذ « يسمع » الطفل السورة على الشيخ ليعرف هل حفظها أو لا . وفائدة التسميع أنك تكرر ما تحفظ مره تضاف إلى المرات السابقة ، والتكرار أساس الحفظ . كما أنك تثق بنفسك ، وتعرف إلى أى حد بلغت .

وإذا أردت أن تذكر اسم « عبد العال مصطفى » ، فانطق به ، واجتهد أن تقول : « أهلا وسهلا مصطفى عبد العال » بدلا من الاقتصار على رد التحية مجردة . وقل له فى نهاية المقابلة : « مع السلامة يا مصطفى عبد العال » . فهذا أدعى إلى ذكر اسمه وعدم نسيانه .

٨ ـ نم أو على الأقل استرح بعد الحفظ .

إذا عرف الطلاب هذه القاعدة لتجنبوا السهر ليلة الامتحان فى حفظ المادة التى سيمتحنون فيها باكراً . فيأتى أحدهم فى الصباح ، مجهداً متعباً ، فيعجز عن الإجابة ، ويعجب كيف نسى ما حفظ .

٩ ــ احفظ بالطريقة الكلية مجملا لا تفصيلا .

إذا كنت تدرس كتاباً وتحفظ ما جاء فيه ، فاقرأ الكتاب له دفعة واحدة ، واقرأ الفصل جملة لا على عدة أجزاء ، ذا كان للكتاب ملخص فاقرأ الملخص قبل قراءة الكتاب ، ن الطريقة الكلية أدعى الحفظ من الطريقة الجزئية .

* * *

هذه بعض قواعد للحفظ وتقوية الذاكرة ، إذا اتبعها طلاب بوجه خاص لم يجدوا عسراً فى استيعاب ما يدرسون ، لم يشكوا من آفة النسيان .

وكلنا طلابُ حقيقة فى هذه الحياة .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .

الجديد فى المحفوظات العربية

أربعة أجزاء

تأليف

لجنة من أساتذة البلاد العربية

طبعة جديدة معدلة مزينة بالرسوم الملونة تقدم للطالب فى مختلف مراحل التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى مجموعة منتخبة من الشعر والنثر تزوده بثروة وافرة من الفصحى وتصقل ملكاته وترهف فيه الإحساس والشعور .

دار المعارف بمصر

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو
المتعـــة والثقافـــة وسمو النفس .

		ص
١	عمرون شاه	١٢
٢	مملكة السحر	١٢
٣	كريم الدين البغدادى	١٢
٤	آلة الزمان	١٢
٥	الأمير والفقير	١٢
٦	كتاب الأدغال	١٢
٧	بينوكيو	١٥
٨	نبوءة المنجم	١٢
٩	روبن هود	١٢

تصدرها

دار المعـــارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد

اقرأ

الدكتور عبد المنعم أبو بكر

أساطير مصرية

أساطير مصرية

الدكتور عبد المنعم ابو بكر

أساطير مصرية

١٣٤
اقرأ
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢٤ – أول فبراير ١٩٥٤



مقدمة

مصر ـ هذه السهول المنبسطة على جوانب النيل ـ كانت ولا تزال محط أنظار العالم تبهره بحضارتها وتعاليمها كما تدهشه بتوثبها وحيويتها .

لقد كانت دهشة الإغريق كبيرة عندما وجدوا فى وادى النيل حضارة موغلة فى القدم ولكنها رغم جمودها ما زالت تبعث فى النفوس الرهبة والاحترام ، فاضمر الإغريق الوقار لشعب مصر العريق فى حضارته ونظروا إلى معابده نظرتنا الآن إلى محاريب العلم والمعرفة المنتشرة فى أوروبا وأمريكا ، فكم من عالم إغريقى حج إلى وادى النيل وهدفه الأول أن ينهل من مواردها العلمية وفى نفسه أمل يراوده فى أن كهنة مصر قد يساعدونه فى الكشف عن سر هذا العالم .

وبقى هذا الاحترام بل أخذ يزداد من قرن إلى قرن وأخذ ينتشر بعد أن تسرب بين طبقات الشعب المختلفة وأصبح كل الناس يحتفلون بآلهة مصر بعد أن اندمجت فى آلهة الإغريق والرومان .

وعاش اعتقاد العالم اليونانى الرومانى بأن مصر هى بلاد

الحكمة والأسرار دهوراً طويلة وليس العهد ببعيد عند ما كان الناس يتحدثون عن الأهرام والتوابيت المصرية والمسلات على أنها أشياء سحرية غامضة .

وظل مايعرفه العالم عن مصر القديمة قليلا ضئيلا حتى أوائل القرن التاسع عشر أى عندما اتخذ نابليون فى عام ١٧٩٨ أهبته لغزو مصر . فبدأت صفحة جديدة فى تاريخ البلاد ، إذ فى الوقت الذى كانت فيه الجنود الفرنسية تحارب المماليك كانت هناك حملة أخرى علمية من الفرنسيين أيضاً تجوب البلاد ، مهمتها دراسة كل ما يتعلق بمصر . فبحثوا جغرافية البلاد وحيواناتها ونباتاتها وحرفها كما درسوا أخلاق الناس وعاداتهم وآثارهم ونقلوا النقوش القديمة التى كانت وقتئذ ظاهرة على معابد البلاد . وسواء أكان السبب الذى دعا نابليون إلى تزويد حملته هذه بطائفة كبيرة من العلماء للدرس والتدوين هو حبه فعلا للعلم أم كان يريد من وراء ذلك شهرة ومجداً فى ميدانى العلم والحرب ، فإن هذا العمل سجل فى التاريخ بين الأعمال الكبيرة التى قام بها هذا الرجل الفذ فقد تمكن من أن يحرر مصر القديمة من الظلام الذى ظل يكتنفها قروناً طويلة .

وقام علماء نابليون بالمهمة التى نيطت بهم بهمة ونشاط يستحقان كل إعجابنا . ويعتبر مؤلفهم العظيم « وصف مصر »

(Description de l'Egypte) الذى حوى دراساتهم المتعددة لكل ما يتعلق بمصر بداية طيبة للأعمال العلمية التى تهدف إلى دراسة مصر القديمة .

غير هذا فقد وفق رجال نابليون إلى كشف هام هو الذى حقق لنا كل ما وصلنا إليه من حل رموز اللغة الهيروغليفية بسرعة لم تكن منتظرة . فقد حدث فى أغسطس سنة ١٧٩٩ عندما كان بعض رجال الحملة يقومون بحفر خندق حول قلعة «سان جوليان» فى رشيد بالقرب من المصب الغربى للنيل أن عثروا على حجر من البازلت كتب على وجهه الأمامى نقش بثلاث لغات : —

١ — العليا منها كتبت بالهيروغليفية
٢ — الوسطى نقشت بالديموطيقية
٣ — السفلى دونت باليونانية

ولما كان النص المكتوب باليونانية سهل القراءة — إذ أن اليونانية كانت لغة مفهومة مدروسة — فقد فهم العلماء منه أن هذا الحجر يتضمن قراراً للكهنة المصريين بتكريم بطليموس إيبفانوس (بطليموس الخامس ١٩٦ ق . م) على أن يسجل هذا التكريم باللغة المقدسة (الهيروغليفية) واللغة الشعبية (الديموطيقية) وباليونانية .

وكان هذا الكشف مثاراً للتنافس بين علماء أوروبا فقصدوا مصر وقاموا بجهود جبارة لفهم رموز اللغة المصرية القديمة ومن أهم هؤلاء العلماء شمبليون الفرنسي ولبسيوس الألمانى .

وبدأ الظلام الذى غلف هذه الحقبة من تاريخ مصر ينقشع وأخذ العالم يتطلع إلى مصر ويتتبع الجهود التى تبذل لفهم حضارتنا العريقة وعلم الناس والدهشة تملأ قلوبهم أن الشعب المصرى كان صاحب مدنية وعلم وفن بز مدنيات وعلوم وفنون الشعوب القديمة جميعاً .

ومنذ مستهل القرن العشرين أجريت عدة حفائر علمية منظمة فى أماكن لا حصر لها من مصر وتهافت على مصر العلماء من الفرنسيين . والإنجليز والإيطاليين والألمان والبلجيكيين والنمساويين والأمريكيين وقاموا بالحفر ونشروا نتائج أعمالهم ، كما أخذ المصريون منذ عهد قريب يساهمون فى هذه الدراسات . وقام البعض منهم بالتنقيب وتأليف الكتب ؛ وسجلت العشرون سنة الأخيرة نصراً كبيراً لعلماء مصر فى جهودهم العلمية كما سجلت لهم أيضاً مقدرة فى التأليف .

كلمة عامة عن المعتقدات المصرية

يقولون إن الشعور الغريزى بالخوف والفزع هو الذى دفع الإنسان الأول إلى احترام كل القوى العظمى التى تؤثر فى حياته دون أن يتعرف كنهها . ومن هذا الشعور الغريزى أيضاً نشأت الديانة .

إن الإنسان الأول الذى عاش على الصيد والقنص والذى سكن الكهوف واكتسى بأوراق الأشجار أو جلود الحيوان كان يتطلع إلى العالم المحيط به ويشعر ويحس بالقوى التى تسيطر على هذا العالم إلا أنه لم يستطع أن يميزها أو يصل إلى أصلها .

حقاً لقد كون فى مخيلته صوراً لها ، كما أخذ يعطى لكل منها اسماً معيناً بل لمس أن بين هذه القوى ما ينفعه فصادقها ، ومنها ما يضره فعاداها . وأخذ يتصور الأشياء التى تدخل السرور إلى نفسه كما عرف ما يثيرها . ولا غرابة فى ذلك فهو إنسان له صديقه كما أن له عدوه . وعرف أن الصديق من ينفع والعدو هو من يضر .

ومرت العصور الأولى على الإنسان الأول وتطورت أساليب حياته وتكونت الأسرة ومن ثم عرف الإنسان التكتل فظهرت

القبيلة وتكونت الأمة . هذه الخطوات الحاسمة فى تاريخ البشر استتبعت أيضاً تغيراً فى نظرته إلى تلك القوى الخفية وأخذت أهداف الإنسان المدنية تسمو شيئاً فشيئاً وتتركز حول التعرف على ما يحويه ذلك العالم البعيد عن حياته اليومية .

واختص الدين المصرى بطابع ميزه عن غيره من الأديان استمده من بيئته الخاصة : أرض خصبة وسماء مشرقة ونيل فياض يأتى كل عام بالخيرات . ولكن مصر حوت قوى طبيعية أخرى غير النيل سيطرت على المصرى وأجبرته على أن يفكر فيها ليعرف كنهها — هناك الشمس التى تظهر صباح كل يوم من وراء الجبال فى الشرق فتجلب له الدفء والحياة . ومما لا يقبل الشك أن النيل والشمس كان لهما أثر قوى ظاهر فى حياة المصرى . فأول تفكير فى تعيين الاتجاهات الأربعة اتخذه من النيل وعرف الجنوب قبل أن يعرف الشرق . فالجنوب هو الاتجاه الذى يأتى منه النيل بفيضانه الجبار فترتفع المياه وتغمر حقوله وتكسبها الخصب . وكذلك هو النيل الذى يسبب له أحياناً الدمار والخراب إذا ما ارتفع فوق جسوره فيغمر قراه ويهلك الحرث والنسل . ومن الغريب أن من بين الألفاظ التى يطلقها المصرى على الجنوب لفظ يستعمل أيضاً للدلالة على كلمة « الوجه » . أما الشمال فيستعمل له كلمة تدل أيضاً على

مؤخرة الرأس .

ولقد بهرت السماء المصرى بنجومها وقمرها وأخذه العجب من أمر السحب التى تتكاثف فتحجب الشمس، وبعد لحظات يدوى الرعد ويسطع البرق وتهطل الأمطار وتتراءى له كما لو كانت هناك حرب شعواء قامت فى السماء بين قوى لا يعرف من أمرها شيئاً .

فهل نعتقد نحن أن كل هذا لم يكن كافياً ليجبر المصرى على التفكير فى أمر هذه المظاهر الغريبة وهذه القوى الخفية . لقد فكر المصرى ولم يستطع إلا أن يجعل من كل هذه القوى آلهة مختلفة . بل كانت لديه هى الآلهة الكبرى، لقد خافها ورهب جانبها وشعر بجبروتها وعظمتها وقوتها وسيطرت عليه . وإذا كان الحيوان يخاف المخلوقات الغريبة التى لا يعرفها فيهرب منها[١] ، فإن الإنسان البدائى كان يتعبد إلى كل ما خفى عليه أمره .

---

(١) حدث أن باغت أسد سيدة ولم يكن لديها ما تدافع به عن نفسها سوى مظلتها التى نشرتها فى وجه الأسد . فجزع الأسد وولى هارباً . كما أن من المعروف عن صيادى الأسود فى السودان أنهم يتزودون ببعض الدجاج يستعملونه إذا ما هاجمهم أسد بأن يرمونه بإحداها فيفزع لصياحها الغريب عليه أشد الفزع ويسرع فى الهرب .

ولكن المصرى وهو هذا المخلوق الضعيف الذى يحيا فوق الأرض ، تساءل فى حيرة عن علاقته بهذه الآلهة الكبرى ؟ هل كانت تهتم بأمره وتسعى لمعونته إذا ما حلت به الأزمات ؟ هل كانت هذه الآلهة تسرع إلى إغاثته اذا هاجمه عدو أو مرضت ماشيته ؟ ولكنه عرف بغريزته ان هذا بعيد التحقيق . فقد كانت آلهته تحيا فى السماء . . .

إذن فقد وطد العزم على أن يجد آلهة أخرى قريبة منه تساعده وتكون سنده ، فتشد من أزره وتخفف من ويلاته . وفى الواقع عاش المصرى الأول بين مظاهر طبيعية كثيرة منها ما كان يثير دهشته ويملؤه إعجاباً ،ومنها ما كان يرعبه ويقض مضجعه . هناك الحيوانات المقدسة التى سكنت أرجاء نيله وملأت الفيافى التى تحيط بمزارعه . هناك التمساح وفرس النهر والأسد وابن آوى والذئب والثعبان وغيرها . كما كانت أيضاً تلك الأشجار الضخمة العالية التى نبتت فى حقوله وهو لا يعرف من زرعها ومتى نبتت واطمأن إلى كثير من الحيوانات التى ساعدته على حرث الأرض مثل الحمار والثور والتى عاش يأكل من لحمها ولبنها مثل البقرة والنعجة والخنزير وغير ذلك . كل هذه الأشياء عاش بينها وكانت دائماً قريبة منه ، فعبدها حتى يضمن سرعة المساعدة ولأنه يخاف قسوة الانتقام .

وهكذا تكونت تلك الآلهة العديدة التى يصعب علينا حصرها ، تعددت بتعدد أسباب وجودها والمناطق التى عبدت فيها وتعلق الإنسان بهذه الآلهة الصغرى وتأثرت بها حياة الأسرة سواء فى القرية والإقليم . حتى أصبح لكل أسرة ولكل قبيلة ولكل إقليم آلهته المتعددة حتى حان العصر الذى تكونت فيه مصر سياسياً فاندمجت الأسرة فى الجماعة وتكونت المقاطعات ، ثم اندمجت هذه المقاطعات وتكونت مصر من قسمين هما الوجه القبلى والوجه البحرى . ثم اتحد الوجهان وأصبحت مصر دولة على رأسها ملك واحد .

هذه المراحل السياسية أثرت بطريق غير مباشر فى المعتقدات الدينية فى البلاد إذ جمعت هذا الخضم المتناقض من الآلهة فى صعيد واحد وأضفت عليه الشكل النهائى الذى ينحصر فى أقسام ثلاثة :—

أولا — الآلهة الكبرى وهى التى تمثل فيها المصرى قوى الطبيعة مثل الشمس والقمر والسماء والأرض والهواء والرياح والمحيط وغير ذلك .

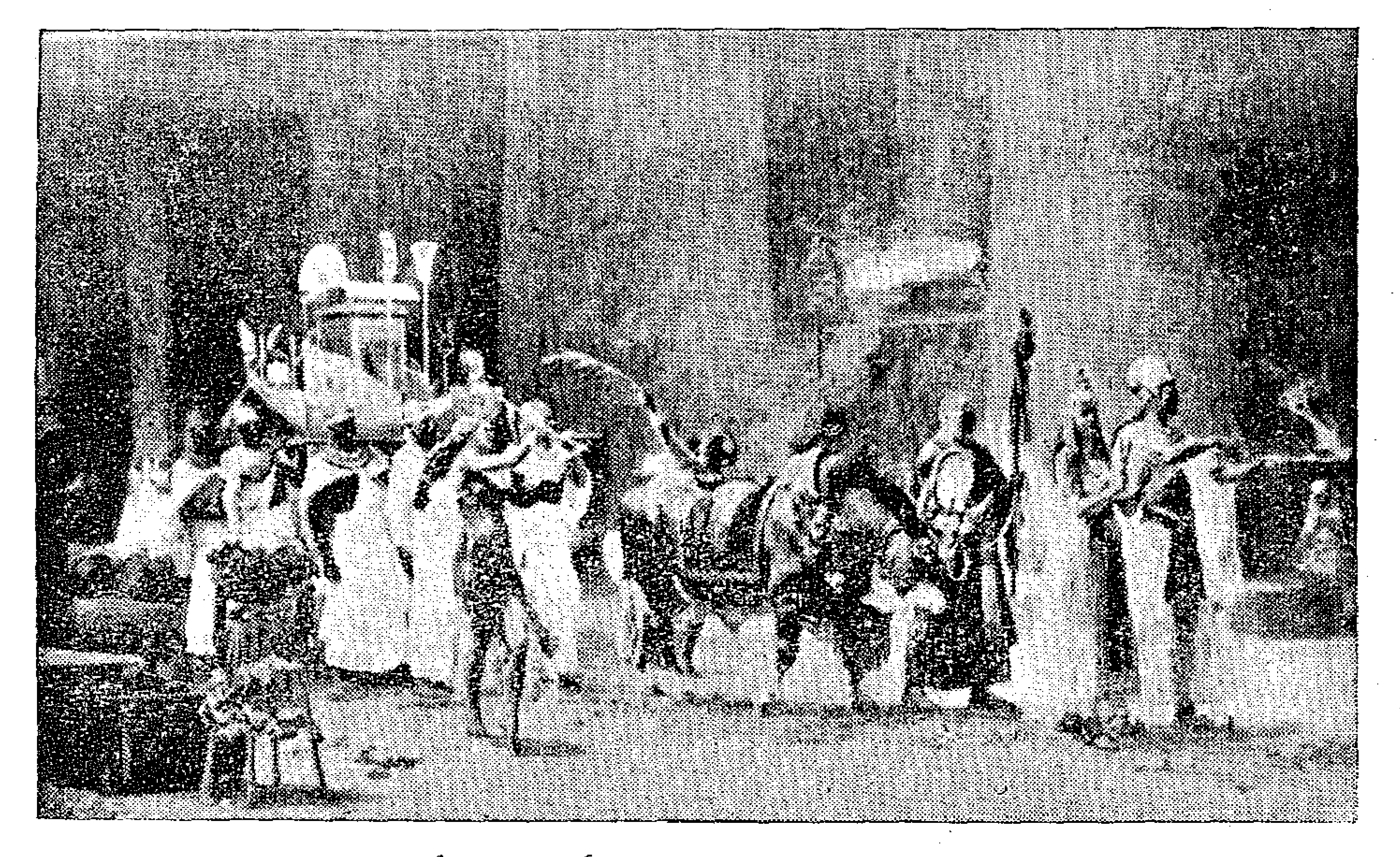
ثانياً — الآلهة المحلية وهى التى تعبد فى القرى والمدن والأقاليم

ثالثاً — آلهة الدولة التى ظهرت بظهور الملكية المتحدة فى مصر . ولقد كانت فى الأصل آلهة محلية صغيرة ثم كبر شأن

الإقليم الذى عبدت فيه وتمكن حاكمه من أن يسيطر سياسياً على ما جاوره من أقاليم فكان يفرض إلهه على هذه الأقاليم . وإذا تم له النصر ووحد أقاليم مصر كلها وأصبح الملك ، استتبع ذلك أن يكون إلهه هو إله جميع المصريين .

ويجدر هنا بالباحث أن يتعرض لبعض النقط التى تعتبر من أهم الأسس لتفهم الديانة المصرية القديمة . لقد سبقت الإشارة إلى أن المصرى اختار بعض الحيوانات لتقديسها وفى كثير من الأحوال اختار بعض الحيوانات المفزعة مثل التمساح والثعبان ، كما اختار أحياناً بعض الحيوانات الأليفة مثل الكبش والثور والبقرة . وكثيراً ما أختار أنواعاً أخرى شغلت تفكير الرجل الساذج بحركاتها وأعمالها كابن آوى الذى يتسلل ليلا ويقتحم المقابر لسرقة جثث الموتى .

لقد اعتقد عباد هذه الحيوانات أنها تحوى شيئاً إلهياً فى نفسها بمعنى أنه إذا أراد أحد الآلهة أن يجسد نفسه للبشر فإنه يختار حيواناً ترمز بعض صفاته إلى ما لهذا الإله من صفات . ولكن عرفوا أيضاً أن الإله لا يكون مجسداً فى كل بقرة أو فى كل تمساح ، ورغم الاحترام الجم الذى أحاط به المصرى تلك الحيوانات التى كان يعبدها فإنه لم يجد حرجاً فى أن يذبح البقرة أو يقتل التمساح . ولم ير فى ذلك عملا إجرامياً .



رسم تصويرى لموكب دينى يتوسطه الإله (الثور) « أبيس » وقد أحاط به الكهنة يطلقون البخور . يتقدم الجميع الملك والملكة . كما تقوم بعض الكاهنات بالرقص الدينى .

وهكذا كان المتعبد يحتفظ بنموذج واحد من ذلك الحيوان الذى يرمز إلى إله معين يقدم له فروض التقديس والعبادة بل كثيراً ما استبدلوا النموذج الحى من الحيوان بتمثال له . ولكن حدث بالنسبة إلى بعض الآلهة أن اضطر عبدتها إلى تمثيلها بجسم آدمى ورأس شكلت على هيئة رأس الحيوان ، وكان ذلك متوقع الحدوث . ألم يقولوا عن الإله أنه يحب ويكره ، ويحمى ويعاقب ، ويعطى ويأخذ ، فمن الواجب إذن أن يظهر الإله لهؤلاء على هيئة آدمى ، لأن هذه الصفات لا يمكن أن تكون لحيوان مثل التمساح أو الكبش أو الصقر . وأنه مما يثير دهشتنا حقاً أن المصرى استطاع على مر الأزمنة والدهور أن يحافظ على هذا المزج الغريب بين الإنسان والحيوان وأن الشعب المصرى تقبل هذا المزج ولم ير فيه أى تناقض .

ولقد مكن موقع البلاد الجغرافى المحصن أهل مصر أن يعيشوا عيشة هادئة . ومن أجل ذلك بقيت ديانتهم خلواً من الطقوس المخيفة . فلم يكن بينها مكان لآلهة ظمأى إلى الدماء ولا طقوس تسرف فى السرور أو الملذات . وكانت الطقوس الدينية تؤدى بشكل هادىء رزين

وعومل الإله معاملة الرجل القوى الذى يسعى الجميع إلى تأكيد مظاهر احترامه . فيقدمون له المأكل والمشرب والزهور

والملابس والحلى ويشيدون له مسكناً يحرصون على نظافته ويملأ جوانبه عبيق البخور . وكان الإله فى زعمهم يسر لكل هذا فيغرق الناس ببركاته ويغدق عليهم النعم .



كاهن مصرى من عصر الدولة الحديثة

وهكذا كانت الديانة المصرية سهلة فى أصولها بسيطة فى طقوسها ولكن الكهنة لم يرضوا بهذه السهولة أو بتلك البساطة وهم تلك الفئة من الناس الذين أخذوا على عاتقهم خدمة هذه الآلهة التى كانت فى الأصل حيوانات أو نباتات أو بعض مظاهر الطبيعة يتحتم لبقائها العناية بها ، ولقد تمتع هؤلاء الكهنة بمركز سام بين أوساط الشعب در عليهم الخيرات وجعلهم يعيشون عيشة رخاء حرصوا على الإبقاء عليها بشتى الطرق وأقربها إنهم نسجوا الأساطير المختلفة عن الهتهم وطبيعتها وقوتها وتأثيرها على بنى الإنسان وجعلوا من أنفسهم الوسطاء الوحيدين بين هذه الآلهة وبين الشعب .

ويظهر أن تكوين الأساطير العامة عن الآلهة سار جنباً إلى جنب مع التطور الدينى فى مصر ، إذ أنه فى تلك العصور حين كانت كل منطقة تعبد إلهها الخاص كان من الصعب الجمع بين صفات إلهين فى منطقتين مختلفتين بل كان اتباع كل إله أو قل كهنة كل إله لايتحدثون أو يشيدون إلاّ بذكر أعاجيب وأفعال إلههم وحده . ولكن عند ما اندمجت العبادات المحلية فى ديانة شعبية عامة اتحدت قصص الآلهة لتكون الأساطير العامة التى أصبحت — على الأقل فى أهم أجزائها — ملكاً مشاعاً للشعب وحده .

أسطورة
« رع » واسمه المجهول الذى يدل على قوته

اعتقد المصرى القديم بوجود علاقة خفية بين الإنسان واسمه واعتقد أيضاً أن اسم الشخص يكون الجزء الحى منه بل إن هذا الاسم هو العنصر الذى يقوّم شخصيته وقوته . ومن أجل ذلك اعتاد المصرى أن يطلق اسمين على الشخص . « الاسم الأكبر » و « الاسم الأصغر » . أو الاسم الكبير والاسم الجميل .

وكان الاسم الثانى هذا ، هو الذى يشاع بين الناس بينما اعتاد المصرى أن يخفى اسمه الكبير . ومن هنا اعتقد المصرى أنه لكى يؤثر فى رجل مات ما عليه إلا أن يمحو اسمه من مقبرته . وكان هذا العمل كافياً لقتل ذلك الإنسان قتلا أبدياً . فهو يسلبه بهذا العمل ذلك العنصر القوى الذى تقوم عليه حياته الأبدية .

ومن الغريب أن هذا الاعتقاد لم يسد بين المصريين فقط . فهناك شعوب بدائية اعتقدت أن الاسم هو بمثابة الروح ومنها من يعتقد أن الاسم هو الجزء الحى من جسم الإنسان وعليهم أن يخفوه للابقاء على حياته وإلا سوف يستعمله الساحر للقضاء عليه .

ومن الغريب أيضاً أن المصرى اعتقد أن الإله كأى شخص يجب عليه أن يخفى اسمه الكبير وإلا أصابه الفناء .

والأسطورة التالية تؤكد هذا الرأى فهى تحدثنا عن الإله الأكبر «رع» وعن أسمائه الكثيرة وأن اسماً واحداً من بينها أحاطه الإله بسياج من الكتمان لأنه يعتبره ينبوع القوة والسلطة والجاه .

أرادت الآلهة «ايزيس» ان تعرف هذا الاسم لتزيد من سلطتها وقوتها بين الآلهة . فدبرت المؤامرة ونجحت فيها .

وكتب النص الذى سوف نتخذه مصدراً لقصتنا على بردية محفوظة فى متحف تورين . ويؤرخها العلماء بعصر الأسرة التاسعة عشر . أى حوالى سنة ١٢٥٠ ق . م .

وها هو نص الأسطورة : —

« أسطورة الإله الأعظم الذى خلق نفسه من نفسه ، والذى خلق السماء والأرض ، والماء ، ونسيم الحياة ، والنار ، والآلهة ، والإنسان والحيوان ، والزواحف ، والطيور ، والأسماك . ملك الآلهة والبشر الذى لا تقاس حياته بالسنين والذى لا يعلم اسمه الحقيقى هذا الإله أو ذاك »

« والآن كانت « إيزيس » تلك المرأة الماهرة لها قلب يفوق فى شجاعته شجاعة مليون قلب من قلوب الرجال . وكانت مهارتها تفوق مهارة مليون إله . ولم يكن هناك شىء فى السماء أو

على الأرض لا تعرفه . فهى كـ « رع » الذى صنع كل ما على الأرض . »

« ودبرت هذه الإلهة أمراً لتحققه لكى تعرف اسم الإله الأعظم . »

«وكان الإله « رع » قد اعتاد أن يدخل كل يوم إلى قاربه على رأس بحارته لكى يبدأ رحلته اليومية بين الشرق والغرب . »

«وكانت قد تقدمت به السنون ، وضعف تحكمه فى لعابه الذى كثيراً ما كان يسيل من شدقيه ويتساقط على الأرض . »

«فتناولت « إيزيس » بعضاً منه وعجنته بتراب الأرض وشكلت منه ثعباناً مقدساً ووضعته فى طريق « رع » اليومى الذى كان يسلكه حسب إرادته بين شطرى الوادى . »

«وفى يوم من الأيام خرج الإله المقدس من قصره تحف به الآلهة الأخرى لكى يبدأ رحلته اليومية . فدبت الحياة فى هذا الثعبان ولدغه . فصرخ الإله صراخاً مدوياً من شدة الألم وتجاوبت السموات صراخه وصاح أفراد التاسوع متسائلين :

« ما هذا . . . ما هذا . . . ؟ »

«ولكن « رع » لم يستطع لفرط ألمه وكثرة صياحه أن يجيب على تساؤلهم . وكانت شفتاه ترتعشان . وارتجفت أعضاء جسمه ، إذ تمكن السم من كل جزء منها . وعند ما أخذ الإله يتمالك

نفسه صاح فى أتباعه : —
« أدركونى . . . أغيثونى . . .
« أنتم معشر الآلهة يا من خلقتكم وأخرجتكم من جسمى . . .
« اقتربوا منى لأحدثكم بما حدث لى . . .
« لقد وخزنى واخز لا يعرفه قلبى ولم تره عيناى . ولم تصنعه
« يداى ولا أستطيع التعرف عليه من بين مخلوقاتى . إن إيلامه
« شديد لم أشعر بألم مثله . وليس هناك أشد إيلاماً منه . . .
« إنى شريف ابن شريف . أتيت إلى الحياة إلهاً . . .
« إنى عظيم ابن عظيم . اختار أبى إسماً لى . . .
« لقد تعددت أسمائى واختلفت أشكالى
« وقد أودعت صورتى آلهة مختلفة . . .
« واختار أمى وأبى اسماً لى . . .
« وأخفى هذا الاسم فى جسدى قبل ولادتى حتى لا تستطيع
« قوة ساحر أو ساحرة أن تعرفه وتتغلب به على . . .
« دعوا أولاد الآلهة يحضرون إلى . . .
« أولئك الذين عرفوا بالحديث الطيب وعرفوا السحر .
« ووصلت حكمتهم عنان السماء . »
فأتى هؤلاء الأولاد . ولكن « إيزيس » حضرت معهم
بدهائها وفى حديثها نسيم الحياة كما لا يخلو كلامها من الألم . . .

فقالت : —

« ماذا حدث . . . ماذا حدث . . . يا أبي المقدس . . ماذا . . ؟

« هل وخزك ثعبان فحل بك الهزال ؟

« أو تجاسر أحد أبنائك ورفع رأسه أمامك ؟

« فإنى مستعدة أن أحطمه بسحرى النفاذ وأجعله ينهزم

« عند أول نظرة من شعاعك . . . »

ففتح الإله المقدس فمه وقص على « إيزيس » قصة الثعبان ثم زاد على ذلك أنه يكاد ينوء بما تحمله من الألم ووصف نفسه قائلا : —

« إنى أشعر ببرودة أشد من برودة الماء .

« إنى اشعر بحرارة أشد من حرارة النار .

« ويغرق جسمى فى العرق بينما اهتز من شدة البرد .

« هناك غشاوة على عينى ولا أستطيع الرؤية . . . »

فقالت له « إيزيس » : —

« أخبرنى باسمك أيها الأب المقدس لأن الإنسان لا يستطيع

« أن يحيا دون أن يذكره فى تعويذة السحر . »

فقال « رع » : —

« أنا ذلك الذى خلق السماء والأرض . ونظم الجبال فى

« سلاسل ممتدة .

« وخلق ما يعيش فوقها . . .

« أنا الذى صنع الماء . . .

« وخلق الثور للبقرة . . .

« وجعل لذة الجماع وسيلة للنسل . . .

« أنا الذى خلق السموات ووضع أسرار الأفقين حتى

« تتسع لأرواح الآلهة التى تحيا فيها . . .

« أنا الذى فتح عينيه حتى يكون النور . . .

« وأنا الذى أغلق عينيه حتى يكون الظلام . . .

« أنا الذى جعلت النيل يجرى من الجنوب إلى الشمال . . .

« ولكن أنا الذى جهل الآلهة اسمه الحقيقى . . .

« أنا الذى حددت الساعات حتى تكون الأيام . . .

« أنا « خبرى » فى الصباح . . .

« و « رع » فى الزوال .

« و « آتوم » فى المساء .

« ولكن الألم لا يزال على أشده . »

فقالت « إيزيس » لـ « رع » : —

« إن اسمك الحقيقى لم تذكره بين الأسماء التى قلتها . . .

« إذا أخبرتنى به خرج السم من جسدك . . .

« أعلم أن الإنسان لا يحيا إلا إذا نطق باسمه . . . »

ولكن آلام السم ما زالت تحرق جسده ، فكانت أقوى من لهيب النار .

فقال جلالة « رع » : —

« يا ابنتى « إيزيس » . . . قربى أذنيك منى حتى يخرج

« اسمى من جسدى فيدخل جسدك . . . »

وهكذا تمكنت « إيزيس » من معرفة اسم « رع » ومن ثم قالت : —

« اخرج أيها السم . . .

« اخرج من جسد « رع » . . .

« اخرج من جسد « رع » المحترق لأنى أقول التعويذة . . .

« إنى أنا التى آمر . . .

« إنى أنا التى أبعث بالرسالة . . .

« اخرج على الأرض أيها السم القوى . . .

« ولتعلم أن الإله الكبير قد أسر فى أذنى باسمه الكبير ... »

فعاش « رع » ومات السم من قول « إيزيس » الكبيرة . سيدة الآلهة التى تعرف « رع » باسمه الحقيقى .

أسطورة

الصراع بين « حوريس » و « ست »

أن هذه الأسطورة تمثل القضاء واحكامه وتعطى فكرة عن كل الخطوات التى تستلزمها قضية ما وتبين اطوارها المختلفة فى ساحة القضاء .

وطرفا النزاع هنا هما « حوريس » و « ست » وقد رغب مجمع الآلهة فى أن يفصل بينهما لكى يضع حداً للنزاع الطويل المتشعب بينهما .

ولو ان موضوع هذه الاسطورة يتعلق بشخصيات اعتبرها المصرى القديم آلهة له إلا أن الاسلوب الشيق الذى دبجت به الاسطورة يجعل القارئ يحس أنها تعطى صورة حية لما كان يحدث بين الناس وخاصة لأن هذا الأسلوب قد صاغه مؤلف الاسطورة بالفاظ تستعمل فى الحياة اليومية ولا نجد نظيراً لها فى لغة الأدب أو لغة الدين .

وليس من شك فى أن هذه الاسطورة كانت تلقى على الناس فى مجتمعاتهم الليلية وقد تزاحموا فى ميدان فسيح وسط قريتهم ليستمعوا إلى هذه القصة كما نستمع نحن الآن إلى قصة

أبي زيد الهلالى أوما يشابهها .

ويرى بعض العلماء فى عناصر هذه القصة شبهاً يدفعهم إلى مقارنتها بما جاء فى شعر هومير والسبب فى هذه المقارنة هو أن قصتنا هذه تتحدث عن الآلهة كما لو كانوا أفراداً عاديين بأحاسيسهم البشرية ونزعاتهم المغرضة وتصرفاتهم البغيضة الى درجة أن بعض ما يسيء الناس كان يجلب إلى قلوبهم الفرح ويجعلهم يهتفون متصايحين إعجاباً بما حدث .

هذه الأسطورة وردت مكتوبة بالخط الهيراطيقى على بردية وجدت بين أنقاض طيبة القديمة واشتراها ثرى سميت باسمه وأصبحت تعرف الآن باسم (بردية شستر بيتى) .

وتقول هذه الأسطورة : —

« وتقدم « حوريس » الطفل المقدس إلى سيد العالم « آتوم » « يطالب بعرش أبيه « أوزيريس » . »

فعقد العزم على تقديم الاثنين « حوريس » و « ست »[(١)] للمحاكمة وقال « شو » بن « رع » لآتوم الأمير القوى فى هليوبوليس : —

« الحق مع سيدى . فليعطى حوريس هذه الوظيفة . »

ثم قال « تحوت » موجهاً حديثه إلى التاسوع :—

(١) أخ أوزيريس والد حوريس .

« هذا هو الحق مليون مرة . »

وهنا تصاعد صوت « ايزيس » فرحة وكانت السعادة تطفو على وجهها ووقفت أمام سيد الجميع وقالت : —

« يا ريح الشمال اذهبى إلى الغرب واحملى معك هذا النبأ السعيد لتبليغه لأوزيريس . له الحياة والسعادة والصحة . »

وهنا تحدث سيد الجميع وقال : —

« ما هذا الذى تقولونه . وماذا جدا بكم أن تتخذوا هذا القرار دون موافقتى . »

وقال أحد الآلهة : —

« إن اسم حوريس للعرش قد وقع الاختيار عليه وثبت التاج الأبيض على جبينه . »

فسكت سيد الجميع وطال سكوته لأنه غضب على التاسوع



« نوت » إلهة السماء

وتقدم « ست » بن « نوت » إلهة السماء وقال :—

« دعوه يخرج معى وسوف أدلل لكم على ضعفه وسوف أريكم وأجعل من التاسوع شاهداً عليه ، كيف أستطيع التغلب عليه . إذ أنى الوحيد الذى يعلم تماماً كيف يتخلص منه . »

وتقدم « تحوت » وقال :—

« ما هذا . ألسنا بصدد التعرف على المجرم . وهل معنى هذا أن وظيفة « أوزيريس » تعطى لـ « ست » بينما يقف ابنه هنا فى ساحة القضاء . »

وزاد غضب « رع حور أختى » واشتد هياجه لأنه فى قرارة نفسه كان يرغب فى إسناد هذه الوظيفة لـ « ست » صاحب القوة العظيمة ابن « نوت » .

وهنا صاح « أونوريس » أحد الآلهة وتساءل متعجباً ماذا نحن صانعون الآن ؟

واختلط الحابل بالنابل فى ساحة القضاء واقترح البعض أن يسأل فى ذلك بعض الآلهة لكى تعطى رأيها فيمن يستحق الوظيفة من بين الاثنين .

ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل وظهر الاقتراح بسؤال الإلهة « نايت » فهى جديرة باتخاذ القرار الناجز .

وأمر أعضاء التاسوع أن يكتب « تحوت » خطاباً وهو يقف فى حضرة سيد الجمع وقالوا له : —

« اكتب خطاباً إلى « نايت» العظيمة أم الإله .

اكتبه باسم سيد الجميع . النور الذى يسكن هليوبوليس »

فأومأ « تحوت » برأسه وقال :—

«حسناً سأفعل ما تأمرون به

نعم سأفعل ! سأفعل ! . »

وجلس على الأرض وكتب الخطاب كما يأتى :—

« ملك مصر العليا والسفلى« رع آتوم » محبوب «تحوت» سيد الأرضين ، الساكن فى هليوبوليس . يقول ما يأتى :—

« ماذا نحن فاعلون بأمر هذين الرجلين اللذين وقفا فى ساحة القضاء مدة ثمانين عاماً ولم يستطع أحد أن يفصل فى أمرهما . نرجو الكتابة إلينا بما نحن فاعلون . »

وأرسلت « نايت » الإلهة العظيمة أم الإله خطاباً إلى التاسوع تقول :—

« اعطوا وظيفة « أوزيريس» لابنه « حوريس» وإياكم أن ترتكبوا هذا السخف الذى ليس فى موضعه وإلا غضبت وسقطت السماء على الأرض . وقولوا لسيد الجميع ، النور الساكن فى هليوبوليس . أزد من ممتلكات « ست » بإعطائه

ابنتيك « عنات » و « اشترت » . وضع « حوريس » فى « مكان أبيه «أوزيريس » . »

ووصل هذا الخطاب إلى التاسوع عند ما كان يجلس أعضاؤه فى الصالة الكبرى وتسلم « تحوت » الخطاب وبدأ قراءته أمام سيد الجميع وأعضاء التاسوع الذين هتفوا فى صوت واحد : —

« إن الإلهة على حق . »

فازداد حنق سيد الجميع على « حوريس » وقال له : —

« إن جسمك لضعيف وهذه الوظيفة كبيرة عليك . ماذا أنت صانع بها . أنت أيها الطفل الذى لا زالت رائحة فمه كريهة »

فغضب أعضاء التاسوع لهذا الحديث ووقف الإله « بابا » وقال لسيد الجميع : —

« ماذا تقول أنت يا من هجره عباده . »

واستاء سيد الجميع من تطاول هذا الإله عليه وامتلأ قلبه حزناً وخرج أعضاء التاسوع وهم يصرخون فى وجه « بابا » قائلين له : —

« اخرج من هنا فجرمك كبير ولا مثيل له »

وانصرفوا إلى مخيمهم .

أما سيد الجميع فقد أمضى يوماً بطوله مستلقياً على ظهره يخيم عليه الحزن وقد امتلأ قلبه بالغضب ولم يرض أن يقترب منه أحد .

وبعد أن مرت السنون والأعوام أتت « حاتحور » سيدة شجرة الجميزة لتزور أباها «سيد الجميع » ووقفت أمامه مظهرة له ما خفى من أعضاء جسمها وهنا انفجر الإله العظيم ضاحكاً وصحا من رقدته وجلس مع التاسوع وقال لحوريس وست :—

« قصوا علىّ قصتكم »

واختلفت الأصوات وتزايد الصراخ وخاصة عند ما تدخلت « إيزيس» أم « حوريس » لتدافع عن ابنها .

واشتد حنق « ست » وأقسم فى ثورة غضبه أنه سيقتل واحداً من الآلهة كل يوم . ورفض رفضاً باتاً أن يشترك فى هذه القضية ما دامت « إيزيس » حاضرة .

وأصرت الآلهة عندئذ أن تنسحب إلى مكان بعيد اختارته فى (الجزيرة المتوسطة) . وأمرت صاحب القارب ألا ينقل إلى الجزيرة أية امرأة تشبه « إيزيس » .

إلا أن « إيزيس » اخفت معالمها وتشبهت بشكل آخر ورشت صاحب القارب وطلبت إليه أن ينقلها إلى الجزيرة المتوسطة .

وأغرت « إيزيس » — وقد ظهرت كفتاة جذابة — « ست » واستدرجته بعيداً عن مجلس التاسوع تارة تقص عليه قصصاً لطيفة وتارة تداعبه مداعبة مغرية . ثم حدثته عن نفسها قائلة :

« إن زوجها كان راعياً للماشية فأتى رجل وقتله وسرق « ماشيته وترك ابنها الوحيد دون عائل فغضب « ست » وقال : « الويل للغاصب ! . »

وترامى صراخه إلى التاسوع بينما انقلبت « إيزيس » إلى طائر ارتفع إلى السماء وهو يقول : —

« لقد حكمت على نفسك بنفسك !

« لقد حكمت على نفسك بنفسك ! »

وصرخ أعضاء التاسوع قائلين : —

« ما هذا يا « ست » لقد أتعبتنا بقضيتك .

« وأنت تقر الآن بالحق .

« فلتعطى وظيفة « أوزيريس » إلى ابنه « حوريس » .

إلا أن « ست» لم ينهزم . وطلب إلى سيد الجميع أن يدخل فى معركة جسدية مع « حوريس » على أن تعطى الوظيفة للغالب .

وهلل التاسوع لهذه الفكرة وسرعان ما انقلب الخصمان إلى فرسى نهر وصمما على أن يبقيا تحت الماء مدة ثلاثة أشهر كاملة

على أن تعطى الوظيفة للغالب .

ولكن « إيزيس » أفسدت المراهنة بتدخلها إذ أنها أسقطت فى الماء (خطافاً) لكى تشل حركة « ست » .

فاستعطف هذا الأخير أخته [1] « إيزيس » وطلب إليها بحنان أن تبعد عنه هذا الخطاف وسرعان ما رق قلبها .

فغضب « حوريس » على أمه وأطاح برأسها .

فانزعج أعضاء التاسوع لهذه الفعلة الشنيعة وسمحوا ل « ست » أن يعاقب « حوريس » باقتلاع عينيه ودفنهما فى الأرض حتى يضيئوها بهما .

وهنا أسرعت « حاتحور » ووضعت فى مقلتيه لبن غزال وبذلك ارتد الضوء إليهما .

وطلب « رع » إلى الخصمين أن يوقفا عراكهما .

فصرخ « ست » مقسما : —

« سوف لا تعطى وظيفة « أوزيريس » إلى « حوريس » إلا بعد أن يتم تغلب أحدنا على الآخر . واقترح أن يقوم سباق بينهما فى سفينتين من الحجر على أن يتسلم الغالب وظيفة « أوزيريس » . »

---

(١) كانت كلمة أخت عند المصريين القدماء تطلق أيضاً على الزوجة إلا أن « إيزيس » فى هذا الموضع هى حقيقة أخت « ست » .

فأعد « حوريس » لنفسه قارباً من الخشب طلاه من الخارج بطلاء من الجص ليبدو للناظر أنه صنع من الحجر .

أما « ست فقد بنى لنفسه قارباً من الحجر الأصم . وما كاد يضعه فوق الماء حتى غرق فى اليم .

وأقلع « حوريس » بسفينته نحو الشمال متجهاً إلى مقر الإلهة « نايت » . وعند ما وصل إليها أبلغها كل ما حدث كما عرض على مسامعها الأغلاط التى ارتكبها .

أما « ست » فقد اتخذ لنفسه شكل فرس النهر وأراد مهاجمة قارب « حوريس » الذى سارع باستعمال (خطافاً) ليلقيه على « ست » . إلا أن أعضاء التاسوع صرخوا قائلين :

« لا ترم « ست » بهذا الخطاف » .

وفى نهاية الأمر اقترح الإله « تحوت » أن يكتب الآلهة خطاباً إلى الإله «اوزيريس » ليدلى برأيه فى هذه المشكلة .

ولا غرابة إذا انحاز « أوزيريس » إلى جانب ابنه « حوريس » وأرسل الخطاب الآتى إلى التاسوع : —

« لا أدرى سبباً لسياسة الخداع التى تتخذونها نحو ابنى حوريس وأنتم تعلمون انكم تستمدون قوتكم منى كما تعرفون أننى صانع الشعير والقمح الذى يحفظ عليكم حياتكم كما

أمدكم بقطعان الماشية التى تتغذون بها وتدرون تماماً أنه لا إله هناك استطاع أن يعمل لكم ما أعمله . »

ولكن هذا الخطاب لم يرض « سيد الجميع » وغضب منه وسارع إلى الرد عليه بما يأتى : —

« فلنفرض أنك لم تخلق . ولنفرض أنك لم تولد . إلا أنى « أؤكد لك أن الشعير والقمح كانا سيوجدان وتتغذى بهما الآلهة »

وعند ما وصل هذا الخطاب إلى « أوزيريس » وبعد أن قرئ عليه سارع بالرد مهدداً الآلهة أن يرسل إليهم بعض المردة من أتباعه واتهم « رع » بأنه يجمع حوله فئة من الآلهة لا هم لهم إلا الإعلاء من شأنه والتزلف إليه بينما يهملون شئون الناس ومصالحهم . ثم أردف ذلك بقوله : —

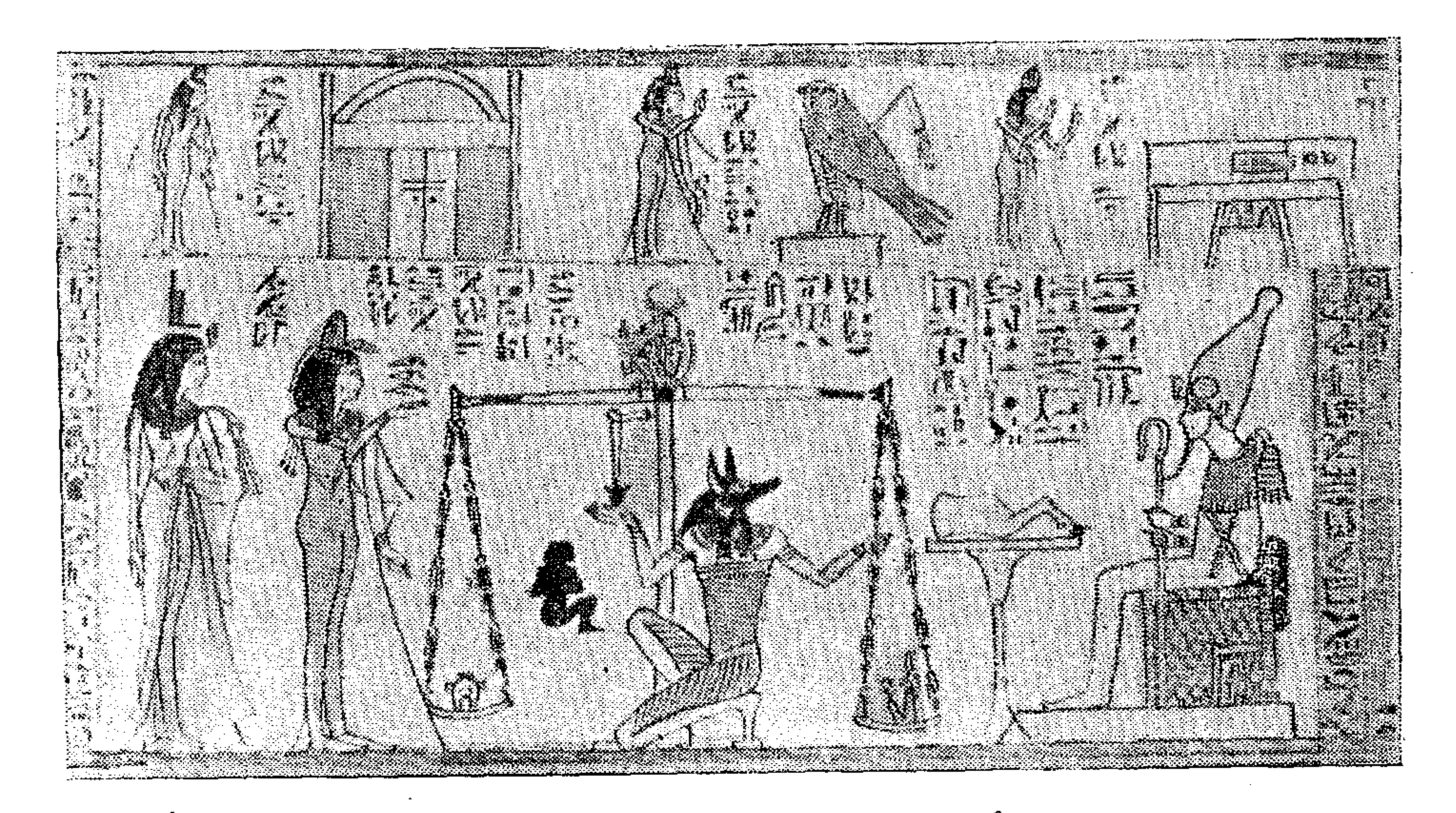
« هذا جميل ما تصنعونه الآن . وأنت يا صانع التاسوع أين العدالة ؟

إذا بحثت عنها فإنك ستجدها قد غرقت وذهبت معالمها .

أحكم بالعدل .

أما عن الأرض التى أعيش فيها فهى ملأى برسل ذوى وجوه متوحشة . وهم لا يخشون أى إله أو آلهة .

إن فى استطاعتى أن أرسلهم إليكم ليقضوا على أى



« أوزيريس » يحاكم الموتى فى دولته فى العالم السفلى .

منكم فيجلبوه إلىّ هنا ليعيش معى (إشارة إلى موته) إذ لا معنى مطلقاً أن أعيش هنا فى الغرب بينما تمرحون أنتم فى عالمكم وإنى أتساءل من منكم يفوقنى قوة ؟ . »

« وويم الحق إنكم لاتجيدون غير نشر الخداع بين الناس واعلموا أن « بتاح » العظيم عند ما خلق النجوم فى السماء قال لها : —

« ستذهبين كل ليلة وستحيين فى الغرب حيث يحكم « أوزيريس » وسوف يذهب إلى الغرب أيضاً كل إله وكل إنسان ليحيا هناك مع « أوزيريس » . »

هذا ما قاله فى رده على سيد الأرضين .

وعندما وصل هذا الخطاب إلى « تحوت » وقرأه على أفراد التاسوع وافقوا على ما جاء به بالإجماع . إلا أن « ست » أراد أن يخرج بمحاولة جديدة .

ولكن « آتوم » أمر « إيزيس » أن تحضر « ست » مكبلا بالقيود.

ونفذت « إيزيس » ذلك بنفس راضية .

ووجه « آتوم » الحديث الآتى إلى « ست » : —

« لماذا لا تريد أن تأخذ العدالة مجراها ؟

ولماذا تعارض فى إعطاء « حوريس » وظيفة أبيه ؟ »

وهنا أجاب « ست » : —

« سيدى ومولاى . دع « حوريس » بن « إيزيس » يأتى ليتسلم « وظيفة أبيه »

وبالفعل حضر « حوريس » بن « إيزيس » ولبس التاج الأبيض ووضع فى مكان أبيه « أوزيريس » .

ثم خوطب بما يأتى : —

« أهلا بالملك الطيب المولى على مصر .

فليكن من نصيبك الحياة والسعادة والصحة . »

أما سيد الجميع فقال : —

« دعوا « ست » بن « نوت » يأتى إلى ليحيا معى .

سأجعل منه ابناً لى .

سوف يدوى صوته فى السماء .

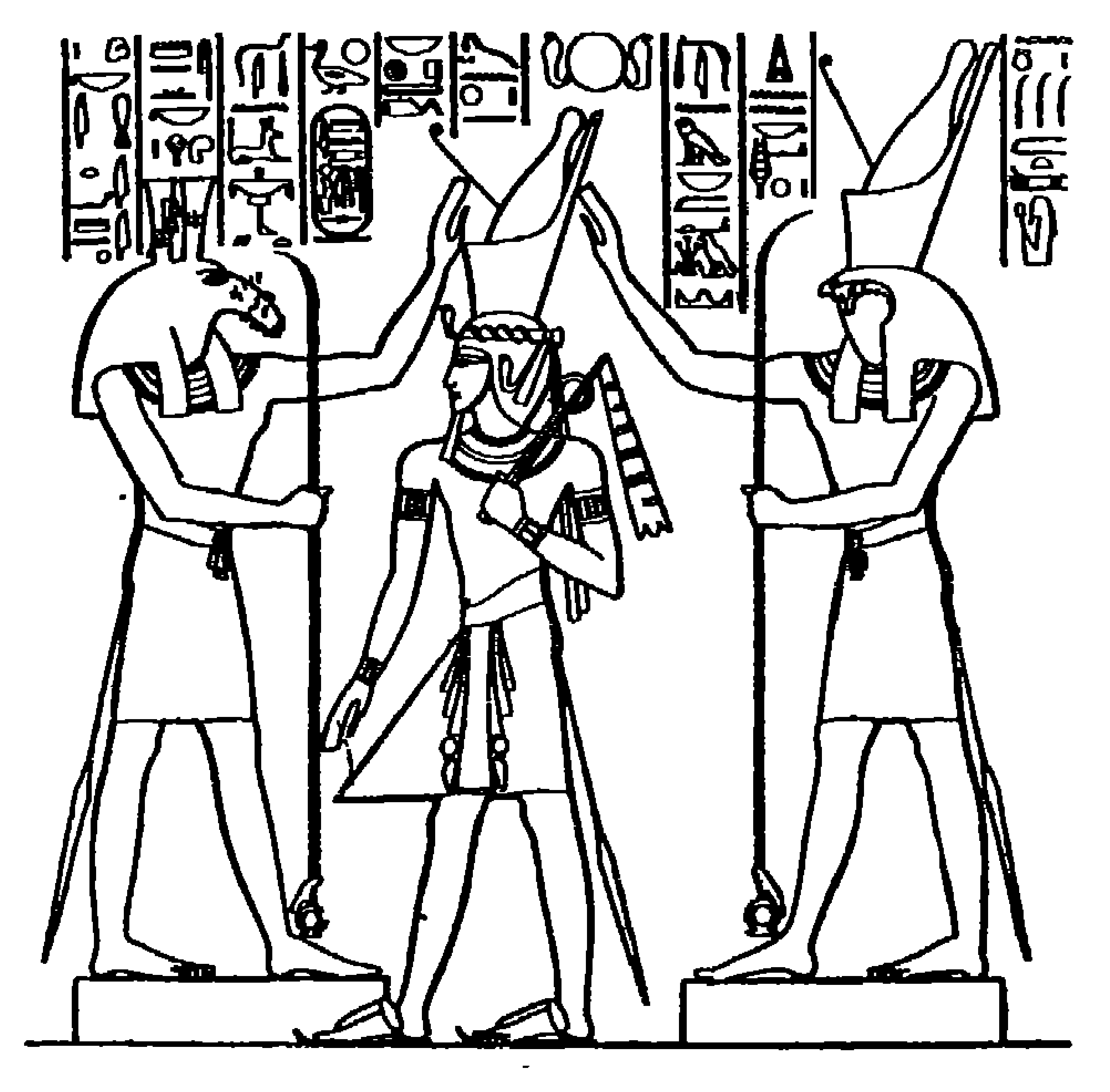
سوف يهابه كل الناس . »

أما « رع » فقد قال عند ما بلغه الخبر : —

« فلتسعدوا به .

خروا إلى الأرض خروا إلى الأرض أمام « حوريس » بن « إيزيس » . »

وهكذا انتهت هذه القضية بالسعادة ترفرف على « حوريس » فى طيبة موطن الحق .



« حوريس » و « ست » وهما يتوجان فرعون مصر . ويرمز بهما إلى الإلهين المتعاركين بعد أن حسم النزاع بينهما .

أسطورة

القمر وخسوفه

إن من أهم الشخصيات التى تعلق بها المصريون فى معتقداتهم شخصية «أوزيريس» . وكما نعلم جميعاً حاك حوله الكهنة أساطير مختلفة لا نهاية لها .

وكان هذا الإله فى العصور الأولى بمثابة الملك الذى غدر به وقتل لكى يخلو العرش لقاتله ، ثم اصبح بعد أن نجحت زوجته فى إعادة الحياة إلى جسمه ملكاً على الدنيا الثانية ، يحكم فيها كما حكم فى الدنيا الأولى .

وتصور المصرى الدنيا الثانية صورة طبق الأصل للدنيا الأولى . ففيها نيل يجرى ويفيض على شاطئيه فيغمر الأراضى الزراعية ويعمل ساكنوها نفس الأعمال التى قاموا بها أثناء حياتهم الأولى .

وهكذ كان «أوزيريس» ملك الدنيا الثانية يقوم بنفس المهمة التى اضطلع بها الإله «رع» بين الأحياء . ف «رع» ينير الدنيا الأولى ويعطى الحياة لساكنيها ، ويهب القوة والصحة لكل من يدب عليها ، بينما «أوزيريس» يقوم بنفس المهمة فى

الدنيا الثانية ، دنيا الظلام .

وفى الأسطورة التالية نرى بوضوح أحد الموضوعات التى كانت تملأ فراغاً كبيراً فى تفكير المصرى وهى خلق العالم وكيف تم .

وهذه الأسطورة تتحدث عن أصل « أوزيريس » وأسرته كما يلى : —

« أنا « آتوم » عند ما كنت وحيداً فى « نون » .

« أنا « رع » فى بدء ظهوره عند ما أخذ يحكم بين أولئك

« الذين خلقهم .

« أنا الإله الأعظم الذى خلق نفسه من نفسه .

« من أنا ؟

« أنا الإله الأعظم الذى خلق نفسه من نفسه فى الماء .

« أنا « نون » أبو الآلهة .

« من أنا ؟

« أنا « آتوم » فى قرص الشمس .

« أنا ذلك الإله بين الآلهة الذى لا يخالف له أمر .

« أنا الأمس ولكنى أعرف ما يأتى به الغد .

« من أنا ؟

« أنا الأمس ، أنا « أوزيريس » .

« أنا الغد ، أنا « رع » فى ذلك اليوم الذى فيه فتك .

« من أنا ؟

« أنا الأمس، أنا « أوزيريس » .

« أنا الغد ، أنا « رع » فى ذلك اليوم الذى فيه فتك

« بأعداء سيد الجميع . وفيه ولى « حوريس »[١] الحكم . »

* * *

وهكذا كان « آتوم » هو أول الآلهة الذى خلق الناس وملأ الأرض بمن عليها . ولكنه بدأ بأن خلق من نفسه « شو » إله الهواء و « تفنوت » إلهة الرطوبة (Moisture) فتزوجا وأنجبا « كب » إلهَ الأرض و « نوت » إلهة السماء .

وتزاوج هذان الأخيران وأنجبا أربعة آلهة هم :

إوزيريس وأيزيس وست ونفتيس .

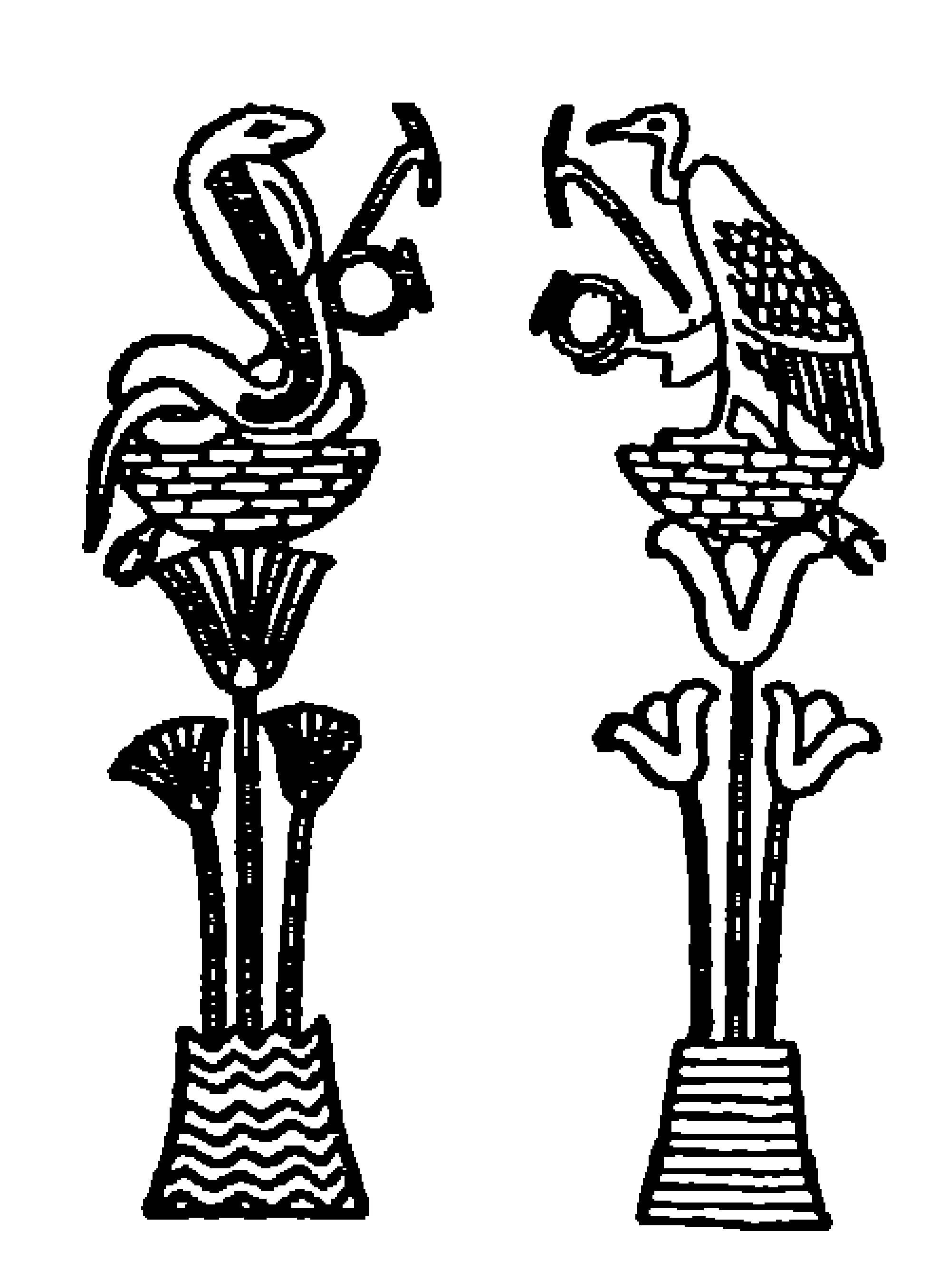
وتمكن « أوزيريس » من أن يرث عرش مصر بجزأيها . وكان المصرى طوال تاريخه الطويل يفرق بين مصر العليا ومصر السفلى ويسميهما تسمية ثنائية هى الأرضين .

وكان لكل منهما مميزات التصقت بهما طوال العصور .

---

(١) « حوريس » هو ابن «أوزيريس» من « ايزيس » الذى قام بالثأر لأبيه من عمه « ست » .

فهناك التاج الأبيض رمز الوجه القبلى، والتاج الأحمر رمز الوجه البحرى وكذلك إلهة الشمال التى تحميه وهى « واد جيت » وإلهة الجنوب التى تحميه وهى « نخبيت ». وغير ذلك من رموز كثيرة أثرت على نواحى متعددة من الديانة المصرية وتمخضت عن صور مختلفة من الأساطير المصرية.



اليمنى « نخبيت » رمز الوجه القبلى واليسرى « وادجيت » رمز الوجه البحرى.

ومن أهم هذه الصور ما حدث بين الشمال والجنوب فى عصر ما قبل التاريخ ثم بين الجنوب والشمال فى أوائل العصر التاريخى من خلافات ونضال وعراك، كان المصرى يرمز لابطاله

بأوزيريس وتارة أخرى بحوريس وست . واشتركت معهم إيزيس .

ومن أشهر الأساطير التي يمكن أن نذكرها في هذه المناسبة الاسطورة الآتية والتي تمثل حلقة من حلقات العراك بين الشمال والجنوب وبين « حوريس » و« ست » .

وتلك الأسطورة مؤرخة من عصر أواخر الدولة القديمة أي حوالى عام ٢٤٠٠ ق . م ولو أنها ظهرت في عصر الدولة الوسطى (٢٠٠٠ ق. م) ملونة فوق توابيت الموتى. ثم استمرت مستعملة بين النصوص التي تكوّن في مجموعها ما نسميه (كتاب الموتى— ١٥٠٠ ق . م) وبقيت منتشرة حتى أواخر العصور الفرعونية .

وهذه الأسطورة هي كما يلي : —

حدث ذات يوم أن أراد « حوريس » أن يرى « رع » ليقرأ له ما سوف يأتي بعد الغد . وبينما كان الاثنان يجلسان مر عليهما خنزير أسود .

فجزع « حوريس » من شكله وقال لـ « رع » :—

« هل رأيت هذا الخنزير الأسود ؟ »

فقال « رع » :—

« نعم رأيته . فهل لك أن تنظر إليه مرة ثانية . »

وما كاد « حوريس » يلتفت إليه حتى صرخ صرخة مدوية

لأن هذا الخنزير كان قد رماه بسهم نارى أصابه فى عينه .

فجزع « رع » وقال :—

« قد عرفته . إنه « ست » الشرير . »

أما « حوريس » فأخذ يولول :—

« إنه فعلا « ست » الذى أصاب عينى .

« لا تدع « ست» يهرب دون معاقبته . »

وطار عقل « حوريس » من فرط الألم .

ولكن « ست » الذى كان متخفياً فى شكل الخنزير اختفى ولم يظهر له أثر ، وزاد تألم « رع » لما حدث لحوريس » وقال :—

« دعوا « حوريس » يستلقى فى سريره حتى يستريح مما أصابه .

« إنه اللعين « ست» الذى أصاب عين « حوريس » بسهم من النار .

« إنه محرم على الآلهة وعلى حوريس» .

وعند ما أفاق « حوريس» من إغمائه واسترد صحته ونظره وهبه « رع » مدينة بى (Pe) ففرح بهذا العطاء فرحاً كبيراً وانقشعت السحب واحتفلت البلاد بهذا كثيراً .

* * *

هذه الأسطورة تعطينا تفسيراً واضحاً لعادتين من عادات المصريين القدماء التى ورثناها عنهم ولا زلنا نحافظ عليهما حتى الآن .

الأولى هى عادة تحريم لحم الخنزير على المصريين — ومن الغريب أن المصرى القديم فى عصوره البدائية الأولى استأنس الخنزير واستعمله فى شتى الأغراض . والدليل على ذلك أن عظام هذا الحيوان يعثر عليها بكثرة بين مخلفات الإنسان الأولى الذى عاش فى مصر قبل التاريخ .

أما المصرى فى العصور التاريخية فقد استعمل الخنزير فى أغراض شتى ، أهمها أنه كان يطلق قطيعاً منه فوق سيقان الحبوب لكى يدرسها ولكن المصرى وجد أن هذا الحيوان مضر إذا استعمل كغذاء وأن لحمه غير نظيف . وهذا هو السبب الذى اعتبر من أجله أكل لحم الخنزير محرماً عند المصريين القدماء .

أما العادة الثانية فهى ما يصنعه المصريون الحاليون عند ما يحدث كسوفاً للقمر فهم عادة يهللون ويقرعون الطبول والصفائح المعدنية الفارغة محدثين بذلك دوياً مفزعاً منشدين أثناء ذلك ما يأتى : —

« يا أولاد الحور سيبوا القمر ينور »

وفى كثير من القرى يصوب الرجال بنادقهم نحو القمر ويطلقونها ، ولاشك أنهم يفعلون هذا لتخويف ذلك العدو الذى يحاول الاعتداء على القمر .

وإذا ربطنا بين هذه العادة وبين ما كان المصريون القدماء يعتقدون فإننا لا شك نجد أن الاتصال موجود وأن المصرى الحديث لا يعبر فى حركاته الحالية إلا عن معتقدات قديمة ورثها — دون أن يدرى — عن اجداده الأولين .

اعتقد المصرى القديم أن الإله « حوريس » له عينان إحداهما القمر والأخرى الشمس . وكما نعلم حاول « ست » أن يضعف من حجة « حوريس » فى قدرته على تحمل أعباء الحكم كوريث لوالده « أوزيريس » بأن يقتلع إحدى عينيه . ولكنه لم يقدم على فعلته هذه بصراحة لأنه كان يخشى « حوريس » خشية الباطل للحق .

وفى أسطورتنا هذه أظلمت الدنيا باختفاء القمر وهو العين اليسرى لحوريس كنتيجة لاعتداء « ست » عليها .

وتمكن « رع » من أن يرجعها إلى « حوريس » فاختفى الخسوف .

و « تفنوت »[١] و « كب »[٢] و « نوت »[٣] وكذلك كل الآلهة من الآباء والأمهات الذين كانوا معى عند ما كنت أسكن « نون »[٤] » .

« وكذلك أدعوا « نون » نفسه وليأتى مع أفراد حاشيته .

ادعوهم جميعاً فى السر حتى لا يراهم البشر .

واحضروهم إلى القصر الكبير . »

وحضر هؤلاء الآلهة جميعهم واجتمعوا سراً حتى لا يعرف البشر بأمر اجتماعهم . وعند ما دخل عليهم الإله خروا ساجدين بين يديه واضعين أيديهم على الأرض[٥] .

ثم هتفوا قائلين : —

« تحدث إلينا ، حتى نعرف ما خطبك . »

فقال « رع » موجهاً كلامه إلى « نون » : —

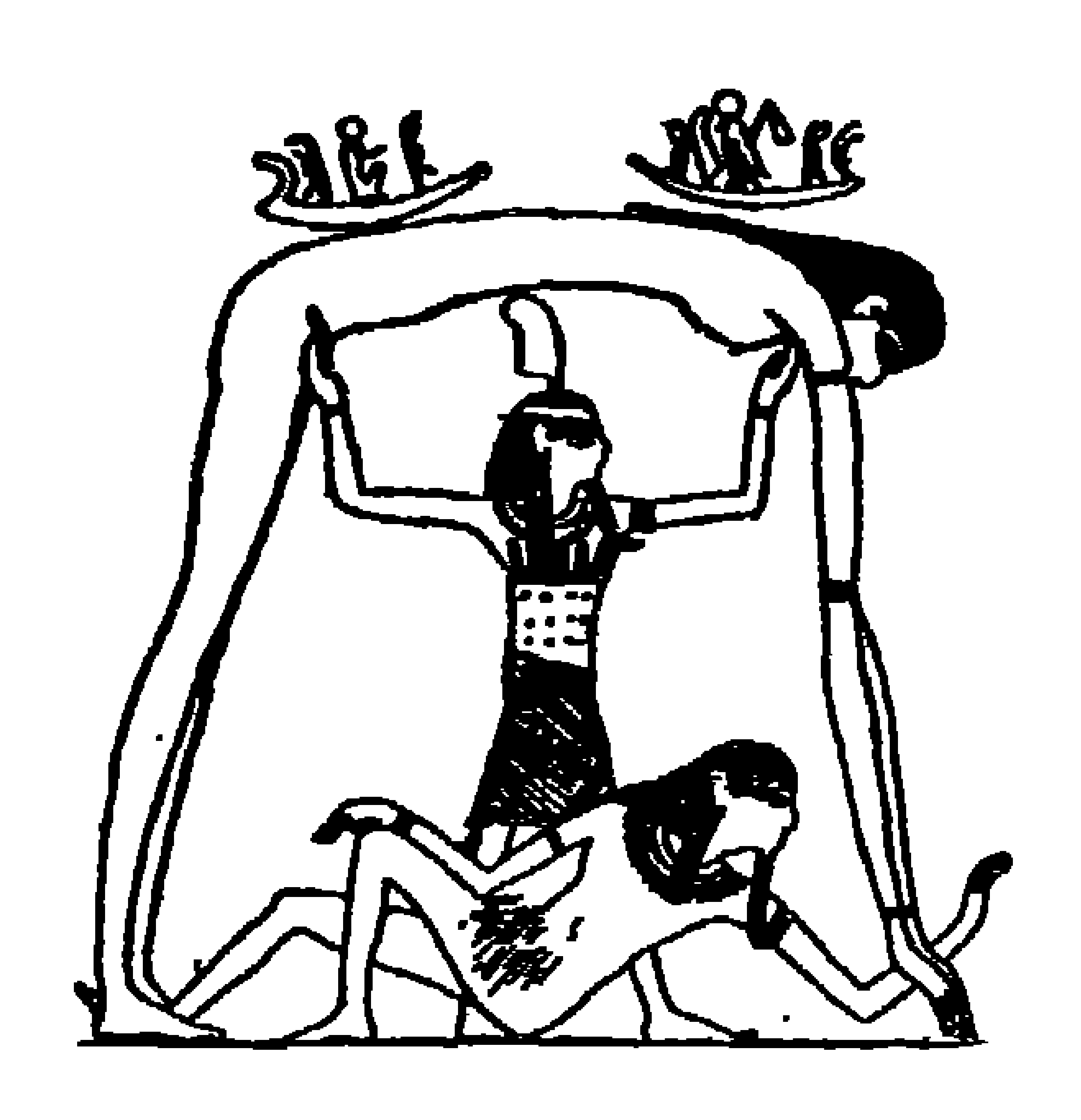
« أى « نون » يا أكبر الآلهة سناً يا من وجدت فيه .

« يا أقدم الآلهة . أدعوك لتدلى برأيك .

---

(١) إلهة الرطوبة (moisture)
(٢) إله الأرض .
(٣) إلهة السماء .
(٤) المياه الأزلية التى ظهر فيها هذا الإله بمفرده ثم قام بعملية الخلق
(٥) علامة الاحترام .

« إن البشر الذين خلقتهم قد تآمروا ضدى .
« إن البشر الذين خلقتهم من عينى يتهامسون ضدى .
« إنهم يقولون فى قلوبهم متهكمين :



« نوت » كإلهة للسماء تنحنى فوق « كب » إله الأرض ووقف « شو »
إله الهواء رافعاً إياها بذراعيه

« انظروا ! إن الملك أصبح كهلا ، تحولت عظامه إلى
« فضة ولحمه الى ذهب وشعره إلى لازورد .
« هل لك أن ترشدنى إلى ما أنا صانع بهم .
« من أجل ذلك دعوتك لاستشارتك .

« اعلم أنني لم أقدم على إفنائهم حتى أسمع منك ما تنصحني به . »

وتكلم « نون » قائلا : —

« أنت أيها الإله العظيم .

« أنت يا من تفوق خالقك في عظمتك .

« أنت الابن الذي فاقت قوته قوة أبيه .

« أرسل عينك لتفتك بالمتآمرين عليك . »

« عندئذ سوف يختفوا من فوق الأرض . »

فأرسل « رع » عينه لتفتك بالبشر حسب نصيحة « نون » ولكنهم عند ما شعروا بها تفرقوا في الصحارى واختفوا بين الصخور .

فقال « رع » : —

« أنظروا كيف هرب البشر إلى الصحارى واختفوا بين الصخور . إن قلوبهم ترتجف هلعاً من عيني . »

عندئذ تقدمت جموع الآلهة إلى الإله « رع » بنصيحة أخرى وهي أن يرسل عينه بين الناس على الأرض لتفتك بهم عن كثب .

وقالوا له : —

« دع عينك تنزل إلى الأرض لتقبض على أولئك الذين

يتآمرون بالشر ضدك .

« إن عينك لا تكفى قوتها أن تقوم بمهمتها هذه .

« فلترسلها فى شكلها كابنتك « حاتحور » .

فنزلت هذه الإلهة إلى الأرض وفتكت بالبشر المنتشرين فى الصحراء ورجعت إلى أبيها.

فقال لها الإله : —

« مرحباً بك يا « حاتحور » يا من قمتى بما أدعو إليه من « أعمال . »

فقالت الإلهة « حاتحور » : —

« يا من تحيا من أجلى [1] .

« لقد كنت جبارة قوية بين البشر .

« مهمتك هذه أقوم بها بقلب مفعم بالسرور والهناء . »

فرد عليها الإله قائلا : —

« إن فتكك بهم سوف يوطد سلطانى عليهم .

« ولكن كفى ما قمتى به .

« لا تقتلى منهم بعد ذلك فرداً . »

أما الإلهة فإنها لم تستمع إلى ما قاله لها أبوها . واستمرت

---

(١) كانت هذه الكلمات تقال فى مستهل القسم عند المصريين القدماء .

طوال الليل تفتك بالبشر وأخذت تسبح فى دمائهم وخشى « رع » فى صبيحة اليوم الثانى أن تأتى « حاتحور » على ما تبقى منهم .

فصاح فيمن حوله : —

« ادعوا لى على عجل رسلا يسابقون الريح .

« تفوق سرعتهم سرعة الظل (؟) . »

فحضر الرسل على الفور .وأمرهم جلالة الإله : —

« اذهبوا إلى (إفنتين) واحضروا لى كل ما تستطيعون حمله

« من أل « ددى » [1] .

وعند ما أحضر الرسل ال « ددى » إلى الإله أمر بصحنه كما أمر بعض الخادمات بإعداد كميات كبيرة من الجعة وخلطها بأل « ددى » . فأصبحت فى لونها تشبه دماء البشر . ثم ملأ بها سبعة آلاف جرة .

وفى الصباح أمر « رع » أتباعه أن يحملوا هذه الجرار بما فيها من جعة حمراء وسكبها فى المكان الذى اعترمت « حاتحور » أن تفتك فيه بمن تبقى من البشر .

---

(١) هذه مادة حمراء استعملها المصرى فى الحصول على اللون الأحمر ولا نستطيع الجزم عما إذا كانت مادة نباتية أم حجرية . إلا أنه من المعروف أن الفنتين (أسوان) تحوى منجماً لما نسميه المغرة (Ocre) ولعلها هى ما أراد الإله إحضاره من هناك .

وقال الإله متمما : —

« ما أجمل ما فعلت .

« سأحمى ما بقى من البشر من فتكها . »

وبدت الحقول كبركة كبيرة تعلوها طبقة من الجعة إلى ارتفاع ثلاثة أكف [١] .

ولقد تم ذلك كله بأمر من جلالة هذا الإله .

وفى الصباح المبكر أتت الإلهة « حاتحور » إلى هذا المكان الذى غمره ذلك الفيضان وتمتعت برؤية وجهها الصبوح مرتسما على سطحه . فضحكت وعم السرور نفسها .

ثم شربت ولذ لها الشراب حتى ثملت . فرجعت تترنح ولم تقو على إتمام ما اعتزمته من الإتيان على ما تبقى من البشر .

وأقيمت الاحتفالات وسر الإله . ورضيت نفسه بنتيجة هذا العمل .

* * *

رأى المصرى فى هذه الأسطورة أشياء أخرى غير ما قدمت إذ ربط بين الفيضان الذى نتج عن سكب هذه الأوانى السبع

---

(١) استعمل المصرى القديم عرض الكف كوحدة فى المقاييس وهو ما يعادل $\frac{1}{2}$ ٧ سنتمترات تقريباً .

من الآلاف وبين الفيضان الحقيقي الذي يغمر البلاد مرة كل عام .

ومما يؤكد لنا هذا الربط أن المصرى القديم كان يحتفل بعيد « حاتحور » الذى يمتاز بكثرة الشراب والإقبال على تعاطى الجعة فى شهر توت وهو أول شهور فصل الفيضان .

وفى هذه الحالة يمكننا أن نقارن بين غضب « رع » على البشر وبين القحط والجفاف الذى يسبق شهور الفيضان فى مصر

ووصلت إلينا بعض نماذج من هذه القصة لم تكن نهايتها كما ذكرنا بل أتبعوها بفصل آخر يتحدث عن هذه الآلهة وثورة غضبها عند ما ذهب عنها تأثير الخمر .

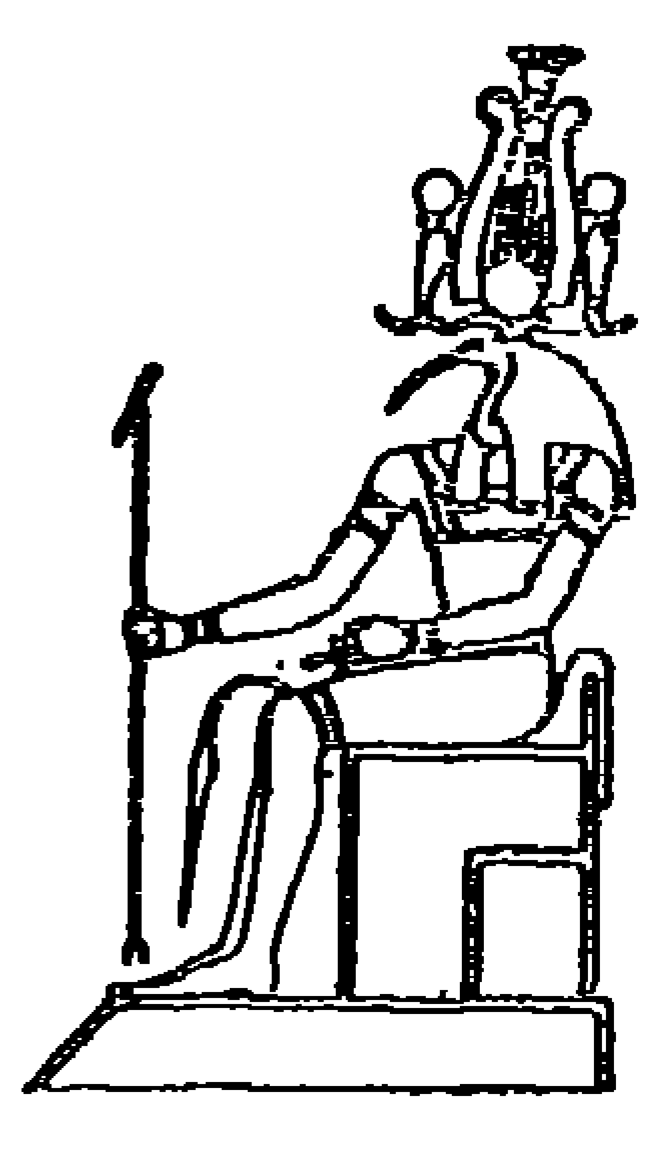
فنددت بأبيها الذى منعها من إكمال مهمتها والقضاء على البشر جميعهم . واعتزمت الهجرة من مصر واتخذت لنفسها شكل أنثي (زوجة) الأسد . واختارت السودان مكاناً لسكناها .

فحزن « رع » لفراقها وأرسل وراءها الرسل بعد الرسل يتوسلون إليها حتى يقنعوها بالرجوع إلى بلدها . ولكن جهودهم كانت دائماً تبوء بالفشل .

وفى آخر الأمر التجأ الإله إلى الأخذ بنصيحة مجمع الآلهة . فأدلوا له برأيهم ونصحوه أن يرسل حكيم الآلهة « تحوت » . فهو الوحيد الذي تؤهله صفات الحكمة والدراية بخلق الآلهة أن يقنعها بالعودة إلى مصر .

فاتخذ «تحوت» لنفسه شكل القرد وذهب إليها ووجدها تتجول فى صحراء السودان . وعند ما رأته زمجرت . فعرف أنها لا تزال غاضبة . والتجأ إلى حيلة . عله يجلب السرور إلى قلبها .

فقام بقفزات مختلفة وحركات لطيفة جعلت الإلهة تهدأ بل تبدأ فى الضحك .



المعبود « تحوت » إله الحكمة

وعندئذ انهمك «تحوت» فى أساليبه المضحكة حتى لاحظ أن حالة الإلهة أصبحت تسمح له بمفاتحتها بأمر المهمة التى أتى من أجلها .

وفى آخر الأمر نجح ورجعت معه الإلهة وسعدت مصر بقدومها كما فرح أبوها بلقائها بعد غياب طويل .

أسطورة

الأميرة والإله « خنسو »

هناك نوع من الأساطير المصرية كانت تهدف الى غرض معين يتفق إلى حد بعيد مع ما نسميه الآن (البروباجندا) . ولقد عرفنا أسطورة بردية وستكار التى كانت تهدف إلى ذر الرماد فى العيون بالنسبة إلى عدم شرعية أفراد الأسرة التى قوضت حكم الأسرة الرابعة واعتلت هى العرش . وكذلك أسطورة حاتشبسوت وولادتها التى أرادت منها الملكة أن تدافع بها عن استقلالها بالعرش .

أما الأسطورة التى حاكها الكهنة عن امنحوتب الثالث فقد أكدت أن الغرض منها هو ان يغض الشعب النظر عن المعارضة التى ربما يلاقيها امنحوتب كملك شرعى نظراً لأن أمه لم تكن مصرية .

والأسطورة الآتية هى من نفس النوع اخترعها كهنة الإله « خنسو » ونقشت على جدران معبده ، وهى تهدف إلى الإشادة بقوة إلههم وقدرته على الإتيان بالأعاجيب .

ولقد حاكها الكهنة بأسلوب تاريخى ، إذ جعلوا مسرح

الأسطورة مدينة طيبة العظيمة . وحددوا العصر عهد الملك رمسيس الثا الذى طار صيته فى أنحاء العالم المتمدين فى ذلك الوقت نظراً إلى الفتوحات الكثيرة التى تمت على يديه ولأنه استن سنة حميدة وهى التزوج من أميرات أجنبيات من الأسر المالكة فى أقطار الشرق الأدنى القديم . وهو هنا يتزوج بابنة ملك الحيثيين بعد أن حاربه أعواماً طويلة . وكانت الحرب بينهما سجالا . وانتهت بعقد محالفة دفاعية هجومية تعتبر من أهم المعاهدات التاريخية فى العصور القديمة .

وتبدأ الأسطورة بمقدمةطويلة تزخر بألقاب رنانة تشيد بمفاخر كل ملك منهما و بقوته وعظمته وقدرته على الحرب والفتوحات .

ثم يأتى الحديث عن الأسطورة نفسها كما يلى : —

وهكذا وصل جلالة الملك رمسيس (الثانى) حسب عادته فى كل عام إلى بلاد نهارينا (بلاد ما بين النهرين) فسارع إليه أمراء البلاد الأجنبية يقدمون له فروض الطاعة وينحنون أمام عظمته فى اطمئنان .

وحملوا معهم هداياهم من الذهب والفضة واللازورد والتوركواز وأنواع الأخشاب الفاخرة التى تنبت فى بلاد الإله[1] .

---

(١) أطلق المصرى لفظ « بلد الإله » على جميع المناطق التى تقع فى آسيا إلى الشرق من مصر .

وأمر أمير « بختن » باحضار هداياه التى كان على رأسها ابنته الكبرى وتقدم إلى جلالته راجياً أن يقبل هذه الهدية وأن يتفضل ويغدق عليه نعمة الحياة .

وأعجب جلالة الملك بهذه الفتاة وسر قلبه بها أكثر من كل شيء وأمر بأن يكون اسمها المصرى : زوجة الملك الكبرى « نفرو — رع » .

وعند ما رجع جلالته إلى مصر قامت هذه الفتاة بكل واجبات الزوجة الشرعية للملك .

* * *

وحدث فى العام الثالث والعشرين فى اليوم الثانى والعشرين من الشهر الثانى من الفصل الثالث ، أن كان جلالته فى مدينة طيبة القاهرة سيدة مدن مصر ، يقوم بأداء الاحتفالات لأبيه الكبير « أمون رع » سيد العروش والمهيمن على القطرين وذلك لحلول عيد « أوبت الجميل الجنوبى » .

فدخل عليه من يقول لجلالته : —

« لقد وصل رسول من أمير « بختن » وهو يحمل هدايا لا حصر لها لزوجة الملك . » .

فأمر جلالته بدخول الرسول ومعه هداياه وأمره بالتحدث فقال : —

« المجد لك . يا « رع » . يا صاحب الأقواس التسعة .
نحن نحيا من فضلك . »

ثم تقدم الرسول وقبل الأرض أمام جلالته وتابع حديثه فقال : —

« لقد حضرت . أى مولاى ، من أجل « بنت — رشت » الأخت الصغرى لزوجة جلالتكم « نفرو — رع » .
« لقد أنهك المرض جسمها .
« فهل لجلالتكم أن تتفضلوا بإرسال أحد حكمائكم
« ليفحصها ؟ »

وهنا تكلم الملك قائلا : —
« احضروا لى على عجل رجال (بيت الحياة)[1] .
وكذلك هيئة علماء العاصمة . »

فحضروا على الفور . فقال لهم جلالته : —
« لقد ناديتكم لتستمعوا إلى هذا الأمر .
« والآن فليتقدم أحدكم ممن عمر قلبه بالحكمة .
« وقدرت أنامله على الكتابة . »

---

(١) (بيت الحياة) هنا معناه المدرسة التى كان يتعلم فيها المصرى الحكمة والديانة والسحر والطب .

فتقدم الصفوف الكاتب الملكى « نون — إم — حب » وحيى جلالته . فأمره بمصاحبة رسول أمير « بختن » والسفر معه بلا إبطاء .

* * *

وعند ما وصل الحكيم المصرى إلى بلاد « بختن » وجد الأميرة « بنت — رشت » فى حالة من مسته أرواح شريرة .

حقاً لقد وجد عدواً صعب المراس .

وأرسل أمير بختن مرة أخرى إلى جلالة الملك يقول : —

« أيها الملك . يا مولاى . أرجو جلالتكم أن تأمروا بإله يستطيع التغلب على هذا الروح الشرير . »

ووصل رسول الأمير الى الملك فى العام السادس والعشرين . الشهر الأول من الفصل الثالث . فى موعد الاحتفال بآمون وكان الملك فى طيبة .

وأعاد الملك كلمات الرسول وكان جلالته فى حضرة الإله « خنسو » الذى فى طيبة . الجميل . الخير » قائلا : —

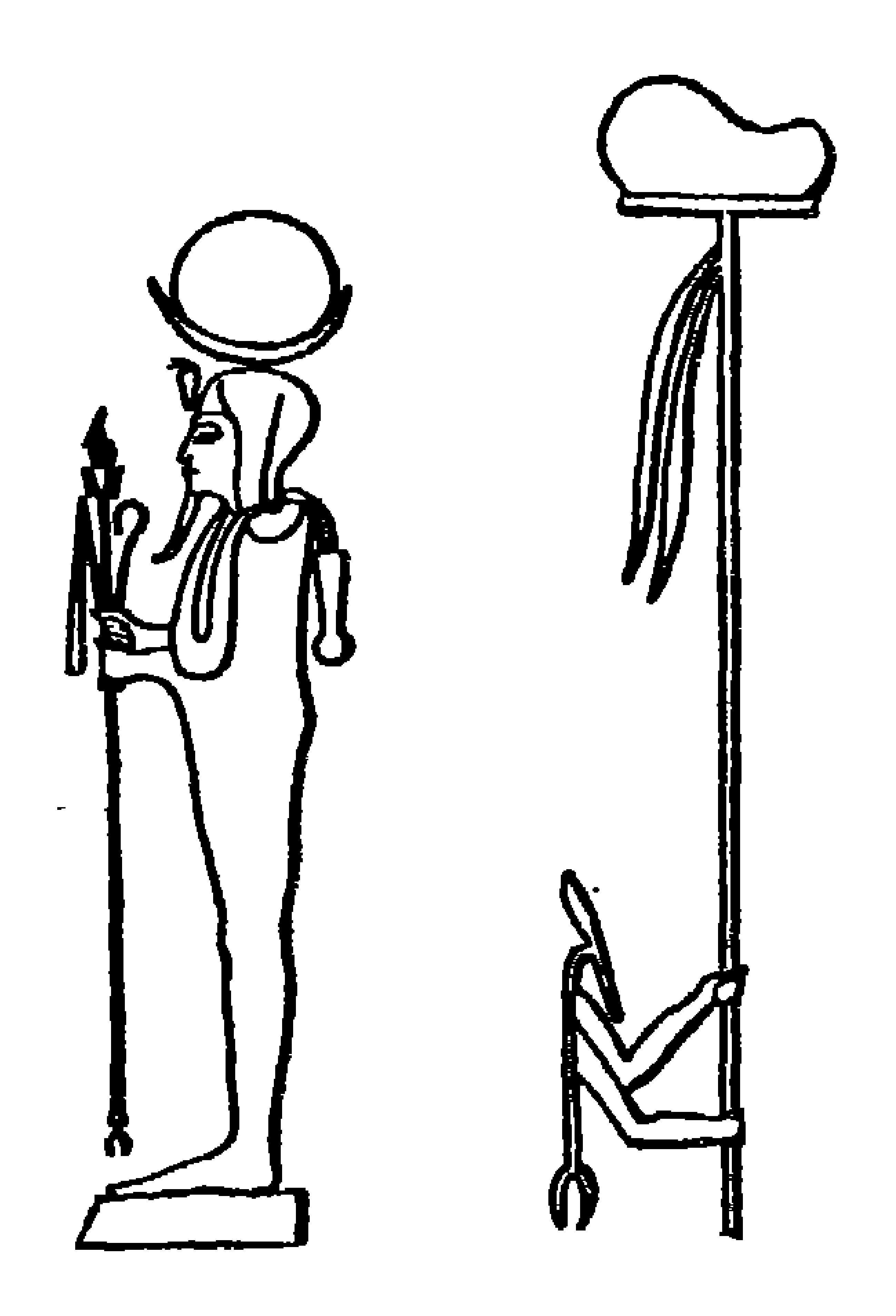
« مولاى الطيب . إنى أخدمك اليوم لأطلب المساعدة من أجل ابنة أمير « بختن » . »

وهنا حُمل الإله « خنسو . الذى فى طيبة . الجميل . الخير » الى الإله « خنسو . منفذ المشاريع . الإله الأعظم . الذى

يطرد الأرواح الشريرة ».

وقال الملك إلى الإله « خنسو . الذى فى طيبة . الجميل . الخير » : —

« مولاى . إذا اتجهت بوجهك نحو الإله « خنسو . منفذ المشاريع الإله العظيم . الذى يطرد الأرواح الشريرة » . فسوف يرضى بالتوجه إلى بلاد بختن . »



الإله « خنسو » ورمزه المقدس

فاومأ الإله برأسه مراراً .

ثم قال جلالته : —

« ولتزوده بقوتك السحرية حتى يستطيع إنقاذ ابنة أمير « بختن »

وهنا أومأ الإله « خنسو . الذى فى طيبه . الجميل . الخير » مراراً عديدة برأسه وزود الإله « خنسو . منفذ المشاريع » بقوته السحرية مرة بعد مرة حتى بلغت أربع مرات .

* * *

وأمر جلالة الملك أن ينقل « خنسو . منفذ المشاريع » إلى سفينة كبيرة تحرسها خمسة قوارب نيلية .

وجهزت السفينة بعربات وخيول كثيرة من الغرب والشرق .

ووصل هذا الإله إلى بلاد « بختن » بعد رحلة بلغت عاماً وخمسة شهور ..

وقابله أمير « بختن » بجيوشه وضباطه . وعند ما وقف أمام الإله « خنسو . منفذ المشاريع » خر على الأرض حتى لمسها ببطنه وقال : —

« لقد حضرت إلينا — فلتكن رحيما بنا . بحق ملك مصر العليا ، ومصر السفلى (أوسر — معات — رع — ستب — إن

رع)[1] . »

وتقدم الإله الى المكان الذى ترقد فيه « بنت — رشت » ونفذت حمايته السحرية إلى ابنة أمير بختن لتشفيها من علتها حالا.

وهنا ارتفع صوت الروح الذى مسها وقال فى حضرة الإله « خنسو . منفذ المشاريع » : —

« مرحباً بك أيها الإله العظيم الذى يطرد الأرواح الجالبة للأمراض . »

« إن بختن أصبحت وطنك . وأهلها عبيداً لك . أنا كذلك عبد لك . »

« وسوف أرحل إلى المكان الذى أتيت منه حتى تطيب بالا وتسعد من أجل المهمة التى قدمت لها . »

« هل لك أن تأمر امير بختن بأن يخصص يوم عطلة أحتفل به معك ؟ »

وهنا أومأ الإله لكاهنه برأسه قائلا : —

« دع أمير بختن يقدم قرباناً عظيما فى حضرة هذا الروح. »

وفى الوقت الذى تمت فيه هذه الأشياء بين الإله « خنسو . منفذ المشاريع » والروح ، كان أمير بختن يقف منتظراً ومن

---

(١) اسم العرش للملك رمسيس الثانى .

حوله جنوده وقد أخذ منه الهلع مأخذه .

وقام أمير بختن بتقديم القرابين فى حضرة هذا الإله وهذا الروح واحتفل بيوم إجازة من أجلهما .

ورحل الروح بسلام إلى حيث أراد رضوخاً لأمر الإله « خنسو . منفذ المشاريع » . وفرح أمير بختن وأهل البلاد جميعاً بهذا العمل فرحاً شديداً .

وأسر أمير بختن فى نفسه أمراً : —

« سأدعو هذا الإله ليبقى بيننا هنا فى بختن . ولن أدعه يرجع إلى مصر . »

* * *

واستقر المقام لهذا الإله فى « بختن » مدة ثلاثة أعوام وتسعة أشهر .

وحدث ذات مساء أن رأى أمير بختن فى نومه هذا الإله وقد خرج من ناووسه كصقر ذهبى وحلق فى السماء واتجه نحو مصر .

فصحا من نومه فزعاً وأسرع إلى كاهن الإله « خنسو . منفذ المشاريع » يقص عليه رؤيته وطلب إليه أن يسرع مع الإله بالعودة إلى مصر .

وزود الإله بكثير من الهدايا القيمة . وبأعداد لا تحصى

من الجند والخيول ورجع إلى مصر .

وما كاد الإله « خنسو . منفذ المشاريع » يصل إلى طيبة حتى اتجه مباشرة إلى « خنسو . الذى فى طيبة . الجميل . الخير . » وكدس أمامه كل العطايا والهدايا التى زوده بها أمير بختن .

ونزل « خنسو . منفذ المشاريع » بسلام وسعادة إلى معبده فى السنة الثالثة والثلاثين فى اليوم التاسع عشر من الشهر الثانى من الفصل الثانى من حكم ملك الشمال والجنوب « أو سر — معات — رع — ستب — إن — رع » معطى الحياة مثل «رع» إلى الأبد .

أسطورة

« حوريس » والعقرب

إن قصة « إيزيس » كانت من أحب القصص الإلهى إلى المصريين . ولا غرابة فى ذلك فهى قصة امرأة معذبة فجعت فى زوجها ثم ذاقت الأمرين أثناء البحث عن جثة هذا الزوج المقتول كما وقفت وحيدة تدافع وتناضل من أجل وحيدها حوريس الذى بثت فيه نزعة الثأر لأبيه .

والقصة الآتية هى واحدة من تلك القصص التى تداولتها ألسنة المصريين وتظهر فيها « إيزيس » ككل أم حنون لا تألو جهداً فى تنشئة وحيدها لكى ينفذ ما بثته أمه فى قلبه الصغير من عاطفة الثأر لأبيه المقتول ولكى يتولى شئون الحكم كوريث وحيد لأبيه « أوزيريس » ملك الشمال والجنوب .

ولم تكن هذه القصة تعتبر فقط كأسطورة يتحدث بها الأب إلى ابنه أو الأم إلى بنتها ولكنها كانت فى نفس الوقت واحدة من القصص التى كانت تستعمل لأغراض سحرية . إذ اعتقد المصرى اعتقاداً راسخاً بأن بعض الأساطير التى تتحدث عن بعض شئون الآلهة وخاصة تلك الشئون التى تتعلق بمصائب حلت

ببعضهم ، اعتقد أن هذه الأساطير تصبح ذات أثر فعال إذا استعملت كتميمة سحرية ، إذ أن الأساليب التى تخلص بها هذا الإله أو ذاك من محنته هي بعينها التى تخلص من يستعملها من البشر من محنة مماثلة .

واعتاد بعض المصريين أن يقيموا أمام منازلهم لوحة حجرية نقشوا فوقها صوراً تمثل الإله « حوريس » وهو يطأ بقدميه تمساحين ويقبض بيديه على بعض العقارب والثعابين وغيرها . والمقصود بهذه اللوحة أن تمنع هذه المخلوقات الضارة من أن تدخل المنزل وتفتك بسكانه .

وهناك نموذج جميل من هذه اللوحات وجد بين مخلفات الكونت (ماترنيخ) ويعرف بين العلماء باسم لوحة ماترنيخ .

وفيما يلى ترجمة للنصوص السحرية المنقوشة فوقها . وهى كما قلت تتحدث عن أسطورة من تلك الأساطير التى كانت شائعة بين الشعب المصرى . وهذه الأسطورة تتحدث عما حدث للإله « حوريس » من أحد العقارب . وتستعمل أيضاً تعويذة تقى من لدغ العقرب .

* * *

حدث ذات يوم بعد أن فتك « ست » بأخيه الطيب الخير « أوزيريس » أن سجن « ست » زوجة أخيه وأخته « إيزيس »

خوفاً من مكائدها ودرءاً لما تتمتع به من تأثير كبير على الناس .

ولكن الإله الحكيم « تحوت » تبدى ذات ليلة للإلهة « إيزيس » وفك قيودها وأخرجها من سجنها آمراً إياها أن تهرب نحو الشمال وتخفى نفسها بين مستنقعات الدلتا ، وتنتظر هناك حتى تضع ابنها من « إوزيريس » .

وزود « تحوت » إيزيس بسبع عقارب لكى تحميها وتدافع عنها أثناء رحلتها إلى الشمال . وكانت أوامر « تحوت » إلى هذه العقارب السبع أن :

« اتجهى نحو الشمال ، ولتكن حواسك يقظة للطريق . »

وأطاعت العقارب السبع الأوامر فسارت واحدة أمام الآلهة لنفسح لها الطريق وسارت اثنتان منها على كل من جانبى الآلهة وبقيت اثنتان فى المؤخرة .

وبعد أن سار هذا الموكب أياماً طويلة مضنية وصلت « إيزيس » وأتباعها إلى أرض المستنقعات فى شمال الدلتا وكان الليل قد أقبل عند ما وصلت الإلهة حدود قرية صغيرة .

ولما كان التعب والإجهاد قد نالا منها ، وكان الجوع قد أخذ منها مأخذه فقد اتجهت نحو منزل رئيس القرية ورجته فى أن يستضيفها أثناء الليل .

ولكن زوجة الرئيس وكانت متعاظمة ذات كبرياء رفضت

أن تسمح لهذه المرأة الغريبة — التى كان مظهرها لا ينم على أنها الإلهة الملكة « إيزيس » — بقضاء الليل فى ضيافتها .

إلا أنه حدث أن مرت فى ذلك الوقت امرأة فقيرة تهش على طيورها ، فأخذتها الشفقة على هذه الطارقة الغريبة ودعتها لتمضية الليل فى كوخها الحقير .

وشعرت العقارب السبع التى صاحبت « ايزيس » فى رحلتها الطويلة بالمذلة والاهانة التى لحقت سيدتها « ايزيس » من زوجة رئيس القرية وأضمرت الثأر من هذه المرأة .

ونفذت مؤامرتها بأن أفرغت ست منها سمها فى ذيل السابعة التى زحفت بهدوء من تحت باب المنزل ووصلت إلى ابن رئيس القرية وكان يغط فى نومه ولدغته . وسرى السم المضاعف سبع مرات فى جسم الطفل الذى استيقظ مذعوراً من نومه وصاح صياحاً سببه هذا السم المضاعف سبع مرات ، فانزعجت أم الطفل وانحنت عليه تضمه إلى صدرها الحنون ، ولكن الطفل كان بين الحياة والموت . ولم يستطع أحد أن يشفيه من هذه اللدغة المميتة .

ولم تستطع الأم المسكينة فى محنتها إلا أن تخرج إلى الشارع وهى تصرخ وتولول وهى أشبه ما تكون بسمكة تشوى فى النار وسمعت « إيزيس » هذه الضوضاء وأدركت ما ينم عليه

صوت الأم من الجزع . فسارعت إليها واستفسرتها خطبها .

ولكنها رأت ويا هول ما رأت فقد ارتطم أحد سكان المنزل أثناء الهرج والمرج الذى حدث بمصباح فى المنزل ، فاندلعت النيران منه واشتعلت فى المنزل وبذلك تضاعفت المصائب التى حلت بمنزل رئيس القرية الذى فقد ابنه وأكلت النيران منزله .

وهنا رق قلب الإلهة على الأم الثكلى ونست الإهانة التى الحقتها بها منذ هنيهة ونادتها قائلة : —

« تعالى إلىّ ، تعالى إلىّ .

« إنى امرأة ذاع صيتها فى مدينتها .

« إنى اكتسبت من أبى مهارة استمددتها من فمه .

« إن فمى له قدرة سحرية لا مثيل لها . »

فسارعت المرأة إلى « إيزيس » ووضعت أمامها ابنها . ولما كانت الإلهة قد تنبأت بما حدث فإنها تمتمت بتعويذتها السحرية منادية سم كل من العقارب السبع آمرة إياه أن يستل سمه من جسم الطفل .

ما أقوى سحرها وما أشد نفوذه ! إذ لم تكد تنتهى من تمتمتها حتى سال السم خارجاً من جسم الطفل ودبت الحياة فيه .

فتلقفته أمه معانى شاكرة متلهفة . ومن غريب الأمر أنه فى اللحظة التى استعاد الطفل فيها صحته انطفأت النيران بقوة

سحرية من منزل رئيس القرية .

أما ما كان من « إيزيس » فإنها اعتزمت الاختفاء من القرية بكل سرعة خوفاً من بطش « ست » وأسرعت خطاها متوغلة فى أحشاء المستنقعات لتختفى عن أعين المتطفلين من الناس .

وفى هذا المكان الموحش استقبل الحياة « حوريس » بعد أن ذاقت أمه الأمرين فى وحدتها المضنية وقالت « إيزيس » بعد أن ولدت طفلها : —

« ولدت « حوريس » بن « أوزيريس » بين مستنقعات البردى وفرحت بولادته كثيراً لأنى جلبت الحياة إلى من سيجيب صوت أبيه ويثأر من قتلته . ولقد أخفيته وحجبته عن أعين الرقباء » .

* * *

وهكذا عاشت الأم مع وحيدها بين هذه المستنقعات الموحشة ولا هم لها إلا تنشئته ورعايته ، فلا تتركه إلا لوهلة قصيرة لتحصل على ما يقيم حياتها من مأكل أو مشرب .

ولكن « ست » الشرير علم بالأمر ونما إليه أمر هذا الطفل. فأرسل إليه عقرباً لتلدغه فى فترة غياب أمه عنه ، وعند ما رجعت وجدت وحيدها يكاد يفارق الحياة وهو مستلق على

الأرض التى رواها الماء الذى سال من عينيه والزبد الذى خرج من فمه .

كان جسمه لا حراك به وكانت نبضات قلبه قد تضاءلت وخفتت وتقلصت عضلات أعضاء جسمه .

وعندما رأت « إيزيس » حال طفلها صرخت صرخة مدوية سمعها الناس فى القرية المجاورة. فهرعوا إلى مصدر الصوت وصاحت امرأة من بينهم قائلة : —

« لا بد وأن « حوريس » قد لدغته عقرب »

أما « إيزيس » فقد قربت أنفها من فم الطفل لتستطلع دبيب أنفاسه ثم فحصت جرحه ووجدت السم عالق به .

ورغم أن « إيزيس » قد تمكنت من أن تشفى ابن رئيس القرية من محنة مماثلة إلا أنها لم تستطع إبراء وحيدها . ولعل ذلك لأن العقرب فى هذه الحالة قد بعث به إله ولم يكن عقرباً عادياً .

وأخذت « ايزيس » فى محنتها هذه تصرخ مولولة : —

« أى « رع » إن ابنك « حوريس » قد لدغ .

إن « حوريس » قد لدغ .

وهو الوريث والمولى على عرش « شو » .

إن الطفل الجميل ذا الأعضاء الذهبية قد لدغ .

إن « حوريس » بن « أوزيريس » قد لدغ .
إن « حوريس » الطفل البرىء والصغير بين الآلهة قد لدغ .
« إن « حوريس » الذى أعددته لكى يثأر لأبيه قد لدغ .
« إن « حوريس » الذى خشيت أن يصيبه مكروه وهى فى رحمى قد لدغ .
إن « حوريس » الذى رعيته قد لدغ .
إن « حوريس » الطفل الذى رجوت حياته مجروح .
إن الطفل قد مات . »

* * *

وسمعت « نفتيس » أخت « إيزيس » بالحادث فحضرت باكية وكذلك الإلهة « سلكت » سيدة العقارب . ونصحتها « إيزيس » بالدعاء للسماء حتى تقف سفينة « رع » بمن فيها .

فأرسلت « إيزيس » صراخ قلبها إلى موكب الشمس فانزعج « رع » وأمر بنفسه إيقاف المركب الذهبى وألا تسير فى رحلتها اليومية.

وأرسل الإله « تحوت » ليستطلع أمر ما حدث لإيزيس . فنزل هذا الإله إلى الأرض وأخبر « إيزيس » أنه أتى ليشفى ابنها قائلا : —

« ولكى أشفى كل شخص أصيب بمثل ما أصيب به « حوريس » . »

ولكن « إيزيس » قابلته بعويلها نادبة ابنها الصغير ، إلا أن « تحوت » أكد لها أن كل شيء سيسير على ما يرام .

وبدأ « تحوت » يرتل تعويذته السحرية معدداً أوصاف « حوريس » مقارناً إياها بأوصاف كائنات إلهية متعددة : —

« حوريس تحيطه العناية .

« حوريس مثله كمثل ذلك الذى فى قرص الشمس الذى

« يضيء الأرضين بنور عينيه .

« أى حوريس . استيقظ .

« أى حوريس . إن حصانتك اصبحت مؤكدة .

« استيقظ . وادخل الفرح إلى قلب أمك « ايزيس » .

« أن كلمات « حوريس » سوف تربط بين القلوب .

« إن « حوريس » سوف ينشر السلام على أولئك الذين

« يرغبون فى السلام .

« انا « نحوت » بن « رع » البكر .

« إن « آتوم » وأصحابه أصدروا أمرهم لى بأن أشفى

« حوريس » لتقر عين أمه .

« ولأشفى كل من كان مصاباً بنفس العلة .

« سيحيا « حوريس » من أجل أمه .

« وسيحيا كذلك كل من كان مصاباً بنفس العلة »

أسطورة

أبناء « رع » الذين تولوا عرش مصر

هذه الأسطورة أهمية خاصة فهى تقوم على أساس تاريخى وتروى الحركات السياسية التى قامت فى أواخر الأسرة الرابعة لإنهاء حكم ملوكها واستيلاء أفراد لا يمتون إلى الأسرة المالكة بصلة على العرش .

ونحن نعلم من التاريخ أن ملوك الأسرات الأربعة الأولى تميزوا بحكمهم الاستبدادى وبكل ما يتبع الاستبداد من جبروت وطغيان . فقد كانوا آلهة حقيقيين يحيون فوق الأرض . حكموا البلاد بسرهم الإلهى ولم يكن لأى فرد — لا يمت بصلة إلى أسراتهم المالكية — أن يتمتع بأية حقوق فى مصر . ولا يمكن أيضاً أن يتمتع أى فرد بوظيفة من وظائف الدولة إلا إذا كان أميراً من أمراء الأسرة المالكة .

ويمتاز عصر هذه الأسرات الأربع فى نفس الوقت بنهضة كبيرة شاملة ، جند للقيام بها والمضى فيها جماعات كبيرة من الشعب .

واتسم هذا العصر بطابع التقدم السريع فى جميع مناحى

الحياة من سياسية واقتصادية وعلمية وفنية .

ولكن النفع كان يؤول فى النهاية إلى الملك . فهو الذى كانت تنتهى إليه كل مظاهر هذه الحضارة ، كما أن الجميع كانوا يعملون ويكدون للاعلاء من شأنه دون أن يجنوا شيئاً — ولو ضئيلا — من ثمار غرسهم .

وكان لا بد لهذا النظام أن يصل إلى نهايته الحتمية ؛ نعم كان لا بد له أن ينهار .

وقد عجل بإنهاء هـــذا النظام فى أواخر الأسرة الرابعة استيقاظ الوعى القومى عند الفرد المصرى .

لقد تبلور هذا الوعى عند أولئك الفنانين المهرة ذوى المدارك المرهفة وعند رجال الحكم الذين تمكنوا من أن يتقنوا — إلى حد بعيد مهنهم المختلفة . فبرزوا فيها وتوارثوها أباً عن جد ثم — فى آخر الأمر — قام كهنة « رع » — المغلوبين على أمرهم — بحركة ثورية للتخلص من استبداد هؤلاء الملوك الذين اعتبروا أنفسهم آلهة فى مصر وأقصوهم عن العرش ونصبوا مكانهم أفراداً من أسرة تنازلت عن كثير من حقوقها الإلهية وبدأوا عهدهم بأن جعلوا من أنفسهم أبناء للإله . ولكنهم لم يدعوا بأنهم آلهة .

* * *

ونعود إلى الأسطورة التى تتحدث عن هذا الانقلاب بالصيغة التى يفهمها مصريو ذلك العصر . وتفيد بأن هذا الانقلاب حدث بمشيئة الإله « رع » وكنتيجة لتدخله الشخصى .

وقد عثر عليها مكتوبة على بردية طويلة اشتراها رجل يدعى (وستكار) وسميت باسمه وكانت محفوظة حتى قبيل الحرب الأخيرة بين كنوز متحف برلين .

وفيما يلى نص هذه الإسطورة : —

حدث ذات يوم أن شعر جلالة الملك خوفو [1] بملل فدعا أولاده وطلب منهم ان يحدثوه بما يزيل هذا السأم وبما يدخل السرور والغبطة إلى قلبه .

فتقدم ابنه « خفرع » وقال : —

هناك قصة حدثت فى عصر جدنا الأكبر الملك « نب — كا » إذ ذهب هذا الجد فى يوم من الأيام إلى معبد « بتاح » وفى طريقه عرج على منزل أحد الكهنة المرتلين ويدعى « أوبانر » .

وكان من بين حاشية الملك خادم وقع فى حب امرأة

---

(١) أشهر ملوك الأسرة الرابعة الذى فرض اسمه على التاريخ ببنائه الهرم الأكبر بالجيزة والذى عاش حوالى ٢٨٥٠ ق.م.

الكاهن من أول نظرة . وتبادلت هي معه هذا الحب .

وفي المساء أرسلت زوجة الكاهن إلى الخادم صندوقاً يحوى هدية جميلة وطلبت إليه أن يقابلها في (كشكها) الصيفي بحديقتها الكبيرة هناك وتمتعا بأوقات طيبة في خلوتهما هذه .

وكان يراقبهما خادم للكاهن ، رأى من واجبه أن يطلع سيده على كل ما حدث .

فذهل الكاهن لهول ما سمع وصمم على الانتقام ، وقد كان من الرجال الذين تعمقوا في شئون السحر وأتقنوها .

فطلب صندوقاً من العاج المحلى بالذهب ثم صنع تمثالا من الشمع لتمساح يبلغ طوله سبعة قراريط[1] وقرأ عليه تعويذة سحرية. وطلب إلى خادمه أن يذهب في المساء إلى البركة التي اعتاد الحبيبان أن يستحما فيها فيلقي بتمثال الشمع في الماء .

وبعد لحظة قصيرة حضر العشيق ليستحم في تلك البركة . وما كاد ينزل في الماء حتى تحول ذلك التمثال الصغير إلى تمساح ضخم يبلغ طوله سبعة أذرع [2] وأمسك بتلابيب العشيق وسحبه إلى قاع البركة .

وكان الملك يجلس في ضيافة كاهنه المرتل . وعندما أراد

---

(١) حوالى ١٤ سنتيمتراً .

(٢) يبلغ الذراع المصرى ٥٢ سنتيمتراً ونصف .

الانصراف تقدم إليه الكاهن يرجوه أن يحضر إلى البركة ليرى بعينيه أعجوبة حدثت له .

وما كادا يصلان إلى حافة البركة حتى نادى الكاهن التمساح فخرج إلى سطح الماء ممسكاً فى فمه العشيق وقال الكاهن موجهاً كلامه الى الملك : —

« أن هذا التمساح من صنع يدى وهو ينفذ كل ما أطلبه منه »

ولكن الملك أمر الكاهن أن يعيد هذا الحيوان إلى الماء . إلا أن الكاهن أمسك بالحيوان فاستحال بين يديه إلى تمثال من الشمع صغير الحجم . وقص على الملك قصة زوجته مع خادم الملك .

فأمر الملك أن يظل التمساح ممسكاً بخادمه وأن يرجعا سوياً إلى قاع البركة . وهذا ما حدث واختفى العشيق إلى الأبد .

ثم طلب الملك إحضار زوجة الكاهن وأن تحرق وأن يلقوا برماد جسدها فى النيل .

فسر الملك خوفو من هذه القصة وأمر بتقديم قرابين إلى روح الملك « نب — كا » مكونة من ألف رغيف ومائة آنية من الجعة وثوراً كاملا وآنيتين مملوءتين بالبخور كما أمر بتقديم رغيف واحد وآنية واحدة من الجعة وآنية واحدة من البخور وقطعة من اللحم إلى روح الكاهن « أويانر » .

* * *

ثم تقدم ابن آخر وقص عليه قصة حدثت فى عصر الملك « سنفرو » الذى شعر هو الآخر فى أحد أيام حياته بالضجر .فأمر أتباعه أن يرووا له ما يزيل عن نفسه انقباضها .

فاقترح عليه كبير كهنته أن يأمر بإعداد قارب كبير ليتنزه فيه فوق سطح بحيرة القصر على أن يقوم بالتجديف أجمل نساء قصره .

فأعجبت الفكرة الملك وأمر أن تكون المجاديف من الأبنوس المحلى بالذهب وأن تكون أطرافها رقيقة خفيفة ، كما أمر بإحضار عشرين من أجمل بنات القصر ليقمن بتحريك القارب وهن ينشدن أحلى الأغانى .

وفجأة كفت النساء عن الغناء . فاستفسر الملك عن الأمر فقالت له إحدى السيدات :

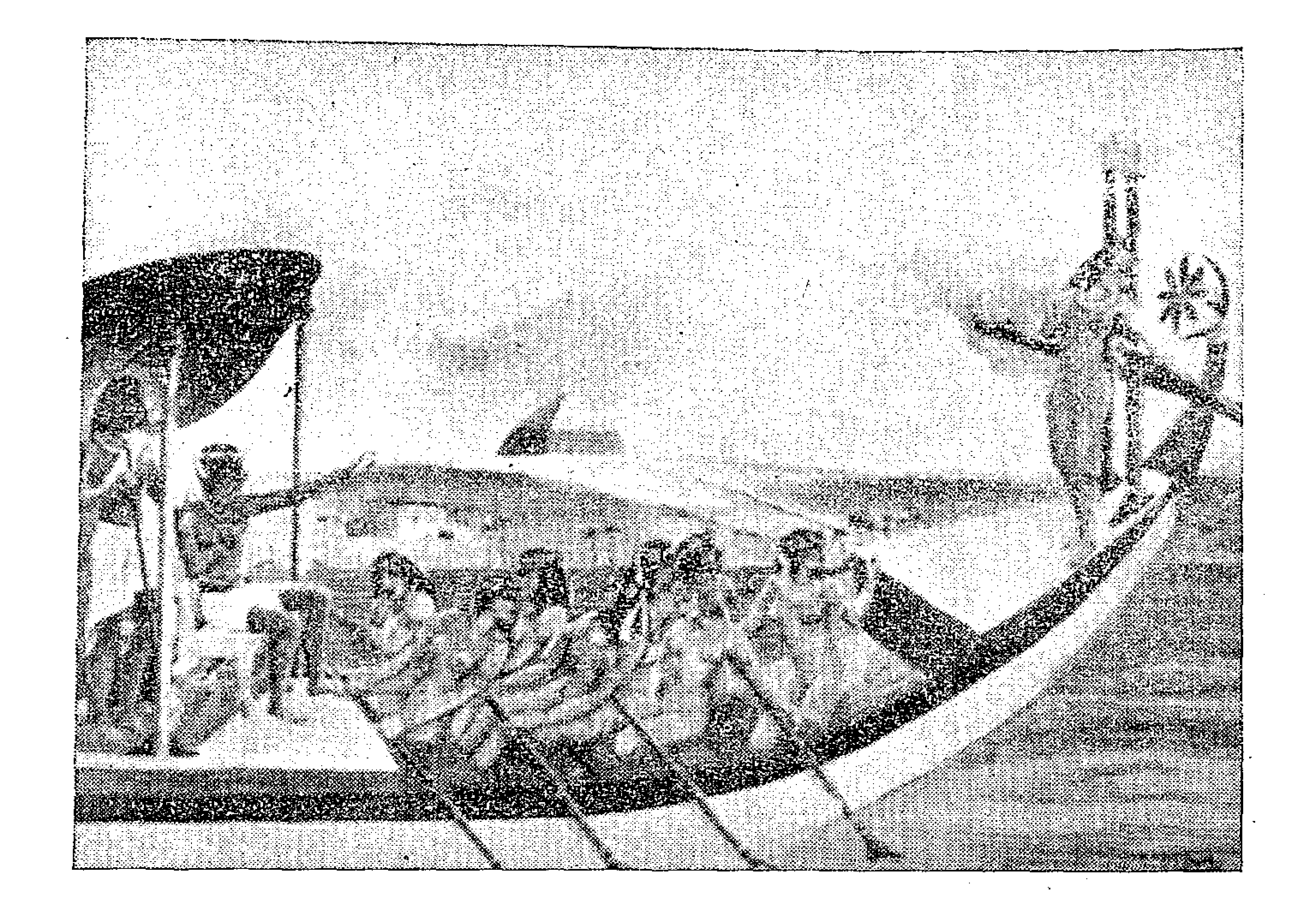
إن رئيستنا قد فقدت حلية سقطت منها فى قاع البحيرة .

فأمرها الملك أن تعود إلى غنائها وسوف يعوضها عنها بأحسن منها .

ولكنها رفضت الغناء وقالت : —

« أيها الملك ، إن قلبى حزين ولا أريد إلا حليتى كما هى . »

فنادى الملك رئيس كهنته وأخبره بالحادث . وطلب إليه أن يعيد إلى السيدة حليتها .



رسم تصويرى يمثل سنفرو فى نزهته وقد كفت إحدى السيدات عن الغناء بعد أن فقدت حليتها التى سقطت منها فى الماء .

وبالفعل قام هذا الكاهن بقراءة تعويذة سحرية واذا بالماء ينشق وظهرت الحلية فى قاع البحيرة وقد استقرت فوق قطعة من الخزف .

ونزل الكاهن من القارب وأحضر الحلية وسلمها إلى صاحبتها. ثم أعاد الكرة وتمتم بتعويذته فرجع الماء إلى ما كان عليه واستمر الجمع فى مرحه . واختتم الملك يومه بالفرح والسرور .

وأعجبت هذه القصة الملك خوفو وقدم القرابين إلى روح أبيه الملك « سنفرو » كما أمر بتقديم القرابين إلى روح رئيس الكهنة .

* * *

ثم تقدم الابن الثالث إلى أبيه وقال له : —

إن القصص التى سردت على أسماعكم هى من عصور غابرة ولا ندرى مدى صحتها . أما أنا فسوف أقص عليكم قصة ساحر يعيش بيننا فى هذه الأيام يدعى « ددى » ويسكن بقاع المستنقعات فى شمال الدلتا . عمره مائة سنة وعشرة وهو يأكل يومياً خمسمائة رغيف ونصف ثور ويشرب مائة آنية من الجعة وهو قدير فى شئون السحر إذ فى استطاعته أن يفصل رأس إنسان أو حيوان عن جسمه ثم يضمهما مرة ثانية فتعود إليه الحياة . وهو أيضاً يروض الوحوش فيجعلها مستأنسة ، وهو الوحيد بين

الناس الذى يعرف بدقة رسوم منزل الإله « تحوت » .

وكان هذا الأمر يهم الملك «خوفو» كثيراً لأنه كان يبحث منذ أمد طويل عن هذه الرسوم لكى يستغلها فى بناء أفقه (هرمه) .

وأمر الملك أن يحضر إليه « ددى » على وجه السرعة . وطلب إلى ابنه واسمه « ددف — حور » أن يستقل سفينة ويذهب لإحضار هذا الساحر .

وأبحر الأمير إلى الشمال حتى وصل إلى مكان هذا الرجل ثم سار فى محفته المصنوعة من الأبنوس إلى مسكن الساحر . فوجده راقداً فوق حصير أمام باب منزله وقد إسلم قدميه الى كاهن ليدلكهما .

وبعد أن تبادلا التحية وتحدث « ددى » عن حالة الإنسان فى سن الكهولة فاتحه الأمير فى أمر المهمة التى أتى من أجلها وقال : —

« لقد أتيت إلى هنا فى مهمة لأبى « خوفو » . ولأدعوك لتأكل من أطيب ما يعطيه لك الملك . ومن طعام حاشيته . حتى يجعلك تصل بعد حياة جميلة إلى آبائك الذين يقيمون الآن فى مدينة الأموات [1] . »

---

(١) معنى هذه الفقرة أنه سيضرب بحظ وافر فى الثروة وسيتقرب إلى الملك فيضمن بذلك حياة خالدة بعد الممات .

فحياه « ددى » قائلا :ـ

« أهلا ! أهلا ! بـ «ددف ــ حور » بن الملك الذى يحبه

« أبوه . إنى طوع أمرك.. »

ثم مد الأمير يده إليه وساعده على الوقوف ومشى معه حتى الشاطىء ماداً بذراعه إليه (أى معتمداً عليه) .

وطلب « ددى » أن يسمح له بقارب لينقل فيه كتبه المتعددة وأولاده الكثيرين .

فنفذت مشيئته وأبحر إلى الجنوب ووصل هذا المركب إلى العاصمة .

وعند ما وصل الأمير « ددف ــ حور » إلى البلاط دخل على أبيه الملك « خوفو » مسرعاً لينبئه بحضور الساحر وقال : ــ

« سيدى الملك . لقد أحضرت ددى . »

فقال الملك : ــ

« أسرع وأدخله علىّ »

وذهب الملك إلى بهو الأعمدة بالقصر حيث أدخلوا عليه ددى هذا

ووجه الملك حديثه إليه قائلا : ــ

« كيف هذا يا « ددى » .

« إنى لم أرك إلى الآن . »

فقال ددى : —

« من بدع يجب .

قد دعانى الملك وها قد أتيت . »

فقال الملك : —

«أحقاً ما يرويه الناس عنك من أنه فى وسعك إعادة الرأس المقطوع إلى الجسد فتدب فيه الحياة مرة ثانية ؟ »

فقال « ددى » : —

« نعم يا سيدى الملك . أننى أستطيع ذلك . »

فقال الملك : —

« أحضروا لى أسيراً من السجن ليثبت فيه دعواه »[1]

فقال « ددى » : —

« أرجو ألا يكون هذا فى إنسان .

إننا لا نصنع هذا مع حيوان ممتاز .

فليأمر الملك بتجربة ذلك فى شىء آخر . »

* * *

فجىء له بأوزة . وفصل عنها رأسها . ووضع جسدها فى

---

(١) أى بدلا من تنفيذ العقوبة المحكوم بها عليه .

الجانب الغربى من البهو ووضع رأسها فى الجانب الشرقى منه . وتلا «ددى» تعويذة سحرية . فوقفت الأوزة وتحركت . وكذلك فعل الرأس . ولما بلغ كل منهما الآخر التصقا وعادت الحياة إلى الأوزة وأخذت تصيح .

بعد ذلك أمر الملك بإحضار عجل (ثور) فصل رأسه عن جسده . ثم قرأ « ددى » تعويذته السحرية فوقف الثور بعد أن عادت إليه الحياة .

وهكذا أتى « ددى » بكثير من المدهشات مما جعل الملك يثق فى حكمته . فسأله بصراحة عن ذلك الأمر الذى كان يهمه أكثر من كل شىء ، أى عن أسرار معبد إله الحكمة « تحوت »

فقال ددى إنه لا يعرف هذا السر ولكنه يعرف أين هو .

فأمره الملك أن يطلعه على مكانه .

فقال له الحكيم ددى : —

إن هذه الرسومات موجوده فى صندوق موضوع فى مكان ما فى معبد هليوبوليس . ولكنى لن أستطيع إحضاره إليك .

فقال الملك : —

« ومن ذا الذى يحضره إلىّ ؟ »

فأجاب ددى : —

« يحضره إليك أكبر الأطفال الثلاثة الذين سوف تلدهم

السيدة (رد — ددت) . »

فسأل الملك متعجباً :—

« ومن تكون هذه السيدة رد — ددت؟

فأجاب ددى :—

« هى زوجة أحد كهنة الإله « رع » فى (سخبو) [١]

وهى تحمل من « رع » معبود « سخبو » ثلاثة أولاد .

وقد قال لها إنهم سوف يضطلعون بهذا المنصب الجليل .

وسوف يحكمون البلاد بأسرها .

وسيكون أكبرهم كبيراً لكهنة هليوبوليس . »

فحزن الملك من أجل ذلك كثيراً . وكيف لا يحزن وقد أدرك جيداً ما يعنيه هذا الحكم . فقد تكهن له بقرب ولادة ثلاثة أطفال من سلالة جديدة أنشأها الإله « رع » من صلبه ، مختاراً زوجة أحد كهنته لتحل محل سلالة « خوفو » على عرش مصر .

وعند ما رأى « ددى » جزع الملك قال له :—

« لا تخف مما قلت .

(١) مدينة ليس معروف مكانها حتى الآن . يبدو أنها كانت تحوى معبداً كبيراً للإله « رع » .

« إن ابنك سيحكم

وابن ابنك سيحكم قبل أن تلد « رد ــ ددت » أولادها وقبل أن يعتلى هؤلاء الأطفال عرش مصر . »

فأعلن « خوفو » رضاءه عن الحكم ددى كما أعلن أنه سيزور معبد « رع » عند ما تهبط مياه النيل، ثم أجزل العطاء لددى وسمح له بأن يقيم مدى حياته فى قصر « ددف ــ حور » على أن تقدم له الألف رغيف والمائة آنية من الجعة وثوراً كاملا ومائة حزمة من البصل كل يوم .

وعندما أوشكت السيدة رد ــ ددت أن تلد أبناءها الثلاثة أحضر الإله « رع » كلا من الإلهات إيزيس ونفتيس ومسخنت وحكات وكذلك الإله « خنوم » وقال للإلهات :ــ

« اذهبن وساعدن « رد ــ ددت » على وضع أولادها الثلاثة الذين سيتولون هذا المنصب الجديد فى هذه البلاد بأسرها .

« ليبنوا لكن المعابد .

« ويعنوا بعذابحكن .

« ويكثروا من تقديم الشراب على موائدكن .

« ويقفوا الأراضى لقرابينكن . »

وأطاعت الإلهات أمره واتخذن صوراً بشرية وذهبن إلى دار السيدة أما « خنوم » فقد تبعهن كحمال (خادم يحمل المتاع) .

ثم قدمن أنفسهن كنساء مجربات يحذقن عملية التوليد .

فسر الكاهن الذى كان مهموماً من أجل زوجته وأدخلهن الدار واغلق وراءهن الباب .

وبدأن عملهن . وأخرجن إلى الدنيا ثلاثة أطفال طول كل طفل منهم ذراعاً . وكل واحد منهم ذو عظام قوية .

وتولت « إيزيس » منح كل طفل اسمه فى حين تنبأت «مسخنت » لكل طفل أنه سيكون ملك البلاد بأسرها[١] .

وعند ما تركت الإلهات الدار وأنبأن زوج رد — ددت بولادة الأبناء الثلاثة ، شكرهن وأهداهن قمحاً تقبلنه راضيات وقد حمله « خنوم » على ظهره . وكان يقوم بدور الخادم لهن . وانصرفن إلى المكان الذى أتين منه .

وقالت « إيزيس » أثناء سيرهن :—

« أما كان من الأليق والأفضل أن نقدم معجزة إلى هؤلاء الأطفال الثلاثة ؟ . »

فوافقت الإلهات الأخرى على كلامها وصغن بعد هذه الملاحظة ثلاثة تيجان ملكية ، وضعنها فى القمح الذى أخذنه كأجر لعملهن ، ثم أثرن عاصفة شديدة جعلنها حجة لرجوعهن

(١) وفى الحق تحققت هذه النبوءات لأن هؤلاء الأطفال الثلاثة قد أصبحوا فيما بعد الملوك الثلاثة الأول للأسرة الخامسة .



الإلهة « توريس » فى الوسط تدخل قاعة الولادة يصاحبها كاهنان وقد
تزيا بزى الإله « بس » . والجميع يغنون .

إلى منزل الكاهن ليرجونه أن يبقى القمح فى حجرة مقفلة حتى يعدن لأخذه .

وبعد أربعة عشر يوماً ، وعند ما بدأت رد ــ ددت تعنى بشأن دارها من جديد علمت أن الدار خالية من القمح فأمرت خادمتها بأن تجلب لها شيئاً مما تركته السيدات الاجنبيات على أن يعوضهن زوجها عنه .

غير أن الخادمة ما كادت تفتح الحجزة وتدخلها حتى سمعت فيها أصوات غناء وموسيقى ورقص وغير ذلك مما يحدث فى قصر الملك ..

فأسرعت إلى سيدتها وأخبرتها بما رأت وسمعت وهرولت رد ــ ددت إلى الحجرة حيث سمعت بنفسها ما تحدثت به الخادمة غير أنها لم تستطع التعرف على المكان الذى تصدر منه تلك الأصوات وفى آخر الأمر عرفت أنها تخرج من بين القمح الذى أوصت بحفظه السيدات الأجنبيات .

فقامت رد ــ ددت بوضع هذا القمح وما فيه فى صندوق خشبي وضعته هو الآخر فى صندوق كبير وربطته بسيور من الجلد ووضعته فى حجرة أغلقتها . وختمتها بخاتمها الخاص مبالغة فى الحرص .

وعند مارجع زوجها اخبرته بكل ما حدث .

وبعد بضعة أيام أتت الخادمة أمراً دعا سيدتها إلى تأنيبها ومعاقبتها ولكن الخادمة فى ثورة غضبها قالت لرد — ددت :—

« لماذا تصنعين هذا معى ؟

« سأذهب إلى الملك « خوفو » وأخبره بأن أولادك الثلاثة « سيصبحون ملوكاً على مصر . »

وفرت الخادمة إلى عمها وقصت عليه قصتها . إلا أنه غضب منها وضربها وزجرها حتى لا تتحدث بهذا الكلام .

وذهبت الخادمة إلى الشاطىء النهر لترتوى من مائه وتغتسل لعلها تستعيد شيئاً من نشاطها . ولكنها ما كادت تقرب النهر حتى خرج عليها تمساح كبير وسحبها إلى قاع النهر .

ثم ذهب عمها وقدم نفسه إلى السيدة رد — ددت وقد وجدها فى حالة من الحزن والقنوط بسبب ما حدث . وسألها ما خطبها ، ولم كان حزنها ؟

فاجابته بأنها تخشى الوشاية من خادمتها .

فأجاب الرجل : —

« لا تخشى شيئاً فقد خطفها تمساح كبير واختفى . »

* * *

وهنا ينتهى النص لا لأن القصة قد انتهت بل لأن البردية تآكلت وتهشمت . ومما يؤسف له أن المؤرخ لا يستطيع التعرف

على هذه الخاتمة التى ربما كانت تنبئنا بما سوف تقوله السيدة رد — ددت إلى عم الخادمة وما سوف ينتهى إليه الأمر .

* * *

وتعليقنا على ما جاء فى القصة من أن الأولاد الثلاثة قد ولدوا فى عصر خوفو بينما الساحر « ددى » قد أكد للملك أنهم سيولدون بعد انتهاء حكم حفيده، هو أن الكاتب قد أشكل عليه الأمر ولم يكن يقظاً عند ذكر حوادث قصته . وعلى كل حال فهذه الأسطورة اعتبرت نموذجاً يجب على كل طالب علم بين المصريين القدماء أن يتقن كتابتها ويتعرف محتوياتها .

والنص الذى وصل إلينا نؤرخه من عصر الدولة الوسطى . ولعل مرور بضع مئات من السنين كان السبب فى عدم تعلق الكاتب بالمحافظة على الأمانة فى سرد قصته . . !

أسطورة

حاتشبسوت ونسبتها إلى الإله « آمون »

تعتبر الأسرة الثامنة عشر بمثابة أزهى عصور الدولة الحديثة لأن الانتصار الكاسح الذى أحرزه أحمس الأول فى كفاحه مع الهكسوس ومطاردته لهم فيما وراء الحدود المصرية يعتبر الأساس الأول للامبراطورية المصرية .

وبدأ المصريون يتعرفون على حضارات الأقطار المجاورة فى الشمال الشرقى لمصر وفى جنوبها .

وخلف أحمس الأول ابنه أمنحوتب الأول على العرش ثم تمكن رجل لايمت بصلة النسب إلى العائلة المالكة أن يتولى عرش مصر بعد أن تزوج من إحدى أميرات البيت المالك . هذا الرجل هو تحوتمس الأول الذى اشتهر بالكفاءة وقوة العزيمة وتمكن من أن يوطد أركان الإمبراطورية التى كونها أحمس الأول وأن يوسع رقعتها . إلا أن هذا الرجل لم يكن سعيداً فى أواخر أيامه إذ حدثت مشكلة كبرى لتوريث العرش :

فعند ما بدأ الضعف يدب فى أعضاء هذا الرجل العظيم رأى أن يمنح العرش لابنه تحوتمس الثانى بعد أن زوجه من ابنته

الكبرى حاتشبسوت . ولكن هذا الابن لم ينعم بالملك طويلا وأدركته المنية بعد فترة قصيرة .

فأراد الأب أن يتولى العرش فى مصر أحد أبنائه غير الشرعيين بعد تزويجه من ابنته حاتشبسوت. ولم يستطع ذلك إلا بعد أن استعان بكهنة « آمون » وخرجوا على الناس بنبوءة كشف عنها الإله تهدف إلى اختيار الشاب الصغير تحوتمس الثالث ملكاً على مصر.

وبعد فترة قصيرة مات الملك العجوز تحوتمس الأول وأسدل الستار على هذه النبوءة الإلهية .

أما حاتشبسوت التى كانت تتمتع بشباب غض وجمال فائق وذكاء خارق وأطماع لا حد لها فأرادت أن تستقل بالحكم وأن تتخلص من زوجها بطريقة شرعية .

فطلبت إلى الكهنة (أى كهنة الإله آمون) ان يبادروا إلى مساعدتها فى تنفيذ خطتها . وما كان أسرعهم إلى تنفيذ أوامرها .

فخرجوا على الناس بالأسطورة التالية وهى منقوشة على جدران معبد الملكة بالدير البحرى بالأقصر :—

ذات يوم جمع ملك الآلهة « آمون — رع » بعضاً من رفقائه وأعلن لهم رغبته فى أن يخلق ابنة لتحكم مصر وأنه يود أن تولد هذه الابنة من امرأة من البشر.

فتقدم « تحوت » الإله العظيم الذى يعرف كل شىء وقال :—

« إن هناك امرأة واحدة لا مثيل لها لهذه المهمة . إنها « أحمس » ملكة القطرين . زوجة تحوتمس (الأول) . وأنصح ملك الآلهة أن ينتهز فرصة سفر زوجها لزيارتها . »

* * *

ونفذ « تحوت» الخطة واصطحب « آمون » إلى قصر تحوتمس الأول واتخذ الإله شكل الزوج ودخل مخدع الملكة فوجدها مضطجعة على سريرها بجمالها الزاهى ونبه عبيق الإله — الذى ملأ جنبات المخدع — الملكة .

فسارع إليها الإله وكشف لها عن شخصيته وأخبرها بما وطد العزم عليه . وذهلت الملكة من جمال الإله وطغت عليها موجة من السعادة لا حد لها ، وتملكها حب الإله . وصاحت تقول :—

« ما أعظمك !

« ما أجمل أن أستملى وجهك !

« وما أحلى أن تضمنى إليك ! »

فقال الإله للملكة :—

« اخترت لابنتى منك اسم حاتشبسوت وقررت لها أن تحمل عبء الملك فى هذه البلاد . »

« أنها من روحى وتيجانى لها .

« وسوف تصبح ملكة القطرين وسوف تقود الرجال فى هذه البلاد . »

واستدعى « آمون» على عجل الإله « خنوم » صانع البشر والذى يشكل أجسامهم من الطين فوق عجلة الفخارى وقال له :

« لتصنع ابنتى هذه وقرينتها من أعضائى هذه .

« ولتشكلها بجمال لامثيل له بين الآلهة .

« اصنع لى ابنتى هذه التى أنجبتها .

« لقد وهبتها الحياة والسعادة والقوة .

« سأمنحها كل شىء لتصبح مثل « رع » الأبدى . »

فأجاب على ذلك « خنوم » بما يأتى :—

« سأصنع لك ابنة اسمها حاتشبسوت لها الحياة والصحة والسعادة . »

« سوف يفوق جمالها جميع الآلهة حتى يتفق مع مكانتها كملك لمصر العليا ومصر السفلى . »

* * *

وجلس خنوم » على عجلة الفخارى وبدأ يشكل جسمى حاتشبسوت وقرينتها (كا) وأخذ يبتهل طوال هذه العملية بدعوات طيبات قائلا :—

« هنيئاً لك . لقد قمت بتشكيل جسمك من أعضاء آمون . »

« طوبى لك فإنى شكلتك لتكونى أجمل من أى إله آخر .

« سأعطيك الحياة كلها ومعها السعادة والقوة والحظ .

« سأعطيك الصحة بأكملها .

« سأعطيك كل البلاد والشعوب .

« سأهبك كل ما لذ وطاب من المآكل والمشارب حتى

« تصبحى أهلا للجلوس على عرش «حوريس» مثل «رع »

« إلى الأبد .

« سوف تفوق قرينتك كل ما للبشر من قرائن (جمع قرينة)

« وهكذا ستضيئين كملك لمصر العليا ومصر السفلى .

« وكسيدة للجنوب والشمال .

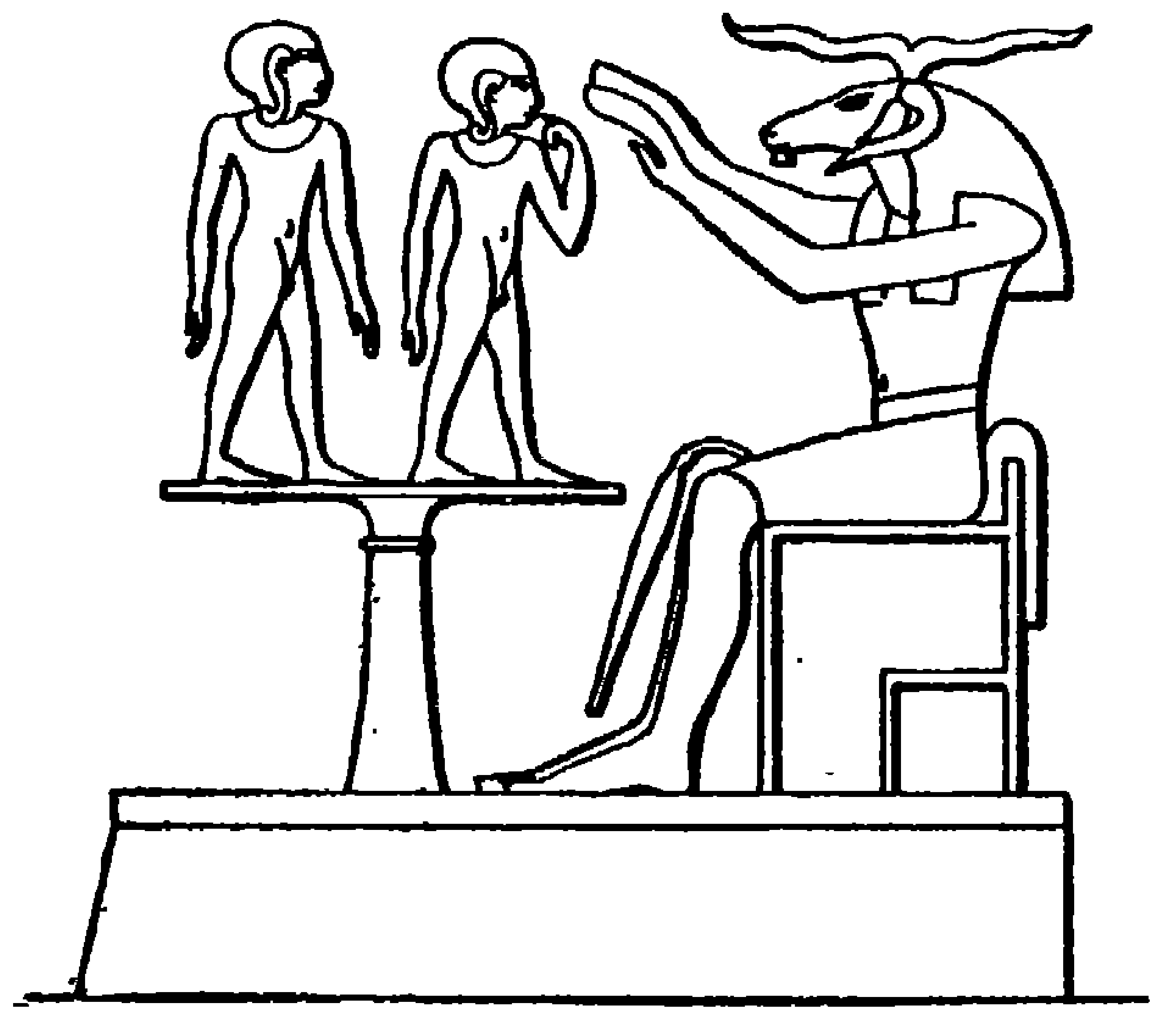
« لا غرو فإن هذه هى أوامر والدك الذى يحبك . »

ويرى المدقق أن المناظر — التى قام بنقشها فنانو هذه الملكة فوق جدران معبدها بالأقصر والمعروف باسم الدير البحرى — تمثل الملكة آحمس (الوالدة) وقد جلست قبالة ملك الآلهة «آمون» على عرش طويل يشبه فى شكله ما اعتاد المصرى أن يمثل به شكل السماء وقد ارتفع هذا العرش فوق أيدى إلهتين جلستا فوق أريكة . ويرى الناظر أيضاً الإله وهو يقدم رمز الحياة إلى الملكة

الوالدة . ويجدر بنا هنا أن نشهد ببراعة الفنان الذى تمكن أن ينسج ستاراً من الوقار والعظمة حول هذا المنظر.

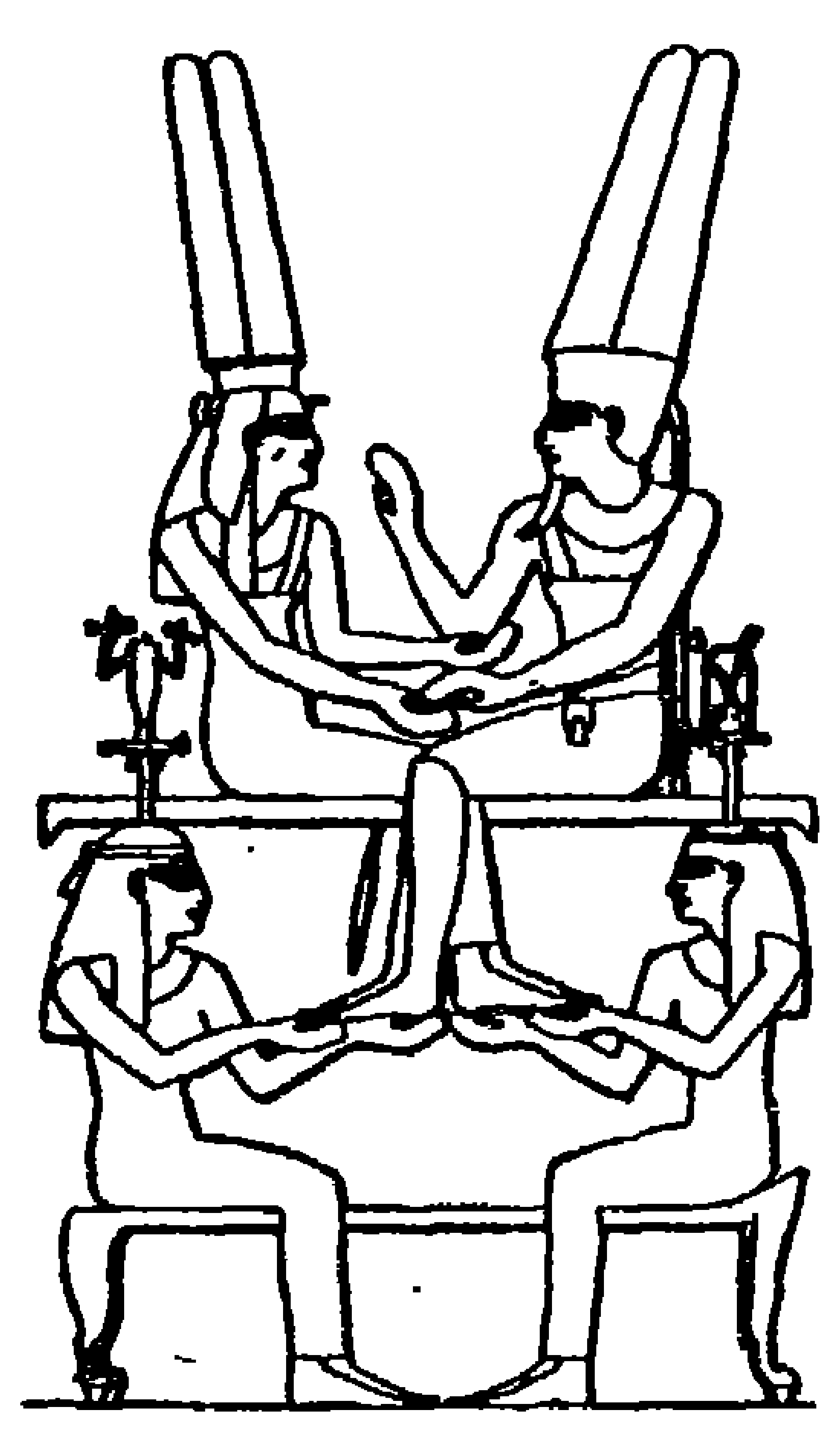
ومن ثم نرى الملكة آحمس يحييها الإله « تحوت » وقد صاحبته الإلهة « حكت » التى تقوم بعملية الولادة بين الآلهة . ثم يقودانها إلى الحجرة التى سوف تتم فيها الولادة .

ويتبع ذلك منظر آخر نرى فيه الملكة تجلس فوق عرش

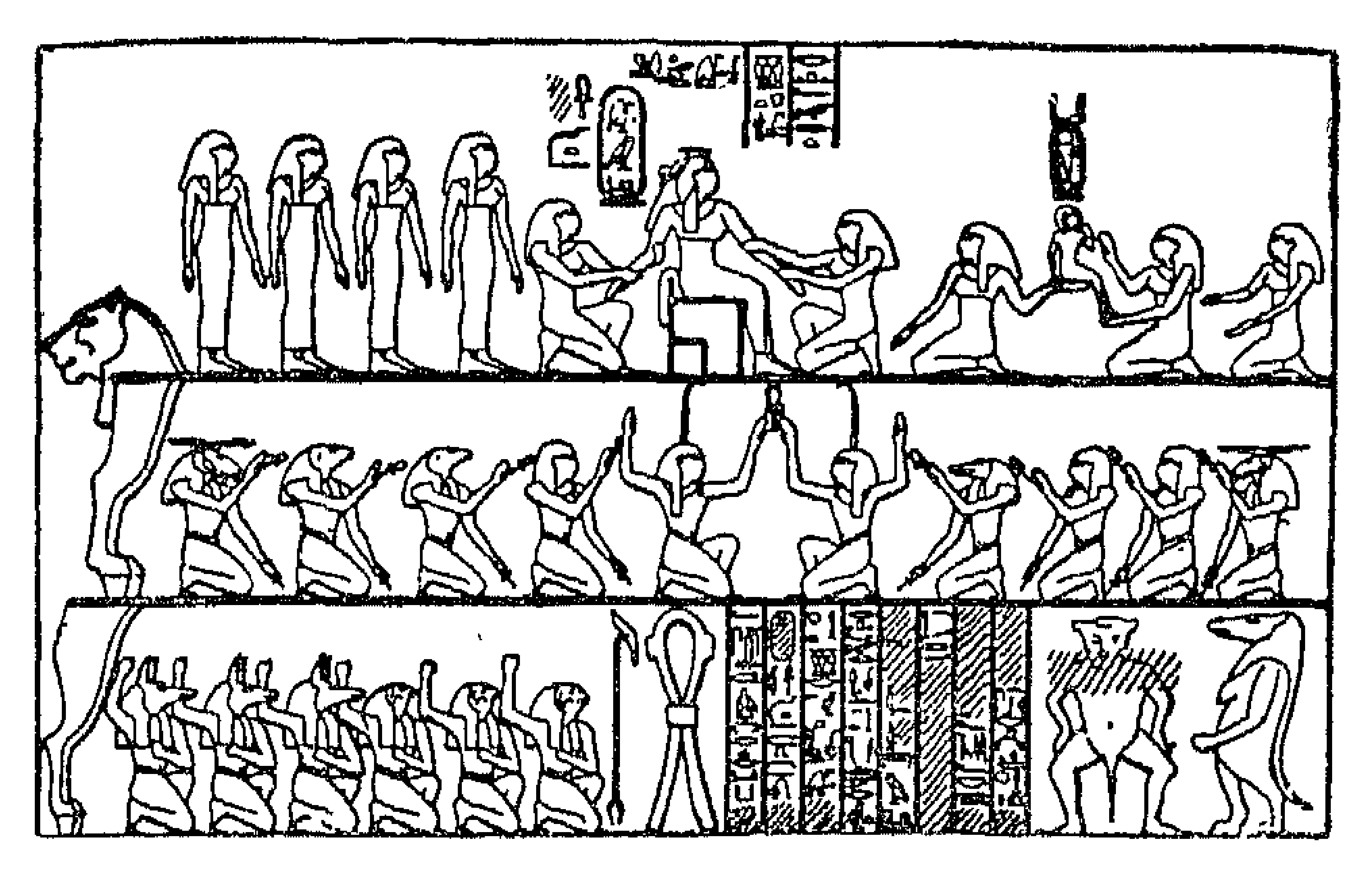


« خنوم » يجلس إلى عجلة الفخارى ويقوم بصنع جسمى حاتشبسوت وقرينتها من الطمى.

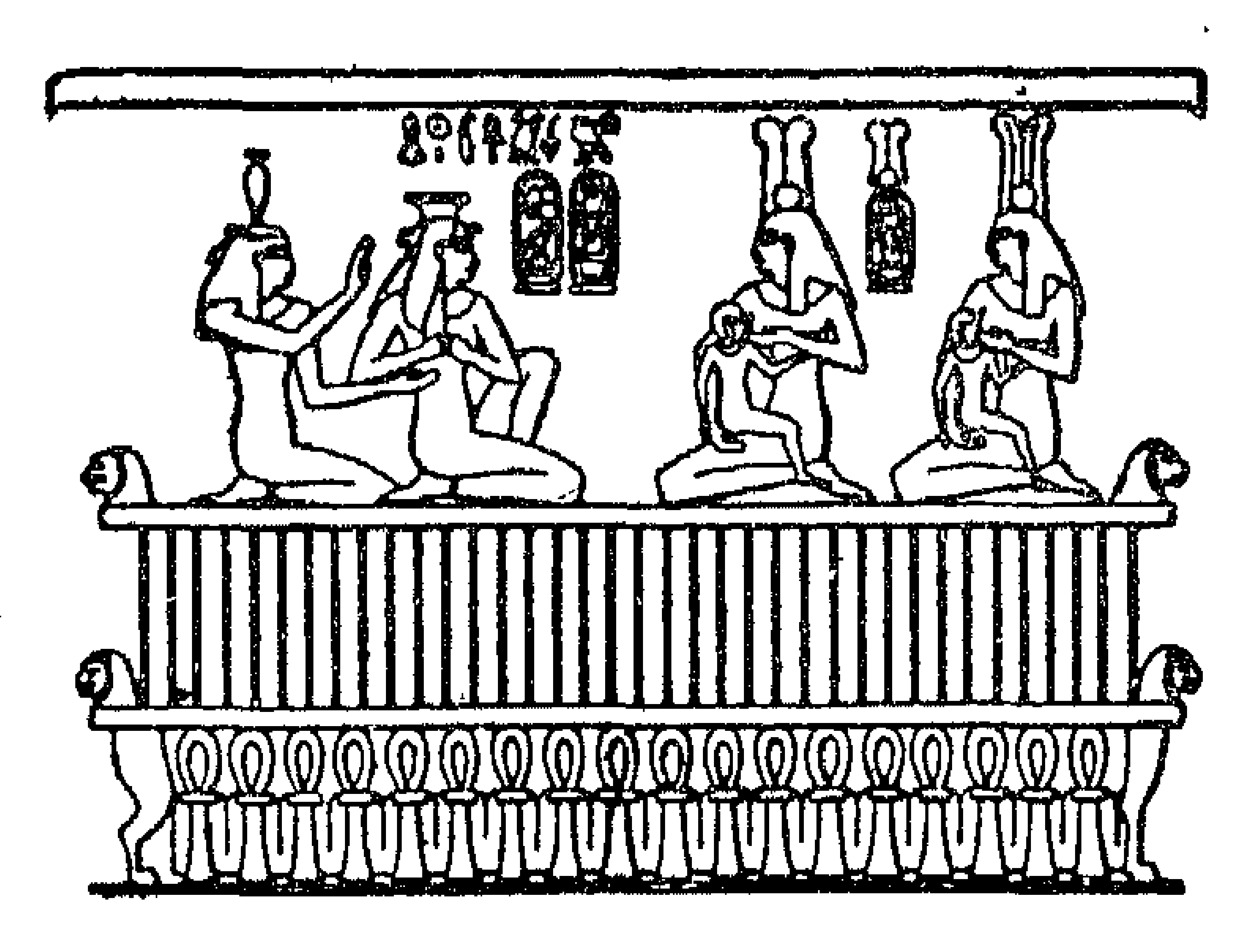
كبير وقد اضطجعت بين حشيات كثيرة محتضنة ابنتها المقدسة التي ولدتها من أبيها « آمون — رع » وقد احتشد المكان بأربع آلهات يقمن على خدمة الطفلة . ثم بعدة آلهة أخرى بين ذكور وإناث وقد أحاطت هذه الآلهة جميعاً بها . يتمتم كل منها بما يبتهله لهذه الطفلة من صحة طيبة وسعادة لا مثيل لها ، وجبروت وسلطة لا حد لهما .



« آمون » يجلس مع الملكة الوالدة يتناجيان



آحمس وقد أحاطت بها الآلهة والإلهات يقمن على مساعدتها فى ولادة ابنتها حاتشبسوت .



الإلهات يرضعن الطفلة حاتشبسوت وقرينتها

بعد ذلك نرى منظراً يبين لنا مثول الآلهة « حاتحور » بين يدى الإله « آمون — رع » تعلن له الخبر السعيد بولادة طفلته . فيفرح بذلك ويوجه الكلمات الآتية إلى ابنته هذه : —

« أنت يا أعظم جزء منى .

« ستصبحين ملكاً[1] على مصر .

« سوف تجلسين على عرش « حوريس » إلى الأبد . »

ثم توجه الإله « آمون — رع » إلى الآلهة الأخرى المجتمعة حولها بالكلمات الآتية :—

« ها هى ابنتى حاتشبسوت معكم .

« لتحيطوها بحبكم وعطفكم . »

فأجابت الآلهة بالكلمات الآتية :—

« هذه هى ابنتك حاتشبسوت التى تحيا .

« سنحيطها بحبنا وعطفنا وستحيا فى سلام وهدوء .

« إنها ابنتك التى خلقتها من نفسك .

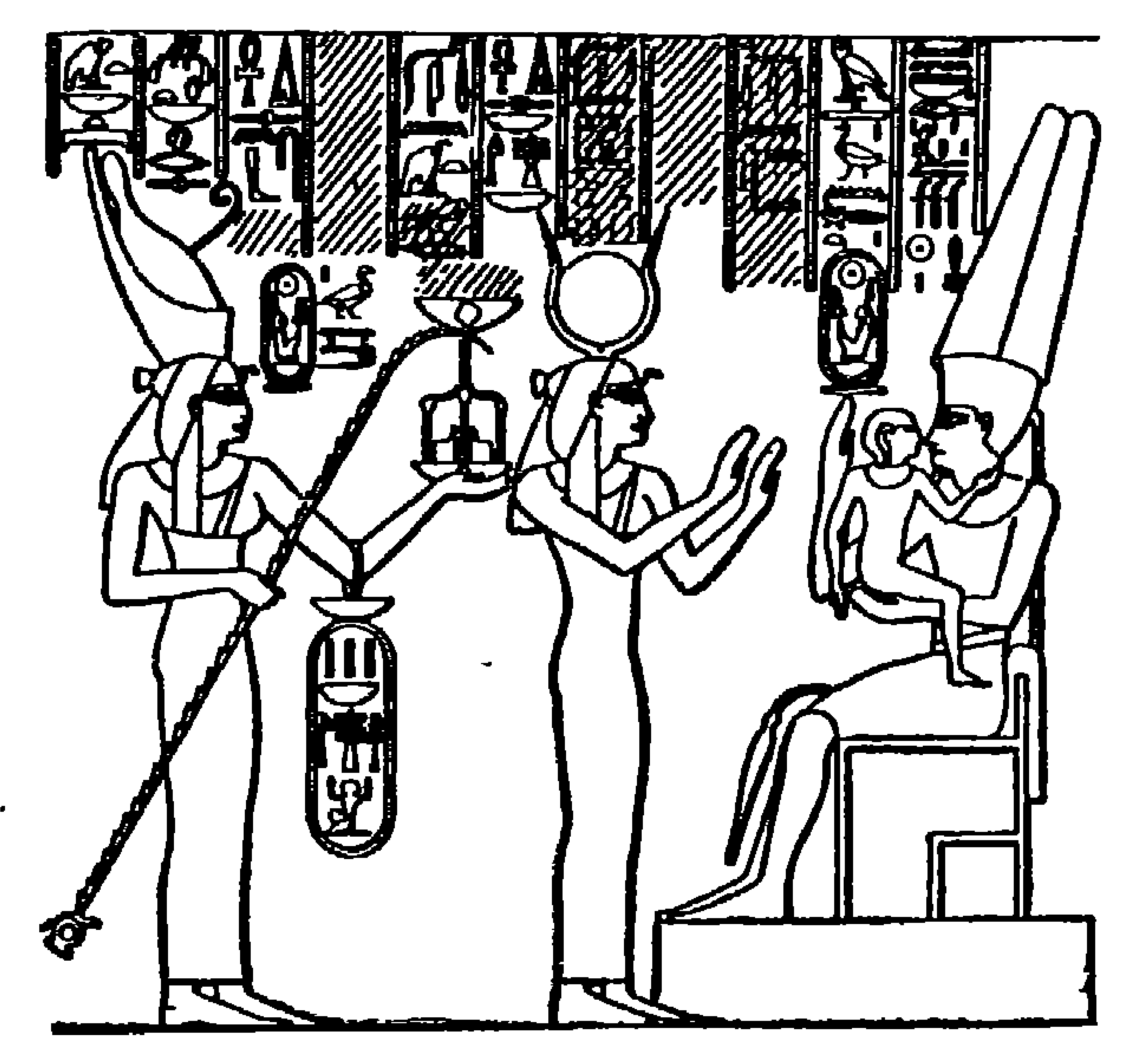
« إنك أعطيتها روحاً من روحك .

« إنك أسبغت عليها قوة سحرية من قوتك .

---

(١) حرص كهنة « آمون » على تلقيب هذه الملكة بكل الألقاب التى كانت تعطى للملوك الذكور وغالوا فى ذلك إلى درجة أنهم صوروها على هيئة رجل كما استعملوا عند الحديث عنها ضمائر الذكور .

« لقد امتلكت البلاد وكل ما تظلله السماء بينما كانت فى
« بطن أمها .
« إنها لصاحبة كل ما تحتويه البحار .
« هذا ما صنعته لها .
« إنك أعطيتها حظ « حوريس » فى الحياة .
« لقد وهبتها سنى « ست » فى السعادة . »



الإلهة « حاتحور » تقدم الطفلة حاتشبسوت إلى أبيها « آمون — رع »

ويذكر التاريخ أن هذه الملكة قد نجحت فى مؤامرتها هذه ضد زوجها الملك تحوتمس الثالث وقد كان فى ذلك الوقت صبياً لا يزيد سنه على العشر سنوات . وكان نجاحها مؤكداً نظراً لمساعدة كهنة « آمون » لها من ناحية ، ولأنها استطاعت من ناحية أخرى ، أن تجمع حولها فئة من الرجال عرفوا بحكمتهم واشتهروا بحنكتهم فى مختلف ميادين العمل ونخص بالذكر منهم المهندس « سننموت » الذى بز كل الآخرين فى تقربه إلى الملكة وإليه يرجع الفضل فى بناء معبدها الجميل المعروف باسم معبد الدير البحرى ، كما أقام لها مسلتين عظيمتين فى فترة قصيرة تعتبر مثلا قياسياً ، إذ أتم هذا العمل الكبير فى مدة سبعة أشهر.

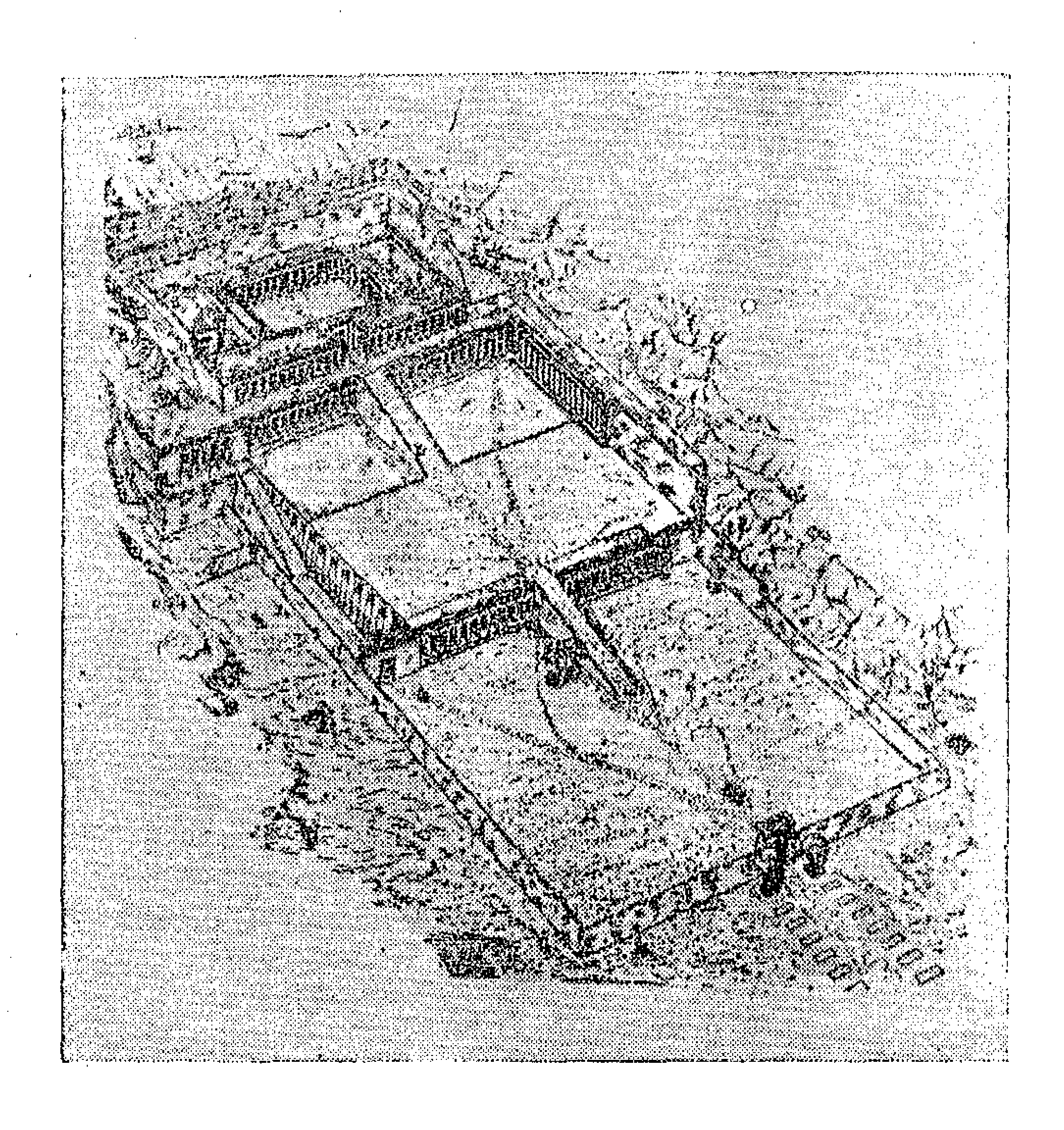
وليس من شك فى أن حاتشبسوت نفسها كانت تتميز بالذكاء وحسن الإدارة والتفهم الدقيق لما يجرى فى البلاد من أحداث ولو إنها لم تجرد حملات حربية لفتوحات جديدة ، إلا أنها أرسلت بعثات سلمية لتوطد العلاقات التجارية بين مصر والأمم المتاخمة لها .

وأشهر هذه البعثات هى تلك التى أرسلتها إلى بلاد (بونت) والتى نعتقد بأنها هى بلاد الصومال الحالية . واستطاع رجالها أن يحصلوا من هذه البلاد على كل ثمين وغريب .

وهكذا استمتعت البلاد فى عصرها بسلام حقيقى وبرخاء

كبير كانا هما الأساس القوى الذى مكن زوجها تحوتمس الثالث من أن يقيم عليه ذلك البناء الضخم ، ألا وهو الإمبراطورية المتسعة الأرجاء التى امتدت حدودها شمالا حتى اعالى الفرات وبلاد الحيثيين. وجنوباً إلى ما وراء الشلال الرابع .

وكانت حاتشبسوت فى حياتها عظيمة قوية .بحيث إنها حافظت على ما ادعاه كهنة « آمون — رع » من أنها ابنة الإله « آمون » من صلبه .



معبد حاتشبسوت الذى يعتبر تحفة فنية من ناحية هندسته المعمارية و روعة نقوشه . وهو المشهور باسم (معبد الدير البحرى) و يقع على الشاطىء الغربى للنيل بطيبة (الأقصر) .

أسطورة

« إيبو — ور »

لقد سبق الحديث عما وصلت إليه الدولة القديمة من تقدم سريع فى شتى مرافقها المادية والمعنوية . ولقد عاش شعب مصر طوال هذا العهد فى سلام ووئام لم يعهدهما فى العصور اللاحقة . فلم يحدث أن شعر بالخطر الخارجى ولم يدبر شؤونه على أساس سياسة خارجية واسعة المدى .

ومن أجل هذا طبع هذا العصر بطابع خاص يقوم على شعور المصرى بطمأنينة واستقرار داخلى جعلاه ينحو نحو المادية فى كل شىء .

إن الشعور المصرى بقوته واستقراره وبعدم وجود أخطار يمكن أن تداهمه من الخارج جعله لا يفكر إلا فى إسعاد نفسه ولا يركن إلا للماديات الواقعية .

ولنعطى لذلك مثلا . فان المصرى فى عصر الدولة القديمة كان لا يفهم ان الحياة الثانية ميسورة إلا إذا استعد لها بإقامة مقبرة ضخمة يزودها بكل مايحتاج إليه البشر من مأكل ومشرب وملبس فعلى . وكانت السعادة فى الحياة الثانية بمثابة سلعة

يشتريها القادر على دفع ثمنها . وكان الثمن هو رضاء الملك من ناحية وتكديس القرابين فى المقبرة من ناحية أخرى .

لقد فهم المصرى هذا واعتقد أن الآلهة أنفسهم قد قرروا مصيره على هذا الأساس البسيط وهو : —

أن السعادة والحظ لا ينالهما الإنسان إلا حسبما تملكه يداه . فمن كان غنياً ومن عظم قدره بين الناس بقى طوال حياته الثانية متمتعاً بما حظى به فى حياته الأولى .

وقام المجتمع المصرى على أساس هذه الفكرة كما قام أيضاً على عقيدة جعلت الفرعون المصرى هو محور كل نشاط وصاحب السيطرة فى مصر .

ولم تسجل الأحداث فى مصر طوال عصر الدولة القديمة ما يدعو إلى زعزعة هذه العقيدة . حتى أتى عصر الملك پيبى الثانى أحد ملوك الأسرة السادسة الذى تولى العرش وعمره ست سنوات ، ومات وقد قارب المائة .

وليس من شك أن مثل هذا الحكم الطويل لملك واحد يحمل بين طياته التفكك والانحلال . ولسنا ندرى هل السبب فى تدهور السلطة المركزية فى البلاد يرجع إلى ما كان يسودها من سخط وفزع ابتداء من عصر الأسرة السادسة ؛ أم يرجع الى ما يرتكبه ملك ضعيف مسن من حماقات ؟

وعلى كل حال ، فإن الثابت من التاريخ أن مصر قد ترنحت وسقطت فى هوة عميقة من الاضمحلال والانحلال بعد موت پيپى الثانى هذا مباشرة (أى حوالى ٢١٨٠ ق . م) . ويطلق المؤرخون على العصر التالى اسم (عصر الاضمحلال الأول) .

لقد انهار صرح الملكية فى مصر وتفككت عرى الوحدة فى البلاد . وتلاشت القوة المركزية . وأخذ كل حاكم لأقليم يحتفظ لنفسه بإقليمه يورثه لأولاده .

وانتهز الشعب هذه الفرصة وحاول بجهد استطاعته أن يتحرر من ذلك الغول القوى الجاثم فوق صدره . فقام بثورة جامحة كانت ككل الثورات فى كافة العهود ، لا رابط لها كالنار تأكل كل ما تلقاه . فإن لم تجد شيئاً أكلت نفسها . . .

وهكذا رزحت البلاد تحت عبء ثقيل من الفوضى والخراب فزالت قدسية الفراعين واختفت معالم الحضارة المزدهرة . وخبت نار التقوى والخشوع للآلهة . وانهار صرح التقاليد . وساد الخوف وعم البؤس والفقر والجوع . وسيطرت مظاهر الاضطراب على كل شىء فى الحياة .

ومن الغريب حقاً أن يضمحل كل شىء فى مصر ولا يزدهر فيها إلا الأدب . فقد وصلتنا عدة مخطوطات ترجع إلى هذا

العصر تحوى روائع أدبية لا مثيل لها بين الأدب المصرى القديم .

وأهم هذه المخلفات الأدبية هى قطعة من الأدب التهذيبى لحكيم يدعى « إيبو – ور » وقد وصف حالة البلاد وصفاً رائعاً وصور البؤس المنتشر فيها تصويراً خالداً ؛ ثم هو يتجه إلى الملك الحاكم ويعنفه ، ويرجع هذه الفوضى إلى استهتاره وضعفه وتهالكه على العرش دون أن يرعى شؤون الناس .

وإن الشجاعة التى صاحبت تعبيرات هذه القطعة لمما يثير الدهشة لصدورها عن مصرى قديم يخاطب فرعون قائلا : —

« إن ندماءك قد كذبوا عليك . . .

« البلاد تشتعل والناس على شفا الهلاك . . .

« هذه السنوات كلها سنى حرب وبلاء . . . »

* * *

وفيما يلى ترجمة لهذه القطعة الأدبية : —

« ما هذا الذى حدث فى مصر . . . ؟

« إن النيل لا يزال يأتى بفيضانه .

« وليس هناك من يقوم بحرث حقله . .

« إن كل إنسان يقول : إننا لا ندرى ما سيحدث فى البلاد

« لماذا حقاً أصبح الفقراء يمتلكون الكنوز ؟ . . .

« إن من كان لا يمتلك نعلا أضحى الآن من الأثرياء

« لماذا حقاً أصبح الموتى يدفنون فى النهر؟ . . .
« إن النهر أصبح جبانة وجعل الناس منه مكاناً للتحنيط .
« لماذا حقاً عم الحزن الأشراف . . .؟
« بينما ساد الفرح والسرور الفقراء .
« لقد أصبح حديث الناس فى كل مدينة يهدف إلى أن
« يقتل بعضهم بعضاً .
« لماذا حقاً انتشرت القذارة فى البلاد . . . ؟
« لم يعد لمصرى ثوب أبيض اللون فى هذه الأيام .
« لماذا حقاً انقلبت البلاد رأساً على عقب . . . ؟ كما لو
« كانت موضوعة على عجلة الفخارى .
« أصبح اللص الآن من أصحاب الثروات .
« لماذا حقاً تختفى التماسيح بما تحمل فى أفواهها . . . ؟
« لماذا حقاً انتشرت الصحارى فى البلاد ؟ . . .
« إن الأقاليم قد دهمها الدمار .
« انتشر الأجانب المتبربرون فى مصر .
« اختفى أثر الرجال من البلاد .
« لماذا حقاً قد اختفى الضحك من البلاد . . .؟
« لقد حل محله العويل وامتزج بالولولة .
« لماذا حقاً أصبح الناس يحطمون أولاد الأشراف على الجدران ؟

« إن أولئك الأطفال الذين كان الناس يتضرعون إليهم
« أصبحوا الآن يتركون على قارعة الطريق .
« لماذا حقاً أخذت الخادمات يثرثرن بألسنتهم . . . ؟
« وإذا نبهتهن سيداتهن إلى ذلك تململن مستهزئات ضجرات
« لماذا حقاً أصبحت الطرقات غير محروسة . . . ؟
« يقبع الانسان بين الاعشاب ليداهم المسافر بالليل .
« يسلبه متاعه ويسرق ما عليه من ثياب .
« ثم يضربه بالعصا حتى يفارق الحياة .
« هل لحياة الإنسان أن تنتهى ؟
« وينعدم النسل وتبيد الذرارى ؟
« وتسكن الأرض وتنتهى المنازعات ؟
« لماذا حقاً قد اندثرت الحبوب من كل مكان ؟
« وأصبح كل إنسان يقول إن كل شيء قد اختفى .
« نهبت محتويات كل شونة .
« وألقى بحارسها فوق الأرض .
« يا ليتني رفعت صوتى فى ذلك الوقت .
« فلعلى كنت جنبت نفسى ما أنا فيه الآن من شقاء .
« لماذا حقاً قد ضرب بقوانين البلاد عرض الحائط ؟
« وأخذ الناس يطأونها بأقدامهم .

« وجمهرة الشعب تمزقها بيديها .
« انظروا كيف غدت نساء الأشراف متسولات .
« وكيف اشتغل الكبراء فى المصانع .
« ومن لم يكن يمتلك خرقة ينام عليها .
« أصبح اليوم وهو صاحب سرير .
« انظروا . . . إن أولئك الذين كانوا يرفلون فى الثياب
« أصبحوا فى أسمال بالية .
« بينما ذلك الذى لم يحز ثوباً واحداً .
« أصبح الآن صاحب أفخر الثياب .
« انظروا . . . إن ذلك الأصلع الذى لم يكن لديه شىء
« من الزيت أصبح الآن يمتلك القدور الملأى بالطيب والمر .

* * *

« انظروا . . . إن تلك المرأة التى لم يكن لديها علبة صغيرة
« أصبح لها الآن صندوق كبير .
« وتلك التى كانت تنظر إلى صفحة الماء لترى وجهها
« أصبحت تملك الآن مرآة .
« انظروا . . . كيف أصبحت القطعان تسير على غير هدى
« لا يحرسها ولا يقودها إنسان .
« يأخذ كل من يريد منها ما يشاء ويدمغه باسمه .

« انظروا . . . أن من كان يقضى الليل يلهث من العطش.
« أصبح الآن قادراً على تعاطى الجعة القوية .
« ومن كان يفتقد الرغيف .
« أصبح الآن يمتلك مخزناً للغلال .
« انظروا . . . أن من كان لا يمتلك ثوراً
« أصبح الآن من أصحاب القطعان . »

* * *

وبعد ذلك يأخذ هذا الحكيم يذكر الناس بالعهود الغابرة حين كان السلام يسود مصر والفرح والهناء يرفان على الناس فيقول :—

« تذكر كيف كانت الأعلام ترفع .
« وكيف كانت اللوحات تنقش .
« وكيف كان الكاهن يطهر جنبات المعبد .
« وكيف كان منزل الإله يدهن باللون الأبيض .
« وكيف كان عبيق البخور يملأ الجو .
« وكيف كانت المذابح تعج بما يوضع فوقها من قرابين . »

ويستمر « إيبو — ور » فى سرد محاسن الماضى ومباهجه إلى أن يصل إلى ما كان يقصده فعلا من توجيه النذر إلى الملك نفسه فيقول :

« لديك الحكمة والبصيرة والعدالة .
« ولكنك تترك الفساد ينهش البلاد .
« وكذلك ضوضاء المتقاتلين .
« انظر . . . ألا ترى كيف يضرب الواحد الآخر .
« وكيف تمتهن أوامرك .
« إذا سار ثلاثة من الرجال فى طريق أصبحوا اثنين .
« إن الكثرة من الناس تقتل .
« هل هناك راع يحب الموت ؟
« هل لك أن تأمر حتى يأتيك من يحدثك بالحقيقة .
« لقد كذب ندماؤك عليك .
« فالبلاد أتون مشتعل .
« والناس على شفا الهلاك .
« هذه السنوات كلها سنوات حرب وخراب .
« الحقيقة أنك أوصلت البلاد إلى هذا الدمار .
« والحقيقة أنك تتفوه كذباً . »

قصة

« آتون » إله التوحيد

لقد ذكرت فى مقدمة هذا الكتيب مدى ما وصل إليه تعدد الآلهة عند المصريين القدماء . إلا أن التقدم الذى سار فيه الشعب المصرى خلال القرون جعله يفكر فى إدماج الآلهة بعضها فى البعض الآخر .

ففى الدولة الحديثة كان الإله الأكبر هو « آمون » إله طيبة وملك الآلهة . واندمج فيه معظم الآلهة القوية فى مصر وعلى رأسهم إله الشمس « رع » . وعلى ذلك فان آمون وحوريس وخنوم وآتوم كل هذه الآلهة صارت تعتبر فى الدولة الحديثة إلهاً واحداً .

ومع ذلك فإن وجود المعابد المختلفة لكل من هذه الآلهة يجعلنا نعتقد أن فكرة التوحيد بينها لم تكن إلا أقوالا شعرية جوفاء وغير ذلك فإن كهنة آمون قاوموا — بطبيعة الحال — هذه النظريات التوحيدية المضادة لتعدد الآلهة فى الدولة الحديثة لأنهم كانوا على درجة كبيرة من الثراء وخشوا أن تطيح هذه النظريات بثرائهم الطائل .

ويذكر التاريخ محاولة وحيدة عملية للقضاء على تعدد الآلهة قام بهذه المحاولة ابن أمنحوتب الثالث آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة العظام وهو المشهور باسم « أخناتون » .

ولقد انطوت محاولة هذا الملك على استبدال جميع آلهة العصور السابقة بإله واحد سماه «آتون الحي العظيم» .

ولعل القارئ يود أن يعرف شيئاً عن تاريخ هذا الإله وفي الواقع لم يذكر هذا الاسم بين الآلهة المصرية إلا مرات معدودات على أنه إله محلى ضئيل الشأن عبد في عصر الدولة الوسطى (حوالى ٢٠٠٠ ق . م) في قرية صغيرة من القرى المجاورة لمدينة هليوبوليس وبقى مهملا لانعرف عنه شيئاً حتى جاء هذا الملك المتحمس ورفع من شأنه وجعل من عقيدته ديناً رسمياً للبلاد .

ويجدر بنا هنا أن نقول بأن الملك تحوتمس الرابع (ثامن ملوك الأسرة الثامنة عشر) كان أول ملك جاهر بالتعبد إلى صورة من صور هذا الإله . ثم جاء بعده الملك امنحوتب الثالث وبنى بعض المعابد لهذا الإله في طيبة ومنف .

ويبدو أن هذا الملك الأخير كان مدفوعاً بحب زوجته « تى » المشهورة ، التى سلبت لبه بجمالها . واحتفل بزواجه منها احتفالا لم يذكره التاريخ لأى ملك آخر . وجعل منها الزوجة

الملكية الأولى برغم أنها لم تكن من سلالة ملكية .

وعند ما تولى أمنحوتب الرابع بن أمنحوتب الثالث من زوجته « تى » العرش لقب نفسه كبير كهنة (« رع – حور – آختى » ، المبتهج فى جبله المضىء واسمه « شو » الذى هو اسم « آتون »)

ومعنى هذا أن الملك إخناتون قد رأى فى هذا الإله صورة معنوية غير مجسدة تسكن الجبل المضىء (بمعنى الأفق) .

وفى أوائل أيام حكمه كان هذا الملك يتعبد إلى كل من الإلهين « آمون » و « آتون » . عبد الأول بصفته ملكاً على مصر وتعبد الى الثانى بصفته الشخصية .

ويظهر من بعض الوقائع التاريخية أن كهنة « آمون » عز عليهم أن يستمر هذا الملك الشاب الضئيل الجسم المريض – الذى يكاد يبدو كما لو كان معتوهاً – فى التقرب الى ذلك الإله الدخيل « آتون » فأخذوا يحيكون حوله المؤامرات بل حاولوا عدة مرات اغتياله – فأدى هذا إلى نتيجة لم يكن يتوقعها كهنة « آمون » إذ شن عليهم إخناتون حرباً شعواء لا هوادة فيها . وتعقبهم وشتت شملهم وصب جام غضبه على الإله « آمون » .

وقصارى القول أن ثورة الغضب التى اجتاحت إخناتون جعلته يتعقب « آمون » وجميع الآلهة القديمة المندمجة فيه ولا

نجد لهذه الثورة مثيلا إلا فى تاريخ التعصب . فقد محا رجال الملك أسماء « آمون » وصوره حيثما وجدت . وكان أتباعه يتسللون حتى إلى بطون المقابر ليصبوا غضبهم على الإله البغيض .

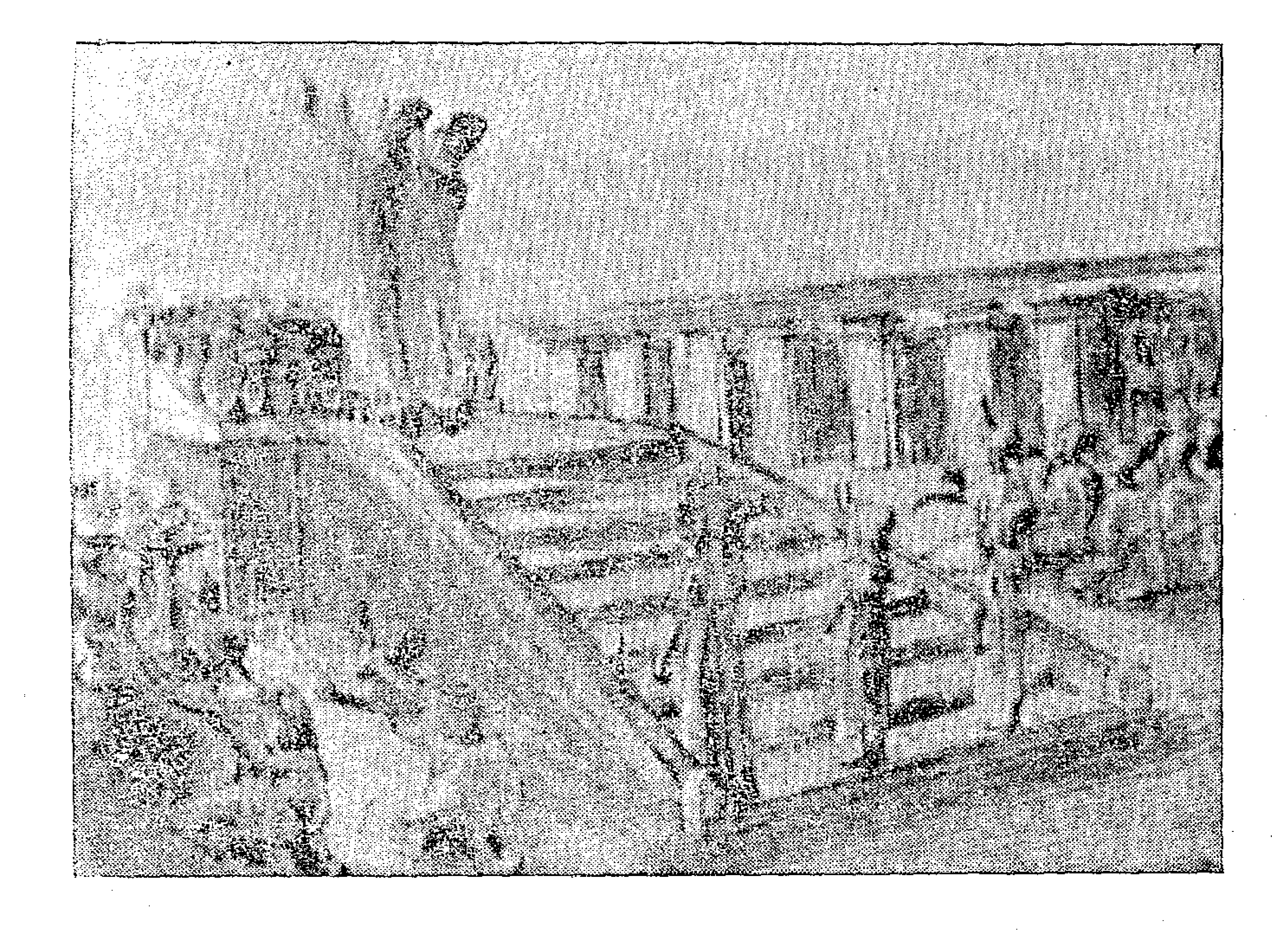
ولا غرابة إذن ، إذا كره الملك عاصمة ملكه طيبة مقر عبادة « آمون » وزملائه من الآلهة الأخرى فهجرها وأمر بتشييد عاصمة جديدة لتحل محل مدينة طيبة الدنسة .

* * *

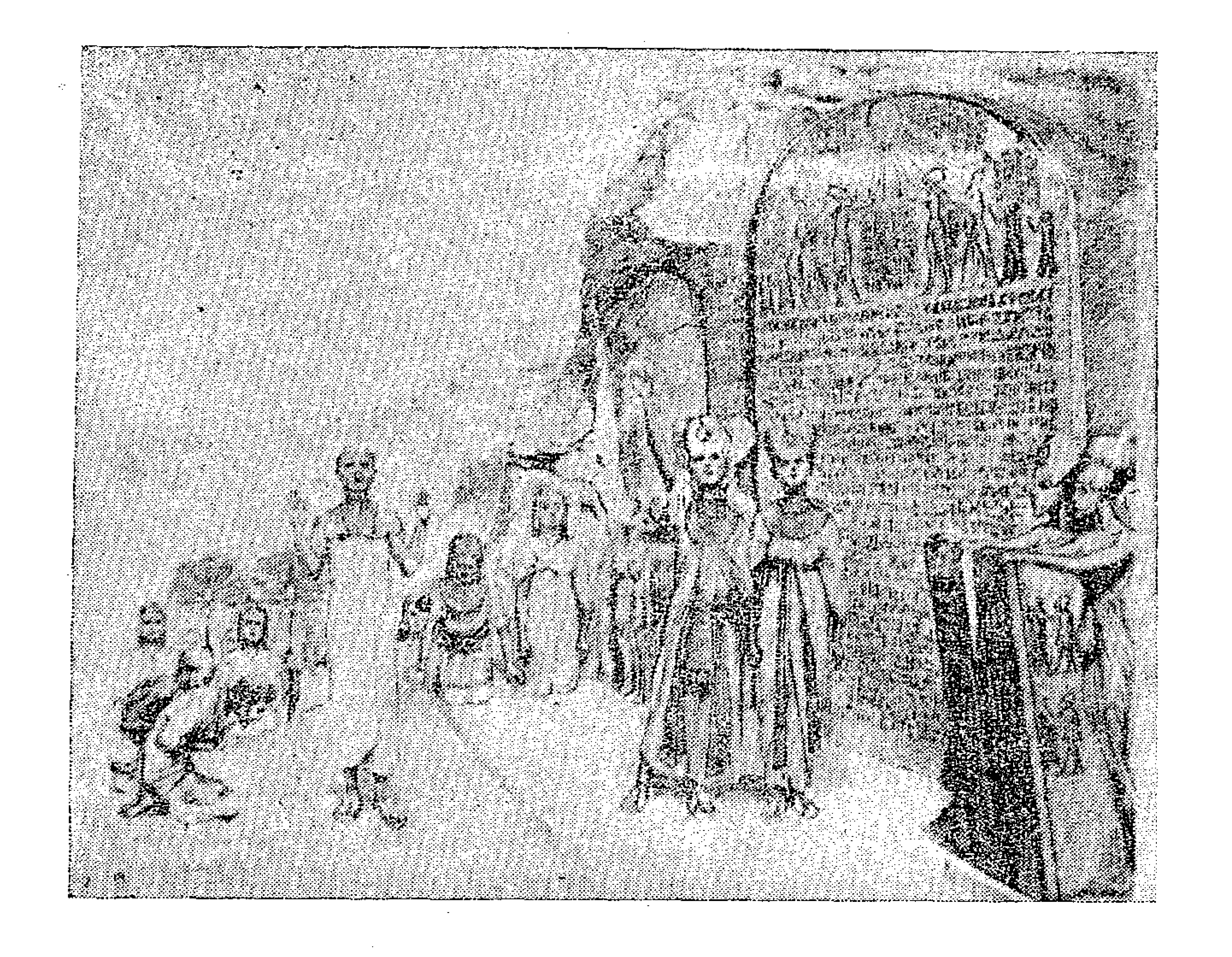
وشيدت مدينة (تل العمارنة) فى مصر الوسطى بالقرب من ملوى . ومن هذه المدينة انبثقت أشعة عصر جديد كله مجد وكله فخار .

فهنا نبت الدين الجديد الذى يوحد بين العبادات ويطلب إلى المصريين أن يتعبدوا إلى إله واحد لا شريك له . وهنا أيضاً أدخل الملك أساليب جديدة فى كل مظهر من مظاهر الحياة فى مصر .

وكان الفن من أهم ما تناوله يد التغيير فقد أخذ يرنو إلى تقليد الطبيعة فأصبح فناً واقعياً يستمد مادته مما هو كائن . وبذلك تحرر الفنان من تلك القيود العتيقة الخامدة التى كانت تسيطر على الأسلوب الفنى طوال العصور السابقة .



منظر تصويرى يمثل إخناتون و زوجته يقدمان القرابين إلى إلههم « أتون » فى المعبد و يلاحظ أن المعبد مكشوف وخلو من تماثيل للإله أو أية صورة يرمز بها إليه



منظر تصويري يمثل اختاتون وزوجته يحتفلان بإقامة اللوحات الحجرية التي تبين حدود العاصمة الجديدة (تل العمارنة)

إذن كان للثورة هدفان . الأول إزاحة ذلك الكابوس الذى جثم على صدورهم سنين عديدة من تعدد الآلهة وإقامة الطقوس وتشعبها وتعنت الكهنة . والهدف الثانى كان الجنوح بالفن إلى الناحية الطبيعية البحتة يستلهمها صوره وأخيلته ومعانيه .

وسنحاول هنا أن نثبت ترجمة للأنشودة الكبرى التى دبجها إخناتون لمعبوده الجديد وهى تضفى على هذا المعبود صفات عالمية خليقة بأن يرى فيها كل إنسان — مصرياً كان أو أجنبياً — مثله العليا التى يتطلع إليها كل متعبد تقى .

ويجدر بنا هنا أيضاً أن نشير إلى تلك المشابهة الكبيرة بين كثير من فقرات هذه الأنشودة وبين فقرات أحد مزامير داود وهو المزمار رقم ١٠٤ ، وقد كان هذا التشابه موضع ملاحظة كثير من علماء اللاهوت.

والأنشودة — موضوع الحديث — مأخوذة من مقبرة « آى »(١)

(١) هذا الرجل كان يتولى أعلا المناصب فى عصر إخناتون وقد لعب دوراً هاماً أثناء الخلافات الكثيرة التى حدثت فى عصور الملوك الذين تولوا عرش مصر بعد موت إخناتون . وانتهى الأمر به أن جلس هو على العرش بعد أن بلغ من العمر عتياً ، كأحد عباد « آمون » . وانتقل الحكم من بعده إلى المصلح الكبير الملك حورمحب الذى جعل هدفه الأول القضاء على ما أصاب أداة الحكم من تدهور وانحلال .



صورة رائعة تمثل نفرتيتي زوجة إخناتون فى جلسة عائلية مع أطفالها . ويلاحظ قدرة الفنان المصرى على تصوير الحركة عندما حرر الدين الجديد الفن من القيود القديمة .

المنقورة فى الصخر بمنطقة تل العمارنة . ولا نشك فى أنها كانت تنشد كل صباح عند شروق الشمس ومساء عند غروبها فى معبد « آتون » بتل العمارنة .

وها هى ذى ترجمتها :—

« إنك تسطع جميلا فى أفق السماء .
« يا « آتون » الحى . يا بدء الحياة .
« إنك إذا أشرقت من جبل النور الشرقى
« ملأت كل بلد بجمالك
« إنك جميل . إنك عظيم .
« إنك تتلألأ عالياً فوق كل بلد .
« إن أشعتك تغمر البلاد وكل شىء خلقته .
« إنك « رع » الذى تأسر كل من رآك .
« إنك الإله الذى دان الجميع بحبك .
« إنك ناء ولكن أشعتك على الأرض .
« إنك قصى ولكن طبعات قدمك على الأرض هى النهار .
« إذا غربت فى الافق الغربى للسماء .
« أظلمت الأرض وأصبحت كأنها ميتة .
« فيستقر الناس فى حجراتهم وقد غطوا رؤوسهم .
« لا ترى عين عيناً أخرى .

« إذا سلبهم سارق ما تحت رؤوسهم فإنهم لا ينتبهون .
« أما السباع فهى تخرج من جحورها .
« والثعابين تنسل وتلدغ .
« ويخيم السكون على الأرض .
« لأن خالقها قد استراح فى أفقه الغربى .
« تضىء الأرض إذا ما أشرقت من أفقك .
« إذا سطعت فى النهار ك « آتون » تبدد الظلام .
« إذا أرسلت أشعتك . عم الفرح كلا القطرين :
« واستيقظ الناس وقاموا على أقدامهم .
« لأنك أنت الذى تقيمهم .
« فيغتسلون ويلبسون ملابسهم .
« وترتفع أذرعتهم متعبدين لشروقك .
« ثم ينتشرون فى الأرض يباشر كل منهم عمله .
« أما الماشية فهى فرحة بمروجها .
« أما الأشجار والنباتات فهى تزدهر .
« أما الطيور فهى ترفرف خارجة من أوكارها .
« تسبح أجنحتها بحمدك .
« وتقفز الحملان على أقدامها .
« وكل مخلوق حى تهتز أعطافه .

« لأنك تشرق من أجله .

* * *

« وتبحر السفن شمالا وجنوباً .
« وتعج الطرق بالناس .
« لأنك تضىء .
« أما الأسماك فى النهر فتتقافز أمامك .
« إن أشعتك تنفذ إلى أعماق البحر .
« إنك خالق النطفة فى الرجال .
« إنك تعطى الحياة للجنين فى أحشاء النساء .
« تهب الحركة للوليد فى بطن أمه .
« وتسكن من روعه فلا يبكى .
« إنك بمثابة المربية للجنين وهو لايزال فى بطن أمه .
« إنك تهب نسيم الحياة .
« لتحيا به جميع مخلوقاتك .
« إذا خرج الجنين من بطن أمه .
« جعلت من ذلك يوم ولادته .
« ثم تفتح فمه ليتحدث .
« وتدبر ما يحتاج إليه .
« وإذا صاح الفرخ فى بيضته .

« فإنك تهبه الهواء لتبقيه حياً .
« ثم تمده بالقوة حتى يثقب بيضته .
« ويخرج منها وهو يصيص بكل ما لديه من قوة .
« ويسعى على قدميه إذا خرج منها .
« ما أكثر مخلوقاتك .
« وما أكثر ما خفى علينا منها .
« أنت يا إله ، يا أوحد .
« لقد خلقت الارض حسبما تهوى أنت وحدك .
« خلقتها ولا شريك لك .
« خلقتها مع الإنسان والحيوان كبيره وصغيره .
« مع ما يسعى على قدميه فوق الأرض .
« وكل ما يحلق بجناحيه فى السماء .
« خلقت بلاد سوريا والنوبة ومصر .
« وأقمت كل إنسان فى مكانه .
« ودبرت لكل انسان ما يحتاج إليه .
« وجعلت لكل منهم أيامه المعدودة .
« لقد تفرقت ألسنتهم باختلاف لغاتهم .
« كما أختلفت أشكالهم وألوان أجسادهم .
« وهكذا قد ميزت بين الشعوب .

« لقد خلقت النيل فى العالم السفلى .
« ودفعت به إلى (أعلا) حسب مشيئتك .
« لتحيي به البشر يا سيد الجميع .
« لأنك قد خلقتهم لنفسك .
« أنت يا شمس النهار .
« يا عظيما فى جلالك .
« يا من خلقت البلاد البعيدة .
« وجعلتها تحيا هى الأخرى .
« لقد جعلت نيلا يهبط إليهم من السماء .
« وجعلت له أمواجاً تتدافع على الجبال كالبحر .
« فتجد حقولهم ما تحتاج إليه من الماء .
« ما أعظم تدبيرك يا سيد الأبدية .
« وهبت نيل السماء لشعوب الجبال .
« فأحييت حيوانها ومن يسعى فوق أقدامه .
« أما النيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم السفلى .
« فتغذى أشعتك كل حديقة .
« وينمو كل نبات إذا ما أشرقت عليه .
« لقد خلقت الفصول لكى تحيي كل مخلوقاتك .
« وجعلت لهم الشتاء ليتعرفوا على بردك .

« ثم جعلت لهم الصيف ليتذوقوا حرارتك .

« وخلقت السماء البعيدة لتشرق فيها .

« ولترى منها كل ما خلقته أنت وحدك .

« أنت الوحيد الذى يشرق فى صورته كآتون الحى .

« ساطعاً متلألئاً رائحاً وغادياً .

« لقد خلقت من نفسك تلك الأشكال التى تعد بالملايين .

« مدناً وقرى وقبائل وجبالا وأنهاراً .

« كل العيون ترنو إليك .

« لأنك أنت « آتون » الذى يشرق فى النهار على الأرض .

« إنك فى قلبى .

« ليس هناك من يعرفك غير ابنك إخناتون .

« إنك أنت أمددته بالحكمة .

« إنك أنت الذى ثقفته بتدبيراتك وقوتك .

« إن الدنيا بين يديك .

« ولا غرابة فأنت صانعها .

« إذا ما أشرقت عاش الناس .

« وإذا ما غربت ماتوا .

« إنك أنت الحياة .

« ولا يحيا الناس إلا بك .



لاعب القيثار ينشد إحدى الأناشيد الدينية . ويلاحظ دقة الفنان فى تصوير هذا الموسيقى الضرير .

« تستمتع العيون بجمالك حتى تغرب .

« فإذا غربت فى الأفق الغربى .

« ترك الناس أعمالهم كلها .

« لقد خلقت العالم .

« وجعلت الناس يحيون .

« كل ذلك من أجل ابنك الذى نشأ منك .

« ملك مصر العليا ومصر السفلى .

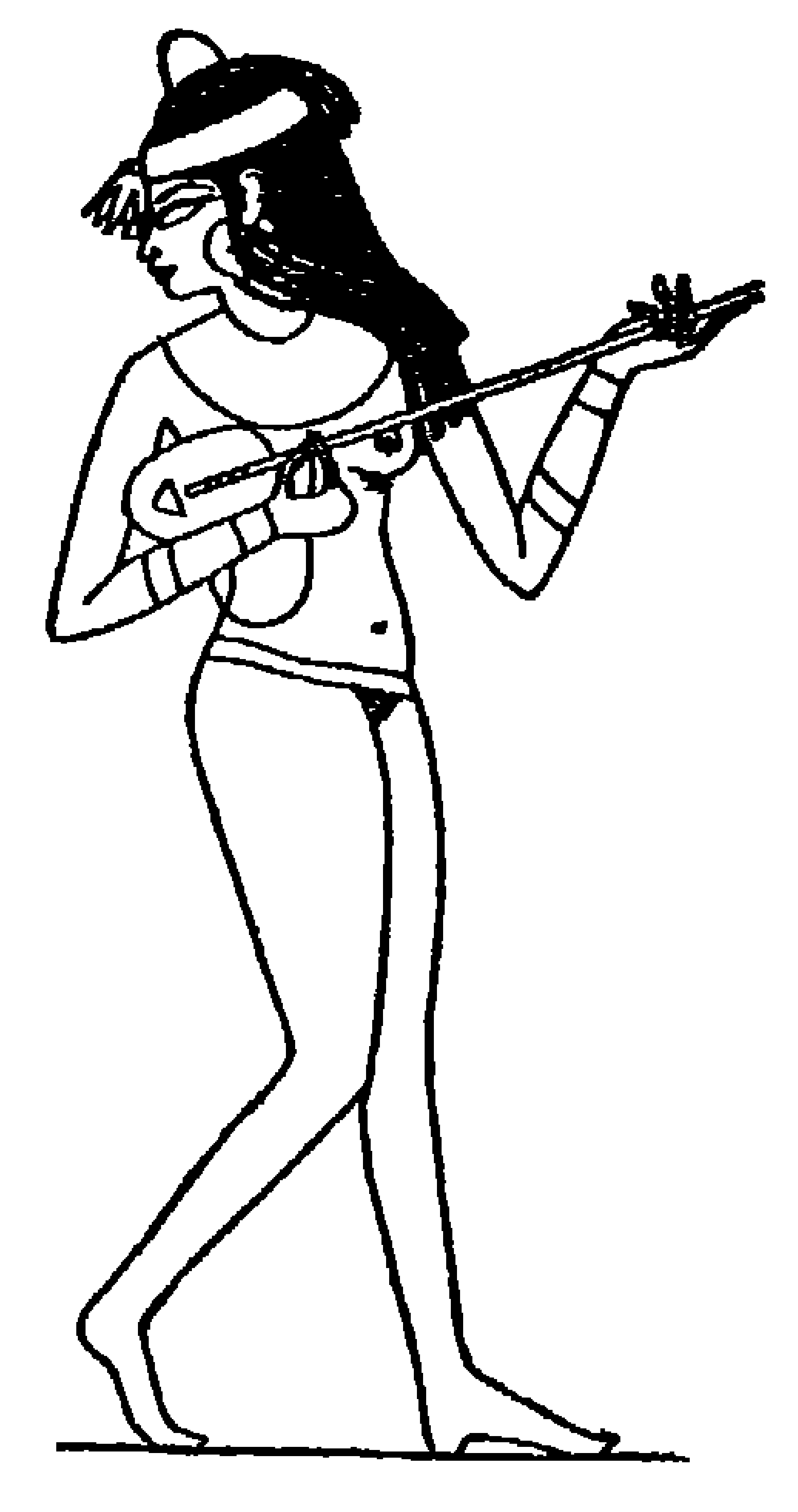
« الذى يحيا فى الحق .

« سيد الأرضين إخناتون ، الذى يحيا الى الأبد .

« وكذلك من أجل زوجته المحبوبة .

« سيدة الأرضين نفرتيتى .

« التى تحيا وتزدهر دائماً وإلى الأبد . »



راقصة تلعب العود مسترسلة فى الغناء

فهرس الكتاب

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو المتعـــة والثقافـــة وسمو النفس .

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد

اقرأ

عادل الغضبان

ليلى العَفِيفة

دار المعارف بمصر

ليلى العفيفة

عادل الغضبان

ليلى العفيفة

اقرأ ١٣٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٣٥

الطبعة الثالثة

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة . ج . ع . م

١

ـ ليلى . . . ليلى . . .

سمعتْ ليلى بنت لُكَيْز صوتاً يناديها وعرفتْ فيه صوت خالتها أمّ الأغرّ فخفّت من داخل الخباء إلى لقاء صاحبة الصوت وخرجت مُهَرْوِلةً تجيب النداء تاركةً ما كانت فيه من شؤون الخباء غيرَ معنيّةٍ بجمع شتات إزارها ولا بعَقْص شعرها المسترسل على كتفيها .

ولمّا أزاحت الستر عن باب الخِباء ونفرت منه إلى لقاء خالتها أمّ الأغرّ هابطةً إليها من الربوة العالية إلى السّفح وقد تطاير شعرها الفاحم فى الهواء وكشف المِئْزَر المتراخى عن صدرٍ كأنه قطعة من العاج نظرت إليها خالتها مأخوذةً بإشراق وجنتيها الخمريّتين الملوّحتين بطِلاء الشمس مكبرةً التماع السحر فى عينيها الدّعجاوين معجبةً بذلك الغصن الرطيب من الصبا والجمال .

فلم تكد ليلى تصل إلى حيث كانت خالتها واقفةً تنتظر حتّى حطّت أمّ الأغرّ على صخرة قريبة منها صرّة كانت فى يدها وفتحت ذراعيها تستقبل ابنة أختها التى حرمها الموت

حنان الأمّ منذ سنوات فتعانقت أمّ الأغرّ وليلى وتبادلتا القبلات ثم حدّقت أمّ الأغرّ فى ليلى طويلاً بعينين ناطقتين بالحب والحنان وقالت :

— « واللاتِ والعزّى إنك لأجمل نساء العرب. . . ويا سعد ابن عمّك البرّاق. فيومَ تُزَفّين إليه يظفر بجوهرة نفيسة هى كنز قبائل ربيعة على الإطلاق . »

فاحمرّ وجه ليلى خجلاً وقالت وهى مُطرقة تداعب خرزات عِقْدها :

— « إنها عين الرضى يا خالتاه فكم مثلى فى ربيعة ولئن آثرنى البرّاق دون فتيات العشيرة إنه سلك إلىّ سبيل القُرْبى والنسب . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « ولِمَ لا تقولين إنه سلك إليك سبيل الهوى والوجد . فما كانت القربى لتنيله قلامةً من ظفرك لولا قلبه الخافق بحبّك وهواك فلطالما سمعته يفضى بشؤون فؤاده إلى أخى كُلَيب وأنت تعلمين أن كليباً مستودَع سرّه ورفيقه الوفىّ الأمين . . . »

فقاطعتها ليلى قائلةً :

— « ولِمَ لا تقولين يا خالتاه إن أبى آثره دون شباب الحمّى لأنه فارس العشيرة وفتاها المرجّى . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « أتنكرين يا ليلى أن الحبّ الذى ربط قلبيكما

بأسبابه لم يكن المدعاة إلى قبوله عروساً لك . »

فعاودت وجه ليلى حمرة الخَفَر والحياء فلم تنبِس ببنْت شفة فضمتها أمّ الأغرّ إلى صدرها ثم قالت :

— « كاد حديثنا يا ليلى ينسيني ما جئت من أجله . »

واستدارت إلى حيث وضعت الصرّة التي كانت في يدها ففكّت عُقْدتها وفتحتها وهي تقول :

— « أصلحتُ اليوم هذه الحلوى فعزّ عليّ أن أطعم منها أنا وأهلي ولا تذوقيها . » فقالت ليلى :

— « شكراً لك يا خالتاه فما أرى نفسي تشتهي شيئاً من الحلوى . » فقالت أمّ الأغرّ :

— إنها الحلوى التي تحبّينها . . . انظري . . . فهذا هو البَريك المصنوع من الرّطب والزّبد . . . إنها الحلوى التي يفضّلها أخي كليب على غيرها من الحلوى . . . ثم إني جئتك أيضاً بقدر من البسيسة فرغتُ من صنعها منذ قليل وقد انتقيت لها أجود السمن والدقيق . . . » فقالت ليلى :

— « أشكرك يا خالتي على ما تؤثرينني به من فضل ومِنّة ورعاية فما كنت لأنسى بِرّك بي وحدَبك عليّ منذ نعومة أظفاري ولا سيما بعد موت أمي . . . » فقاطعتها أمّ الأغرّ قائلة :

— « منذ نعومة أظفارك . . . نعم منذ نعومة أظفارك عرفت فيك هذه العفّة الحمقاء وهذا الدلال المتجنّي فما من مرّة خصصتك بهديّة من طعام أو ملبس أو حلية إلا تمنّعت وأعرضت كأنني غريبة عنك أو كأنك تخشين مني جميلاً تكوين بحرّ ناره ففيمَ هذه الأنَفَة يا ليلى . ومَنْ بثّ فيك هذه الخلّة العجيبة . »

فقالت ليلى :

— « هي أمّي يا خالتي فقد عوّدتني وأنا طفلة أحبو أن لا أمدّ يدي إلا إلى ما تعطينيه هي أو يعطينيه أبي . . . »

فقالت أمّ الأغرّ :

— « لو أن حبيبك البرّاق أهدى لك هذه الحلوى أكنت تعفّين عنها » .

فقالت ليلى شامخةً مترفّعة :

— « عففتُ عن أطيب من هذه حلوى كان في وسع البرّاق أن يقدّمها لي منذ أن خطب يدي ووعده أبي بزفافي إليه بعد عودته من اليمن كما أنه عفّ هو أيضاً عن حلوى كان في وسعي أن أنيله إياها في خلواتنا وعند تلاقينا في المراعي النائية والدّانية . » فقالت أمّ الأغرّ متلطّفة :

— « لقد عرفت العشيرة كلها عفاف هذا الهوى بينك وبينه فما طار لك ذكر فيها إلا وهو معطّر بأريج الآس

والرّيحان ولا أخفى عنك أن هذه الخلّة الرفيعة هى التى حملت العشيرة على أن تلقّبك بالعفيفة فلا يذكرونك إلا قالوا : ليلى العفيفة . » فقالت ليلى متودّدة لخالتها :

— « هاتى يا خالتى حلواك فسوف ينقضّ عليها إخوتى انقضاض الصقور الجوارح عند عودتهم من المرعى فى أصيل النهار فما أعددتُ لهم اليوم إلا قليلاً من السخينة ولا تحسبينى جاحدةً فضلك وجودك غير أن قلبى على أبى بعد إذ طالت رحلته إلى اليمن أشهراً طوالاً قد اجتثّ من صدرى كل شهوة إلى طعام وكل ميل إلى بهجة ومسرّة . هذا ويشاطرنى ابن عمّى البرّاق قلقى واضطرابى فهو جزِعٌ على مصير أبى ضيّق الصدر بانتظار يوم الزواج . »

وعكفت ليلى على الصرّة فأوثقت عُقْدتها وحملتها بيمناها وأمسكت بيسراها بيَد خالتها لتسير بها إلى الخِباء فقالت هذه :

— « نفسى تحدّثنى بأن أباك عائد اليوم يا ليلى ، فعينى اليسرى تختلج وما برحت تختلج طول الطريق وأنا قادمة إليك وهذا دليل على أنه راجع إلينا قريباً جدًّا ولعلّ ركبه الآن وراء تلك الهضبة القائمة على مرمى النظر . » فقالت ليلى :

— « ما عُدْتُ أومن بهذه الظواهر يا خالتاه فإنى ساعة

رحل أبي قبضت قبضةً من مواطئ قَدَمه وُعنيتُ بحفظها في مكان أمين تفاؤلاً واستبشاراً بعوده السّريع ولكن غيبته مع ذلك قد طالت حتّى أثارت في نفسي كوامن الاضطراب والظنون » . فقالت أمّ الأغرّ :

— « حسناً فعلتِ يا ليلى وما إخال عملك هذا إلا معجّلاً أَوْبته . . . ولكن علامَ تجزعين ونحن نعلم وأنت تعلمين أن أباك رجل يزور عمرو بن ذى صهبان ابن ملك اليمن ويظفر منه بالعون والتأييد بَلْهَ التحف والألطاف فأبوك أكيَسْ أثيرٌ مكرّم عنده ثمّ إن الشقّة بين مضاربنا في الجزيرة وبين صنعاء اليمن واسعة طويلة تنوء بها المذاكى العِتاق وتضلّ فيها الرّواحل . . . » فقالت ليلى :

— « هذا ما يثير فيّ الخوف والجزع وإني لأخشى أن يتعرّض أبي في بُعد الشقة للغزو والغارة . . . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « أنسيت أن أباك فارس من فرسان ربيعة الشجعان وأحد أبطالها المغاوير . . . ولكن ما لنا وللظنون . . . تعالى نتحقّق من سلامته قبل أن نسير إلى خِبائك . وهيّا نعرّج على تلك البئر القريبة من مضارب الخيام ونسائلها أمره وإني لواثقة بالبُشْرى التى ستفضى بها تلك البئر إلينا فنعلم أنه سليم معافى وحيّ يرزق . »

فهزّت ليلى رأسها شكاً واستنكاراً فأنّى للآبار الجوامد أن تفصح عن شؤون الأحياء . ولكنها عادات القوم تأخذ بها لا عن يقين واقتناع بل استرواحاً للأمل وإنعاشاً للرجاء فلم تجادل خالتها فيما طلبت ولا نفضت لها مكنون رأيها فى مثل هذه العادات ولا أخبرتها أنها منذ بدأت تختلف هى وابن عمّها البرّاق إلى الراهب النصرانى المقيم بأحد أطراف البادية فيأخذان عنه قواعد الدين الجديد ويتعلمان منه تلاوة الإنجيل قد تغيرت نظرتها إلى الحياة وخوارق الطبيعة وقديم العادات. فسارت معها إلى البئر إرضاءً لها وتعلّلاً بالخبر الطيّب تسمعه حتى من ألسنة الحجارة وأفواه الآبار .

وصلت ليلى وخالتها إلى البئر فوضعت الفتاة على الأرض صرّة الحلوى التى تحملها بيمينها وانفلتت من يد خالتها وأقبلت على فوّهة البئر فلما صارت منها على قيد شبر التفتت إلى خالتها مستوضحة فقالت لها أمّ الأغرّ :

— « هيّا اسأليها . . . »

فأذعنت ليلى تتنازعها عوامل عدّة فمن زراية باستنطاق الآبار إلى رجاء بجواب مفرح يهدّئ من روعها إلى خشية من سكوت البئر فيكون لها من ذلك السكوت مثار إلى التطيّر والتشاؤم وإن لم يكن لهذا المعتقد فى نفسها قوة الإيمان واليقين .

اقتربت ليلى من البئر وهى راجفة واجفة وصاحت :

— « يا كُلَيْبَز . . . يا أبا ليلى . . . »

فانتفضت أمّ الأغرّ متهللة صائحة :

— « إنه حيّ . . . إن أباك حيّ يُرزق . . . لقد سمعت الصوت . . . لقد أجابت البئر . . . بُشراك يا ليلى . . . هنيئاً للعشيرة وهنيئاً لك بسلامة أبيك . . . إنه سيعود قريباً وستزفّين إلى ابن عمك البرّاق . . . »

أبرقت أسارير ليلى من هذا الفأل الحسن فجرت إلى خالتها تعانقها وتقبّلها ثم حملت صرّتها ومشت وأمّ الأغرّ فى الطريق المؤدية إلى الخباء تتجاذبان مختلف أطراف الأحاديث .

ولم يكد المقام يستقرّ بهما فى داخل الخِباء حتى تنهض أمّ الأغرّ واثبةً إلى خارج الخِباء وهى تصيح قائلة :

— « ليلى . . . إنى أسمع أصوات جلاجل . . . »

فلحقت بها فرحةً مغتبطة ورمت المرأتان بأنظارهما إلى الأفق البعيد فلم تستبينا طلائع ركبٍ من الرّكبان فتبادلتا نظرات العزاء عن خيبة الأمل وهمّتا بالدخول ثانية إلى الخِباء لولا أنهما سمعتا صوت جلجل قريب يخالطه ثُغاء الغنم فاتّجهتا نحو مصدر الصوت فإذا إخوة ليلى والبرّاق وكليب أخو أمّ الأغرّ عائدون من المرعى بقطعان الغنم والمعزى فافترّ ثغر

ليلى عن بسمة مثل لألاء الصباح بلقاء حبيبها وإخوتها وخالها وما عتّم هؤلاء الشباب أن وصلوا إلى أمّ الأغرّ وليلى فبادلوهما التحيّات الطيّبات وقضى الجمع ساعة فى شجون من الحديث أكلوا فيها من السخينة التى صنعتها ليلى ومن حلوى أمّ الأغرّ. وفجأة وثبت هذه إلى خارج الخِباء وهى تقول صائحة :

— « أصوات جلاجل . . . أسمع أصوات جلاجل بعيدة . . . ما كذبنى الحسّ هذه المرّة . . . إنها منحدرة إلى سمعى من طريق القوافل عند الهضبة العالية . . . »

فتبعها القوم وسرّهم أن يروا على مدى الأفق فى ضوء الشفَق الوردىّ أشباح قافلة تغذّ السير إليهم وما لبثوا أن تبيّنوا أشخاصها فإذا لُكَيْز أبو ليلى فى الطليعة مستوياً على متن جواده الأصهب فى شكّة كاملة من السلاح ووراءه جماعة غلمانه يتمايلون على ظهور الإبل. فما إن تبلغ القافلة ساحة الخيام وتبرك الجمال ويترجّل لُكَيْز حتى تسبق ليلى إخوتها إليه وترتمى بين ذراعيه تغمره ويغمرها بالعناق والقُبَل ثم يأخذ إخوتها نصيبهم من تحية أبيهم وتقبيله ويطوف لُكَيْز بعد ذلك على أمّ الأغرّ وكليب والبرّاق فيحيّيهم ويحيّونه ويرحّبون بمقدمه بعد غيابه الطويل .

ويسير فى الأحياء خبر عودة لُكَيْز فيخفّ إليه الأقارب

والجيران ورجال العشيرة ونساؤها مرحّبين مسلّمين ثم يرفضّ السّامر وينصرف الزّائرون مودّعين مكرّرين الدعاء بسلامة الرجوع . وحين تنهض أمّ الأغرّ مودّعة تقول للُكَيْز وهي تشير إلى ليلى والبرّاق :

— « لقد أطلت غيابك يا لُكَيْز فمن حقّ هذين العروسين عليك أن تمضي عاجلاً في التأهب ليوم الإملاك ثم ليوم البناء فمتى يكون ذلك . عجّل يا لُكيز فنحن في شوق إلى الأفراح ويسرّني أن أبذل غاية الغايات في جلوة ابنتي ليلى أجمل جلوة وأكملها وإن كانت بجمالها الوضّاح في غنىً عن كل زينة . . . »

خفق قلب البرّاق غبطةً وطرباً لدى سماعه هذا الكلام وأغضت ليلى ببصرها خجلاً واستحياءً . أمّا لكَيْز فقد تجهّم وجهه وودّع أمّ الأغرّ وكليباً والبرّاق وكانوا آخر المنصرفين ولم يحر جواباً . . .

٢

فرغ كُلَيْب من ضيوفه وأقبل على بنيه يبثّهم ويبثّونه الشوق والمحبة ثم أمر نفراً من غلمانه فأدخلوا إلى الخباء صندوق التحف والهدايا التى أهداها له ابن ملك اليمن ففتح الصندوق وأخرج منه نفائس ما يحتوى وقال مخاطباً بنيه الثلاثة :

— « هذه البرود اليمانية جميعها لكم إنها من الديباج المعصّب بالذهب وهذه الأردية المخططة بسهام الفضة والذهب هى كذلك لكم فالبسوها فى أيام الأعياد والمواسم تُدِلّوا بها على شباب القبيلة أجمعين . » فتلقّفها الشباب الثلاثة فى فرحة ظاهرة وأقبلت ليلى تتلمّسها وهى تقول :

— « إنها أجمل وأغلى ما وقعتْ عليه عينى من أبراد غالية . . . » فقال كُلَيْب مستأنفاً ويده لا تفتأ تتناول من الصندوق تحفةً بعد تحفة :

— « وهذه الأحزمة من الخزّ هى كذلك لكم . . . ولكن ما نفع الحزام الجميل إن لم يكن مَناطاً لثمين الخناجر . . . » فصاحت ليلى وصاح معها إخوتها :

— « أأهدى لك أيضاً خناجر . » فقال كُلَيْب مبتسماً :

ـ « وأىّ خناجر . انظروا . . . »

وأخرج من الصندوق ثلاثة خناجر متشابهة قد صنعت مقابضها وأغمادها من الفضة المزركشة وحلّيت بالأحجار الكريمة ما بين أحمر وأصفر وأخضر تنبعث منها أشعة متلألئة ترشق النور فى جوانب الخباء فيَشُوه عنده ضوء ذبالة الزيت المرتجف المتراقص .

واعتمد كل فتًى منهم خنجراً من الخناجر يقلبه فى يديه تارة ويجرّده من غمده تارة أخرى ويمرّ بحدّه على ظهر ظفره ليمتحن رهافته ومضاءه معجباً برواء فرنده . وقطع لُكَيْز عليهم حبل إعجابهم واسترعى انتباههم وانتباه ليلى عندما أخرج من الصندوق عدّة أكياس صغيرة وأخذ يهزّها ويضرب بعضها ببعض فيسمع لها وسوسة كوسوسة الحلى أو نقر الصنوج . ففغر الأبناء أفواههم وتساءلوا مشدوهين مدهوشين :

ـ « ما هذا . » فقال لُكَيْز بعد أن فكّ أربطة الأكياس وأفرغ ما فيها :

ـ « هذه نقودهم يتعاملون بها ويبيعون ويشترون . أعطانيها الأمير عمرو بن ذى صهبان لأستعين بها على شراء ما يحلو لى من السّلع من تجّار اليمن المقيمين أو الظّاعنين بتجارتهم عَبر الأصقاع والأقطار . »

فأعملت ليلى أناملها الجميلة فى تلك النقود وأخذت تتأمّلها وتحدّق فيها قطعةً قطعةً وحذا إخوتها حَذْوَها وتعالى صياحهم جميعاً وأنشأوا يتداولون الرأى فيها ويصفون ما يرون منها :

— « هذا رأس صقر . . . »

— « حَذارِ من أن ينقضّ عليك . . . »

— « هذا رأس ثور . . . »

— « حَذارِ من أن ينطحك بقرنيه . . . . »

— « هذهِ صورة هلال . . . »

— « إنه اقتبس منك الحسن والإشراق يا ليلى . . . »

— « هذه صورة بومة . . . »

— « ما أسمج هؤلاء القوم ألم يجدوا فى الطير خيراً من من البومة ينقشونها على نقودهم . . . »

— « هذه صورة إنسان . . . لعلّه ملك من ملوكهم أو أمير من أمرائهم . . . »

— « ولكن أين أخفى لحيته . »

— « إنه استعاض عنها بشعره المضفور جدائلَ مرسلةً على خدّيه . . . »

— « وهذه الخطوط ما تراها تكون . إنها أشبه بخطوط

الضّاربين بالرمل . . . »

— « إنها الكتابة التى يتفاهمون بها ويتراسلون . . . »

وبقيت ليلى وإخوتها يتحاورون ويتحدّثون ويتخلل محاوراتهم الضحك والدعابة والعبث بقطع النقود وكُليبْز يفسّر لهم ما غمض من شأنها حتى قال الأخ الأصغر :

— « وليلى . . . ماذا جلبت لها معك . » فقال كُلكيز وقد افترّ فمه عن ضحكة عريضة :

— « قل ماذا أهدى لها الأمير عمرو بن ذى صهبان . . . »

فقالت ليلى فى إباء وشمَم :

— « وما شأن الأمير بى حتى يبعث إلىّ بهداياه . . . وأنّى له أن يعرفنى ويعرف بوجودى . . . ومتى كان أمراء الحواضر والمدن يحفلون بفتيات البوادى . . . » فقال كُلكيز وقد أهمّه ما سمع :

— « وهل فى ربيعة ألفُ ليلى . إنها ليلى واحدة بنت لكيز تناقلت الركبان سيرة أدبها وكمالها وتحدّثت بباهر جمالها فسار ذكرها مسير الشمس وتطلعت إليها القلوب من أقاصى الديار أفَيُلامُ الأمير عمرو بن ذى صهبان إذا طربت أذنه بمحامدك وقَدَرَك قدْرَك وغمرك بالهدايا . . . » .

فوجمت ليلى ووجم معها إخوتها وبدّد لُكَيْز ذلك

لوجوم حينما استأنف الكلام وقال مبتسماً متهللاً وهو يخرج من الصندوق الهدايا والألطاف :

ــ « هذى هديّتك يا ليلى . إنها مجموعة من الدّمَقْس والحرير فقَرِّى عيناً بها والبسيها ناعمة هانئة . إنها ضروب من الثياب الثّمينة ما بين مُسَلْسل وصَفِيق ومُسَهّم ونميق وما بين حبرة موشّاة ومِرْط مذهب وشِعار وصدار بلغا غاية النفاسة من صناعة اليمن . . . »

فتلقت ليلى هديّتها ساكتة غير مبتهجة وهتف بها قلبها أن وراء الهديّة تضحية جسيمة وشرًّا مستطيراً. وأحبّ أبوها أن يبعث فى قلبها البهجة والحبور فقال :

ــ « ليست هذه البرود هى كل الهدية فإن لها لتوابع ثمينة . . . »

ومدّ يده إلى الصندوق فرجعت تحمل وشاحاً مرصّعاً بالجواهر واللآلئ فقدّمه إليها باسماً بَسْمة الظافر فى معركة. فأخذت ليلى الوشاح وما وسعها إلا أن تثنى على نفاسته وثمين لآلئه فضحك الكبير مسروراً مبتهجاً وقال :

ــ « إن غيث الهدايا لما ينقطع فلا يزال لليلى فى الجراب أشياء نفيسة لا يهديها إلا الملوك والأمراء . . . »

وأعاد يده إلى الصندوق وأخرج منه دُمْلُجاً من الذهب

مرصعاً باليواقيت وقال :

— « هذا لك يا ليلى . . . »

فتبسمت ليلى وأخذت الدملج وصاح إخوتها :

— « ما هذه النفائس يا أبى . أحلى رعاة غنم هذه أم لباس الأمراء والأميرات ؟ » فقال لكيز ضاحكاً :

— « ستنتهى عمّا قريب من رعى الغنم وسكنى الخيام والضرب فى البوادى ولبس الوبر وأكل الثريد فإنى أعددت لكم حياة تنقذكم من هذا الشظف وتغرقكم فى أعطاف الغنى واليسار وكل هذا مرجع الفضل فيه إلى أختكم ليلى . . . »

فتفرست ليلى وإخوتها فيه تسأله عيونهم جلية الأمر فكان جوابه الحاسم أن انحنى فوق الصندوق واستخرج منه عقداً نفيساً من الدر تسطع حباته فى يديه سطوع الكواكب فقدمه إلى ليلى وقال :

— « اخلعى عنك يا ليلى هذا العقد من الخرز والودع وتحلّى بهذا الجوهر الغالى واقبلى هذا العقد الثمين هدية من الأمير عمرو بن ذى صهبان ابن ملك اليمن وعربوناً على خطبته يدك . »

كانت كلمة لكيز الأخيرة قذيفة صرعت سامعيها فتمالكت ليلى نفسها وقالت لأبيها :

— « أنسيت يا أبي أن ابن عمّي البرّاق قد خطبني إليك فوعدته بأن تزفّني إليه بعد عودتك من اليمن . » فقال لكيز :

— « لا لم أنس ذاك ولكن أي والد عاقل يرفض مصاهرة أمير ويؤثر عليها فتى من فتيان البوادي . » فقالت ليلى :

— « إن فتى البوادي هذا هو ابن أخيك . أتخفر ذمّته وتنكث معه عهدك لأنه من جبلّتنا يسكن الوبَر كما نسكن ويرعى الغنم كما نرعى ويذود عن حمانا ببأسه وشجاعته . » فقال لكيز :

— « وإلى متى نظل نسكن الوبَر ونرعى الغنم . أإن حانت لنا ثغرة ننفذ منها إلى النعيم والحضَر أعرضنا عنها إكراماً لفتى لا يعدم أن يجد فى أحياء ربيعة عروساً صالحة . » فقال الأخ الأكبر :

— « ربّيتنا يا أبي على حفظ العهود والمواثيق . وإن الفتى منّا ليخرج عن الحياة طائعاً مختاراً فى سبيل وعد قطعه على نفسه . أتريد أن تلمغنا القبيلة بالسبّة والعار وتجرّدنا من الشرف الذى هو مِلاك حياتنا وتقول وَعَدَ لكيز فأخلف طمعاً فى قربى الملوك وتهافتاً على الذهب والجوهر يبيع بهما ابنته بيع السّماح .... » وقال الأخ الأوسط :

— « تُرى لو غضب البرّاق غضبته وألّب علينا الأحياء

والعشائر أنرجو لنا فيهم نصيراً بعد أن نوصم بالعار والشنار .

وقال الأخ الأصغر :

— « وما لنا نحن وأمير اليمن لئن ظن أنه يشترينا باللؤ والذهب لقد خاب فألاً فالبرّاق فى أعيننا وأنفسنا خير مز ألف أمير لا نمتّ إليه بسبب من أسباب القربى والمحبة . »

هدّأ لكيز من ثائرة بنيه وقال :

— «على رِسْلكم يا أبنائى ولا تضطرم فيكم حَميّة الشباب فتتجنّبوا سواء السبيل. إن البرّاق عزيز علىّ وهو ابن أخى الحبيب الكريم وله فى قلبى ما لكم من محبة وإيثار ولكن أنضحىّ بأنفسنا فداه . وهذا الحب الذى بينه وبين ليلى يذكى لهيبا القرب ويطفئ أواره البعاد . . . »

فقاطعته ليلى قائلة :

— « إنه يا أبى حبّ لا يفصم عراه بيننا بغد ولا قبر ولئن حلتَ بينى وبين البرّاق وسقتنى إلى أمير اليمن لتسوقن إليه جسداً بلا قلب ولا روح فقلبى وروحى لا ينبضان ولا يخفقان ما حييت إلا بحبّ البرّاق والوفاء له . » فقال أبوه بلهجة لطيفة وادعة :

— « لو وقعتْ عينك يا ليلى على ما وقعتْ عليه عينى فى حاضرة اليمن لما رضيت عنها بدَلاً ولسرّك أن تعيشى فيها زوجة

لرجل من سواد الناس . على أن الحظ واتاك فدعاك إلى أن تكونى زوجة أميرها وأنت تتعالين وتتمنّعين . . . » فقالت ليلى :

— « لا أعرف عن اليمن شيئاً غير أن الذى يدور على ألسنة الركبان أن المرأة فيها سلعة ومتاع فلا يتورّع الإخوة عن أن يتزوّجوا امرأة واحدة . . . » فصاح الكيز مُحْنَقاً :

— « هذا كلام هراء . تلك عادة قديمة أقلع عنها القوم منذ مئات السنين وكيفما كان الأمر فليس للأمير عمرو بن ذى صهبان إخوة ولا أخوات ولسوف تعيشين فى قصره عزيزة الجانب تمشين على بُسُط الديباج وتلبسين الخزّ والحرير وتتحلّين بالدرر والجواهر وتتطيّبين بالمسك والغالية وتأكلين فى آنية الذهب والفضة وتنامين على الفُرُش الوثيرة المحشوّة بريش النعام . . . » فقالت ليلى :

— « ثم ماذا . » فقال لكيز :

— « وأنّى سرت تحفّ بك الوصائف قائمات على خدمتك ليل نهار وستكونين فى قصر الأمير بلقيس الثانية . » فقال الأخ الأصغر :

— « ومن بلقيس هذه يا أبى . » فقال لكيز :

— « سمعت فى اليمن أخبارها فعرفت أنها ملكة عظيمة من ملكاتهم فى القرون الغوابر وأنها كانت تنثر الدرّ والذهب

نثراً وتحلّى بهما قصورها ورياشها فقد قيل لى :

عرشها رافعٌ ثمانون باعاً كلّلته بجوهر وفريد

وبدرٍّ قد قيّدته وياقو ت وبالتبر أيّما تقييد

أفتَرِدْ دين يا ليلى فى أن تحلّى محلها ونعيش نحن فى ظلالك سعداء هانئين أم تريدين أن نظلّ فى ضنك ومَتْرَبة نرعى الإبل والغنم ونتلمّس المراعى ومساقط الماء ونقتّر على أنفسنا الكفاف لندفع فى آخر العام نصيبنا من الإتاوة إلى زهير ابن جناب الكلبى عامل اليمن على نجد والجزيرة . » فقالت ليلى :

— « هكذا خلقنا وعلى هذا سنموت. ولَبَسْمَةُ الفجر فى البادية وذهبُ أصيلها المضرّج برمز جراحات أبطالنا أغلى عندى من كنوز اليمن بأسرها. ولَلْعيشُ طليقةً حرّة فى فضاء البادية الواسع الرَّحْب وفى نجادها وسهولها المطهّرة بأشعة الشمس من رِجْس المدن وخناها أحبّ إلىّ من الحياة أسيرةً سجينة فى غرف القصور . ولَلبرّاقُ وهو البدوىّ الجِلْف فارس ربيعة وفتاها وراعى الشُّوَيهة والبعير أحبّ إلىّ من أمير خَرِعٍ ما امتدّت يده إلى سيف ولا إلى خنجر إلا ليتزيّن به ويتحلّى وإنى لأُوثر أن أرى أبى وإخوتى سادات فى عشائرهم أحراراً فى مواطنهم من أن أراهم عبيداً فى القصور يتصرّف فى عزّتهم وإبائهم أمير

من الأمراء أو ملك من الملوك . . . » فصاح إخوتها الثلاثة :

— « نِعِمّاً يا أختاه فما نطقت إلا صواباً . . . » فقاطعهم أبوهم وقال محتدّاً :

— « لقد وعدتُ أمير اليمن بأن تكون ليلى زوجته ولا بدّ من أن أصون كلمتي ووعدي . » ثم التفت إلى ليلى وقال متودّداً :

— « خَطَبكِ إليّ فلم يسعني أن أرفض طلبه ولا كانت لي القدرة على الرفض ورأيت في هذه المصاهرة سعادة أقتنصها لك يا ليلى ونهزةً أفترصها لخدمة أهلي وقبيلتي . » فقالت ليلى :

— « فجعلتني وجعلت البرّاق وَقوداً لينعم بدفء السعادة أهلك وقبيلتك . » فقال الكيز :

— « كلاّ يا ليلى فما رأيتُ أوّلاً إلا هناءتك وسعادتك. أتذكرين يوم خطبكِ إليّ في العام الفائت برد بن طريح الإيادي فرددته خائباً لأنك لم تقبلي به عِرْساً فنزلت عند رغبتك واستمعت لما نفضْتِه لي من دخيلة صدرك فآثرتُ كما آثرت البرّاق على برد وبرد اليوم صاحب الكلمة المسموعة النافذة في بلاط ملك العجم . » فقالت ليلى :

— « أكنتَ تريدني عروساً لرجل غدّار خائن. » فقال الكيز :

— « كلاّ . وألف مرّة كلاّ . فلو قبلتِ به بعلاً لعاش

بيننا وضممنا إلينا قبيلة إياد فكلنا من صُلْب مَعدّ ولما تمرّغ فى حمأة العجم يأساً وانتقاماً ولكن دعينا من شأنه فقد عوّضت عنه بخير منه وبخير من ابن أخى البرّاق فأنت عروس الأمير عمرو بن ذى صهبان وعَدْتُه بذلك ولا بدّ من الوفاء بوعدى هذه كلمتى الأخيرة ولسوف أحملك إليه طائعةً أم عاصية .

فقالت ليلى وقد اغرورقت عيناها :

— « لتكن مشيئتك يا أبى فليست ليلى إلا ابنتك المطيعة .. »

فأقبل عليها يقبّلها ويحبس فى عينيه دمعة حرّى كادت تنحدر على خدّيه ثم انقلب كلٌّ إلى فراشه يجرّ الخطى إليه جرًّا تاركين فاخر البزود ونفيس الحلى منطرحة على أرض الخِباء تتلصّص عليهم عيونٌ جواهرها وترقب منهم الحركات والسكنات . . .

٣

استلقى لكيز إلى فراشه وطارت نفسه فى جواء الفكر كل مطير وأخذ يسائل نفسه أتراه ظلم ابنته وفِلْذة كبده بإصراره على ما فرضه عليها . أتراها تعيش فى قصر أمير اليمن عزيزة كريمة أم يستبدّ بها الأمير بعد مباهج الأيام الأول وتخبو فى صدره جذوة الرغبة فيها فيستحيل شأنها إلى شأن بعض الجوارى والإماء ويهمل رعايتها فتحيا حياة كلها نكد وأحزان . وكيف تستطيع ابنته ليلى فيما يعرفه فيها من نفسٍ حسّاسة وعزّة وأنفة أن تذعن لمثل ذلك المصير . إنها لا بدّ مُحدثة أمراً تلوّى به أرجاء اليمن أو إنها قد تنطوى على نفسها مستسلمة إلى الهمّ والشجن يقرضان قلبها وينهشان روحها ويسلمانها إلى تراب القبور .

وصل لكيز فى تفكيره إلى هذه الخاتمة المفجعة فانتفض فى فراشه وهمّ أن ينهض منه ويجرى إلى ابنته ويقول لها : لا كان أمير اليمن ولا كانت هداياه ولا كانت كنوزه وقصوره وحسبك أنك أميرة البادية يحيطك فيها ابن عمك البرّاق بالحب والرعاية وتحفّك العشيرة بالتجلّة والإكرام فعذراً يا ابنتى إذا

طرحتك فى مطارح الشقاء وقبلت خطبة أمير اليمن دون تبصّر ولا رويّة .

وينتفض هنا انتفاضة أخرى يكاد يمزّق معها ثيابه وجسمه ويقول فى نفسه هائجاً ثائراً أترانى كنت أستطيع أن أرفض طلب الأمير وأزدرى نعمته الضافية فى حين تلقيت عنها أطيب التهنئات . أكان يسعفنى حيائى على أن أعتذر إليه وهو مَنْ هو مقاماً ورفعة شأن وأنا لم أرحل إليه إلا لأخطب ودّه بل لألتمس رضاه وعونه على ما نحن عليه من مظالم عامله وبأساء الحياة . عجباً لابنتى وأبنائى يتعامون عن هذا النعيم الوضّاح فى سبيل عاطفة تختلج فى جوانح ليلى والبرّاق وأغلب الظن أنها عاطفة القربى والحداثة فلا يصعب أن يضحّى بها طلباً للعزّ المقيم والثراء العريض والنعمة الوارفة . لا لا ياالكيز إنك لم ترتكب إدّا ولا عققت البنوّة وإنما التمست لابنتك وأهلك وعشيرتك الخير والرزق والسّند القوىّ .

وكأنما ارتاحت نفسه لهذا الحكم الذى اختتم به مناجاة ضميره وكأنما وَعْثاء السّفر قد فعلت فعلها فى جسمه المتعب فاستسلم للنوم وغرق فى سُبات عميق .

أمّا أبناؤه الثلاثة فكانوا هم أيضاً فريسة الهواجس فلم يذوقوا طعم الرقاد إلا فى الهزيع الثانى من الليل فقد عزّ عليهم

أن تُطعن أختهم هذه الطعنة النجلاء فى قلبها الخفّاق بحبّ البرّاق وعزّ عليهم كذلك أن يقلب أبوهم لابن عمهم ورفيق طفولتهم وشبابهم ظهر المِجَنّ ويفضّل عليه أميراً لا يعرفونه ولا يشاكلهم فى العاطفة والمعاش .

وأكبروا أن تقابل العشيرة أباهم بما لا يحبّ إذا هى عرفت غداً أنه نكث وعده وأخفر ذمّة البرّاق فما من فتّى ولا شيخ فيهم إلا ويعدّ البرّاق فخر القبيلة وحامى الذمار .

ولم يحتفل هؤلاء الفتيان الثلاثة فى تفكيرهم واضطراب نفوسهم بكنوز أمير اليمن ولا بجاهه ومجده وقوّته مثل احتفالهم بعبرات أختهم الوالهة وصيحات البرّاق إذا ركبه الغضب وصاح فى الأحياء حيّ على الثأر . إنهم لا بدّ ناصرون أباهم ظالماً أو مظلوماً ولكن بأى قلب وبأى ساعد يجرّدون سلاحهم فى وجه حبيبهم وخِدْن صباهم .

وما زالوا على مثل هذه الهواجس والمخاوف حتّى غلبهم النعاس على أمرهم فناموا .

وأمّا ليلى فلم تذق طعم الكرى طول الليل ولا غمض لها فيه جفن كأنّ فراشها حشيّة من قتاد تتقلب عليه معذّبةً متألمة .

هالها أن ترى قصور أحلامها قد انهارت بلمحة عين

وأن يكون أبوها هو الذى هدّها بيديه الغاشمتين . لم تفكر فيما ينتظرها من نعيم فى قصر عمرو بن ذى صهبان أمير اليمن ولا أغرتها كنوزه التى رأت شعاعاً منها فيما قدّمها لها من حلى وحلل ولا أدركتها الشفقة على نفسها بعد إذ قُدّر لها أن تعيش فى تلك الديار النائية بلا قلب ولا عاطفة تجرّ الحياة فيها سلسلةشقاء وغمّ ثقيلة الحلقات . وإنما انحصر فكرها فى حبيبها البرّاق فأشفقت على نياط قلبه أن يتمزّق حسرةً وأسًى وخشيت أن يتّهمها بالغدر والخيانة مع أنها الوفية لعهده الصادقة الهوى والوداد .

وكانت كلما ذهب بها الفكر إلى غير البرّاق عاد بها إليه فتخيّلته إزاءها تقدح عيناه بشرر الغضب والاحتقار وتنفرج شفتاه عن أقسى ألفاظ الملامة والعتاب فتثور ثائرتها وتنقلب من جنب إلى جنب وتدسّ رأسها تحت وسادتها هرباً من تلك النظرات القاسية المستعرة بجمرة السخط حيناً والمعبّرة عن ذلة الاستعطاف حيناً آخر تخترق فؤادها فى جنح الدجى البهيم .

فإذا هدأ روعها قليلاً دمعت عيناها وانحدرت عبراتها على خدّيها فشربتها فى صمت وسكون وأروت بها غليلها الملتهب وتذكرت الأيام الحلوة الجميلة التى قضتها والبرّاق منذ

عهد الطفولة والحب الأخوى إلى عهد الشباب والحب القوى العنيف .

تذكرت حداثتها وحداثته كيف كانا يرعيان فيها البَهْم معاً ويمرحان فى الأودية والغابات تقاسمه طعامها . ولكن إذا شاء أن يقاسمها طعامه أبت ونفرت منه نفور الخِشْف الشارد فيلحق بها وتنتهى المطاردة بينهما بأن يتدحرجا معاً على العشب الأخضر النضير .

تذكرت عند بلوغ أشدّهما وانعقاد تاج الشباب على مفرقيهما كيف كان يغار على سمعتها فلا يبلؤها بالسلام إذا التقى بها ولا يسعى إلى خلوة معها تحت خميلة من الخمائل أو وراء ملتفّ الشجر وغاثرات الصخور حتى ظفر بوعد أبيها فعرف رجال العشيرة ونساؤها أنه عروسها المنتظر .

تذكرت مبلغ نخوته وفضيلته وكيف كان ينافسها فى العفاف والإباء إذا تلاقيا فى معزل من الناس وبثّ كل صاحبه غرامه وصبابته فما بدرت منه يوماً بادرة تجرح العفاف وتخدش التصوّن فقد كانا كلاهما فرسَىْ رهان فى كبح جماح الشباب وإغرائه لا رقيب عليهما إلا العفاف وإلا التجلة التى كانت توازن حبه وهواه .

تذكرت كيف كانا فى العهد الأخير يجلسان معاً تحت

ظلال الأراك يحلمان بالسعادة ويبنيان مقاصير الهناءة فى جنّات الحب والهيام ويرتقبان اليوم السعيد الذى يصبحان فيه زوجين أمام الله والناس كما علّمهما ذلك الراهب النصرانى الذى كانا يتردّدان عليه فى صومعته الفينة بعد الفينة .

تذكرت كل هذا وأكثر من هذا وعرضت لحياتها حتى تلك الساعة فى البادية فتجلّت لعينى بصيرتها ناضرةً كالريحان ملألئةً كوجه الربيع صافيةً كقطرات الندى على ما اعتورها من قسوة العيش فى الإقامة والظعن والتعرض لغارات الخصوم والأعداء .

وحانت من فكرها التفاتة عارضة إلى حياتها المقبلة فبدت لها جافّةً يابسةً كالهشيم كالحةً كأسداف الظلام كَدِرةً رَنِقةً كالماء الآسن مازجه التراب وغشّته الطحالب وبدت لها سجناً برياش من الحرير وقضبان من الذهب .

وساءها أن يكون أبوها سبب نكبتها ونكبة حبيبها ولكنها أمسكت عن أن تناله بملام فما حرّك شفتيه بالرضى إلا موقناً بأنه يعقد لها السعادة والنعيم ولئن لم يشاورها على عادة أهل البادية كما شاورها يوم خطبها إليه برد بن طريح إنّ بُعْدَ الشُّقّة وجلال النعمة السانحة فضلاً عما تعرفه فيه من حياء العذراء كل هذا جعله يقبل طلب الأمير ويظن أنه يحسن صنعاً .

فإن جرت الرياح بما لا تشتهى فما الذنب ذنب والدها وإنما هو وحى سوء طالعها فلا مَعْدَى لها عن طاعة أبيها وإعداد نفسها لاستقبال حياتها الجديدة وفيّةً مطيعة لزوجها العتيد واهبة إياه كل ما تملك من بواعث إسعاده وإن كانت لا تملك أن تهبه قلبها الجريح .

وآلت على نفسها حِلْفة صادق أن تعفّ عن زخارف الحياة فى قصر صنعاء حتى يبلغها أن حبيبها البرّاق قد سلاها وسلا هواها واستعاض عنها بعروس أخرى توطّىء له أكناف السعد والهناءة .

وعندما انتهت إلى هذا النحو من مغالبة النفس وإقناعها كان الفجر قد انبلج وبدأت خطوطه الورديّة تتسرّب إلى ليلى من شقوق الخِباء فوثبت من فراشها ومضت تعدّ طعام الإفطار لأبيها وإخوتها .

ولما اجتمعت الأسرة فى الصباح لم يعقب واحد منهم على حديث الليل خشية إذكاء النار المتوارية تحت رماد الصبر والاستسلام وإنما دارت أحاديثهم على مختلف المسائل .

وحين تضرب الضحى أطنابها يكون إخوتها الثلاثة قد غادروا الخيام إلى المراعى وتكون ليلى قد تركت هى أيضاً الخباء وذهبت تتوغل فى الحقول تجمع منها بعض الكمأ

فلا يبقى فى الخباء إلا لكيز يتولى فيه بعض الشؤون ويستقبل رجالات العشيرة .

وفى الجانب الآخر من الوادى المتناثرة فيه خيّام ربيعة قضى البرّاق لياته فريسة الأرق والتفكير فإنه بعد أن حيّا أباه وإخوته واستلقى إلى فراشه حاول هو كذلك أن ينام فما استطاع فبقى طول الليل ساهد الجفون ساهر العين يقيمه الفرح ويقعده ويحول بينه وبين لذّة الوسن . وفيمَ يطلب لذّة الكرى وهو من الفرح الفيّاض والأمل الباسم والمناعة الموعودة فى بهجة لا تعادلها بهجة وفى لذّة ترفرف فيها روحه وتسبح بها فى سموات النعيم .

تنقل فكره من فرحة إلى فرحة وطار على أجنحة الآمال يستشرف غده السعيد وما تخبئه له الأيام فى مطاويها من عيش ناعم هنىء فى جوار حبيبته ليلى العفيفة الوفية المحبة المخلصة .

وبقى على هذه الحال من الغبطة الجارفة حتى علق فكره بأمر نغّص عليه أحلامه العذبة وأثار فى نفسه الشكوك والظنون . فقد ذكر أن أمّ الأغرّ رغبت إلى عمّة لكيز وهى منصرفة أن يعجّل فى تحديد يوم الإملاك فيوم البناء وأنها فى شوق إلى الأفراح وإلى جلوة ليلى أحسن جلوة وذكر أن عمّة لكيزاً لم يجب

أمّ الأغرّ ولا أعرب عن رأيه فيما رغبت إليه فيه. ولقد كان رنين كلماتها حلواً على مسمعه فنزل بَرْداً وسلاماً على فؤاده فلم يفطن إلا الساعة إلى صمت عمّه وإمساكه عن الجواب. فما من شكّ أن وراء الأكمة ما وراءها وإلا فعلامَ سكوت عمّه وإحجامه حتّى عن شكر أمّ الأغرّ على عاطفتها الجميلة.

ضاق صدر البرّاق بهذا الذى نتج عنه تفكيره فأخذ يضرب أخماساً لأسداس ويتلمّس العلّة وراء سكوت عمّه فلا يجدها ويغوص فى متاهات الظنون فتزيده ضلالاً فوق ضلال.

ولعت فى خاطره ذكرى برد بن طريح الإيادى فجنّ جنونه وأنشأ يسائل نفسه أتراه لحق بعمّه إلى اليمن وعاود الكرّة فى مبتغاه وأمعن لديه فى ضروب التحبب والإغراء حتّى قبل عمّه أن يزوّجه ليلى. ولكن أينقض عمّه ويبرم فى مثل هذا الأمر الجلل دون أن يشاور ليلى وهي صاحبة الحلّ والعقد فى زواجها واختيار العروس الكفء الكفيّ ولا سيما أن ليلى لم ترض ببرد ابن طريح زوجاً يوم هبط إلى العشيرة فى العام الماضى وخطبها إلى أبيها فكيف يرضى اليوم ما رفضته هى بالأمس.

ودار فى خلده أن ليلى قد تكون انساقت إلى رغبة أبيها وقد يكون أبوها شاورها على بعد المزار وأرسل إليها بعض الرسل فى ذلك. ولكن لا فما نزل بالجزيرة أحد من اليمن فى هذه الحقبة

التى غاب فيها عمّه عن أرباض الجزيرة بل إنه ليذكر كيف كانت ليلى قبيل رجوع أبيها قلقة مضطربة توجس خيفة من غيابه الطويل . ولئن صحّ كل هذا لتكوننّ ليلى قد غدرت به وكتمت عنه خفىّ أمرها وأظهرت له غير ما تضمر ومعاذ الهوى والشرف والعفاف أن تنزلق ليلى إلى هذا المنزلَق فما عرف فيها إلا شريف الخلال ومستقيم القصد وعفيف المرام وإنه ليجترح شرّ الجرائر إذا عزا إلى ليلى غير ما يعرفه فيها من شِيَمٍ وشمائل أو راودته المظنّة فى حبها ووفائها .

وكأنما لسعته أفاعى هذا الجرم فهبّ من فراشه مضطرباً مذعوراً وهو الذى لا يعرف الاضطراب والذعر إلى قلبه سبيلاً فخرج من خِبائه يلتمّس فى محيّا الفجر الزاهر تبديد هواجسه الغائمة وارتشاف ندى السكينة والعزاء من مقلة الصباح .

ويشاء حظه العاثر أن تزداد مخاوفه ضَغْثاً على إبّالة فلا يكاد يخلص إلى خارج الخِباء حتى تقع عينه أوّل ما تقع على شجرة من شجر الخِلاف[1] فيربدّ وجهه وينكمش قلبه ويوقن بسوء المنقلب ويرى فى تلك الشجرة التى طالعته نذير السوء .

---

(١) صنف من شجر الصفصاف يورق ولا يثمر .

أفليس شجر الخلاف فى عاداتهم ومصطلح أمرهم سبيل القطيعة ورمز الهجران . لقد تحقق إذن من قطيعة ليلى وهجرانها وهذه الشجرة العاقر هى الدليل .

وفاضت به غُلواء نفسه وجَيَشان صدره فراح يذرع الأرض الممتدة حول خبائه ويقيسها بخطواته الصارمة جيئةً وذهوباً لا يستقرّ ولا يهدأ .

وكان الصباح قد غمر الهضاب والبطاح بلألاء ضيائه وبدأت الحركة تدبّ فى الأخبية والخيام وعمدت يواقظ الطير تهجر أعشاشها مصفقة بأجنحتها مترنمة بأصواتها . وكان البرّاق لا يزال يدقّ الأرض بنعله الغليظة فى خطوات فِساح فمرّ به غراب ينعب فقامت قائمته وصاح فى الغراب : « طائر الله لا طائرك » واستدار على عقبيه عائداً إلى خبائه حزيناً أسِفاً . فهذا غراب البين ينعب فى أذنه وينذره بالقطيعة فقد وضح الأمر واستبان لذى عينين وقامت عليه الأدلّة . فمن صمت عمّه عن جواب أمّ الأغرّ إلى شجرة الخلاف رمز الهجران والجفاء إلى نعيب الغراب المنذر بالبين والرحيل .

وتزداد نفسه همًّا وغمًّا ويزداد يقينه بالخطب المرتقب عندما يصطدم بثالثة الأثافى من نُذُر الشؤم فى ذلك الصباح . فبينا هو منقلب إلى خبائه رأى كلباً أبتر يرود حول الخباء

فقال فى نفسه لقد كملت النُّذُر فالناس تتطيّر من الكلب الأبتر إذا لمحته عن بعد فما بالك إذا جاء إليك يبصبص بذنبه المقطوع ألا إن المصيبة واقعة لا محالة .

ودخل إلى خبائه هائجاً هياج الثور لا يدرى على من يصبّ جامات غضبه الذى يغلى فى صدره غليان القِدْر فوق مارج النار ولا إلى من ينسب خيبة أمله فى الحياة كأنْ لا جدال فى تلك الخيبة المرّة والنقمة القاتلة .

٤

سرى نبأ خطبة ليلى إلى أمير اليمن عمرو بن ذى صهبان فى أحياء ربيعة مسير النار فى الهشيم فكان حديث الناس فى خيامهم ومراعيهم تتناقله الأفواه وترويه الألسنة فى روايات متباينة ويعلّق عليه الرّواة وفق أهوائهم ومتضارب عواطفهم .

تلقّت النساء الخبر إلا أقلهن فى كثير من الحسد والأمل وقليل من الابتهاج فقد كانت كل فتاة تَوَدُّ لنفسها مثل هذا السعد الصارخ . أمّا وقد فاتها فلا أقلّ من أن تمنّى النفس بتطلع البرّاق وانتحالها دون فتيات الحمى عروساً أثيرة . وكانت النساء ممن تربطهن بالبرّاق أو بليلى صلة رحِمٍ وقربى وعلى رأسهن أمّ الأغرّ باديات السخط والغضب يتناولن لكيزاً بالنقد اللاذع وينحين عليه باللائمة .

وانقسم الرجال فى هذا إلى فريقين : فريق يرجو من هذه المصاهرة أن تخفّ عن كواهلهم إتاوة زهير بن جناب الكلبى عامل ملك اليمن على الجزيرة وأن تفتح لهم أبواب الرزق فى أرجاء اليمن فيستعيضوا عن الغزو وارتياد المراعى بتسخير إبلهم فى نقل السِّلع من اليمن إلى ما جاورها أو ابتعد عنها من

البلاد فقد كان يبلغهم أن القوافل لا تفتأ ترتاد ربوعها خِفاف الجيوب وتعود منها مملوءة ثقيلة محمّلة بالبخور واللبان والمرّ والخشب أو بالعاج والذهب والحجارة الكريمة. وفريق وفى طليعتهم أبو البرّاق وإخوته وصديقه الحميم كايب وأخوه مهلهل عزّت عليه جفوة البرّاق ونكث عهده وهو فتاهم وحبيبهم وفارسهم المغوار كما عزّ عليهم بيْنُ ليلى وهى فتاتهم الأديبة الحصيفة العاقلة ودرّة قبيلتهم المتألقة. وكذلك شقّ عليهم أن يركب لكيز هذا المركب الوعر وهو سيّدهم وحكيمهم المشهور فيهم بالفضل والنبالة فتوقعوا أن تقوم الفتنة بين لكيز وأخيه أبى البرّاق وأن يندلع أوارها إلى أحياء ربيعة فيتنافر الرجال ويحكّمون السلاح فيما بينهم فيولغ الأخ فى دم أخيه ويتحاجز أبناء الأعمام ورجال القبيلة الواحدة فتسيل دماؤهم على ظُبَى الرماح وشفرات السيوف وهم أحوج ما يكونون إلى الألفة والوحدة درءاً لغارات الأعداء وإبقاءً على عزّة القبيلة وقوّتها.

وعبثاً حاول الحكماء من رجال القبيلة أن يثنوا لكيزاً عن عزمه فما أجدت مساعيهم فتيلاً وكانوا كلهم فى دهشة من سكون البرّاق وآله ولا سيما أن قد مرّ على عودة لكيز من السفر وانتشار الخبر فى الأحياء عدة أيام فأشفق القوم أن يكون ذلك السكون هو الهدوء الذى يسبق العاصفة فقرّ قرار

كليب وأخته أمّ الأغرّ أن يحاولا المحاولة الأخيرة ثم ليكن ما يكون .

خفّ كليب وأخته أمّ الأغرّ إلى لكيز فى ضحى أحد الأيام فألفياه عند باب الخباء يسرّح النظر فيما حوله من غياض ويبدو عليه الذهول والتفكير العميق فبادرته أمّ الأغرّ قائلة :

ــ « عِمْ صباحاً أيها السيد الكريم » وأردف كليب تحية أخته بتحيته وقال :

ــ « عِمْ صباحاً أيها السيد السَّند . » فالتفت لكيز إليهما كمن أفاق من حلم وقال :

ــ « عِمِى صباحاً يا أمّ الأغرّ وعِمْ صباحاً يا كليب . أهلاً بكما ومرحباً . » فقالت أمّ الأغرّ :

ــ « وأين ليلى . » فقال لكيز :

ــ « أخذت مغزلها وذهبت ترتاد بعض الحقول وسترجع عمّا قليل . » فقالت أمّ الأغرّ :

ــ « ذهبت لا شك تسرّى عنها همّها القاتل . يا لها من شقيّة مسكينة . » فالتزم لكيز الصمت ولم يجب فقال كليب :

ــ « جئناك يا لكيز يحدونا الأمل الأخير أنك مصغٍ لرجاء القبيلة ممثّلا فى رجائنا وهو أن تعدل عما صمّمت عليه وتزوج ليلى بالبرّاق . » فقال لكيز :

– « رجاء حبيب إلىّ ولكن لات ساعة رجاء . . . »

فقالت أمّ الأغرّ :

– « كيف يطاوعك قلبك يا لكيز ومنزلة ليلى منك ومنا في الصميم أن تمزّق قلبها وتدمع عينيها وتقضى على أملها الباسم وشبابها النضير . » فقال لكيز مُحْنَقاً :

– « كفّى يا أمّ الأغرّ عن قوارص الكلم فما توخّيت إلا سعادة ليلى وكرامة القبيلة فيما فعلت . » فقال كليب :

– « أليس من كرامة القبيلة أن ترعى فتاها وفارسها وتنيله رجاءه المشروع . » فقال لكيز :

– « أتريدنى يا كليب أن أنقض عهداً أبرمته أنا وأمير اليمن وأن أفرّط فى هدية ابن الملك . » فصاحت أمّ الأغرّ :

– « إنها هدية البرّاق لا هدية ابن الملك . » ثم قال كليب :

– « أما من سبيل يا لكيز إلى الرجوع عما فى نفسك . » فقال لكيز :

– « هذا ضَرْبٌ من المحال فقد وعدت وعلىّ البرّ بالوعد . » فقال كليب ، وقالت معه أمّ الأغرّ :

– « ولماذا وعدت . » فقال لكيز :

– « غلبنى الحياء فأذعنت . » فقال كليب :

— « ألا تؤثر أن تحقن الدماء فى قبيلتاك . » فقال لكيز متعجّباً :

— « وفيمَ تراق الدماء . » فقال كليب :

— « حفاظاً على شرف البرّاق وآله . » فقال لكيز :

— « أكاشفك البرّاق برغبته فى الثأر . » فقال كليب :

— « كلاّ . غير أنى أتوقع أن يثور ثورته وينتصر له آله وبعض رجال العشيرة . » وأردفت أمّ الأغرّ :

— « هذا لا شك فيه . » فتبسّم لكيز ابتسامة صفراء ولاح فى عينيه بريق الفخر والنصر وقال :

— « اطمئنّا بالاً ولتطمئن معكم العشيرة كلها فلن يجرّد أحد حساماً ما دام البرّاق وهو فارس ربيعة لا يريد ذلك . » فقال كليب :

— « وأنّى لك أن تأمن جانب البرّاق وهو من تعرف إباءً وشرفاً وشجاعة . » فهزّ لكيز رأسه وبدت على وجهه مظاهر الألم وقال :

— « لقد كان هنا منذ قليل وضرب لى أروع الأمثلة لسمو النفس ومكارم الأخلاق . إنه ابن أخى وأنا أعرفُ الناس به . » فصاحت أمُّ الأغرّ متعجّبة :

— « أوَجاء إليك ودخل خباءك وحدّثك وجهاً لوجه بعد

لطمتك إياه . إن هذا لَهُوَ العجَب العُجاب . » فقال الكيز :

– « سمعت الألسنة تلوك الوشايات وتخوض فى الأعراض وأدركت أننا سنكون جميعاً حطب الفتنة ووقودها فدعوته إلىّ بعدما بدا لى من تعنّت أبيه وإخوته وأطلعته على دخيلة نفسى وبيَّنت له أنى أخذت بطلب أمير اليمن فما استطعت له ردّاً وبصّرته بالمنافع التى تجنيها القبيلة من جرّاء هذه المصاهرة فقد نحلّ محل بنى كندة حلفاء اليمن وقد نعود إلى منازلنا الأولى فى تهامة ونعدّ سلطاننا على نجد والحجاز . . . قلت له كل هذا فسألنى :

– "وليلى . ألها يد فى اختيار أمير اليمن زوجاً لها ." فقلت :

– " لا . وإنما فرض عليها فرضاً فضحَّت بنفسها وبحبها لك فدى العشيرة . " فارتاج قلبه وقال :

– "ليكن ما أردت يا عمَّاه . أمَّا أنا فسأخمد نار الفتنة وأذرّ عليها الرماد . . ." ثم أطرق هنيهة وغمغم بينه وبين نفسه وقال :

– "ولكننى راحل بأهلى عن الديار ولن يحول مخلوق بينى وبين هذا الرحيل . "

فتبيّنت مضاء العزم فى عينيه فسكتّ ونهض إلىّ فقبّلنى وقبّلته ودعا لى بالخير ودعوت له بالسلامة والسلوان وانصرف . »

فانهالت عبرات أمّ الأغرّ على وجنتيها فمسحتها بكمّ ثوبها وقالت :

— « إذن قضي الأمر . » وردّد كليب فى غصّة ولوعة كلمة أخته وقال :

— « إذن قضي الأمر . »

وأقبلت ليلى فى تلك اللحظة فحيّت الزائرين وأدركت من وجوههما ومن أثر الدّمع فى وجنتى خالتها أمّ الأغرّ أن هنالك أمراً يشغل منهما البال ويعصف بالقلب فأمسكت عن السؤال حتّى أخبرها أبوها بمسعاهما الحميد وجوابه الحاسم فقالت بلهجة حازمة :

— « شكراً لك يا خالتاه وشكراً لك يا خالى . . . اطويا البساط عن هذا الشأن وليكن ما تجيئنا به الأيام . . . »

وعندما يتمّ أبوها حديثه فتعلم ما جرى بينه وبين البرّاق تعلو وجهها الوردىّ غلالة من صفرة الأسى ويحزنها أن يرحل البرّاق عن عشيرته ويضرب فى البلاد مهيض الجناح مكلوم الفؤاد غير أنها التمست شيئاً من العزاء وراحة الضمير لما علمت أن الرِّيب لم ترق إليها فى خاطر البرّاق وأنه ينزّهها عن الغدر والجفاء ولشدّ ما أكبرت فيه الخلق العالى والنفس السامية والقلب الكبير بعد إذ عرفت أنه إنما يرحل عن الديار تجنباً للفتنة وإبقاءً

على هيبة أبيها لكيز وقطعاً لدابر التخرّص والأقاويل فهمّت بالكلام فما استطاعت فقد خنقتها العبرة وعصر قلبها الألم فنابت العيون الدامعة عن الألسنة الناطقة وما استطاع حتى لكيز وكليب أن يحبسا دمعة حرّى انفلتت من الجفون لتدلّ على مقدار الأسى والحزن فى بكاء الرجال .

واستأذنت أمّ الأغرّ وكليب فى الانصراف فشيّعهما لكيز وليلى فانطلقا عائدين إلى مثواهما فى كآبة ظاهرة وحزن عميق .

ولمّا بلغا فى طريقهما خيام البرّاق وأهله طرقت مسامعهما أصوات جدال محتدم فأيقن كليب أن القوم فى ثورة وتمرّد وخشى أن يقرّ قرارهم على رأى لا تؤمن فيه العواقب فأوعز إلى أخته أمّ الأغرّ أن تتابع السير إلى المثوى وأنه سيلحق بها عمّا قريب بعد أن يطالع القوم لعله يخمد فيهم ثورتهم المتأججة .

فسارت أمّ الأغرّ فى طريقها ودخل كليب على خيمة البرّاق فوجد فيها صديقه البرّاق قد جلس إلى جانب أبيه فى صدر الخباء وتفرّق إخوته الأربعة فى الزوايا وعلامات الغضب مرتسمة على وجوههم فحيّاهم وحيّوه حتى إذا استوى به المقام سمع أبا البرّاق يقول :

— « لقد طال جدالنا يا أولادى فى غير رأى أجمعنا عليه فلو أن أخى لكيزاً شاء العدول عن عزمه لفعل فحتّامَ نصبر على الضيم فالتمسوا إذن ما يكون فيه صلاح أخيكم أبى النصر البراق وسلامة أعراضكم من العار . » فقال ابنه عمرو :

« تخيّر أبا عمرو فأنت مخيّرٌ وصرّح بما أحببته فى أبى النصرِ » *

ثم تكلم ابنه غرسان وقال :

« لكل امرئ رأى له ومشورة ومجنبة فيما يشا ويشيرُ
وما من فتى إلا له من أموره مقاصد فيها لا يزال يسير
فإن يرد البراق شيئاً فإننا نسارع فيما يشتهى ونطير
وإن لم يرد شيئاً فما بعد قولكم وها هو عليكم حاكم وأمير »

وهمّ ابنه الظليل أن يقول كلمة فلمح كليب فى عينيه أنه سيدعو إخوته إلى الطعن والضرب وسيسحب الذيل على رأى غرسان الذى وكل الأمر إلى أخيهم البرّاق فاعترضه كليب وقال :

* أبيات الشعر فى هذه القصة منسوبة إلى قائليها ومنقولة عن كتاب «شعراء النصرانية» ج ١ للأب شيخو وعن كتاب «الجمهرة» لعمر بن شبة وهو مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ١١٩٤ أدب .

— « نِعْم الرأى رأى غرسان فالأمر موكول إلى البرّاق فليقضِ فيه بما هو قاض وعلينا أن ننزل على حكمه طائعين ... »

جرؤ كليب على أن يقول ما قال لأنه كان قد عرف من لكيز أن البرّاق مصمّم على الرحيل ولكنه كان حائراً فى سكوته على حين يُرغي إخوته ويزبدون .

وقبل أن يردّ أحد على كليب نهض البراق فاشرأبَّت إليه الأعناق وتعلقت بشفتيه الأبصار وكان قد لزم الصمت طول الجدال لما كانت نفسه عليه من وجد واضطراب فقال :

— « شكراً لكم جميعاً على حميّتكم المضطرمة ومحبتكم الخالصة على أنى لا أريد أن تشتعل نار الفتنة فى القبيلة من أجلى ولست أرى فى هذا الأمر العارض إلا خطة واحدة تنّهج ألا وهى . . . »

فصاحوا كلهم بلسان واحد :

— « ألا وهى . . . » فقال البرّاق :

— « الرحيل . . . » فردّدوا جميعاً :

— « الرحيل . . . الرحيل . . . » فقال أبوه روحان :

— « وإلى أين يا برّاق . . . » فقال البرّاق بعد تفكير قليل :

— « إلى بنى حنيفة قومنا فى البحرين . . . » فقال إخوته بصوت واحد :

— « إلى بني حنيفة ... إلى بني حنيفة ... »

واغتبط كليب بما رأى وسمع وإن يكن قد عزّ عليه أن يفارق صديقه الحميم البرّاق بن روحان فقال في نفسه : الرحيل ولا الفتنة . ثم ودّع القوم وانصرف تتنازعه العواطف المضطربة المتضاربة .

وفي صباح اليوم التالي قوّض أهل البراق خيامهم وشدّوا رحالهم وجمعوا إبلهم وسوائمهم وساروا ظاعنين يتقدّمهم البرّاق على مهرته «شبوب» فخرجت القبيلة على بكرة أبيها تودّعهم وتشيّعهم بالحسرة البالغة والدمعة المكتومة فازدحمت المسالك والشعاب بالرجال والنساء وامتلأت بهم ساحات الخيام وأخذوا يحيّون الركب الراحل ويخصّونه بجميل الوداع .

وتبلغ أصوات الجلاجل المعلقة بأعناق الجمال مسامع لكيز وليلى وإخوتها فينفرون إلى خارج الخباء ويشرفون من علٍ إلى الطريق تسير فيه القافلة الظاعنة فما هي إلا دقائق حتى تصل مقدمة الركب إلى سفح الربوة المنصوبة فيها خيام لكيز فيصيح هذا بملء صوته :

— « مع السلامة يا أخي روحان ... » وتصيح ليلى بصوت متهدّج :

— « مع السلامة يا روحان ... »

فيقف البرّاق مهرته ويردّ هو وأبوه على التحية وتلتقى نظرات ليلى والبرّاق فتسرى فى جسديهما رعدة يخفق لها القلب وترتجف الأوصال .

يحدّق البرّاق فى ليلى بعد أن توارى عنها وتوارت عنه منذ رجوع أبيها فيأخذه جمالها المشرق وما هو إلا شعاع من نفسها الوضّاءة وكمالها الوضّاح وعقلها الثاقب ويذكر أن هذا الكنز قد كان له فانتزعته منه الأيام ويودّ قبيل الرحيل الذى لا لقاء بعده لو يقبّل موطئ قدميها ويتزوّد بحفنة من التراب الذى تمشى عليه .

وتحدّق ليلى فى البرّاق فيأخذها منه شبابه الغضّ المتألق فى محيّاه ويهزّ قلبها جماله المتلألئ فى بريق عينيه السوداوين الجميلتين وشعاع جبينه الناصع وخدّيه الناضرين وشفتيه الرقيقتين تفترّان عن أجمل ابتسامة إذا ابتسم ويملأ عينيها وفؤادها منه رجولةٌ بادية الأجلاد فى منكبيه العريضين وصدره الواسع وذراعيه المفتولتين ونفسٌ تعرفها فيه لا تبالى الأخطار ولا تخشى الردى فتدرك فى تلك اللحظة الرهيبة أنها إنما تشيّع حشاشتها فتود لو عصت أباها وجرت إلى البرّاق تقول له :

ابقَ يابرّاق ولاترحل فأنا عروسك وأنت عروسى .

ولكن هيهات . . . فهاهى ذى القافلة تستأنف السير

وها هو ذا البرّاق يلوّح لها ولأبيها وإخوتها بيده مودّعاً وهو يحثّ مهرته على المسير فتفيض نفسها حسرات وتغرورق عيناها وتقول :

«تزوّد بنا زاداً فليس براجع إلينا وصالٌ بعد هذا التقاطع
وكفكف بأطراف الوداع تمتعاً جفونك فى فيض الدموع الهوامع
ألا فاجزنى صاعاً بصاع كما ترى تصوّبَ عينى حسرةً بالمدامع»

وتجدّ القافلة فى السير ويرجع المودّعون إلى مواطنهم وتبقى ليلى جامدة فى مكانها شاخصة ببصرها إلى القوم الراحلين حتى اختفوا وراء الآكام ولفّهم الأفق بحجابه ومحا منهم حتى الصور والأشباح . . .

٥

توالت الأيام على ليلى بعد رحيل البراق رتيبة قاحلة تقوم فيها على خدمة أبيها وإخوتها وعلى تدبير شؤونها وشؤونهم على النحو الذى ألفته وألفوه منها . وكانت كلما اتسع لها وقت من أوقات الفَراغ اعتمدت مغزلها ومضت تغزل صوفها على ربوة من الروابى أو فى غابة من الغابات تتحرك يداها فى غير ما وعى ولا توجيه وتنقل بصرها فيما حولها من مراعٍ ومروج فلا يقع منها على شىء كأنها تراها ولا تراها . وكانت البقاع التى تؤثرها بالمحبة والزيارة تلك البقاع القائمة على الطريق التى سلكها البرّاق متجهاً إلى البحرين فلطالما تمشّت فيها أو جلست فوق هضابها وهى تسرّح النظر فى الأفق البعيد وتتخيّله سينشقّ عن وجه حبيبها البرّاق عائداً إليها وحده أو راجعاً على رأس قومه حتّى إذا استيقظت من غفوتها الحالمة وطالعتها الحقيقة بوجهها الدميم جفلت وارتاعت وانطلقت منها الزفرة تلو الزفرة .

وكثيراً ما عرّجت على المكان الذى كان مضرب خيمة البرّاق تطيل النظر إلى ما تركته الخيمة المقوّضة من نُؤى

وأحجار ومن ثغرات فى الأرض كانت مربط العمد والأطناب ومن أثافٍ سود كانت تشبّ فى جوفها النار وتغلى فوقها القِدْر التى كانَ البرّاق يأكل منها ويطعم فتبتلّ عيناها بالدموع وتمشى على تلك الأرض الحبيبة مترفّقة خاشعة يعبث بفؤادها التذكار وتسحقه أثقال الحنين . فكم استسلمت فى ذلك المكان إلى المناجاة وقالت فى نفسها :

هنا الأريكة التى كان يجلس عليها وينام . . . هنا موضع نعله . . . هنا صوان ثيابه . . . هنا مجمع أسلحته . . . هنا مغسله . . . فى هذه الزاوية من الخباء كان يعلّق جلود الوحوش التى اصطادها وسلخها . . . سعداً لك يا أرض الحبيب لقد نعمت بقربه وهنئتِ بإيوائه وكنتُ أنا على قاب قوسين أو أدنى من مجيئى إليه والعيش فى جانبه أبد العمر فوق سطحك المبسوط ، ولكنه فارقنى وفارقك بعد إذ حال بيننا ضعف أبى وذهبُ الأمير فكلانا الحريب المحروم وكلانا الشقى التاعس المهجور . . .

وكانت لا تفتأ تردّد فى نفسها مثل هذه الخواطر إلى أن يفاجئها قادم أو تنذرها الشمس بالمغيب فتعود القهقرى إلى خبائها لتلقى فيه أباها وإخوتها .

وكان أبوها قد راجع نفسه فيما رآه من شحوب ليلى وسكوتها الناطق بالهمّ والأسى وعرف أنه ظلمها إذ فرّق بينها وبين

حبيبها البرّاق وأهداها إلى أمير اليمن فتباطأ في تجهيزها للسفر رجاء أن يستبطئ الأمير قدومها فيعدل عنها إلى أخرى من العرائس . وأنهى الكيز إلى أمّ الأغرّ بما جال بخاطره وانتواه فأمّنت على رأيه وضاعفت عنايتها بليلى وحَدَبها عليها لعلها تنسيها البرّاق وتشفيها من داء حبه وغرامه فقد كانت مقتنعة فيما بينها وبين نفسها أن أمير اليمن لن يعدل أبداً عن ليلى ، فالرجال توّاقون إلى كل جديد فتقاعسُ الكيز عن تجهيز ليلى إلى الأمير من شأنه أن يزيد الأمير رغبةً في ليلى وحرصاً على الاستئثار بها . وكان كل أملها معقوداً على خوارق السماء وأعمال الجنّ والملائكة الذين يأتمرون بأوامر اللات ومناة والعزّى وينتهون بنواهيهم فلا عجب إذا عمدت إلى نذر النذور للآلهة ووعدها إياهم بالذبائح والعتائر إذا هم انتزعوا حب البرّاق من قلب ليلى أو إذا هم أوحوا إلى أمير اليمن بنفض يده من ليلى والعدول عنها إلى سواها من العرائس ولا عجب إذا عمدت أمّ الأغرّ أيضاً في سبيل تحقيق هذه الغاية إلى ما تعرف من رُقًى وتعاويذ .

استيقظت أمّ الأغرّ في صباح أحد الأيام مسرورة فرحة مفترّة الثغر بسّامة العينين وذكرت حلماً بهيجاً كان سبب فرحها وحبورها فقد رأت فيما يراه النائم أن البرّاق عاد إلى

الدّيار وتزوّج ليلى بعد معارك طاحنة خاض غمارها ورجع منها منصوراً ظافراً وعبثاً حاولت أمّ الأغرّ أن تذكر هؤلاء الأعداء الذين قهرهم البرّاق ونكّل بهم فلم تسعفها الذاكرة فعدّت عن معرفتهم وما حفلت إلا بتلك العاقبة السعيدة التى رأتها فى الحلم فسارعت إلى حبرتها واشتملت بها وركضت تخبر ليلى بذلك الحلم الجميل وتلتمس فيه الفأل الحسن وما همّها أن يصحو إخوتها كليب ونويرة ومهلهل فلا يجدوها ولا يجدوا الطعام معدّاً يتبلّغون به عند الإفطار فإخبار ليلى بذلك الحلم يجبّ ما عداه من فروض وشؤون .

مضت أمّ الأغرّ لا تلوى على شىء وتريد أن تسابق الرياح إلى ليلى فكانت تتعثّر وتنهض ولا يقفها ألم ولا وجع ويبلغ بها اللّهاث مبلغه فلا تخفّف السير ولا تمشى الهوينى ويلعب نسيم الصباح بحبرتها وشعرها فلا تكترث له ولا تعنى بإصلاحهما حتى إذا كادت تصل إلى الساحة التى كان البرّاق وأهله ضاربين فيها خيامهم تملكتها الدّهشة فقد لاح لها عن بعد فى تلك الساحة شبح يطوف بالأنقاض والدّمن فوقفت وفركت عينيها لتتحقق من أنها غير حالمة فوثقت بما رأت وقالت : أتراه البرّاق قد عاد. إذن لقد صحّ حلمى . فضاعفت الخطى حتى بلغت الساحة والتفت الشبح على صوت خطاها

فإذا الطائف ليلى تحييها قائلة :

— « عِمِى صباحاً يا خالتاه . »

فجرتَ أمّ الأغرّ إلى ليلى تعانقها وتقبلها وتقول لها :

— « كنت ذاهبة إليك يا ليلى . » فقالت ليلى :

— « على الرحب والسعة يا خالتى ولكن ما الذى حملك على هذا البكور »

فقالت أمّ الأغرّ :

— « اجلسى يا ليلى أحدّثك . . . خبر سعيد . . . فأل عظيم . . . »

فأتت ليلى بحجرين ووضعت أحدهما على مقربة من الآخر فجلست أمّ الأغرّ على حجر وليلى على الآخر وأنشأت أمّ الأغرّ تقصّ على ليلى حلمها السعيد وتزوّقه بما شاءت من البهرج والزخرف وتدخل فى روح ليلى أنه حلم ستحققه الأيام عن قريب فما كذّبت لها الأيام قط حلماً فتبسمت ليلى ابتسامة حزينة قادرة فى نفسها لخالتها تلك العاطفة الجميلة المشوبة بالسذاجة والاعتماد على الأحلام وقالت :

— « أضغاث أحلام يا خالتى . » فصاحت أمّ الأغرّ :

— « كلاّ وألف مرة كلاّ . إنها حقيقة واقعة . أتريدين أن تتثبتى من صحتها . انظرى . »

وكانت الشمس قد بدأت تلوح فى الأفق وتمزّق أشعتّها كبد السحاب وكانت الطيور قد أخذت على دفء الشمس تنفر من أعشاشها فوقع نظر أمّ الأغرّ على طائر استوى على غصن شجرة فتناولت حصاة وزجرته بها ليطير عن الغصن فصفّق بجناحيه وسنح يميناً فكاد يغمى على أمّ الأغرّ من شدة الفرح فاستجمعت قواها وكادت تطير هى طرباً والتفتت إلى ليلى تقول وهى ترقص وتقول :

ــ « أرأيت يا ليلى . إنه طائر سانح أرانا ميامنه ولم يرنا مياسره فاستبشرى خيراً وارقدى على هذا الفأل الحسن حتّى يتحقق . »

ولقد رأت ليلى فى سنوح الطائر مجلبة للاستبشار وإن تكن على غير عادات قومها لا تحتفل بمثل تلك المظاهر ولا تعيرها ما يعيرونه إياها من خطر وجلالة . وكانت تعلم أن دون عودة البرّاق إليها خرط القتاد حتّى لو عدل أمير اليمن عن الزواج بها فقد نزح البرّاق عن دياره مجروح العزّة ولكنه انطوى على جراحه كرماً ونبلاً فلو قيل له بعد اليوم هذه ليلاك يا برّاق عد إليها واقبلها عروساً لك لمنعه الإباء والأنفة عن أن يلبي النداء فلم يبق إلا أن تدعو له ولنفسها بالسلوان . . .

لم تشأ أمّ الأغرّ أن تنتزع ليلى من تفكيرها فلما

أطالت التأمل والتدبر أهابت بها صارخة :

— « أهناك مجال أيضاً للتفكير يا ليلى . »

فحدثتها ليلى بما يساورها من مخاوف وما إن ذكرت لها أنها تدعو له ولنفسها بالسلوان حتى هبت أم الأغر واقفة وأمسكت ليلى من يدها وقالت لها :

— « تعالى معى فعندى دواؤك . »

ومشت بها راجعة إلى ديارها سالكة بها درباً ملتوياً خشية أن تلتقى فى طريقها بأخيها كليب أو أحد من إخوتها الآخرين حتى انتهت بها إلى بقعة نائية فجلست إلى الأرض وأجلست ليلى إلى جانبها وقالت لها :

— « انظرى ها هنا . »

فأمعنت ليلى النظر حيث أشارت خالتها فرأت بعض أعواد من الشجر قد غرست فى الأرض على شكل دائرة ورأت خالتها تجتث تلك الأعواد من مغارسها فقالت لها :

— « ما هذا يا خالتى ولماذا تجتثين هذه الأعواد . »

فقالت أم الأغر :

— « إنها العلامة التى وضعتها لأعرف مقر الخرزة الدفينة . »

وشرعت أم الأغر بعد أن اجتثت الأعواد تحفر بيديها وتجلو عن الحفرة التراب حتى عثرت على ما تبتغى فحدقت

فيه وأشرق وجهها ، وقالت وهى ترى ليلى الخرزة التى استخرجتها من التراب :

— « ها هى ذى. لقد أسودّ لونها فلا يبقى إلا أن نسحقها ونصبّ عليها ماء المطر. » فقالت ليلى . :

— « وفيمَ كل هذا . » فصاحت أمّ الأغرّ مدهوشة :

— « ألم تحدّثيني عن رغبتك فى السلوان . إنى امرأة أستبق الحوادث فقد قدّرت هذا وأخذت هذه الخرزة الشفافة واسمها " السلوانة " وطمرتها فى التراب فإذا اسودّ لونها وقد اسودّ وسحقت وصبّ عليها ماء المطر نجم عن هذا كله شراب السّلوان يشربه المبتلى بحب إنسان فيسلو من يحبّ ويشفى من داء الغرام . » فصاحت ليلى مذعورة خائفة :

— « لا . لا . لا أريد أن أشرب من ماء السلوان . »

فقالت أمّ الأغرّ :

— « أتظنينني أكرهك عليه . سمعتك تتمنين السلوان فأعددت لك عدّته . أمّا وقد سلوت عن السّلوان وهكذا العشاق الأوفياء فلتتحمل الجن هذه " السلوانة " اللعينة . »

وأتبعت القول بالعمل وقذفت الخرزة بكل ما تستطيع من قوة فى الفضاء الواسع ثم مالت على ليلى وهى تقول :

— « إنك لعلى صواب يا بنيّتى فما شأننا نحن والسّلوان فى

حين أن الحلم الذى حلمت به يؤكد لى رجوع البرّاق وزفافك إليه . » فقالت ليلى :

— « أما زلت يا خالتى تؤمنين بالأحلام وتحسبينها حقائق الحياة . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « عجباً لك يا ليلى أتشكّين فى الأحلام . وفى الأحلام التى أراها أنا فى منامى . ألم أخبرك أنها ما كذبتنى قط . »

فابتسمت ليلى ولم تجب فقالت أمّ الأغرّ :

— « هيّا بنا إلى العرّاف فلعلك تصدّقينه إذا كنت لا تصدّقيننى . » فقالت ليلى :

— « رحماك يا خالتى فما شأن العرّاف وخفايا القلوب وما شأن العرّاف ومعرفة الغيب الذى لا يعرفه إلا الله . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « إنما العرّاف ينطق بلسان اللات والعزّى . هيًّا بنا إليه ولا تزيدى . »

فطاوعت ليلى خالتها مستسلمة ومشت وإياها فى منعرجات ودروب حتى إذا طال بهما السير وبدأت أمّ الأغرّ تشعر بالتعب والكلال التفتت إلى ليلى وقالت :

— « مكان العراف لا يزال بعيداً على أننى أعرف فى هذه الناحية عرّافة على جانب كبير من الحذق والدراية فما قولك

لو انتهينا إليها فإني ما قصدتها قط إلا كشفت لى حجب الغيب وأسراره . » فقالت ليلى متبسمة :

— « أنا رهن إشارتك يا خالتاه فافعلى ما بدا لك . »

فقالت أمّ الأغرّ :

— « ولا سيما أن النساء هن أحفظُ للسرّ . »

وبعد دقائق معدودات وصلت أمّ الأغرّ وليلى إلى خباء حقير جلست عند بابه عجوز شمطاء وامتدت أمامها رقعة مملوءة بالرمل متناثرة فيها الحصى فحيّتها الزائرتان فردّت على التحية بصوت غائر فى بطون السنين التى تحملها فى شعرها الأبيض ووجهها المتجعد وعروق أناملها البارزة وقالت للزائرتين دون أن ترفع إليهما النظر :

— «اجلسا غير مأمورتين . »

جلست أمّ الأغرّ على عقدة من جذع نخلة وجلست ليلى على مقعد صغير مصنوع من أعواد الشجر كانا بجوار العجوز وافتتحت أمّ الأغرّ الكلام قائلة :

— « جئناك يا خالة لتكشفى لنا عما يخبئه الغيب لابنة أختى من أسرار . اكشفيها لنا على عِلاّتها ولا تخفى عنّا شيئاً مما ترين . »

فقالت العجوز :

— « تعوّدت الصدق والصراحة ولن أحيد عما تعودّت .

اقتربي مني يا فتاتي وابسطي لي كفك اليمنى . »

فبسطت ليلى كفها اليمنى فأمسكت بها العجوز وأخذت تتفرس فيها ملياً وتقرأ خطوطها وتجس بأصبعها المرتجفة بعض الأنامل والجوانب من كف ليلى البضة الجميلة ثم تركت العجوز كف ليلى وهى تهز رأسها وانثنت إلى رقعة الرمل أمامها ورفعت منها الحصى وأمرت كفها على وجه الرمل فصقلته وشرعت تخط فيه خطوطاً متوازية فمتعاكسة ثم تمسح براحة يدها ما خطت وتعيد الكرة على أشكال متغايرة وبقيت على هذه الحال ساعة من الزمن لا تنبس ببنت شفة ولا ترفع عينيها عن رقعة الرمل ولا تفك تقطيب حاجبيها حتى ارتاحت إلى شكل من أشكال الخطوط فإذا هى تؤلف مربعات فى جانب وحلقات فى جانب آخر. ثم تناولت عدداً من الحصى وزعته على بعض تلك المربعات والحلقات وأسندت رأسها إلى كفها اليسرى وأطالت التحديق فى الرمل والحصى والأشكال التى رسمتها بإصبعها وعمدت إلى بعض الحصى فنقلته من موضع إلى موضع. ولما فرغت من عملها رفعت رأسها وحدجت ليلى بنظراتها طويلاً وقالت :

— « أبشرى يا فتاتى . . . »

فأطلقت أم الأغر من صدرها تنهدة عميقة بعد إذ كانت طول الوقت كاتمة أنفاسها تنتظر أن تنفرج

شفتا العجوز عن الخبر البهيج المفرح . أمّا ليلى فكانت فى عالم آخر من الأوهام والأحلام فأيقظتها كلمات العجوز من غيبوبتها فتبسّمت شاكّة مرتابة . وتابعت العجوز كلامها فقالت :

— « ستنالين ما تحلمين به . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « بوركت من عرّافة . . . هاتى . . . هاتى . . . هاتى أسرار الغيب المفرحة . »

فقالت العجوز :

— « ولكن دون تحقيق أحلامك عواصف وزوابع . » فقطبّت أمّ الأغرّ حاجبيها ثم أبرقت أساريرها ومالت على ليلى توشوشها قائلة :

— « ألم أقل لك إنه سيخوض المعارك ويعود منها ظافراً منصوراً . » ، فهزّت ليلى رأسها ومضت العجوز فى كلامها فقالت :

— « هناك حبيب تحبينه ويحبّك . وهناك رجل يرغب فيك ولا ترغبين فيه . وهناك غير واحد يتمناك ويهوى وصالك . ولكن سيتغلب الحبيب إذا بقى على هواك وسيخيب الراغب فيك ويتنحّى عنك لمن هو أقوى منه فلا بدّ من الاعتماد على الرُّقى لتضمنى النصر وتفوزى بالمراد . » فصاحت أمّ الأغرّ :

ـ « هاتى من رُقاك يا خالة ولتكن قويّةً كالجبال عاصفةً كالزوابع مرهفةً كمواضى السيوف . »

فأحنت العجوز رأسها علامة الاستجابة وطلبت من ليلى أن تمدّ كفها اليمنى فمدّتها فتناولتها العجوز بيمناها وأطبقت عليها بيسراها وقالت :

ـ « لنبدأ بالعدوّ المريب . ردّدى معى هذه الرقية :

" أخذْتهُ بالفَطْسَة . بالثوَبا والعطسة فلا يزل
فى تَعْسَةَ من أمره ونكْسَة حتى يزور رَمْسَهَ . »

فردّدت ليلى ما سمعت كلمةً كلمة ثم استأنفت العجوز كلامها وقالت :

ـ « ولنثنّ بالعروس الحبيب . ردّدى معى هذه الرقية فمن شأنها أن تسدل الأستار والحجب بينه وبين كل امرأة سواك فيعيش ويموت على حبّك وهواك . قولى معى :

" هوّابةٌ هَوّابة البرق والسحابة . أخذْتهُ
بمرْكن . فحبّه تمكّن . أخذْتهُ بإبرة : فلا يزل فى
عَبرَة . جلبته بإشْى . فقلبه لا يهدا . جلبتُهُ
بمبرَد . فقلبه لا يبرُد " . »

فأعادت ليلى هذه الرقية لفظاً لفظاً وحرفاً حرفاً وقلبها يخفق بالأمل والاستبشار مكنتهما فيه الرقى والطلاسم على غير إيمان بها ولا يقين . . .

٦

واستمرَّت الأيام فى جريانها فلا أمير اليمن استعجل لكيزاً فى إيفاد ليلى إليه ولا البرّاق توالت على القبيلة أخباره. فإن سرّت ليلى بسكوت الأمير فنمت فى فؤادها غراس الأمل فقد كانت على اضطراب وقلق من انقطاع أخبار البرّاق وإغفال الركبان نقل الأنباء عن مضطرَبه وأحواله .

وإنها لجالسة إلى أبيها لكيز فى عصر يوم من الأيام ينتظران أوبة إخوتها من المراعي إذ أقبل الإخوة فى قلق بادٍ ومشغلة ظاهرة فقال كبيرهم بعد أن حيَّا وجلس :

— « لقد وقعت الواقعة يا أبى . » فقال لكيز :

— « خلاك ذمّ ياولدى فأى واقعة تعنى . » فقال الابن الأكبر :

— « الفتنة بين ضبيعة وسدوس . » فقال لكيز :

— « ومن أصلى أوارها . » فقال الابن الأوسط :

— « الحارث بن عباد فقد قتل الفضيل بن عمران . » فقالت ليلى :

— « ولماذا قتله وفيم قتله . » فقال أخوها الأصغر :

— « انتهى إلينا أن الحارث بن عباد كان يرقب قنصاً على الماء ليرميه بالسهم فجاء الفضيل بن عمران وارداً فقا الحارث : " أمسك عليك يا فضيل ولا تفزع قنصى حتى أر بالسهم . " فأفزع الفضيل القنص فقال الحارث : " با لا أخطىء سهمى فيك . " فرماه الحارث بالسهم فك سببه . »

وبينا كان لكيز وأبناؤه يتداولون ويتشاورون فى ذا الحادث ويقدّرون له العواقب وينظرون فى كيف يحسم الث وتستأصل الفتنة دخل عليهم كليب وأخواه نويرة ومهلهل فحي وجلسوا وقال كليب :

— « يا سيد العشيرة جئناك نأتمر بأمرك فإن قلت لنا اجنحوا إلى السلم جنحنا لها وإن قلت شمّروا للحرب شمّ وخضنا عجاجها بسواعد قوية وقلوب لا تهاب العدى ولا ترت الموت . » فقال لكيز :

— « أفى وقعة ضبيعة وسدوس تحدثنى فقد علمت أمر الساعة . » فقال كليب :

— « أجل يا لكيز . » فقال لكيز :

— « ما أراها بالأمر الجلل . تتحمّل ضبيعة دية القتي فإن اشتطّت سدوس فى الطلب ساعدنا سدوس على الدية وقض

الشرّ والفتنة . » فقال نويرة أخو كليب :

ـ « لقد صرّح عمران بن نبيه أبو الفضيل القتيل أنه يرضى بالدية ولا يرضى بالحارث بن عباد يسلم إليه فيقتله بولده وإنما هو يطلب رأس أخي كليب أو رأس البرّاق يرى غيرهما كفؤاً لولده حتى إن سدوساً تناقلت شعره الذى يقول فيه :

لله ما الثأر فى حار ووالده ولا أخيه ولكن فى ابن روحان
فى الفتى السيّد البرّاق سيّدهم وفى كليب وذاك السيّد الثانى
لله لا رضيت نفسي ولا قنعت حتّى أرى الخيل تسعى فى الدم القانى »

فقالت ليلى ثائرة غضبى :

ـ « وأين البرّاق منا ليقتله بولده فلو كان فينا لألقمه سيف وحشا فمه بالتراب . أمّا وقد شحطت به الدار وشطّ المزار فرجاؤنا معقود على كليب الفارس المغوار فهو كفيل أن يقود جموعنا إلى النصر والظفر . ولست أرى الدية ولا المهادنة كابحة من عمران بن نبيه جماحاً . . . » فقال كليب :

ـ « الرأى ما رأت ليلى فما لنا غير الحرب من جواب فعمران لا يفتأ يكرر القول بأنه لا يرضى بولده غير البرّاق وغيرى فقد قال ما سمعتم من أخى نويرة وقال أيضاً بعد ذلك :

لعمرك ما ثارى إذن فى حويرثٍ ولكن ثأرى فى كليب بن وائل

وإلا الفتى البرّاق فارس قومه ... فذاك نظير الفضل عند الحصائل
أأقتل ضبعاً من ضباع بضيغم ... سلالة أبطال كمىّ حلاحل
سأسعر فى أبنا ربيعة غارةً ... بكل رديني من السمر عاسل»

فقال كبير أبناء لكيز :

ـــ « إنه يعرّض بنا ويتحدّانا فلا مناص من أن نهرع إلى سيوفنا لنردّ على دعواه الصاع صاعين وأنت يا كليب فارسنا بعد البرّاق فانهض إليها ننهض معك مكافحين مستبسلين . » فقال لكيز :

ـــ « وبماذا أجاب الحارث بن عباد عن ذلك الشعر الذى يزرى به ويعدّه من سقط المتاع . » فقال نويرة أخو كليب :

ـــ « أجابه بكلام طويل فيه عزة وفيه إباء وفيه زهو وفخار بالبرّاق وكليب فقد ختم شعره قائلاً :

وأنت إلى البرّاق بالقول مسرع ... فويحك من برّاق يوم التنازل
سيشهدها البرّاق وشكاً بقومه ... ويشهدها أيضاً كليب بن وائل»

فقالت ليلى :

ـــ « ما أراه إلا استجار بالبراق وكليب فكأنه بهذا الشعر قد عقد طرف ثوبه إلى طنب بيت كليب أو بيت البرّاق ولا مَعدَى لهما عن إجارته . » فقال لكيز :

— « على رِسْلك يا ليلى . وعلى رِسْلكم يا أبنائى جميعاً . لئن نحن نصرنا ضبيعة وهى بطن منا لتنفرنّ طىّ إلى نصرة سدوس فهى بطن منها بل لتنفرنّ قضاعة أيضاً ولنكوننّ قد أذكيناها حرباً ضروساً . »

فقال كليب :

— « البادى أظلم يا سيد العشيرة . »

وقبل أن يفتح لكيز فمه ليردّ على كليب دخلت أمّ الأغرّ على القوم وهى تلهث وقالت :

— « البدار . البدار . ألّبت قضاعة وطى وسدوس الجموع فقد علمتُ الساعة ممن لا أشك فى صدق روايته أنهم يشمّرون للفتنة ويأخذون فى إضمار الخيل وصقل السيوف وتقويم الرماح ونفض الدروع فإن لم تشمرّوا لها أخذناً على غرّة . . . » فقال لكيز :

— « أواثقة أنت يا أمّ الأغرّ بنهوض طى معهم فبيننا وبين نصير بن لهيم زعيم الطائيين نسب ما إخاله يفصم عراه بَلْهَ أنه خال البرّاق . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « كل الوثوق فقد روى لى الراوى أن نصير بن لهيم قد استفزّ إلى الروع استفزازاً بمكيدة من مكايد النساء تنقصه وتضع من شرفه ونسبت فيها فعلة السوء إلى أخى مهلهل . »

فقال هذا مدهوشاً :

— « وما تلك يا أختاه . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « حدّثني المخبر الصدوق أن جماعة من نساء طي ممن أوغر الحسد والحقد صدورهن على البرّاق وليلى لإعراض البرّاق عنهن ولتطلّع أمير اليمن إلى ليلى . . . » فقاطعتها ليلى قائلة :

— « إني لأنزل لهن عن أمير اليمن راضية مختارة . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « شدّت أولئك النساء لِقَيْنَةٍ من قيان نصير بن لهيم على جمل وقلن لها إذا بلغت خباء نصير وكنتَ بحيث يسمعك فاصرخي ونادى بالويل والثبور فيخرج إليك فقولي له : ركبت لزيارة أملك مولاتي فلقيني مهلهل بن ربيعة واستنزلني من جملي ونال مني وطره وقال لي : ليست قيان نصير ولا نساء طي بمحرّمات علينا . ففعلت القينة بما أوصيت به فحنق نصير حنقاً شديداً وقال : وحق مناة لأردّنّ كيد ربيعة في نحورها ولأغيرنّ عليها وأسبينّ حريمها وأفضحنّها أشد الفضيحة بعد سيدها البراق . » فقال لكيز :

— « لسنا وأيم الحق من جُناتها ولكن لنا شرفاً نذود عنه وحرمة نصونها فاذهبوا يا أبنائي وتفرقوا في القبائل واستصرخوا ربيعة وضبيعة وبكراً وتغلب وبني جشم وبني أسد وكلهم مشهور بالشجاعة والنجدة . وأنت يا كليب صاحب اللواء في غيبة

البرّاق أعقده لك فسرْ به إلى النصر المبين وأنا وأبنائى من حولك نشدّ أزرك ونحيطك بالسواعد القوية والسيوف القواطع . »

وتفرّق المجتمعون وذهبوا يعدّون للحرب عدّتها .

واستُصرخت قبائل ربيعة وبطونها فلم يلبّ النداء منها غير نفر قليل لانصراف القوم عن لكيز بعد موقفه من البرّاق ولنزوح البراق عن ربيعة وقد كان فارسها المغوار ومناط رجائها فاضطر كليب هو وإخوته ولكيز وأبناؤه وبمن اجتمع لهم من فرسان ضبيعة وبكر وتغلب أن يتلقوا الغارات ويذودوا عن الحياض والذمار .

استعدّ الفرسان ليوم الكريهة والطعان واستعدّت معهم النساء وفى طليعتهن أمّ الأغرّ وليلى يحملن أداوَى الماء وصرر الأواسى من لفائف وجبائر سيحتجن إليها فى أسْو الجراح وشدّ العظام والحيلولة دون نزف الدم .

ولم يطل إنتظار فرسان ربيعة ومن معهم فقد حمل عليهم فرسان قضاعة وطى وسدوس والتقوا بهم فى وادى « متون » واقتتلوا قتالاً شديداً إلى غزوب الشمس فتطاردت الخيول وتحاجزت الفرسان وتعانقت الظبي واشتجرت السيوف وتطايرت السهام وأسفرت المعركة عن قتل عباد أبى الحارث وقتل إخوته التسعة وخلق كثير من ربيعة . ولقد أبلى كليب وإخوته ولكيز

وأبناؤه البلاء الحسن غير أن الكفتين لم تكونا متكافئتين فآب المهاجمون وعلى رأسهم نصير بن لهيم الطائى ظافرين منتصرين يجرّون وراءهم المغانم والأسلاب والسبايا وكانت ليلى وأمّ الأغرّ فى السبايا .

وأمر زعيم طى أن تحاط أخت كليب وابنة لكيز بالرعاية والتجلّة وبأن يضرب لهما خباء خاص فما انقطعت أمّ الأغرّ طول الليل عن الشكوى والتذمّر تندب سوء الطالع الذى جعلها هى وليلى من سبايا الطائيين وتبدى شديد الأسف على أن المعركة لم تجر كما وجب أن تجرى عليه فلو لم يشغل كليب وإخوته بقتال بنى قضاعة لأنقذنا من أيدى الطائيين . ولو شدّ لكيز وأبناؤه على نصير وأعوانه لما وقعنا فى الأسر. ولو. . . فقاطعتها ليلى قائلة :

— « ليس هناك إلا " لو " واحدة ياخالتى . فلو كان البرّاق على رأس فرساننا لجنّبنا السبى ولتغير وجه القتال فمهما يكن من بأس خالى كليب وشجاعة أعوانه فإنهم كلهم لا يعدلون البرّاق . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « وماذا يفعل فارس واحد ولو كان البرّاق فى هذه الجموع المحتشدة التى تفوقنا عدداً . أحسبت البرّاق يعدل جيشاً برمّته . » فقالت ليلى :

«أمّ الأغرّ دعي ملامك واسمعي قولاً يقيناً لست عنه بمَعزلِ
برّاق سيدنا وفارس خيلنا وهو المطاعن في مضيق الجحفلِ
وعماد هذا الحيّ في مكروهه ومؤمَّلٌ يرجوه كلُّ مؤمَّلِ»

فقالت أمّ الأغرّ :

— «أجل يا حبيبتي ولكن لا تنكري شجاعة خالك كليب.»

فقالت ليلى :

— «معاذ العلى والمجد. ولكن أصيخي إليّ أحدّثك عن البرّاق : إنه ليضرب بسيفه الثور الهائج فيقدّه شطرين. وإنه ليسدّد السهم إلى إحدى عيني الغزال فيبيته فيها فهو أمهر رماة الحَدَق وإنه ليعلّق الضبّ في غصن شجرة ويرمي فقراته بالنبال فيصيبها فقرة فقرة وإنه ليكرّ على الكوكبة من الفرسان الأشدّاء فيطيح برؤوسهم واحداً واحداً . . .» فضحكت أمّ الأغرّ وقالت :

— «وإنه ليلتقي بالجيش اللُّهام فينفخ فيه فيطير . . . ويحي ما أغباني. لقد نسيت أن ليلى هي المتحدثة عن البرّاق . . . يا للحب وسلطانه . . .»

فابتهجت ليلى من كلام خالتها ثم غلبهما الإعياء والنعاس على أمرهما فنامتا.

لم يكن رأي ليلى في البرّاق مقصوراً عليها فقد كان

كذلك رأى كليب فيه فإنه لما رجع إلى نفسه وتبيّن وقع الهز
التى مُنى بها بنو ربيعة حنّ إلى البرّاق وعرف أنه ما من
سواه حقيق أن يستردّ شرف القبيلة ويمحو عنها الذلة وال
فأفضى برأيه إلى بعض خلصائه فأمّنوا عليه فركب فيهم وط
بأفراسهم طيران الصقور إلى البحرين حتى نزلوا على
حنيفة فاستقبلهم البرّاق ورحّب بهم وأكرم وفادتهم . و
كليباً أن يرى البرّاق على غير ما عهده فيه من زهو وإ
ومرح ونضارة فعلم أن حبّ ليلى لا يزال يعصف بقلبه ويو
موارد الألم والعذاب .

وقصّ كليب على البرّاق جليّة المعركة وما اكتنفها
حوادث وما نتجت عنه من هزيمة منكرة لبنى ربيعة وأنهى
أنهم إنما جاءوا مستنجدين به وأنشده :

«إليك أتينا مستجيرين للنصرِ ... فشمّرْ وبادر للقتال أبا
وما الناس إلا تابعون لواحدٍ ... إذا كان فيه آلة المجد وال
فناد تجبك الصيد من آل وائلٍ ... وليس لكم يا آل وائل من ع

فتبسّم البرّاق ابتسامة حزينة وذكر ما لقى من لكيز
من صفعة لا يزال يترنح من هولها فأنشد كليباً متهكماً :

«وهل أنا إلا واحد من ربيعة ... أعزُّ إذا عزّوا وفخرهم ف
سأمنحكم منى الذى تعرفونه ... أشمّر عن ساقى وأعلو على

دعو بني عمّي جميعاً وإخوتي	إلى موطن الهيجاء أو مرتع الكرّ

وردّهم يتعثرون بأذيال الخيبة . وكان كليب قد آثر في
ء الحديث أن يكتم عنه نبأ سبي ليلى حتى لا يزيد في آلامه
ل في نفسه سيعرف الخبر إذا وصل إلى الديار فيلتهب حميّةً
باسة وكاد وهو منصرف يقذفه بالنبأ الأليم ولكنه أمسك فقد
ان يرجو أن يهبّ البرّاق إلى نصرة قومه مستبسلاً فدى القبيلة
بسبيل امرأة وإن كانت ليلى فطوى النبأ في صدره وعاد إلى
مه في الجزيرة كئيباً حزيناً .

وانتشر نبأ سفارة كليب إلى البرّاق في أنحاء الجزيرة وعودته
ائباً فشاء بنو طي أن ينتهزوها فرصة يوغرون فيها صدر البرّاق
يكسبونه إلى صفوفهم فأرسلوا إليه يعدونه بالكرامة والسيادة
يهم إن آزرهم على قتال ربيعة . وزاد خاله نصير بن لهيم فذكّره
بأصاب من هوان على يد لكيز ومنّاه بتزويجه ابنته إن شدّ
حال إليه وانضمّ إلى طي وامتنع عن نصرة ربيعة . وكان فيما
سله إليه قوله :

ألا أبلغ البرّاق مني نصيحة	فإنّا إليكم أجمعين نسيرُ
بل لك تأتينا سريعاً مسلّماً	فإني لكم ذو نصرة وظهير
ائل طيٍّ كلها قد تجمعت	وأحلافها جاءت لمن تغير
تذكروا ماذا جناه لكيزكم	وأعرض عنكم والكلام كثير

هلمّ إلينا كى أزوّجك ابنتى ... لها شرف فى طيّها وظهير
ودع عنك إهمالاً هناك فإنه ... أقاطيع أرحام وأنت نصير »

فلما بلغت الأبيات إلى البرّاق ردّدها على مسمع أبيه وسأله قائلاً :

ـ « أجب عن هذه الأبيات يا أبى . » فقال أبوه :

ـ « إنما هى موجهة إليك فعليك الجواب . » فأنشأ البرّاق يقول مجيباً لخاله :

« لعمرى لست أترك آل قومى ... وأرحل عن فنائى أو أسيرُ
ولى بهمُ إذا ما كنت فيهم ... على رغم العدى شرف خطير
أأنزل بينهم إن كان يسرٌ ... وأرحل إن ألمّ بهم عسير
ألم تسمع أسنّتهم لها فى ... تراقيكم وأضلعكم صرير
فكُفَّ الكفَّ عن قومى وذَرْهم ... فسوف يرى فعالهمُ الضرير »

فأبرقت أسارير أبيه الشيخ لمّا سمعه ينشد هذه الأبيات متوعّداً فيها آل طىء وقد كان يخشى أن ينضمّ إليهم انتقاماً لنفسه من لكيز فنهض إليه وقبّل رأسه وأمر بمهرته « السبوق » فوهبها للبرّاق وكانت من أفره الخيول وأسبقها فأبوها « حافل » من خيل قضاعة وأمّها « عبرضة » من خيل بنى شيبان فصاح البرّاق فى رهطه من بنى أسد وبنى حنيفة فتوافدوا عليه وأرسل

أباه وإخوته إلى أحياء ربيعة يستصرخون قبائلها فجزعت ربيعة لجزع البراق وأخذت أهبتها للحرب وكان البرّاق قد علم بسبي ليلى فمشى إلى الجزيرة وهو ينشد :

« لأفرجنّ اليوم كل الغمم　　من سبيهم فى الليل بيض الحَرَمِ
صبراً إلى ما ينظرون مقدمى　　إنى أنا البرّاق فوق الأدهمِ
لأرجعنّ اليوم ذات المبسِم　　الواضح المنضّد المنظمِ
بنت لكيز الوائلىّ الأرقم

وخاض البرّاق وقومه غمرات القتال وأمَّر كلاً من إخوته وكلاً من كليب وإخوته على كتيبة وكانت أول موقعة له مع أعدائه فى « دومة » على حدود بلاد أنمار فانتصر فيها انتصاراً عظيماً وما زال ينتقل من نصر إلى نصر ويلحق بأعدائه الهزيمة تلو الهزيمة حتى استسلموا وامتلأت أيديه من الغنائم ففكّ الأسرى واسترجع الظعائن وكانت فيهن ليلى وأمّ الأغرّ . ودحر الطائيين حتّى جبلى « أجأ » و « سلمى » وتقهقر بنو قضاعة حتى مشارق جبل « رضوى » .

ثم أصلح ذات البين فى القبائل فتصافت وتآخت وأقرّت له بالمكانة الأثيرة والشرف الأثيل وسوّدته عليها زعيم الزعماء وفارس الفرسان . . .

٧

ورد فى هذه الأثناء على لكيز رسول من عمرو بن ذى صهبان أمير اليمن يستنجزه وعده فى تجهيز ابنته ليلى إليه فانقطع الخيط الرفيع من الأمل الذى كانت ليلى تشبثت به بعد تلك الحوادث الجسام . على أن ذلك الأمل والحق يقال كانت ليلى قد قطعته هى نفسها قبل أن يفد على أبيها الرسول فلعلها فى قرارة نفسها قد ارتاحت إلى قيام أمير اليمن باستعجال أبيها واستنجازه الوعد بل لعلها سرّت بذلك الصنيع ورأت فيه ما يحفظ لها العزة والكرامة ويرضى أنوثتها ويبقيها فى العذارى اللواتى تطمح إليهن قلوب الرجال . . . .

انتصر البراق انتصاره الباهر وعقدت له الرياسة فى قومه وحُفّ بالفخر والمجد والشرف ورأى رؤساء العشائر أنه قد أصبح كفؤاً لأمير اليمن فلا غضاضة على لكيز فى منحه يد ليلى ولا سيما أن أمير اليمن قد انصرف عنها . لا محالة فسكوته أشهراً طوالاً دليل على ذلك .

استعرضت ليلى فى ذهنها هذه الحال وهى جالسة وحدها فى الخباء تفكر وتنعم الروّية فذكرت وفود رؤساء العشائر على

أبيها بالأمس وإلحاحهم عليه فى تزويجها بالبرّاق وانتفضت من رأسها إلى أخمص قدميها لمّا ذكرت أن السبب الأول الذى قدّموه بين يديه هو سكوت أمير اليمن بحيث يحملهم على الظن بل على اليقين أنه عدل عنها وولّى وجهه شطر غيرها من العذارى. ويح هؤلاء الأغرار أحَسبوها من سقط المتاع أم حسبوها لا حسّ ولا رأى لها ولا عزة ولا شمم. يخطبها إلى أبيها الخاطب من الرجال فيجاب إلى طلبه ويقصى عنها ابن عمها حبيبها وخطيبها الأول فيهجر الديار يأساً وغمًّا، ثم تنزع بالخاطب الجديد النوازع فينصرف عنها فينادَى على خطيبها الأول ويقال له هذه عروسك عد إليها وخذها إليك فقد أعرض عنها خطيبها الجديد الذى كنا قد آثرناه عليك وارتمينا عند قدميه. وبهرنا بمجده وكنوزه. أمّا لو أن البرّاق رضى بها عروساً بعد ذلك لعفّت عنه وطرحت بحبه فى الأودية السحيقة ولبدا فى عينيها حقيراً على مجده ذليلاً على عزّه وشرفه. ولكنها تربأ بالبرّاق أن يهوى إلى هذا الدرك فهى تعرفه أبيًّا متصوّناً مترفعاً ولا أدلّ على كرم خلقه من أنه هجر الديار عزيزاً كريماً وعاد إليها متحاملاً على نفسه ليدفع عنها المذلة والعار وليقنو لها بحدّ سيفه وشجاعة قلبه العزة والفخار. فرؤساء العشائر قالوا لأبيها بالأمس إنهم متطوّعون بهذه السفارة على غير علم من البرّاق وإنما أرادوا

أولاً أن يظفروا من أبيها بالرضى ليتحولوا بسفارتهم إلى البرّاق .
وهى . أليس لها رأى يسمع . أما كفاها أنها صانت كرامة أبيها مرّة . أتظل فى كل مرة غصن آس ينقّل من إناء إلى إناء . من أوهم هؤلاء السفراء أن ليلى جبّة من الحرير يلبسها كل لابس . من أدخل فى روعهم أنى أقبل البرّاق عروساً لأن أمير اليمن طوى كشحه عنى فأعرض وانصرف . لقد ألهمت السماء والدى وإن كان لا يعرفها إلا بالأوثان والأصنام أن لا يقطع للسُّفراء بوعد جازم حتّى يتملى من الأمر ويتدبّره وها هى ذى رسالة أمير اليمن تحسم الأمر وتقطع الأقاويل .

ساورت ليلى مثل هذه الهواجس وهى تنتظر أباها وإخوتها وانتهت إلى أن رسالة أمير اليمن هى وحى من الله قد جاء يصون عليها عزّتها ويحفظ لها كرامتها فلا بدّ من الاستعداد للرحيل وإعداد النفس لقبول الحياة الجديدة التى ستحياها ولما من حب البرّاق فى ضلوعها ينبوع تنهل منه وترتوى فى صحراء الحياة .

ورمت ليلى عرضاً بنظرها إلى باب الخباء فرأت أباها وإخوتها قادمين وكانوا قد تلاقوا عند ساحة الخباء فإخوتها عائدون من المرعى وأبوها راجع من لدن البرّاق فحيّاها وقال :

— « ذهبت يا ليلى إلى ابن أخى البرّاق لأطلعه أولاً

على ما دار بيني وبين رؤساء العشائر فعلمت منه أنهم كانوا متطوعين فى السفارة كما قالوا . . . »

فخفق صامر ليلى لما أيقنت أن البرّاق على ما عهدته فيه من العزّة وسموّ النفس ثم استمعت لأبيها يتمم حديثه ويقول :

— « ولأنهى إليه ثانياً بالرسالة التى حملها إلىّ رسول أمير اليمن يستنجزنى فيها وعدى بالرحيل بك إليه . » فسألته ليلى :

— « وكيف تلقّى هذا الخبر . » فقال لكيز :

— « كان على علم به فأطرق قليلاً ثم دعا لك بالهناءة والسعادة . ولما أعربت له عن أمنيتى بأن نحتفل قريباً بزواجه من عروس تحبه ويحبها وتوفرّ له أسباب النعيم قال لى : لقد عزمت على أن أحيا عزَباً ما حييت تشغلنى البيض والسمر من السيوف والرماح عن البيض والسمر من مهى الإنس والغزلان ... »

فغام وجه ليلى عند سماعها هذا الكلام ولم تدر أتبتهج ببقاء حبيبها على عهدها أم ترثى له وتبتئس . ومضى أبوها يقول :

— « ولأروى له ثالثاً كيف أغلظ رؤساء العشائر لى القول عندما أبلغتهم رسالة أمير اليمن وعزمى على تحقيقها وإنفاذك إليه . » فقال ابنه الأكبر :

– « أوَغاب عنهم أن وراءك ثلاثة سيوف كفيلة بأن تغسل الإهانة بالدم المراق . » فقال لكيز :

– « لا يا بنىّ فما وصل غلظ كلامهم إلى حد الإهانة وإنى لأتجاوز عن عنفهم وتقريعهم لما أعرفه فيهم من شرف القصد وحبّ للبرّاق ولكنهم غفلوا عن أن مصاهرة أمير اليمن ستدرّ أخلاف الخير على القبيلة مهما بلغت من عزة وجاه فى سلطان البرّاق وحماه . وكيفما كان الأمر فقد استاء البرّاق من تهوّرهم وحلف ليصحبنى وليلى إلى تخوم الديار يوم رحيلنا وليشملنكم برعايته وحمايته فى أثناء غيابى . » فقالت ليلى :

– « وهل قبلت يا أبى أن يصحبنا إلى التخوم . » فقال لكيز :

– « ولمَ لا أقبل يا بنيّتى أوَليس ابن أخى وابن عمك وسيد العشيرة وحامى ذمارها . فصحبته إيانا تقطع ألسنة السوء فلا تفترى علينا ولا تتقوّل الأكاذيب . »

والحق أن ليلى قد سرّها قرار البرّاق بمرافقة ركبها إلى حدود الديار فى ذلك المظهر من النجدة والتجلة كبتٌ لحواسدها وإعلاء لشأنها وعنوان على أنها لا تزال العروس المنشودة يودّعها حبيب ليستقبلها خطيب . وفوق هذا كله ستتمكن من وداع البرّاق ومن التزوّد منه بالنظرة الأخيرة قبيل الفراق الذى لا لقاء بعده . . . .

وفى اليوم المضروب للرحيل ركب لكيز جواده الأشهب وأحاط به أبناؤه الثلاثة لابسين الخز والديباج من أبراد اليمن ومنتطقين بأحزمة الحرير شكّت فيها الخناجر المرصعة بالذهب والجوهر مما كان قد أهداه إليهم أمير اليمن . وضُرِبَ لليلى هودج جميل على ناقة وَجنْاء استوت فيه مرتدية غالى الثياب متحلية بعقد الدرّ والدملج المرصّع باليواقيت وعقدت على رأسها منديلاً من الدّمقْس رمته إلى قذالها وأدارته على وجهها من الشمال إلى اليمين فكان لها لثاماً سترَ محيّاها وتراجع عن عينيها الدّعجاوين البرّاقتين . وكان فى الركب رسول أمير اليمن ممتطياً صهوة جواده وقد أمسك بِمقْوَد ناقة ليلى تكريماً لها وتعظيما . وركب نفر من غلمان لكيز نياقهم ولبسوا أسلحتهم واستعدوا لمرافقة ليلى وأبيها وحراستهما حتى يبلغا أبواب اليمن .

وكان فى المودّعين أمّ الأغرّ وإخوتها فأوسعت ليلى تقبيلاً قبل أن تستوى على هودجها . ولما سارت القافلة فى طريقها رجعت أمّ الأغرّ إلى بيتها وهى تذرف الدمع وتبع كليب وإخوته الظاعنين وانضمّ إليهم البرّاق وأهله بعد قليل فكان يخالس ليلى وتخالسه النظر وفى قلب كل منهما نار مستعرة .

وعندما وصلت القافلة إلى منعرج اللّوى وهمّت بأن تسلك طريق اليمن توقف لكيز عن السير وحذت حذوه القافلة كلها

فودّع أولاده وانثنى إلى البرّاق وكليب وأهلهما فحيّاهم تحية طيبة وشكر لهم عاطفتهم الكريمة فردّوا على التحية بأحسن منها ثم تابعت القافلة سيرها ووقفوا يشيعونها حتى غابت عن الأنظار فأداروا أعناق الخيل وعادوا إلى الديار .

وكانت ليلى كلما خطت بها الناقة خطوة بعد أن استأنفت القافلة المسير تسترق النظر إلى البرّاق من خلال أستار الهودج وتكاد تسمع دقات قلبها من شدّة الخفقان حتى إذا حالت بينها وبينه الآكام والتلال أطلقت عبراتها المحبوسة وأجهشت بالبكاء . . .

جدّت القافلة فى السير تمشى خَبَباً إلى غايتها فى النهار وتنزل ضيوفاً فى الليل على كرام العرب الذين يمرّون بهم فى أثناء السُّرَى أو تنصب الخيام فى الأرض القفر . وكان رسول الأمير كلما عرّجوا على واد ظليل أو مرج نضير ترجل وقطف بعض ما يلقى فيه من الشيح والقيصوم أو من العرار والأقحوان وقدّمه إلى ليلى تنعم منه بطيب الشذا وتزين به جوانب الهودج فتقبله منه باسمة شاكرة .

واستمرّت القافلة تغذّ السير حتى جاوزت « الصمّان » ، ووصلت فى طريقها إلى « وادى السباع » فأشار لكيز على رسول الأمير وغلمانه بالوقوف قليلاً فى ذلك الوادى يأخذون

لأنفسهم فيه قسطاً من الراحة ويكحلون النواظر بحسنه وجماله فوقفوا الخيل وأناخوا الإبل وترجل لكيز والرسول وقفزت ليلى إلى الأرض عندما بركت ناقتها فأخذت تسير الهوينى فى شعاب الوادى وتملأ رئتيها من شميم الزهر ونسيم الفضاء الواسع قبل أن تنطبق عليها أبواب القصور وتصبح سجينة عيش لم تألفه وأمة رجل لا تستطيع أن تهبه قلبها .

وانتحى لكيز ورسول الأمير ناحية وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث فى مختلف الشؤون ثم انحدرا من أعلى الطريق إلى علوة الوادى ينهلان من الماء المنبجس من كبد الصخور وينتعشان بالرشاش المتطاير منه .

ولشدّ ما راعهما صوت ليلى ينبعث من وراء الصخور فى جانب آخر من الوادى وهى تصرخ وتستغيث فخفّ الرجلان إلى نجدتها متجهين إلى مصدر الصوت مشفقين من أن تكون ليلى قد عضّتها بعض الأفاعى أو هاجمها بعض الوحوش . وهرع كذلك على صوت الاستغاثة غلمان لكيز وكانوا خمسة من الرجال الأشدّاء فسارعوا إلى نجدة سيدتهم وابنة سيدهم ولحقوا بأبيها ورسول الأمير وظلوا جميعاً يهبطون ويصعّدون فى بطن الوادى وربود هضابه حتى لاحت لهم ليلى عن بعد وكانت قد خرجت من مسالك الوادى وبلغت الطريق .

كان الوادى قائماً إلى شمال الطريق الضاربة فى مناكبها قافلة لكيز وكان إلى يمين الطريق سلسلة من التلال المكسوة بالشجر فلما وصل لكيز إلى ابنته ووراءه اليمنى والغلمان وسألها عن سبب صراخها قالت وهى تضطرب وتلهث :

— « كنت أجول فى شعاب الوادى ثم تركتها صُعُداً إلى هذا التل فما إن كدت أقترب من هذه الشجرة الضخمة التى عرجتم عليها حتى وثب من ورائها رجلان مدججان بالسلاح فأذهلتنى المباغتة وصرخت مستغيثة غير أن الرجلين لم يمساني بسوء بل رأيتهما يطلقان سيقانهم للريح ويجتازان عرض الطريق ويغيبان وراء هذه التلال والهضاب التى ترونها إلى يمين الطريق فلعلهما حارسان من الحراس أو لعلهما بعض الأرصاد أوعز إليهما أن يكمنا وراء هذه الشجرة ليرقبا الطريق ويترقبا مرورنا أو مرور غيرنا بها ويبلغا رفاقهم فيقبلوا للسلب والنهب .

وشخصت أبصار أفراد القافلة إلى التلال التى أشارت إليها ليلى فهالهم أن يروا نحو خمسين فارساً قد برزوا من وراء القمم وانحدروا بخيولهم إلى الطريق وهم مشرعو الرماح شاهرو السيوف فسدوا الطريق ووقفوا فيها صفوفاً متراصة .

عجب أصحابنا من هذه المفاجأة وحاروا فى تلمس أسبابها وزادت حيرتهم لما رأوا فريقاً من هؤلاء الفرسان يرتدى الملابس

العربية فى حين يرتدى الفريق الآخر بالملابس الفارسية فهم لا شك من جند فارس .

ولم تطل حيرتهم فقد تقدم زعيم الفرسان من لكيز وقال :

ــ « حيّيت يا سيد ربيعة . » فقال لكيز :

ــ « حييت أيها الفارس . » فقال الفارس :

ــ « ألم تعرفنى يا لكيز . » فقال لكيز :

ــ « ومن لى أن أعرف فارساً ملثّماً مقنّعاً . »

فنزع الفارس لثامه فما إن وقعت أنظار لكيز وابنته عليه حتى صاحا معاً مدهوشين مضطربين :

ــ « برد بن طريح . . . » فقال برد :

ــ « نعم برد بن طريح . . . برد الذى جاءك خاطباً إليك ليلى فرددته خائباً يجرّر أذيال الخيبة والهوان . . . » فقال لكيز :

ــ « ما رددناك يا برد هواناً بك واحتقاراً لشأنك وإنما كان هناك دواع حالت دون إجابتك إلى سؤالك . » فقال برد :

ــ « إن أمير اليمن لم يكن قد سمع بليلى . . . وإنما آثرت علىّ البرّاق الفتى الصعلوك . . . » فانتهرته ليلى قائلة :

ــ « إنه أشرف منك ومن أبيك . . . إنه من ربيعة لا من إياد التى ذلّت للأعاجم فضربوا عليها الذل والمسكنة . » فقال برد :

ـــ « وها أنت ذا يالكيز تخلف وعدك للبرّاق وتسوق ابنتك أمَة ذليلة إلى أمير اليمن . » فقال رسول الأمير :

ـــ « على رسلك يا سيدى . إن ليلى بنت لكيز هى عروس عمرو بن ذى صهبان أمير اليمن لا أمَته وستزفّ إليه ويعقد له عليها فى اليوم الذى تصل فيه إلى صنعاء فحذار يا سيدى أن تعرّض بالأمير وإلا سؤتَ مغبّة وعقبى . » فقال برد متهكماً ضاحكاً :

ـــ « لا شأن لى والأمير واعلم أنى لم أغادر أرض فارس ولا اجتزت خليج العرب ولا يممت بجنودى شطر هذا الوادى وادى السباع لأتناوب الحديث معك عن أمير اليمن ولكن لأرقب مجىء السيد لكيز وابنته ليلى فقد علمت من أعوانى وعيونى بيوم رحيله فسبقته إلى هذا المكان لأناقشه الحساب وأفوّت عليه ما سعى من أجله . . . » فقالت ليلى مغضبة :

ـــ « ومن أنت حتّى تناقش سيد العرب الحساب أيها الغادر الخؤون . . . » فقال برد :

ـــ « أنا يا سيدتى من سيحول بينك وبين السفر إلى اليمن ومن سيحملك سبيّة لأمير فارس ينعم بقربك ويجعلك فى حظياته وسراريه . » فبادره لكيز ساخطاً وقال :

ـــ « خسئت أيها النذل فدون مرامك سيوف قبائل ربيعة

كلها . » فقال برد وهو يقهقه ضاحكاً :

— « وأين أنت من قبائل ربيعة يا أبا ليلى . ألا تنظر إلى من معى من الفرسان وكل واحد منهم بقبيلة برأسها . . . حتى سيفك قد تركته مغمداً فى قرابه ومعلّقاً فى سرج جوادك . فعدّ عن المقاومة إذا كنت فكّرت فى المقاومة أو خطرت لك ببال فسأصحب ابنتك ليلى إلى أمير فارس بلاش بن الملك فيروز بن يزدجرد ولو حماها ألف سيف من سيوف العرب . »

فصاحت فيه ليلى :

— « أبلغتْ بك الخسة والنذالة أن تصبح خطّاف النساء . . . »

فقال برد :

— « رفض أبوك ورفضتِ أن تكونى لى الحليلة المكرّمة فكونى إذن لمولاى أمير فارس الحليلة المواتية . . . وإن شئت فادفعى إلى أبيك ما تتحلّين به من جواهر فلدى أمير فارس ما يغنيك عنها . . . » فقالت ليلى شامخة بأنفها :

— « وما حظك أنت من التلوّث بهذا الإثم . . . » فقال برد :

— « حظى أن أنتقم لنفسى منك ومن أبيك وأكون أثأر من قصير فأراك ممرّغة فى التراب ذليلة بعد عزّة متبذلة بعد عفّة تصمين أهلك وعشيرتك بوصمة العار بعد أن كنت لهم ميسم

زهو وفخار . . . ولكن كفانا ثرثرة فهيّا اصحبيني . . . »

وحاول لكيز أن يهجم على برد ويمزقه تمزيقاً وحاول محاولته الرسول اليمنيّ والغلمان الخمسة فقد كانوا متقلدين أسلحتهم غير أن ليلى قدرت أن لا فائدة من المقاومة فأنى لسبعة رجال أن يظفروا بخمسين فارساً غارقين فى الدروع والسلاح فحقنت الدماء وحالت بين أبيها وغريمه وقالت :

— « حنانيْك يا أبتِ لا تلطّخ يديك بدم رجل تنبض عروقه بالغدر والإثم والخيانة لئن كنت أنت أجرأ من قسورة إنه أجبن من نعامة فلن ينازلك وحده ولكن بهذه الرماح والسيوف المشرعة حوله . . . فاتركني لمصيرى البائس وادْعُ بأن يرحمنى الله الذى أعبده . . . »

ونزعت من جيدها العقد ومن مِعْصمها الدملج وسلّمتهما إلى رسول أمير اليمن قائلة :

— « خذ هدية مولاك وأرجعها إليه مشفوعة بشكرى وتحيتى وقل له إن عروسه كانت فريسة لص من لصوص النساء . »

وارتمت على أبيها تقبّله وتودّعه ثم التفتت إلى برد بن طريح وقالت :

— « ها أنا ذى أسيرتك أيها الرجل فسرْ بى إلى حيث تريد . »

فأشار برد إلى بعض رجاله فجاؤوه بجواد مُسْرَج أثمن إسراج فقال يخاطب ليلى :

ـــ « عرفتك يا أميرة البادية فارسة تجيدين ركوب الخيل فامتطى هذا الجواد الأدهم واصحبينا. وإياك والهرب فإنه جهد فى غير طائل . »

فاعتلت ليلى متن الجواد وأحاط بها الفرسان من كل جانب وسارت تلك الكوكبة تنهب الأرض انتهاباً فى طريقها إلى فارس يتقدمها برد بن طريح الإيادى . . .

ومشى لكيز وغلمانه إلى مطاياهم فركبوها وأقبل لكيز على رسول أمير اليمن يودعه ويحمله إلى الأمير السلام والتجلة ولم يزد. وعاد بغلمانه إلى دياره بالجزيرة وكان بين حين وحين فى أثناء العودة يتطلع إلى الهودج الخالى ويتفقد ابنته فيه فلا يراها فتدمع عينه من فيض الأسى وتذهب نفسه حسرات . . .

٨

استأذن برد بن طريح فى الدخول على بلاش ابن ملك فارس وكان هو المستوى على العرش فى مدة غياب أبيه فى ساحة القتال فأذن له فدخل وحيـّا وقبـّل الأرض بين يدى ابن الملك وقال :

— « لقد جئتك يا مولاى بأميرة البادية وإنها لتحفة العرب أجمعين . » فقال بلاش :

— « أهى التى حدّثتنى عنها وقلت إن عمرو بن ذى صهبان خطبها إلى أبيها . » فقال برد :

— « أجل يا مولاى وإنك لأجدر بهذه التحفة النفيسة من أى أمير آخر فسوف تكون درّة متألقة بين جواريك وحظياتك . » فقال بلاش :

— « بورك فيك يا برد فوحقّ النار والكواكب إنك للعبدُ الذكىّ الأمين . ولكن قل لى كيف رضيتْ أن تستبدلنا بأمير اليمن . . . » فقال برد :

— « خطفتها يا مولاى وهى فى طريقها إليه واعلم يا مولاى أنها زين عذارى ربيعة على الإطلاق . . . » فقال بلاش :

— « طالما حدّثتنى عنها وأسهبت فى وصف جمالها وكمالها ووعدتنى أن تغريها بالمجىء إلينا وتنتظم فى سلك جوارينا . أمّا أن تخطفها وتقودها إلىّ قسْراً فلا . . . إنى أشتهى نظر هذه الحسناء ولكن لا أكرهها على ما لا تريد . . . »

وأحسّ برد أن الفريسة ستفلت من يديه وأن صرح الثأر الذى بناه سينهار انهياراً فبلع لعابه وقال :

— « إنها راضية كل الرّضى بأن تكون أمتَك وجاريتك تنيلك من نفسها ما تشتهى ولقد أنزلتها دارى وأمرت بإصلاح شأنها وجلوها أحسن جلوة فإن شئت يا مولاى كانت فى قصرك هذا المساء وسترى أن نظرة خادمك برد نظرة صائبة . »

فتبسّم الأمير بلاش وأجزل صلة برد ثم أشار إليه بالانصراف فانصرف .

وكان الأمير محبًّا للهو والقصف غير أنه كان طيّب السريرة كريم الخلال ما حدّثته نفسه قط أن يقطف ثمرات الأنس عنوةً واقتداراً . ولعلّ فتوره عن الاحتفال بهديّة برد على ما كان برد يحبّ ويرجو بعد شديد عنائه أنه كان مشغول الفكر قلق البال على أبيه الملك وعلى عمه هرمزد وأخيه قباذ فقد ذهبوا جميعاً على رأس الجيوش الفارسية لقتال الهياطلة بعد إذ جاءتهم الأنباء أن الهياطلة خرجوا من باب سمرقند وأمير اللواء فيهم ابن خاقانهم

وتوغلوا فى بلاد فارس يعيثون فيها فساداً وينشرون الخوف والذعر والدمار .

وكان بلاش كلما بلغته الهزائم التى تحيق بجيوش فارس اضطرب وخشى قيام الفتنة فى المملكة فقد بوأه أبوه سرير السلطنة مدة غيابه ولكنه أعجز من أن يقمع فتنة أو يخضد شوكة ثورة . وكثيراً ما رجع إلى نفسه المسالمة الوادعة وقال : سامحتك الكواكب يا أبى لماذا نقضت العهد الذى أبرمه جدك بهرام جور بينه وبين خاقان الهياطلة . ولماذا اخترقت الحدود التى جعلوها فاصلة بين المملكتين . فن يدرى ماذا تكون عاقبة هذه الحرب أو لعلنى أدرى فبوادرها معلنة عن خواتيمها . فلم يكن بلاش إذن على حال تسمح له بالاغتباط بصيد جديد من غزلان الإنس فإن يكن قد استمع لبرد يروى له كيف اصطاد الطريدة ويغريه بالإطباق عليها فقد كان يستمع له بأذنيه لا بقلبه .

وانفلت برد من لدن الأمير والدنيا ضيقة فى عينيه على رَحْبها وما برح على طول الطريق من قصر الملك إلى داره يُعمل الفكرَ ويقرع باب الحيل لعله يجد مخرجاً من هذا المأزق الذى تردّى فيه . فقد زعم للأمير أن ليلى جاءت إليه طائعة مختارة ووعده بأن تكون فى ذلك المساء بين إمائه وجواريه فى القصر

على حين أنها ناشزة نشوز الفرس الجموح لم تتورّع عن أن تسمعه قوارص الكلم وتنعته بأحطّ النعوت عندما تركها فى داره وأمر زوجته بأن تعد ها ليحملها بعد قليل إلى الأمير . . .

كان يعرف ما جبلت عليه نساء العرب من إباء وشمم فإذا لم يرضين بأمر من الأمور طواعيةً فلا سبيل إلى حملهن عليه كراهية.وكان يعرف أن ليلى فوق نساء العرب جميعهن عزّةً وإباءً ولكنه كان يعلل النفس أن يكسر سلطان الأمير شوكتها وأن تدفعه الرغبة فيها إلى أن يفرض عليها الطاعة والامتثال.فهاهو ذا الأمير لا يقسو ولا يتشدّد كأنه لا مطمع له فيها ويترك لها الخيار فى السعي إليه أو الإعراض عنه.فماذا يفعل فى الوعد الذى قطعه للأمير وتكفّل فيه أن تكون فى قصره بعد ساعات قلائل فهبْها أبتْ وتمنعت وسوف تأبى وتتمنّع فبماذا يعتذر إلى الأمير وبأى وسيلة إذن يشفى غليله الظمآن للثأر ويحقق أمنيته بأن يجعلها سبيّةً ذليلة بعد أن استعصت عليه حليلة شريفة . . .

استعرض فى ذهنه مختلف الوسائل وهو سائر إلى منزله فقرّ قراره على أن يأخذها بالشدّة متوعّداً مهدّداً إذا كانت لا تزال على عصيانها وتمرّدها.فما إن يدخل داره حتّى يهرع إلى زوجته ويسألها :

— « أزيّنتِها وألبستِها فاخر البرود الفارسية بدل برودها اليمانية

لأحملها جميلة متبرِّجة إلى ابن الملك . » فقالت زوجته :

— « هيهات . أين منك هذا الحديث . فما إخالك تستطيع أن تذهب بها إلى ابن الملك إلا إذا قتلتها وحملتها إليه جثة هامدة . فلقد منعتنا نظرها لاتحدثنا ولا تصغي إلينا. وقدمنا إليها شهيّ الطعام فما مدت إليه يداً وهى هائجة ثائرة كاللبؤة فقدت أشبالها . ولا أكتمك أن الشفقة أخذتنى عليها فرثيت لحالها . . . » فقاطعها زوجها برد قائلاً :

— « لكأنى بعرقك العربى قد أثار فيك الرأفة بها والحنان عليها فلا تنسى أنك من إياد وهى من ربيعة وأننا نحمل فى دمائنا جرثومة الشقاق بين ذينك الأخوين . . . » فقالت :

— « وحقِّ كعبتنا بسنداد والنار التى أعبدها وإياك منذ أن أصبحت زوجة لك ليس العرق العربى هو الذى أثار فىّ الرأفة بها والشفقة وإنما هو عرق تعاطف الإنسان على الإنسان وحدَب المرأة على المرأة . . . » فقاطعها وقال :

— « كفى هذياناً فأنت زوجتى منذ نحو عامين وما رأيتك قط فى مثل هذا الغباء . أتراك خالجك الندم على اللحاق برجل يخدم بيت فارس ويوفر لك كل أسباب النعيم . » فقالت :

— « كلاً وأيْم الحق وسترى أنت نفسك أن هذه الفتاة

جديرة بالرثاء . »

فترك زوجته واقتحم على ليلى باب مخدعها وصاح فيها مزمجراً :

— « هيّا انهضى وتجمّلى فالأمير فى انتظارك . »

فنظرت إليه نظرة ملؤها الاحتقار والازدراء ولم تجب فقامت قائمته وأردف قائلاً وهو يرغى ويزبد غضباً وسخطاً :

— « لئن لم تمتثلى لأمرى لأعذّبنك عذاباً شديداً ما خطر لك على بال . » فقالت :

— « إن يد ابن عمّى البرّاق كفيلة بأن تردّ كيدك فى نحرك والويل لك يوم يلقاك فإنه سوف يمثّل بك تمثيلاً ويمزّق بسيفه وجهك الذى لا حياء فيه وقلبك الذى تفضله قلوب الوحوش . »

فضحك برد بن طريح ليخفى الجزع الذى استولى عليه من ذكر البرّاق ولكنه اطمأنّ بالاً فبينه وبين البرّاق سهول وجبال وبوادٍ وقفار ثم شغلته فكرة إرضاء ابن الملك والوفاء بالوعد فعمد إلى الملاينة والملاطفة وإن تكن نار الحقد على ليلى تستعر فى قلبه استعاراً فقال :

— « إنك ثائرة علىّ اليوم ولكنك فى غد ستغمرينى بآيات الحمد والشكران لما ستلقينه فى بلاط فارس من مجد ونعمة وستقولين أنقذنى برد بن طريح من حظائر الشَّذَب ونجاد الوَبر

وحشايا الشَّعَر ونقلني إلى بيوت الرخام والذهب وغالي الرياش وفاخر الآنية . إنك ستلبسين الخزّ وتتحلّين بالجواهر وتأكلين بصحاف الفضة والذهب . . »

فرمته ليلى بنظرة ثانية من نظرات الاحتقار والزراية فتجاهل معناها وقال :

— « قد تقولين إنك كنت ذاهبة إلى اليمن تلقين فيها بعض هذا ولكن أين الثريا من الثرى وأين فارس من اليمن وأين ساسان من حِمْيَر . »

فلما أكثر عليها غلى في عروقها الدم العربي وتلظّت في جوانحها الحميّة العربية فنهضت واقفة وقد تطاير الشرر من عينيها واعتمل الشّعر في صدرها وأنشأت تقول :

«لو كنت منتسباً إلى شيبانِ لحفظتَ فرعهمُ بكل لسان
وعرضت عن فعل الخناء أخا الخنا وغضضت طرفاً مستحي الأجفان
وأنا النسيبة والعفيفة فاعلمن يا ابن الدنيّة يا ابن كل أتان »

فكلح وجه برد من الغضب عند سماعه هذه الأبيات وانقلب إلى وحش ضار وقال :

« ويحك . . . أبرد بن طريح ابن أتان . . . أليس إياذ

وربيعة أخوين . . . » فقالت :

— « كذبت يا ابن الفارسية . . . ما أنت من إياد فلو كنت منها ما رضيت فى ربيعة هذا الفعل ولاسقت ابنة من بناتها إلى المعصية والفحشاء وإنما أنت زنيم وابن زنيم . . . »

فأطارت كلمات ليلى صواب برد فاستشاط غيظاً واندفع كالعاصفة إلى خارج الحجرة وهو يهدر هدير البعير وأمر عبيده وغلمانه فهجموا على ليلى وقيدوها بالأغلال وضربوها ضرباً مبرحاً وبرد ينظر إليها غائر العينين فائر الصدر حتى رآها سقطت لا تعى فاستوقف عبيده وصرفهم واقترب من ليلى فسمعها تزفر وتتنهد فقال لها :

— « سنعاود الكرّة إذا بقيت على عنادك وإصرارك ولن ينقذك من ضربات السياط إلا إذعانك لما طلبته منك ووعدك إياى بأن تذهبي إلى الأمير راضية متبسمة وحذار أن تفضى إليه بغير ما ألقنك إياه وإلا فأنت هالكة لا محالة . » فقالت له بصوت ضعيف يكاد لا يبين :

— « اقتلنى فالموتُ خير من هذا العذاب . . . »

ثم تركها وذهب إلى بعض شأنه على أن يعود عما قريب ودخلت زوجته على ليلى تواسيها وترطب خاطرها وتعنى بها عناية الأخت بأختها فاستعادت ليلى شيئاً فشيئاً قواها واستوت

جالسةً تفكر فى مصيرها المشؤوم فقالت لها زوجة برد :

— « يعزّ علىّ يا أختاه ما نالك من أذى. ويعزّ علىّ أن لا يسمع زوجى شفاعتى فيك وأن تنزلى بيتى فتلقى فيه هذا الهوان . . . » فقالت ليلى :

— « شكراً لك يا أختاه فما أنت مسؤولة عن هذا الهوان ... »

فقالت زوجة برد :

— « لقد بلغتِ فى عرْضك يا أختاه مبلغ العذر فاقبلى نصيحتى فليس هذا أوان عفة ولا أنت فى أهلك وحياطة عشيرتك حتى يدفعوا عنك الأذى ويصونوا ما تُدلين به من عفاف . . . »

فقالت ليلى :

— « القتل أهون علىّ يا أختاه مما يقسرنى عليه . . . »

ولم تقو على متابعة الكلام فأجهشت بالبكاء وبكت معها زوجة برد ثم خشيت أن يفاجئها زوجها وهى تبكى فغادرت الغرفة على أن تعود إلى ليلى بعد قليل فذهبت تصلح من شأنها وتغسل عينيها لتزيل منهما أى أثر للدموع والبكاء .

واستسلمت ليلى إلى حزن عميق وشقّ عليها أن تواجه الأخطار وحيدةً لا حَوْل لها ولا طَوْل غريبةً عن الأهل والديار . . . فلو كانت فى ربيعة لحَمَى عِرْضها ألف سيف وبحنّبها العار ألف مغوار من مغاوير العرب وصناديدهم

وفى طليعتهم إخوتها وأخوالها والبرّاق وإخوته . وشعرت أن انصراف فكرها إلى أهلها وعشيرتها إهانة للبرّاق فقد كان عليها أن تفكر فيه أولاً بل أن تفكر فيه أولاً وآخراً فهو فارس بمقام ألف وهو حبيب الروح وصنو الفؤاد . ألم تكن فى السبايا يوم أغارت قضاعة وطى على أحياء ربيعة. أوليس البرّاق هو الذى أنقذها من هوان الأسر وردّ على القبيلة عزّتها وشرفها فأمّرته عليها واعترفت له بالسؤدد والجلال. فكيف لا تقصر اعتمادها عليه .

وأخذت تناجيه وتعتذر إليه عن إشراك إخوتها وإخوته وأخوالها وفرسان القبيلة طرّا فى النجدة المرجوّة وتهتف فى نفسها : سامحنى يا برّاق فما كان لى أن أستنصر سواك ولا كان لى أن أعتمد إلا على ساعدك القوى وقلبك الشجاع . . . ثم تعود إلى نفسها محدّثة وتقول : ولكنهم أهلك وأهلى يا برّاق فما إخالك إلا راضياً عن أن يكونوا لك الأجنحة المرفرفة وأن تكون لهم القلب الخفّاق . . .

وتثوب إلى رشدها وتمّحى أشباح الخيال من خاطرها وتوقظها من أحلامها الحقيقة المؤلمة فتدرك أن البرّاق لو استحال إلى طائر يسبح فى أجواز الفضاء لقضى أياماً وليالى قبل أن يصل إليها ولو انقلب إلى إعصار يلهب بسوطه ظهور الرياح ويقتلع فى سيره الأشجار ويدحرج الجبال لاحتاج إلى ردح من الزمن

قبل أن يتنقل من أحياء ربيعة فى الجزيرة إلى دار برد بن طريح فى فارس .

وتذكر هذا الوحش الضارى فترتعد فرائصها فَرَقاً ويخيل إليها أنه رجع يكيل لها الضربات فتفزع إلى البرّاق وفرسان عشيرتها أجمع وتستغيث بهم وتناجيهم قائلة :

«ليت للبرّاق عيناً فترى	ما أقاسى من بلاء وَعنا
يا كليباً يا عقيلاً إخوتى	يا جنيداً أسعدونى بالبكا
عُذّبت أختكم يا ويلكم	بعذاب النكر صبحاً ومسا
غللونى قيلونى ضربوا	موضع العفة منى بالعصا
يكذب الأعجم ما يقربنى	ومعى بعض حشاشات الحيا
قيلونى غللونى وافعلوا	كل ما شئتم جميعاً من بَلا
فأنا كارهة بغيتكم	ويقين الموت شىء يرتجى
أتدلون علينا فارساً	يا بنى أنمار يا أهل الخنا
يا إياداً خسرت صفقتكم	ورمى المنظر من برد العمى
يا بنى الأعماص إمّا تقطعوا	لبنى عدنان أسباب الرجا
فاصطباراً وعزاءً حسناً	كل نصر بعد ضرّ يرتجى
أصبحت ليلى تغلّل كفها	مثل تغليل الملوك العظما
وتقيّد وتكبل جهرةً	وتطالب بقبيحات النبا
قل لعدنان فديتم شمّروا	لبنى الأعجام تشمير الوحى

واعقدوا الرايات فى أقطارها واشهروا البيض وسيروا فى الضحى
يا بنى تغلب سيروا وانصروا وذروا الغفلة منكم والكرى
واحذروا العار على أعقابكم وعليكم ما بقيتم فى الورى »

وكانت زوجة برد بن طريح قد عادت إلى ليلى لتهوّن عليها خطبها فسمعتها تنشد هذه الأبيات فرقّ قلبها لها وفعل فيها الأسى فعله وكادت تنشج وتنتحب فغالبت نفسها وعزمت أن تبذل ما تستطيع من معونة لهذه الفتاة العفيفة البائسة فنادت قينَةً لها عربية من بنات إياد وروت لها الشعر وأمرتها بأن تخفّ إلى جبير بن طريح أخى زوجها برد وتنشده الأبيات وتطلب إليه باسمها سرًّا أن يهرع إلى نجدة الفتاة بأية وسيلة من الوسائل .

فانطلقت القينَة مسرعة إلى أخى سيّدها وقصّت عليه كل ما شهدته من ضروب القسوة والغلظة وأنشدته الأبيات وكانت القينة قد مالت هى أيضاً إلى ليلى ورثت لحالها فأضافت إلى رجاء سيدتها إلحاحها على جبير بن طريح بأن يسرع فى إنقاذ هذه الشقية المسكينة قبل أن يعود أخوه برد إلى المنزل فيستأنف قسوته وغلظته .

سمع جبير هذه القصة الغريبة فنالت من فؤاده كل منال وأدرك بثاقب نظره أن الفتاة هى ليلى بنت لكيز فقد كان يعرف

أن أخاه خطبها منذ نحو عامين إلى أبيها فرجع خائباً وكان كذلك على صلة بكل ما جرى فى ربيعة من حوادث إلا خطف ليلى فسمعته القينة يقول لنفسه : قُبِّحتَ يا برد فما هذه أعمال الرجال الشرفاء ثم سمعته يقول لها :

— « عودى إلى مولاتك وقولى لها : إنى سأركب الصعب فى سبيل نجدة الأسيرة العربية ولو غضب أخى وساء ما لا » .

فانكبّت القينة على يديه تقبلهما وتدعو له بالعمر الطويل وتقول له :

— « حيّيت يا سيدى من رجل نبيل . . . هكذا تكون نخوة الرجال . . . هكذا تكون نخوة العرب . . . »

وعادت أدراجها تخبر سيدتها بتلك البشرى وترجو أن لا يكون سيدها برد قد عاد إلى الدار يذيق ليلى مرّ العذاب .

وأخذ جبير بن طريح بعد انصراف القينة يفكر فيما عساه يفعل حتى ينقذ ليلى من عذاب الجسم والروح فرأى أوّلاً أن يذهب إلى أخيه برد ويعنفه على فعله ويقنعه بأن يكفّ عن أذية فتاة بريئة ويحول دون ما قدّره لها . ولكنه ذكر ما اتّصف به أخوه من شراسة فى الخلق وغلظ فى الكبد وميل إلى الثأر والانتقام فعلم أن جهده ضائع فى حمل أخيه على غير ما انتوى فقال فى نفسه لأسعينّ إلى الأمير وألتمس منه أن يطلق سراح هذه

المسكينة وأن لا يلطّخ مجده بعار لا يمحى ولسوف أجرؤ على حديثه فى الأمير جوانب كريمة تشجّعنى على ذلك .

ومضى لوقته إلى قصر الملك وكان الأصيل قد بدأ يحول لونه ويتوارى مع غروب الشمس فاستأذن على الأمير فأذن له فدخل وحيّا وسلّم بالإمارة ورفع إليه ما عرف من شأن ليلى وما سمع . وأنشده الأبيات مترجمة إلى الفارسية فاستاء الأمير كل الاستياء من فعل برد ولامه لوماً شديداً وقال :

— « ما كنا لنزيد هذه الفتاة ألماً فوق آلام الغربة والوحشة . »

ثم أمر برئيس الشرطة وأنهى إليه أن يذهب إلى دار برد بن طريح ويدعو فتاة عربية فيها تسمى ليلى إلى أن تنزل عليه ضيفةً عزيزة كريمة فى دار خاصة وأن تجرى عليها المكارم حتى ينظر فى أمر عودتها إلى أهلها وديارها . فأثنى جبير بن طريح على الأمير الثناء المستطاب وشكر له أريحيته وفضله وصحب رئيس الشرطة إلى دار أخيه برد ليهدّئ من روع ليلى ويحيطها بالأمن والطمأنينة . . .

واتفق أن دخل الكاهن الأعظم على الأمير بعد ذلك فروى له قصة ليلى واستشاره فى أمرها فناجى الكاهن النجوم والكواكب وصلّى لها واستوحاها الهداية فى شأن الفتاة ثم قال للأمير :

— « تقول النجوم المقدسة : ستنكب بلادنا بالفتن الشديدة من أجل هذه الفتاة وستطأ العرب بلاد فارس وتكثر المواقع بيننا وبينهم ويكثر فيها القتل والنهب والسلب .وتقول النجوم المقدسة أيضًا : إن وجود هذه الفتاة على أرض فارس نعمة وبركة فالنصر على العرب محقق لنا ما دامت فينا . . . وقد تستخدمها فارس لتدرأ عنها أمراً ترى فيه خزياً وعاراً . . . »

فنزلت كلمات الكاهن على قلب الأمير برداً وسلاماً فأصدر أمره بالإمعان فى تكريم ليلى والحفاوة بها وشمولها بآيات التعظيم وبأن تتوفر على خدمتها الرجال والنساء ولكن أمر كذلك بأن يضرب حولها نطاق شديد من الحراسة فلا يزورها أحد ولا تزور أحداً . . .

٩

عاد لكيز إلى الجزيرة واجماً ساهماً تمزّق أحشاءه الأحزان ويعصف بقلبه الجزع على ابنته والعجز الذى حال بينه وبين إنقاذها ويلوم نفسه على أنه لم يفتدها بدمه فقد كان الأولى أن لا يذهب بها برد بن طريح إلا بعد أن يدوس على جثته فما انتفاعه بالحياة بعد اليوم مملوءة بالغمّ ملوّثة بالعار .

ولم ينفكّ طول الطريق تهجس به الهموم والخواطر السود لا يكلم غلمانه ولا يكلمونه إشفاقاً منهم عليه ورعاية لسكوته حتّى وصل إلى الجزيرة وذاع فى أنحائها خبر اختطاف ليلى فقابله القوم بعاطفة متضاربة فما زال فيهم أناس حانقون على لكيز فواتهم الفرصة للتعنيف والشماتة .

وتلقّى إخوة ليلى النبأ الأليم فأقامهم وأقعدهم وودّوا لو يعمدون إلى سلاحهم ويطيرون إلى ليلى وينقذونها من براثن الذل والسبي والعار ويسفكون فى سبيلها دماءهم حتّى آخر قطرة ولكن أنّى لثلاثة فتيان أن يحاربوا دولة برأسها فليس لهم إلا ابن عمّهم البرّاق يستصرخ القبائل وينهض بها إلى حرب الأعاجم والرجوع بليلى عزيزة نقية .

أجمع الفتيان الثلاثة على أن يذهبوا إلى البرّاق ويستفزّوا حميّته فهما بلغت إساءة أبيهم إليه فليلى ابنة عمّه وبنت قبيلته وشرفها من شرف القبيلة وهو رئيسها وزعيمها وحسب هذا سبباً يدعوه إلى أن يمشى إلى نجدتها وينفر ويستنفر العشائر إلى انتزاعها من هون الأسر وشقائه َبلْه َ ما يعرفونه فيه من نخوة وشجاعة وكرم نفس وحبّ لليلى متغلغل فى الضلوع .

ذهب الفتيان الثلاثة إليه فلقوه فى خبائه هائجاً هياج الأسد فسكّن جأشه ورحّب بهم وبادرهم قائلاً :

— « أمسكوا يا أبناء العم . إنى أعرف لماذا جئتم إلىّ . فوحقّ من روحى بيده لأبذلنّها رخيصة سمحة فى سبيل ليلى . أرسلت إخوتى منذ قدم عمى لكيز يستصرخون العشائر وسنشهرها حرباً شعواء على إياد والأعاجم حتى نعود بزين العذارى وغرّة القبيلة . »

فارتمى إخوة ليلى عليه يقبلونه ويشدّون على يديه شاكرين يكاد الدمع يطفر من أعينهم ويكاد جميل البرّاق يحبس ألسنتهم عن الكلام والاستفاضة فى الشكر الجزيل .

وكانت أمّ الأغرّ فى تلك الساعة توغر صدر أخيها كليب وتغريه بتأليب القبائل والسير فيهم تحت راية البرّاق إلى بلاد

الخونة اللئام ليعودوا بالحبيبة الغالية . وكان كليب يسمع كلامها صامتاً ويقدح زناد فكره فيمن يستصرخ وعلى من يعتمد في تلك الحرب الضروس فاستفزّها صمته وحسبته في المتقاعسين الخاذلين فأغلظت له القول وقرّعته منشدة :

«أراك عن الأمر المشتّت غافلا كأنك ناجٍ من خزاياه سالمُ
فإن امرءاً عن مثل هاتيك غافل فليس تراه في العلى وهو قائمُ
فسيروا لليلى أو رميتم بعارها لقد رسخت في عار ليلى الأراقمُ»

فقال كليب :

— «كفّي يا أختاه عن التقريع فوحقّ مناة لو كان لي ألف روح لما بخلت بواحدة منها فداء ليلى وإنما كنت أراجع النفس في الأهبة التي نتخذها في هذا الخطب الجلل .»

فقالت أمّ الأغرّ :

— «اجمع إخوتك وسيروا إلى البرّاق وانظروا معه ما أنتم فاعلون .» فقال كليب .

— «هو ذاك يا أمّ الأغرّ .»

وعرّج كليب على أخبية إخوته فذهب بهم إلى البرّاق فالتقوا بإخوة ليلى عنده فواسوهم ووعدوهم بالنصرة والعون . وحدّثوا البرّاق في ذلك فقال :

— « وهل يداخلك الشك فى هذا يا كليب والله لننقذنّ ليلى من أشداق الوحوش وأظفار الذئاب . . . »

وقطع عليه الكلام رجوع إخوته فجزع لما رأى علامات الأسى بادية فى أعينهم فبادرهم قائلاً :

— « ما وراءكم أيها الأحباب . إنى لأرى الكآبة وشّحتكم بخمارها الأسود . » فقال كبيرهم :

— « خذلنا معظم قبائل ربيعة فلا مُضَر ولا بكر ولا جميع بُطونهما رضيت أن تهبّ للقتال فأرسلنا نستنفر قضاعة وطى وسدوس ومن إليها فما أجابنا أحد أفيخوضها بنو تغلب وحدهم . »

فقال البرّاق :

— « أجل . أليسوا الأراقم . على أن بنى أسد ستمشى معنا فهيّا بنا يا إخوتى وأحبابى نعدّ لها الخيل الجياد والبيض الحداد والسُّمْر الصِّعاد . »

وسار البرّاق إلى فارس فى بنى تغلب وبنى أسد وهو ينشد :

« أمن دون ليلى عوّقتنا العوائقُ جنود وقفر ترتعيه النفانقُ
وعجمٌ وأعرابٌ وأرضٌ سحيقةٌ وحصنٌ ودورٌ دونها ومغالق
أليلى استطالت ليلتى قبل هذه وقدبات دمعى وهوفى الحدادق

أليلى وأنت القصد قد غالك النوى ... وفعل لئيم يا ابنة العم سابق
فلا بد من عنف وزحف ومحنة ... وأفلح إنسانٌ من الجهد زالق
فمن مبلغ برداً الإيادى وقومه ... بأنى بثارى لا محالة لاحق
ستسعدنى البيض الصوارم والقنا ... وتحملنى القبّ العتاق السوابق
رمى الله من يرمى الكعاب بريبة ... ومن هو بالفحشاء والمكر ناطق »

وما زال سائراً بعسكره وقوّاده آناء الليل وأطراف النهار يطوفون بالدساكر والقرى والقفار والسهول ويصعدون فى الجبال ويهبطون الأودية حتى بلغوا أول حدود فارس عند مدينة « كرخاء » فنادى بالوقوف والاستجمام استعداداً لخوض المعركة فى الفجر المقبل فضُربت الخيام وأبركت الرواحل وأطلقت الخيول وقضى القوم سحابة يومهم يشحذون السيوف ويقوّمون الرماح والأسنّة ويعدّون عدّة القتال والنزال .

وعند انبلاج الفجر انقضّوا على المدينة وأعملوا سلاحهم فى عسكرها فأبادوا المقاتلين وأسروا الهاربين واستولوا على ما وقع فى أيديهم من غنائم وباتوا ليلتهم نشاوى بخمر النصر تكاد قلوبهم تقفز من صدورهم وثباً إلى عاصمة فارس ليخوضوا فيها غمرات القتال إلى ليلى فينقذوها ويعودوا فائزين .

وتفاءل البرّاق من عاقبة المعركة الأولى وما أصابوه فيها

من نصر مبين فلما أوى إلى مضجعه فى مساء ذلك اليوم يأخذ لنفسه فيه نصيباً من الراحة قبل استئناف السير فى صباح اليوم التالى لم يستسلم إلى النوم بل استسلم إلى الخيال يضرب فى بواديه ومفاوزه وينتقل به الفكر إلى ليلى يستشفّ من وراء حُجُب الغيب كيف هى وأنّى تكون وكيف ينقضّ على حرّاسها جميعاً ويذبحهم ذبح النعاج ويعود بليلى طاهرة الذيل باسمة الثغر وضّاحة الجبين .

ولمّا طَلَع الصبح جمع فرسانه واستأنفوا الغارات فما دخلوا قرية إلا دمّروها بعد قتال أو حقنوا دماء أهلها وحرّاسها إذا أعرضت عن قتالهم وسلّمت لهم ما فيها من أموال ونجائب وسلاح .

ولازمهم النصر حتى بلغوا عاصمة فارس فخيّموا على مقربة منها وبقوا على ذلك عدّة أيام يجمعون جموعهم وينظمون صفوفهم ويستعدّون لليوم العظيم الذى يدخلون فيه المدينة ويذيقون الفرس ضروب النكال .

وحان اليوم الموعود فلبسوا السلاح وتجهّزوا للموقعة الفاصلة وطاف البرّاق بإخوانه المحاربين ينفخ فيهم روح العزم ويشدّد قواهم ويثير حفائظهم ويمنّيهم بالأسلاب والكنوز فإذا هم يضارعونه عزماً وهمّة وشوقاً إلى النزال والجلاد .

وطاف البرّاق طوفته الأخيرة فملأ عينيه وأذنيه وقلبه بما رأى

وسمع من تحفُّز الفرسان وصهيل الخيل وقعقعة السلاح فنادى فيهم :

— « يا بنى تغلب الشجعان . يا بنى أسد المغاوير . شدّوا على العدو شدّة الرجل الواحد ولا تأخذنّكم فيه رحمة ولا هوادة وروّوا أسنّتكم ونصال سيوفكم من دمائه ليعرف أن العرب لا يستنيمون إلى الضيم ولا تُغمز لهم قناة . . . »

فدوّت أصواتهم تشقّ عنان السماء صائحين :

— « لبّيك يا برّاق . لبّيك يا برّاق . »

وسالت بهم الأودية والبطاح وفى طليعتهم البرّاق لابساً لأْمته الكاملة ومجرّداً سيفه بيمينه قافزة به مهرته قفزات ترعب الأسود .

وما كادوا يقتربون من مدخل العاصمة حتّى فوجئوا بما لم يكن فى الحسبان فقد انهالت عليهم النبال والحجارة من رماة متدارين وراء الأسوار والقلاع فقتلت منهم عدداً كبيراً وأشاعت الفوضى والاضطراب فى صفوفهم ومزّقتهم شرّ ممزّق فما كان لهم عهد بهذا الضّرْب من القتال فنالت الفجاءة منهم منالها واستتمّت لهم الهزيمة عندما خرج جيش فارس إليهم ما بين رجّالة وفرسان وراكبى الفيَلة وساقة المجانيق تنبعث منها الحجارة كالمطر المدرار فقتّل من العرب مَنْ قُتِل وأُسِر مَنْ أُسِر ولاذ بالفرار من لاذ .

وأبلى البرّاق فى تلك المعركة بلاءً حسناً ولكنه أيقن أن لا قِبَلَ لهم بالغَلَبة على أولئك المَرَدة فى عديدهم وعُدَدهم فلمّ فلول رجاله ونأى بهم بعيداً عن مرمى النبال والحجارة وعقد هو ورؤساء الألوية اجتماعاً تداولوا فيه الرأى فقرّروا أن يتفرّقوا فى قنن الجبال ويعتصموا بها ويشنّوا على العدو غارات مفاجئة وأن يستدرجوه إليهم كتيبة كتيبة فلو واجههم مجتمعين لقضى عليهم لا محالة .

فأوعز البرّاق إلى كل رئيس لواء أن يتوارى ورجاله وراء هضبة عيّنها له وأن يتّخذوها معقلاً يحتمون به ويقتنصون منه جنود العدو فرداً فرداً أو جماعة جماعة فإن معاقل الجبال تجنّبهم هجمات الفيلة وحمم المجانيق . فأمّنوا على كلامه وهمّوا بالتفرّق إلى معاصمهم فاستوقفهم لكيز وقال :

— « قفوا قليلاً يا أبنائى فصدرى يعتلج بكلمة يريد أن يفصح عنها اللسان . »

فتطلعوا كلهم إليه صامتين ذاهلين كأنّ على رؤوسهم الطير فاستأنف لكيز حديثه قائلاً :

— « اسمحوا لى وأنا أكبركم سنًّا . . . » فقاطعه البرّاق وقال :

— « ومقاماً وجلالاً يا سيد العشيرة . » فقال لكيز :

— « حيّيت أيها البطل النبيل . . . إنك تدعونى بسيد العشيرة فى حين أنك أنت سيدها وحامى ذمارها فقد سوّدَتْك عليها وألقت إليك مقاليدها فرعايتك إياى إنما هى بدوات ما تنطوى عليه جوانحك من نبالة ومكرمات . » فقال البرّاق :

— « أنت يا عمّاه فخرنا وملاذنا فهيهات تنسى العشيرة مأثراتك وجميل فعالك . » فقال لكيز :

— « دعنا من الحديث عن الماضى ولنأخذ بيومنا الحاضر وغدنا المقبل . . . قلت إنى أكبركم سناً فباسم الحضّر والغيّاب أرجو منك يا ولدى أن تصفح عنى فيما أسلفت إليك . . . »

فحال البرّاق بينه وبين تتمة الكلام وقال :

— « عفواً يا عمّاه فأنت فوق مبسوط العذر . » فقال لكيز :

— « كلاّ يا ولدى . . . إن ضميرى يخزنى وخزات الإبر فقد كنتُ سبباً فى شقاء ليلى وسَبْيِها وتعريضها للنوازل الدُّهْم وكنت سبباً فى تمزيق نياط قلبك وإن أخفيتَ ذلك عن أعين الناس وانطويت به على نفسك كبراً واستعلاءً . . . » فعاد البرّاق إلى مقاطعته وهو يقول :

— « حاشاى أن أستكبر عليك يا عمّاه وإنك لم تفعل إلا ما أيقنت أنه الخير . . . » فقال لكيز :

— « هو ذاك يا ولدى . . . فقد اعتقدت أنى أسعد ابنتى

وعشيرتى فضلاً عن أن خور العزم وخلّةالحياء ألجما لسانى فما استطعت أن أقول:لا. لأميراليمن عمرو بن ذىصهبان . »

فبادر كليب يقول :

— « وفيمَ هذا كله يا سيد لكيز وعلامَ تنبش أجداث الماضى فما فينا إلا لك راحم وعذير . . . » فقال لكيز :

— « شكراً لك يا كليب . . . إن صدرى يرزح تحت أثقال الهموم فخلّونى أنفّس عنى لعلى أنجو من تبكيت الضمير . . . »

والتفت ثانية إلى البرّاق وقال :

— « وكنتُ سبباً كذلك فى موت أخيك الظليل يوم عدت من البحرين وتجاهلت إساءتى وكرَرْتَ على قضاعة وطى تحمى الحمى وترد غارات الخصوم وتنقذ الرهائن وكانت ليلى فى السبايا. ولكن شاء سوء الطالع أن يسقط أخوك الظليل فى ميدان الشرف وهو يحارب معك ومع إخوتك جنباً إلى جنب ... »

وسكت لكيز قليلاً يتنفس ويستجمع قواه وأطرق البرّاق حزيناً كئيباً فاستأنف لكيز الكلام وقال :

— « وشاء كذلك سوء الطالع اليوم أن تفقد أخاك غرسان فيمن فقدنامن رجال فقد صُرع هو أيضاً فى ساحة المجد مدافعاً عن شرف ليلى وشرف العشيرة . . . » فقال البرّاق :

— « واحرّ قلباه على غرسان . . . لقد نكأ موته جراح قلبي كلها . . . » فتابع الكيز كلامه وقال :

— « لقد كنتُ السبب في هذه النكبات وما أنتجته من آلام وأحزان وقطيعة وهذه الحرب التي أخوضها معكم جميعاً كنت أنا أيضاً السبب فيها ففي عنقي دماء القتلى من أبناء العشيرة فالدية فيهم فادحة والكفّارة عنهم ثقيلة ولست أقوى على شيء من هذه ولا من تلك سوى أن أتقدّم الصفوف وقد فعلت وأكفّر بسفك دمي عن ذنوبي وآثامي . . . »

فسُمع في الحضور نشيج خافت انبعث في صدور أبنائه الثلاثة الذين كانوا يستمعون إليه حابسين زفراتهم في صدورهم حتى فاضت وانطلقت فنظر الكيز إليهم نظرة كلها عطف وحنان وقال :

— « لا تبكوا يا أبنائي فما خلق الدمع للرجال . . . »

ولم يستطع أن يتمّ كلامه فقد غلبته الدمعة المحبوسة فبكى هو أيضاً . ثم كفكف عبراته وخاطب البرّاق قائلاً :

— « سأرتخص نفسي وأبيعها ببيع السماح كفّارةً وقرباناً فإذا أدركني الموت فوصيتي إليك يا برّاق :

أن تصفح عني وتستصفح كل من أسأت إليه غير عامد .

أن تأخذ كل ما أملك من سلاح وإبل وجياد ومعزى

وتوزعه على أُسَر العشيرة المفجوعة بأبنائها فى هذه الحرب .

أن . . . »

وتوقف قليلاً قبل أن يعرب عن الأمر الثالث الذى يوصى به ولكنه تمالك نفسه وقال :

— « أن تتزوج ليلى فقد زوَّجتُكها وهؤلاءالحضور شهود علىّ ولسوف تختلج روحى سعيدة مغتبطة وأنا تحت التراب بهذا الزواج . . . »

تضاربت العواطف فى صدر البرّاق لدى سماعه هذه البشرى فكان نهباً مقسمّا بين سعادة طارئة ولكنها معلقة بأذيال الأوهام والأحلام وبين حزن على أخيه غرسان وعلى القتلى من بنى قومه وبين يأس قاتل يفتّ فى عَضُده فدون ليلى جيوش ووحوش . فبقى مفكراً ساهماً فحمل لكيز سكوته على غير محمله وقال :

— « لست أدرى يا ابن أخى أغيَّرت الحوادث والأيام قلبك وعاطفتك أم لا . فإن كنت لا تزال على حبِّك لليلى وشغفك بها فإنه يسعدنى ويسعدها ويسعد إخوتها وعشيرتها جمعاء أن تكون لك وأن تكون لها . . . »

فسارع البرّاق إلى عمِّه لكيز يتبادل وإياه القبلات وتوالى عليه الحضور يقبّلونه ويهنّئونه كأنما البشرى قد نفخت فيه

روحاً جديدة وعزماً جديداً فأقبل على عمه لكيز يقول :

— « نعمت البشرى يا عماه تزفها إلى ونعمت هذه الرعاية تغمرني بها فعش ممتعاً بالحياة لتراني وليلى زوجين هانئين فوحق من وهب لي الحياة لأخوضن إلى ليلى بحراً من الدماء واللهب وأغيالاً من السيوف والقنا وسواء عشت أم غالني الردى فحسبي أن تنعم روحي برجوع ليلى إلى الديار مصونة عزيزة . »

ثم وجه الكلام إلى رؤساء الألوية فقال :

— « هيا أيها الأحباب والإخوان إلى أمكنتكم من الجبال والمعاقل وابقوا فيها ولو أياماً وأشهراً حتى ترد لكم أنبائي وتهيأ لنا أسباب النصر . فإذا تعقبكم جيش فارس فأذيقوه الوبال من حيث لا يراكم وإن طغى عليكم برجاله وعتاده فأخلوا له الأرض وانسحبوا بغنائمكم إلى أوائل حدوده فلا بد أن ننتصر عليه ولو بعد حين فالنصر حليف الحق والقوة والعزة والشرف . » فقال كليب :

— « وماذا أنت فاعل يا براق . » فقال البراق :

— « سأعود إلى ساحة القتال وأغافل العسس والجند فأتزود من أخي غرسان الممدد في العراء بالنظرة الأخيرة . » فقال أخواه :

— « نذهب معك . » فقال البراق :

— « ما كنت لأحرمكما هذا الوداع غير أن جلبة جياد ثلاثة وصليل سلاحنا معاً سيلفت إلينا الأسماع والأبصار . . . فسيروا جميعاً على بركة الهدى وليجمع كلٌّ رجاله وليتوغّل بهم حيث أشرت متجنّبين مزالق الهلاك وسألحق بكم طال الزمن أم قصر . . . »

ولم ينتظر البرّاق حتّى يسمع الجواب بل قفز إلى صهوة مهرته ونزل بها راجعاً إلى ساحة المعترك سالكاً إليها ملتوى الدروب التى تخفيه عن الأنظار . وكان فى أثناء سيره تطرق مسمعه أصداء سنابك الخيول الضاربة فى مناكب الجبال وأصداء أصوات الفرسان تتنادى وتتداعى فعلم أن قومه يتحركون إلى مواقعهم الجديدة حتّى إذا ابتعد فى مسيره تلاشت الأصداء فقدّر أنهم بلغوا مكامنهم الأمينة .

ولم يفتأ البرّاق وهو راجع إلى أخيه القتيل يفكّر فى هذا الجيش الفارسى الذى فاجأهم بخيله ورَجْله وفيلته وآلاته فأضاع عليهم فرصة الانقضاض على العاصمة وإنقاذ ليلى من مخالب برد بن طريح أو من أنياب أمير فارس . ولقد كان وثق بالنصر كل الوثوق لمّا عرف من أهل « الكرخاء » وهى أول مدينة فارسية دخلوها واستولوا عليها أن جيش فارس كله مشغول بقتال الهياطلة يتلقى منهم الضربات القاسية والهزائم المنكرة . ولكن فات البرّاق

أن يعرف بعد ذلك أن الفرس والهياطلة قد استتبّ بينهم الصلح والسلام على جزية يؤدّيها الفرس كل عام وعلى شروط أخرى وعدوا بتحقيقها عن يدٍ صاغرين وأن الملك رجع إلى عاصمته ذليلاً منكسراً يحرق الأرّم غيظاً فعندما علم بغارة العرب ظن الروم وحلفاءهم الغساسنة قد تألبوا عليه وهاجموا بلاده فأمر أن يخرج الجيش برمّته إلى لقائهم والتنكيل بهم ليعوّض عن الهزائم التي مُني بها في أرض الهياطلة . فلمّا عرف أنها غارة بعض البدو الرحّل من العرب وأنهم أدّبوا شرّ تأديب أمر بالجيش فعاد إلى قواعده .

لم يعلم البرّاق وأنّى له أن يعلم بكل هذا فلو أحاط به لما دهش عند وصوله إلى ساحة المعركة حذراً مترقباً من أن يراها قاعاً صفصفاً إلا من جثث القتلى وأشلائهم لا جند فيها ولا عتاد فحدّث نفسه قائلاً : أية مفاجأة جديدة يعدّها هؤلاء الزّبانية . . .

١٠

غادر برد بن طريح منزله بعد أن لقى من عناد ليلى ما لقى فأخذ يطوف بأزقة المدينة زائغ البصر لا تقع عينه إلا على أشباح وصور ولا يدرى ماذا يكون موقفه من الأمير إذا أبتْ ليلى أن تسير إليه راضية مستسلمة .

وشرع وهو سائر على غير هدى يفكر فى وسيلة يتخذها أو حيلة يستنبطها ليدرك بها من ليلى ثأره ومن الأمير عطفه ورضاه فما فتح عليه التفكير بشىء يرتاح له ويطمئنّ إليه. وذهبت به مطارح الفكر إلى استعمال القسوة ثانيةً وتصفيد أسيرته بالأغلال وإعمال السياط فيها ولكنه راجع نفسه وعرف أن القسوة لن تنيله مأربه ولعلها تقضى عليها وتزهق روحها فالموت لا يخيف فتاة مثل ليلى وربما آثرت الموت فراراً مما أعدّه لها من انتقام شنيع فمن خطل الرأى أن يمهّد لها سبيل الموت فتخلع ثوب الحياة وهى نقيه الإزار مصونة العفاف .

وظل يطيل التدبر فلا يجد ثغرة ينفذ منها إلى رأى صائب حتى أدركه المساء وحان موعد وفائه بعهد الأمير فقرّ قراره أن يعود إلى ليلى لعل معاودة الحديث معها يفتح له مغلق الآراء . . .

واستدار على عقبيه وعاد يذرع الأزقّة بخطوات واسعة راجعاً إلى داره فدخلها وتوجّه توّاً إلى ليلى فرآها على الحال التى تركها عليها فصاح ينادى زوجته بصوت زلزلت له أركان الدار فهرعت إليه فقال لها وهو يشير إلى ليلى :

— « لماذا أبطأت فى تزيينها وتجميلها وإلباسها فاخر الحلىّ والثياب . » فقالت زوجته مضطربة :

— « لقد . . . »

وقُرع الباب فى تلك اللحظة فخفّت تفتحه ناجيةً من الجواب متوقعة أن يكون الفرج على يد هذا القادم إليهم فقد كانت القينة أخبرتها أن أخا زوجها بلغ منه مصاب ليلى مبلغه فوعد بركوب كل صعب فى سبيلها .

ولشدّ ما خفق فؤادها فرحاً ولمعت عيناها طرباً حين رأت أخا زوجها ورئيس الشرطة يدخلان الدار ويطالعانها بالتحية فرحّبت بهما فى غبطة ظاهرة وخرج إليهما زوجها برد بادى الدهشة من زورة أخيه مصحوباً برئيس الشرطة أو من مجىء رئيس الشرطة مصحوباً بأخيه وحاول فكره أن يتكشّف الدواعى والأسباب فما عثر على سبب يهدّئ ثائرة أعصابه فتصنّع السرور بتلك الزورة وشارك زوجته فى الحفاوة بهما والترحاب ثم قال :

— « أهلاً برئيس شرطتنا الباسل وبأخى جبير . إن مقدمكما معاً يغمرنى بالفرحة الشاملة وإن يكن يثير فى نفسى الفضول . لعلكما تقابلتما عند الباب . » فقال رئيس الشرطة :

— « كلاّ يا سيدى برد . إننا جئنا معاً من قصر الملك وأمرنا مولانا الأمير بلاش أن نصطحب فتاة عندك تسمّى ليلى . »

فظنّ برد أن الأمير استبطأ ليلى فأرسل يطلبها فماذا تكون الحال لو أبت أن تسير إليه . أيحملها رئيس الشرطة إلى القصر عنوةً وقسراً فماذا يكون شأنه هو والأمير بعد إذ زعم له أن ليلى ستأتيه طيّعة راضية . ولكن ما شأن أخيه والمسألة. نعم إنه لذو مكانة أثيرة عند الأمير غير أنه ليس من جلسائه فى اللهو والأنس ولا ممن يعدّون له مجالس العبث والشراب فلا بدّ أن يكون وراء ذلك سرّ من الأسرار . فقال يجيب رئيس الشرطة :

— « كنت عازماً أن أصحبها الساعة إلى قصر مولانا . . . »

وأحبّ برد أن ينفض يده من إبائها لو أبت فلا يظهر لدى الأمير فى مظهر الكاذب المنافق فقال :

— « ولكننى أخشى أن يرهبها زيُّك العسكرى يا سيدى فترفض الإذعان لأمر مولانا الأمير فى حين أعلم أنه ينتظرها فى القصر . » فقال أخوه جبير :

— « إن مولانا الأمير لا ينتظرها فلن تنزل فى عداد جواريه

وإماثه وإنما أمر أن تخصص بها دار أنيقة تجرى عليها المكارم فيها حتى يبتّ فى أمر عودتها إلى أهلها وديارها فالبزّة العسكرية لن تخيفها بل ستضمن لها الطمأنينة والإجلال . »

فنظر برد إلى أخيه نظرة تتقد بالشرر وأمسك عن أن يغلظ له القول فى وجود رئيس الشرطة فضلاً عن أنه أخوه الأكبر وأنه قد يكون بريئاً مما أحاطه به من ريبة ومظنة . وعلل نفسه بأن ترفض ليلى الامتثال لرغبة الأمير فيستطيع غداً أن يتبين علة إخفاق مسعاه ويعرف من كال له هذه الضربة القاصمة ويعاود إغراء الأمير بليلى فلا تفلت الفريسة .

وسرعان ما اضمحلت آماله عندما رأى ليلى تندفع من حجرتها إلى حيث كان رئيس الشرطة ومَنْ حوله وتقول له :

— « إنى رهن إشارتك يا سيدى وطوع أمر الأمير فقد سمعت حديثكم وعرفت أنك جئت تصحبنى إلى دار أنيقة تفضّل أميركم فخصصها بى ريثما ينظر فى عودتى إلى أهلى ودياري فخذنى معك وارفع جميل شكرى للأمير وقل له إن ليلى بنت لكيز لن تنسى له هذه اليد البيضاء ما عاشت . »

فانحنى رئيس الشرطة إجلالاً لها ومضى بها ينزلها فى بيت الضيافة على مرأى من برد الذاهل وجبير المغتبط وزوجة برد وقينتها وقد كادتا تطيران من الفرح ثم أسرعتا فى التوارى لتتجنبا

غضب ربّ الدار .

وكان برد يغلي صدره غليان المِرْجل ولكنه كان كاظماً غيظه ضابطاً أعصابه يجتهد في أن لا تبدر منه بادرة تسيء إلى رئيس الشرطة فينقلها إلى الأمير مكبّرة مضخّمة فتعود عليه بالخسار والوبال . وما عتّم أن رأى رئيس الشرطة قد خرج بالوديعة وأغلق باب الدار وراءه حتى انفجر المِرْجل الذي يغلي في صدره وصاح في أخيه متناسياً ما لأخيه عليه من حرمة وإجلال وقال :

— « ما معنى هذا يا جبير . أتكون عوناً لرئيس الشرطة عليّ . أتقف حجر عثرة في سبيلي . أتهدم بيدك في لحظة ما فكرت فيه عاماً كاملا وبنيته في أشهر طوال » . فقال جبير متئداً رزيناً :

— « هوّن عليك يا برد فما كنتُ عوناً لرئيس الشرطة عليك فإنما صحبته إلى دارك لأرقب كيف ينفّذ أمر الأمير ولأدخل على قلب الأسيرة الرضى والاطمئنان . » فقال برد مُحنَقاً :

— « وما شأنك أنت والأسيرة . أأنت الذي اختطفتها أم أنا . أأنت الذي وعد بها الأمير أم أنا . » فقال جبير في لهجة خطيرة :

— « ما كنت أنا لأرتكب مثل هذه الحماقة والسفالة . علمتُ بما فعلتَ فأردت أن أنقذك من التردّى فى مهاوى الخسّة والنذالة فرجوت الأمير أن يرعى هذه الأسيرة ويجنّبها الزلل ويعيدها إلى أهلها وديارها ليكسب فيها الذكر الطيّب وحسن الأحدوثة . . . » فصرخ برد فى وجهه وقال :

— « إذن أنت الذى عرقلت مساعىّ . أنت أخى الأكبر تطعننى فى الصميم وتضربنى من وراء ستار . وتحقّرنى لدى الأمير . ولكن أنا أعرف كيف أغريه بها وكيف أثنيه عن كرامته . » فقال جبير :

— « لئن طعنتك طعنة مضمونة الشفاء لقد نجّيتك من طعنات الضمير فهذه لا شفاء منها . أيعميك الحقد حتى ينسيك دمك العربى والنخوة العربية . أليست ليلى بنت لكيز . أليس ربيعة أخاً لإياد فإن كنا وجدنا أسباب الرزق هيّنة سمحة فى بلاد فارس أفننسى أرومتنا العربية فنكيد لأبناء العرب وبناتهم ونعرّضهم للخطر والمذلة . » فقال برد :

— « البادى أظلم . أكأنك تناسيت احتقار لكيز إياى يوم خطبت إليه ابنته ليلى فردّنى خائباً . » فقال جبير :

— « وماذا عليه من حرج . أليس الآباء أحراراً فى اختيار أصهارهم . أليس من عادات العرب أن يشاور الآباء بناتهم

إذا ماتقدّم لهن ّ الخطاب فـهـبه ُ شاورها فمارضيت بك عروساً » .
فقال برد :

— « هذا ما حدث . ولذلك اتخذتها هدفاً لثأرى وانتقامى فقد آثرتْ علىّ يومذاك ابن عمها البرّاق . » فقال جبير :

— « وهل يليق بالرجال أن ينتقموا من النساء . إن كنت ذا تِـرَة فاشفها من البرّاق نفسه فى نزال شريف . » فقال برد :

— « وبيت النار لأقطعنه إرْباً إرْباً لو رأيته فى يوم من الأيام . » فقال جبير :

— « أتحلف ببيت النار وتعرض عن اللات والعزّى . »
فقال برد :

— « الناس على دين ملوكهم . » فقال جبير :

— « دَعْك يا برد من حزازات الصدور وعدْ إلى سجاياك العربية فنحن العرب طلاّب ثارات ولكن فى غير النقائص والدنايا ولا تحاول أن تتخلّق بغير أخلاقك فما أنت من يجحد المروءة وينكر الإباء . » فقال برد :

— « وما أنا من ينام على الضيم . » فقال جبير وقد نهض يهمّ بالانصراف :

— « نَعِمْتَ مساءً يا برد . نم هادئاً ساكناً فالليل مجلبة

لصواب الرأى وهدوء البال . »

ومضى تاركاً أخاه يتقلّب على أحرّ من جمر الغضى وتتنازعه عوامل الخير والشر .

وكانت ليلى فى تلك الساعة قد نزلت بدار الضيافة فبادر إليها العبيد والإماء يبالغون فى إكرامها ويتوفّرون على خدمتها وقضاء حاجاتها فلا تكاد تفكر فى أمر وتفتح شفتيها معربةً عنه حتى تراه قد قُضى لها على أسرع وجه وأكمله .

كانت هذه الرعاية البالغة حقيقة أن تُدخل على نفسها بواعث الاطمئنان ولكنها كانت من أمرها فى حيرة وتساؤل . فما معنى هذا التحول من الرغبة فيها إلى الرغبة عنها ومن أن تُسلك فى نظام الإماء والحظيات إلى أن تُفرد لها الدار الجميلة متوافرةً فيها كل أسباب الدعة والعيش الخفيض . أترى الأمير كان أحذق وأذكى وأعلم باكتساب قلوب النساء فاستهلّ معرفته بها هذا الاستهلال البارع ليصل منه إلى غرضه الخفىّ . أتراها أخطأت فى فهم الكلام الذى سمعته من رئيس الشرطة عندما كان يحدث برداً وأخاه . نعم إنه كان يتكلم بعربية تخالطها لوثة الأعجمى ولكنه أفصح بها عن رغبة الأمير فى نقلها إلى دار للضيافة ريثما يدبّر أمر عودتها إلى أهلها وديارها . وهذا هو الذى حملها على أن تبرز لرئيس الشرطة وتبدى له خضوعها

وطاعتها لما أشار به الأمير . بل إنها وازنت بين بقائها فى دار برد عرضة للقسوة والغلظة وبين أن تكون تحت رحمة الأمير ومجهول أهوائه فآثرت الثانية آملةً أن تلمس من قلبه وتر الشفقة فيقضى على ما تعانيه من أسقام وآلام .

ومرّت على ليلى فى دار الضيافة فترة من الزمن كادت روحها فيها تبلغ التراقى وكادت تُجنّ مما يحيط بها من ألغاز وأسرار . فمن كرم ورعاية فضفاضة الحواشى والذيول إلى حراسة عليها ضيّقة الخناق فما كان يسمح لها بالخروج من الدار ولا كان يزورها فيها إلا الكاهن الأكبر وإلا امرأة عربية تسمّى الرقشاء زوجة وزير من وزراء الملك يدعى صريم الإيادى .

وثقت ليلى فى إقامتها بتلك الدار أن الأمير لا يريد بها شرًّا فما بدر منه فى زوراته إياها مايدل على شىء من نيّاته السيئة فعلامَ إذن يحبسها فى ذلك القفص الجميل . سؤال ما وجدت له جواباً قط ولا أجابها عنه الأمير ولا استطاعت الرقشاء أن تجيبها عنه على أنها زوجة وزير وصديقة طيبة القلب مشفقة عليها راثية لحالها .

وكانت الرقشاء قد بلغتها قصة ليلى فثارت فيها عوامل الرأفة والشفقة بإحدى بنات جنسها فما زالت تجدّ وتسعى وتساعدها منزلتها فى الدولة حتّى سمح لها بأن تزور الأسيرة كلما شاءت .

فأجفلت ليلى منها فى بدء الأمر ثم رأت فيها الجليس الأنيس فأفضت إليها بمكنون صدرها وطلبت إليها أن تعاونها على النجاة من أسرها والسماح لها بالعودة إلى دارها فعجزت الرقشاء وعجز زوجها عن تحقيق ذلك الرجاء وبقيت ليلى رهينة أمير فارس لا يعرف سرّ رهنها إلا الأمير والكاهن الأكبر .

وكان الكاهن الأكبر يزورها الفينة بعد الفينة فهو الرجل الأول فى المملكة تفتح له الأبواب الموصدة ولا يجرؤ أحد أن يعارضه فى أمر ولا أن يوجه إليه سؤالاً . وكان يوهم الأمير أن زيارته لليلى فرض واجب ليعرف ما تقوله فيها الكواكب والنجوم .

ولما زار ليلى لأول مرة ارتاحت لزورته وطمعت بأن تظفر بالفرج على يديه ولكن شدّ ما خاب أملها فيه عندما بدا لها فى زوراته الأخيرة شرّ يراً أثيما يخفى تحت مسوح الكاهن روحاً خبيثة فقد أخذ يراودها عن نفسها ويمنّيها بالأمانى الكبار وبريق الشهوة يلتمع فى عينيه .

وبينا هى فى خِدرها ذات صباح إذ ارتعدت فرائصها ذعراً لما رأت الكاهن الأكبر يفتح عليها باب الخِدْر ويدخل منه ويبتدرها بالتحية قائلاً :

— « عِمى صباحاً يا ليلى . »

فهُرعت ليلى إلى مِئْزر تلفّحت به وقالت وهى ترتجف :

— « عِمْ صباحاً يا سيدى الكاهن . » فقال متودداً :

— « ما بالك يا ليلى تنفرين منى وتضطربين من لقائى وأنا لا أحمل لك فى قلبى إلا المودة والحب . » فقالت وقد سكن جأشها للهجته المتوددة :

— « وأنا أكنّ لك يا سيدى الكاهن كل تجلة غير أنى أصبحت بَرِمةً بالحياة يائسةً منها فعلام تحبسوننى لديكم . هلاّ أفرجتم عنى وأطلقتم سراحى . » فقال :

— « هلاّ رحمتِ هذا القلب المعذّب الذى نزلت منه فى الصميم فأصبح لا ينبض إلا بذكرك ولا يخفق إلا بحبك . »

فسكتت ليلى ولم تجب فلمع بريق الأمل فى عينى الكاهن الأكبر وقال :

— « كلمة منى تحلّ لك الموثَق وتفتح المغْلَق وتطير بك فوق أجنحة الهناءة والسعادة . » وبقيت ليلى ملتزمة الصمت فقال يزيد فى إغرائه :

— « إذا أجبت نداء فؤادى غمرتك بسعادة لا تحلمين بها فى مقدورى أن أزوّجك من أمير فارس فتصبحى الملكة يوم يتسنّم العرش . » فقالت له فى ازدراء واحتقار :

— « تريدنى أن أكون حليلة الأمير وخليلة الكاهن الأكبر .

أى شيطان رجيم أنت أيها الرجل . » فقال :

ــ « إن النجوم والكواكب هى التى عقدت فى قلبى حبك وغرامك وهى التى قادتك إلىّ وقادتنى إليك. ومن يدرى فلعلّ لها غاية تريد أن تحققها من هذا الحب الذى أوقدت لظاه فى فؤادى . إنى أجهل اليوم تلك الغاية وربما أوحت إلىّ بها فى مستقبل الأيام فبدل أن تعدّى نفسك سعيدة بإيثار الكواكب إياك ونعمتها عليك بأن جعلتك حبيبة الكاهن الأكبر أراك تتدللين وتتمنّعين . فكّرى قليلاً فى غضب النجوم وعصيانك أوامرها وتمرّدك على وحيها وإلهامها . » ودّت ليلى لو تهجم على هذا الوغد السافل الذى يمتهن عقلها وتنشب أظافرها فى عنقه فتمالكت نفسها وقالت :

ــ « لستُ من عَبَدة النار ولا من أتباع الكواكب والنجوم لأكون تحت سلطانها وفى متناول نعمتها أو نقمتها. ولستُ كذلك من عَبَدة الأوثان والأصنام فالله هدانى إلى دينه القويم على يد راهب نصرانى هو مثال للفضيلة والخلق الكريم. فلو كان لى أن أحكم على الأديان بصفات رجالها وكهنتها وبما عرفته فى ذلك الراهب من نبل وورع واستقامة وما لمسته فيك من دناءة وخسّة ونفاق لقلت إن دين المسيح بن مريم دين السموّ والسلام ودين المجوس دين الرياء والفحشاء فإنك المثال المجسّم للكبائر والرذائل . »

لم تدر ليلى كيف أفلت منها زمام الصبر والموادعة فهاجمت الكاهن الأكبر هذا الهجوم العنيف فكانت كالماء الذى طال إسخانه حتى انفجرت به القِدْر ففاض وسال . ولقد توقعت أن يهيج كلامها ذلك الثور الرابض الرابص فصحّ ما توقعت ورأت الكاهن الأكبر ينتفض انتفاضة الذئب وينهض من مكانه ويقترب منها مادًّا ذراعيه وقد جحظت عيناه وحلك وجهه وارتجفت لحيته وهى لا تدرى أيريد أن يضمّها إلى صدره أم يعصر رقبتها بيديه الأثيمتين فوثبت من مكانها وجرت تتدارى وراء مقعد كبير وهى تقول :

— « حذار أيها الوحش فلو خطوت خطوة واحدة إلىّ ملأت هذه الدار صياحاً ليهرع إلىّ العبيد والإماء والحرّاس ويروا فى أى حمأة يتمرّغ كاهنهم الأكبر . »

لم يحفل الكاهن الأكبر بوعيدها واستمرّ مندفعاً إليها فشرعت ليلى تصيح وتصرخ قائلة : المعونة . المعونة . إلىّ . إلىّ . ووقعت يدها على المكحلة وكانت قريبة منها فقذفته بها فصدّها بيده الغليظة فوقعت على الأرض يسيل منها الكحل على الطنافس النفيسة . وأصبح الكاهن على قيد سنان رمح من ليلى فاستجمعت قواها ورمته بمقعد كبير كان أمامها وهى لا تألو تملأ الغرفة صياحاً فحاول أن يتحاشاه فعلقت أردانه به وفقد

توازنه فتعثر وسقط وهو يخور خوار الثور الذبيح فطارت ليلى إلى الباب وكان نفرٌ من الخدم والحرّاس قد خفّوا إلى الحجرة على صياح ليلى واستغاثتها فهالهم أن يروا الكاهن الأكبر منطرحاً إلى الأرض يحاول النهوض فسارعوا إليه وأنهضوه وانكبّوا على يديه يلثمونها وعلى ردائه يتمسّحون به وهم يرجون أن لا يكون قد أصيب بمكروه فقال لهم :

— « جزتكم الكواكب خير الجزاء يا أبنائى . لست أدرى كيف تعثرت بهذا المقعد وأنا متوجه إلى الباب منصرف من زيارة ضيفة الأمير . إن النجوم كانت قد أوعزت إلىّ أن أزورها فى هذا الصباح وأتفقد حالها وأعنى براحتها فلعلها تعدّها لأمر عظيم . »

أدركت ليلى أن جأرها بالشكوى من هذا الوغد الزنيم ونشر ما انطوت عليه نفسه من خداع ومآثم سيذهب صرخة فى واد فمكانة الرجل من قلوب هؤلاء السذّج البُلْه أو من هؤلاء الأتقياء أهل الورَع والصلاح ستبعد عنه كل شبهة وريبة وتتهمها بالخبل والهذيان فسكتت على مضَض ولا سيما أنه عرف كيف يعلّل سقطته فأرادت أن تجاريه فى التعمية حتى ترى ماذا يكون من شأنه فيما بعد وأن تحتطب من حطبه فتقدمت منه وهى تقول :

— « عفواً يا سيّدى الكاهن الأكبر . لعلّ سيدى لم يصب بأذى ولا سوء . » فقال لها بعد أن استدار إليها ورماها بنظرة أذكى من الضرام .

— « كلاّ يا ابنتى فالعثرة لم تكن ذات بال . ولقد شغلتنى الصلاة والمناجاة عن أن أتفادى فى مسيرى هذا المقعد الضخم . أستودعك النجوم . »

ومشى إلى الباب منصرفاً ففسح الخدم والحرّاس له فى الطريق وانحنوا له إجلالاً وقبل أن يغادر عتبة الحجرة التفت إلى ليلى وقال وهو ينظر إليها نظرة ذات معنى :

— « ثقى يا ابنتى أنى سأنفذ كل ما توحيه إلىّ النجوم فى شأنك فلن أنساك ولن أنسى هذا اللقاء الجميل الذى استقبلتنى به اليوم فلسوف أذكره واستمدّ منه طيب الذكر عنك عند الأمير . »

فمضى وشيّعته ليلى متصنعة الإكرام والإجلال وهى تحسب ألف حساب لهذا الإبليس اللعين .

وما إن تعود إلى مخدعها وتخلو إلى نفسها فيه حتى ترتمى على إحدى الأرائك خائرة القوى واهنة العزم وتطلق لعينيها عنان الدموع . ثم تنهض مكفكفة عبراتها وتستوى جالسة على الأريكة تفكر فى نكباتها الجسام .

وتثور نفسها على ما أحاق بها من ظلم الإنسان فتثب واقفة وتذرع الغرفة طولاً وعرضاً تتقاذفها عواصف نفسها المحتدمة الثائرة ثم يهدأ جأشها قليلاً وتتجه إلى ربها تناجيه وتستمد منه المعونة فى محنتها وتقول له :

— « أيها الربّ الذى عبدته دون الأصنام والأوثان ودون النار والكواكب لماذا تتركنى إلى أطماع الناس وأهوائهم . عرفتك القوىّ القدير فهلاّ نصرتنى . وعرفتك المنتقم الجبّار فهلاّ ثأرت لى . علّمنى الراهب أن الفضيلة محبّبة إليك وأن أهلها مقرّبون منك فلماذا سمحت بأن تكون فضيلتى سبب عذابى وشقائى . ماذا جنيتُ وأى ذنب ارتكبتُ لأتقلب على سهام مسمومة من الخطوب والمحن . كنت العفيفة فصنت نفسى حتى عن أحبّ الناس إلىّ . وكنت الطيّعة فأذعنت لمشيئة أبى على ما حمّلتنى إياه من أثقال فوادح . وكنت الوفية فما لقيت فى الحياة إلا الغدر والخيانة أفيرضيك أن تخوننى القوى فأزلّ وتنزلق قدمى فى هوة الرذيلة لأنجو مما أعانى من تبريح وسقام . اللهم رحمتك فلم يبق فى قوس الصبر منزع . . . »

وتسكت قليلاً ثم ينصرف ذهنها إلى أهلها وعشيرتها فتناجى نفسها قائلة :

— « عجباً لأهلى وقبيلتى والعرب أجمع كيف ينامون على

الضيم والأذى ولا يهبّون إلى فداء ابنتهم وصون عرضهم وكرامتهم. عجباً للبرّاق وهو ربّ النجدة والنخوة والساعد القوى والسيف البتّار كيف لم يجمع الجموع ويستنفر العشائر والقبائل ويقدم وهو فى طليعتها لينقذ ابنة عمه المرهون شرفه بشرفها . هَبيه ِ سلانى وسلا حبى وشغل قلبه بعروس سواى أفلست ابنة عمه وبنت عشيرته . وأخوالى وإخوتى ما خطبهم . إن كان أبى قد كلّ ساعده دون امتشاق الحسام فإنهم كلهم فتيان أشدّاء يجول دم الشباب فى عروقهم وإنهم كلهم أباة الضيم . ففيم سكوتهم وعلام تقاعسهم . »

وبقيت ليلى على مثل هذا النّجاء حتى خارت قواها ويئست من أن يتداركها العرب بالفدية والإنقاذ واستقرّ فى ذهنها أنهم غير فاعلين فقد مرّ على أسرها واختطافها ردح من الزمن كان يكفى لوصولهم إلى أرض فارس واقتحام المعاقل والحصون فيها ولم تعرف أن البراق ورجاله كانوا فى ذلك اليوم قد اجتازوا الحدود إلى مدينة «الكرخاء» يُعملون فى رقاب أهلها السيوف والرماح فارتمت إلى الأريكة وعادت إلى النحيب والبكاء . . .

١١

ظلّ البرّاق بعد وصوله إلى ميدان القتال يطيل النظر فى كل بطحاء وحنيّة ويرقب الشعاب واللوى ويتوقع أن يبرز الفرس على حين غرّة من حيث لا يعلم. ولما طال انتظاره ولم يحسّ بحركة ولا نأمة إلا أصوات الجوارح وهى تنقضّ على الجثث أيقن أن الميدان خال من الأحياء والمقاتلة فترجّل عن مهرته وربط أرسانها إلى جذع شجرة وأخذ يمشى فى تلك الساحة الرهيبة ويتفقد القتلى باحثاً فيهم عن أخيه غرسان حتى لقيه مكبوباً على وجهه قد جمد الدم على جراحاته ولُقى إلى جانبه سيفه الطويل مخضّباً بالدماء يشهد له بالشجاعة والبطولة. فانحنى عليه يقبّله ثم حمله وسار به إلى مهرته فركبها ومضى يضرب فى الفجاج والحقول ملتمساً بعض مشارع المياه.

وما برح سائراً على غير هدى مرخياً لمهرته العنان حتى لقى جدول نهر فى غيضة كثيفة الشجر قامت فى وسطها دار صغيرة ولاح له أن لا ديّار فيها ولا نافخ نار ثم قال فى نفسه: وماذا لو كانت مزدحمة بالسكان من كل بطل صنديد فأنا لهم جميعاً.

فوقف مهرته ونزل منها وحمل أخاه غرسان على كتفه وسار حتى حاذى ضفة الجدول فوضع أخاه ناحية وأقبل عليه يغسله وينقيه من الدم والتراب ثم فرش له رداءً من ديباج كان معه فأضجعه عليه وغطاه برداء آخر من الخزّ ريثما يحتفر له قبراً يدفنه فيه .

ثم نزع البرّاق عن صدره الدرع ولأمة الحرب وخلع ملابسه ونزل الجدول يغتسل ويدلك جسمه وينتزع منه صدأ الدرع وعمد بعد ذلك إلى ملابسه فلبسها ورجع إلى أخيه وكشف عن وجهه طرف الرداء وجثا يقبّله ويبكيه ويندبه ويرثيه ويقول :

«بكيت لغرسان وحقّ لناظرى بكاءُ قتيل الفرس إذ كان نائيا
بكيتُ على وارى الزّنادفتى وغىً سريعٍ إلى الهيجاء إن كان عاديا
إذاماعلا نهداً وعرّضَ ذابلاً وقحّم بكريا وهزّ يمانيا
فأصبح مغتالاً بأرض قبيحةٍ عليهافتىً كالسيف فات المجاريا»

وأمسك البرّاق شجوه قليلاً ورجع لنفسه وعرضت بصيرته لما هو عليه من حال تاعسة فتابع إنشاده وقال :

«وقد أصبح البرّاق فى دار غربة وفارق إخواناً له ومواليا
حليف نوًى طاوى حشاًسافح دماً يرجّع عبراتٍ يهجن البواكيا»

ولام نفسه على أن ذكر حاله ونسى حال ليلى وما تقاسيه من ذلّ السبي وتمنى أن تكون إلى جانبه تشاركه فى البكاء على أخيه غرسان فمضى يقول :

« فليت لليلى نظرة فتعينني بها حججاً سبعاً بكىً متواليا
ولو علمت ليلى وكانت خبيرة لجاءت تبارى العاصفات الذواريا
أما خبرت ليلى الغداة بأنني أريد على غرسان عوناً مباكيا
لقد قطع الوصل الذى كان بيننا لكيزٌ بغارات تشيب النواصيا »

ثم حدّق فى أخيه بنظرات ملؤها الأسى والحزن وكان التعب قد أخذ منه كل مأخذ فجلس إلى جانب أخيه ونصب ركبتيه ووضع جبهته عليهما ليخلد إلى شيء من الراحة .

وكان فى الغَيْضة غلام شهد مجيء البرّاق فتدارى بشجرة ضخمة قريبة من المكان الذى نزل به البرّاق ورقب منها كل ما فعله حتى لقد سمع ندبه ومراثيه فحزن لحزنه وبكى لبكائه. فلما رآه استلقى إلى ركبتيه خرج من مكمنه وأقبل إليه ماشياً متخففَ الحركة فطالعه وجه غرسان تخالط إشراقته صفرة الموت فثارت شجونه وأخذ ينتحب . فهبّ البرّاق واقفاً عند سماعه النحيب واستلّ حسامه ليدفع به شرّ العدوّ المغير فما وجد إلا ذلك الغلام ينشج ويذرف الدمع فأغمد

سيفه وقال له :

ــ « ممن الغلام . » فقال الغلام :

ــ « من إياد يا سيّدى. » فقال البراق وقد لعن فى سرّه قبيلة إياد وأبناءها :

ــ « ومن مولاك . » فقال الغلام :

ــ « رجل يقال له صريم الإيادى هو صاحب هذه الدار التى تراها وهذه الغياض المترامية حولها . » فقال البرّاق :

ــ « وأين هو . » فقال الغلام :

ــ « فى المدينة يا سيدى وموعده أن يأتينا اليوم هو وزوجته الرقشاء ليقضيا يوماً وليلة فى هذا الريف الجميل ثم يعودا إلى المدينة . فالرجل وزير من وزراء الملك . ولست إخال الغارة التى شنها الفرس على العرب بمانعته عن المجئ فقد انهزم العرب هزيمة منكرة وولوا الأدبار هاربين . »

فأهاج كلام الغلام حفيظة البرّاق فتماسك وقال :

ــ « أتعرف رجلاً يسمى برداً الإيادى . » فقال الغلام :

ــ « أعرفه كل المعرفة فكثيراً ما زار مولاى هنا وفى المدينة غير أن مولاى لا يحبّه ولا يأتمنه. وأنت يا سيّدى من تكون. ومن يكون هذا الفتى الجميل المسجّى على الأرض . »

فتنهد البرّاق وقال :

- « أنا رجل شقي تاعس يسمى البرّاق بن روحان وهذا أخي جني عليه إقدامه وبسالته . » فقال الغلام :

- « لقد سمعت باسمك يا سيدى يذكره غير مرة برد الإيادى فى زوراته لمولاى . » فقال البرّاق :

- « هل لك يا فتى أن تساعدنى على حفر قبر لأخى أواريه فيه . » فقال الغلام :

- « أمرك مطاع يا سيّدى. انتظرنى ريثما آتيك بفأس ومِعْول . . . ولكن. . . هاهوذا مولاى صريم وزوجته الرقشاء قد أقبلا. ها هى ذى قد ترجّلت ودخلت الدار. . . انظر إلى هؤلاء الفرسان الأربعة الذين أدركوه . إنهم حرّاسه الأشدّاء . . . اعذرنى يا سيدى فسوف يضرب عنقى إن لم يجدنى فى الدار . . . سآتيك بالفأس والمعول . »

وعدا الغلام عَدْو الظليم فوصل إلى مولاه وأفضى إليه بقصّة البرّاق فاهتزّ صريم سروراً واغتبط بحسن الطالع الذى دفع إليه البرّاق ومكّنه منه وبدأ يحلم برضي الملك عنه وإنعامه عليه حين يطرح البرّاق عند قدميه مصفداً بالقيود أو يأتيه برأسه. فأمر غلامه بأن يدخل الدار والتفت إلى حرّاسه وأنهى إليهم بما يجول بخاطره ووعدهم بجزيل الجزاء إن هم استطاعوا أن يأسروا البرّاق أو يظفروا به حيًّا أو ميتاً. فامتشقوا سيوفهم

وانطلقوا إليه وهو فى طليعتهم وكان البرّاق قد أوجس شرًّا من تهامس هؤلاء الفرسان فقفز إلى متن مهرته وجرّد سيفه الطويل وانتظر ماذا يكون من شأن هؤلاء الناس . فلما رآهم قد هجموا عليه شاهرين السيوف استعدّ للنزال غير مكترث كثيراً لهم فقتال خمسة رجال أمر هين عليه وإنه ليقوّم نفسه بأكثر من هذا العدد . وما إن أصبحوا على مقربة منه حتى سمع رئيسهم وعرف أنه صريم الإيادى يقول له :

— « ألق بسلاحك يا برّاق واستسلم لآسريك نضمن لك الحياة حتى نسلمك للملك » فقال البرّاق :

— « وأىّ ملك تعنى أيها الأعجمىّ الجبان . » فقال صريم .

— « ملكنا فيروز . أما أدّبتكم الهزيمة الشنعاء التى أوقعها بكم جنده وقوّاده . » فقال البرّاق وقد بدأ الغضب يستولى عليه :

— « وما موقفك أنت أيها العبد الذليل من هذا . أما أدّبتك الخيانة والغدر فعرفت أىّ إثم اقترفت بتمرّغك عند أقدام سادتك الفرس . »

فغمز صريم بطن جواده واقتدى به حرّاسه وانقضّوا جميعاً على البرّاق فلقيهم البرّاق رابط الجأش ثابت الجنان

واقتصر على أن يتفادى ضربات السيوف ويتقيها ثم لكز مهرته فطارت به إلى ربوة عالية فلحق به الفرسان الخمسة وعلى حين غرّة ثنى عنان مهرته وانقضّ على الحرّاس الأربعة واحداً واحداً فكال لهم ضربات قوية طرحتهم أرضاً يلعقون تراب الأرض. وعطف على صريم وسدّد إليه ضربة شديدة أطارت السيف من يده فذهل وارتعب ولم يصح من ذهوله إلا ورأس سيف البرّاق يداعب عنقه فأيقن بالهلاك فرفع يديه مستسلماً وقال مسترحماً :

— « عفوك يا برّاق فقد جئتك طامعاً ورجعت عنك نادماً وإنك لرجل بلا معين ولا نصير فامنن عليّ بالسلامة أكن لك عوناً . » فقال البرّاق بعد أن أبعد ذباب السيف عن عنق صريم :

— « وهبتُ لك الحياة فما صريم الإيادى طلبتي ولكن برد . . . » فقال صريم .

— « لأمكننّك منه يا سيدى فما هو من أكفائك . »

ثم قطع صريم للبرّاق العهد والميثاق على الوفاء والنصيحة فترجّل الفارسان وتصافحا وعزّى صريم قلب البرّاق عن موت أخيه غرسان ودعا غلمانه وعبيده فعنوا بجراحات حرّاسه وأمرهم بحفر قبر لغرسان وانقلب إلى داره فجاء بالأكفان الفاخرة

فكفّنه بها وأتى بالطيب والغالية فطيّبه بهما ثم واروه فى التراب وبكوا عليه جميعاً .

ونزل البرّاق فى دار صريم عزيزاً مكرّماً محفوفاً بالترحاب فقدّم صريم له شهىّ الطعام ولذيذ الفاكهة ثم نادى صريم زوجته الرقشاء فأخبرها بمكرمة البرّاق فى عنقه وقال لها قصّى على الضيف ما تعرفين من أمر ليلى ففعلت والبرّاق يستمع لها مضطرب القلب حتى إذا سكتت قليلاً قالت له :

— « هل من وصية توصينى بها إليها فإنى عائدة إلى المدينة غداً . » فقال البرّاق :

— « خبريها بمقامى وقولى لها إنى لن أغمد سيفى حتى أنقذها من محنتها . » فقالت :

— « وماذا يا سيدى لو صحبتنى إليها فى زىّ النساء ومكّنتك من زيارتها . . . » فقال البرّاق :

— « لا أفعل ذلك أبداً فما كنت لأزورها فى زىّ النساء ولكن فى زىّ الأبطال أخوض إليها السيوف وأقتحم الصفوف ولسوف أظل هائماً على وجهى حتى أستطيع أن أنقذها بحدّ حسامى . . . » فقال صريم :

— « الرأى عندى يا برّاق أن تصحبنى إلى الملك فأقدّمك إليه على ما أعرفه فيك من خصال الشرف والنجدة

والبسالة فتكتسب ثقته وتحظى عنده وتستخلص ابنة عمك . »

فقال البرّاق :

— « يا صريم . مهما بلغ الملوك من العزّة والجبروت فإني لا أتواضع لهم فهيهات أن أهدر دم أخي غرسان أو أطلّ وتْر سبي ليلى فوحقّ خالقي وربّي إن تواضعي لعجوز هرمة أقعد بين يديها وأقوم وتأمرني بأمرها وتبسط عليّ لسانها أهونُ عليّ من أن أتواضع لهم . . . وإنك لتشير علي بمشورة من سقطت نفسه وذهبت مرءوته ووهت ذراعه وقصر باعه فلئن جنيت اليوم الخيبة لأجنينّ النصر غداً ما بقي في يدي سيف قاطع وقلب طامع وعشيرة صادقة . »

فسكت صريم مغلوباً على أمره فعاد البرّاق يقول :

— « ولست أرجو أن أزيدك بنزولي بدارك ثقلاً وحرجاً فإني منذ الساعة منفصل عنك شاكر لك وللرقشاء كريم الحفاوة فإن تَفقّدتَني يوماً أو تفقّدتْني الرقشاء عرفتُ كيف أكون عند الرغبة فيّ والملتمس فوداعاً يا صاحبيّ . »

ونهض وانصرف تاركاً الرقشاء وزوجها في حيرة وحسرة .

وانقضت أيام كان البرّاق فيها يرود البقاع ويختلف بين الهضاب والبطاح ينتظر من الله أمراً يفرّج فيه غمّته ويظفر بمراده . وكان كلما طغى عليه الحزن ذهب إلى قبر أخيه

غرسان يندبه ويبكيه .

وإنه ليسير يوماً بمهرته فى بعض التلال مفكراً مهموماً إذا به يسمع وقع سنابك خيل وصليل سلاح فأرهف السمع والبصر فانجلى له الغبار بعد قليل عن كوكبة من الفرسان مقبلة نحوه تصعّد فى التلّ الواقف عليه فقال فى نفسه : إمّا أنهم يطلبوننى وإمّا أنهم يرتقون التلّ ليهبطوا منه إلى منبسط الطريق . غير أن الكوكبة لم تكد تتجاوز السفح قليلاً وعلى رأسها برد بن طريح حتى اختلج صدره ورحّب بالقتال مهما كانت نية القوم القادمين وشكر الزمن على هذه النهزة المواتية يشفى فيها غليله من هذا الرجل الذى سام ليلى صنوف العذاب . غير أنه عاد فحدّث نفسه قائلاً : لو لم يتعرّض برد لليلى وهى فى طريقها إلى أمير اليمن أما كانت اليوم زوجة الأمير تفصله عنها البوادى والقفار . ولكن لا . فحسب الرجل أنه كان عاتياً غليظاً مع ليلى ليستحق صارم القصاص وحسب القصيدة التى سمعها من الرقشاء عن لسان ليلى تستنجد به وتتمنى أن يكون له عين فترى ما تعانيه من بلاء وعناء وتصف فيها ما لاقته من ألم الضرب وعضّ الأصفاد . حسب تلك القصيدة التى أخبرته الرقشاء أنها تتناقلها الأفواه وتسير بها الركبان حسبها سبباً يدفعه إلى إغماد سيفه فى صدر برد بن طريح .

وكأنه ارتاح لهذا الرأى فجمع أطراف أرسان مهرته بيده اليسرى واستلّ حسامه باليمنى وهزّه هزّات متوالية متحفزاً للوثوب والضرب به فى أكباد من يتصدّى له دون وِتْره وثأره .

وأوشك الفرسان يتعدّون منتصف الطريق إليه فصاح فيهم صيحة شديدة اهتزّت لها جوانب الفضاء وقال :

— « قفوا أيها الناس فبينى وبين رئيسكم حساب يجب أن يسوّى فاتركونا وشأننا فيه وإلاّ تكفل سيفى بكم وبه فأنا البرّاق بن روحان . . . »

ولم يدع برد بن طريح للفرسان فرصة الجواب فبادر وقال :

— « استعدّ للموت يا برّاق فهؤلاء الفرسان يطلبونك معى وإنك لأعجز من أن تنال منهم مأرباً ولسوف يفرى لحمك أحد عشر سيفاً كل واحد منهم كفيل بأن يمزقك شرّ تمزيق . »

وما كان من البرّاق بعد سماعه هذا التحدّى إلا أن انقضّ على الفرسان انقضاض الصاعقة المجنونة واخترق صفوفهم وهو يزمجر كالعاصف الهدّار ويلاعب سيفه بهم ذات اليمين وذات اليسار ويكرّ فيهم ويفرّ متنكباً عن برد ابن طريح حتى سقط ستة منهم عن سروج خيولهم مثخنين

بالجراح ولاذ أربعة بأذيال الفرار وبقى هو وبرد وجهاً لوجه يتصاولان ويتحاجزان .

وأدرك برد أن الدائرة ستدور عليه ففكّر فى الهرب ولكن تذكر كلام أخيه جبير يوم عنفه على قسوته وظلمه لليلى وألتى إليه أن يدرك ثأره من البرّاق فى نزال شريف فثارت فى نفسه عند هذه الذكرى بقية من الشمم العربى والإباء فقرّ قراره أن يعدل عن الفرار وأن ينازل البرّاق منازلة الخصوم الشرفاء فإمّا أن يموت وإمّا أن ينتصر على غريمه .

وانتشله من تفكيره صوت البرّاق يقول له :

ـــ « إلينا الآن يا برد . . . فدافع عن نفسك ما تستطيع فإنى قاتلك لا محالة . » فقال برد :

ـــ « سيعرف الحىّ منا من قتل الآخر . . . » فقال البرّاق :

ـــ « يعزّ علىّ أن ألوّث سيفى بدم نجس مثل دمك ولكن لا بدّ من عقاب خاطف النساء ومذلّ الحرائر . » فقال برد :

ـــ « دعواك العريضة شنشنة أعرفها من ربيعة فالسيف هو الفيصل بيننا فإن قتلتك شفيت سخيمات صدرى وإن قتلتنى متّ كذلك مبتلّ الجوانح مشفىّ الثأر فاعلم أن قتلى

لن يدنيك من ليلى فسوف يكون بينك وبينها قفار من الشوك بالسلاح لا قبل لك باجتيازها . إن ليلى سترسل بعد أيام قلائل هدية من ملك فارس إلى ملك المياطلة . . »

وتبسم برد ابتسامة نكراء بعد هذه القذيفة التى أطلقها فى وجه البراق وطارت نفس البراق شعاعاً من هول ما سمع فكر كرة عنيفة على برد وشد عليه بالسيف وهو يقول :

— « خسئت أيها الثعلبان الماكر الغدار . . . خذ هذه الضربة ثمن سبي ليلى . . . وهذه الضربة فدى غرسان . . . وهذه الضربة فدى القتلى من أبطالنا الشجعان . . . »

وخر برد بن طريح نجثة هامدة محطمة الرأس مهشمة الأوصال . . .

١٢

رجع صريم وزوجته الرقشاء إلى العاصمة فسارعت زوجته إلى ليلى تطلعها على أخبار البرّاق وبادر زوجها إلى قصر الملك يضطلع بمهام الدولة وفى نيته أن يتحرّى الأسباب التى من أجلها لا تزال ليلى فى ديار الفرس حبيسةً أسيرة فقد كان حاول فى كثير من الكياسة واللباقة أن يعرفها من الأمير بلاش فما استطاع إلى ذلك سبيلاً وحال تكتم الأمير دون أن يكشف ذلك السرّ المصون . وكان رجاء صريم معقوداً فى هذه المرة على الملك نفسه فقد يبوح له بما لم يبح به الأمير بلاش . وكان فى نيته أيضاً أن يجتهد ما وسعه الجهد فى استرحام الملك واستنداء قلبه ليفرج عن هذه الشقية المسكينة التى لعبت بمصيرها الأيام وأذاقتها الوبال والنكال .

ولقيه فى القصر جبير الإيادى شقيق برد وكان يخصه بالمحبة والإجلال فتحدّثا معاً فى شأن ليلى والبرّاق وأفضى كلّ إلى صاحبه بما عنده من أحوالهما فعلم صريم أن قد سبق السيف العذل وأن كل أمل فى إنقاذ ليلى قد اضمحلّ وتلاشى وأن الأمور جرت فى غيبته بحيث تزداد ليلى معها

محنةً فوق محنة .

كان صريم يعرف أن ملك المياطلة اشترط فيما اشترط ليرضى بالصلح بينه وبين الفرس أن يدفع له ملك الفرس جزية جسيمة فى كل عام وأن يوفد إليه ابنته ليضمّها إلى نسائه وحظيّاته فما وسع ملك الفرس إلا الإذعان والقبول .

وعرف صريم من جبير أن الكاهن الأكبر قد أشار أمس على الملك أن يرسل ليلى إلى ملك الهياطلة على أنها ابنته فاغتبط الملك بهذا الرأى وأنهى به إلى الأمير بلاش وطلب إليه أن ينقله إلى ليلى ويوصيها بالكتمان وقرّ قراره أن يأخذ منذ الآن أهبته للحرب إذا ما انكشفت الحيلة .

ووقف صريم كذلك من جبير على أن أخاه برداً قد علم بالأمر فذهب ينقله إلى البرّاق تشفياً وانتقاماً فهو يعرف أن البراق لا يستنيم للهزيمة وأنه لا بدّ أن يكون جائساً خلال القرى والدساكر يتحيّن الفرصة للغارة والقتال .

وتشاور صريم وجبير فما وسعهما إلا أن يرثيا لحال ليلى ويأسفا على حظها العاثر فقُوى الشرّ كلها متضافرة على محاربتها وإيذائها. وأدرك صريم أن لا سبيل إلى الرجوع عما عزم عليه الملك فكلمة الكاهن الأكبر مقدسة لديه ولا سيما أنه يتكلم بوحى الكواكب والنجوم حتى لو شاء الكاهن الأكبر أن

يعدل عن رأيه لما استطاع فقد أخبره جبير أن الرجل مات فجاءةً فى ذلك الصباح .

وافترق الرجلان ومضى كلٌ إلى شأنه وانصرف ذهن صريم إلى زوجته الرقشاء الجالسة فى تلك الساعة إلى ليلى وقدر فى نفسه أى ثورة من ثورات النفس تشهدها زوجته من لدن ليلى الفتاة البائسة الحريب .

ولم يخطئه الظن فقد ارتاعت الرقشاء لما دخلت على ليلى فوجدتها ثائرة هائجة هياج القفر أثارت الزوابع رماله فأمسكت عن الحديث حتى يسكن جأشها قليلاً وقالت فى نفسها : إن أخبار البرّاق كفيلة بأن تخمد هذا الأوار المحتدم ولكن أيكون هناك بلية جديدة أفقدتها الصواب . لا. فما بعد بليّتها أمر تثور له النفوس إلا أن يكون الأمير بلاش قد انتهى به الأمر إلى الطمع فى جمالها .

وأعقب هياج ليلى هدوء أليم انقلب فيه الصياح إلى نحيب وبكاء فتشجعت الرقشاء وأقبلت عليها تواسيها وترطب خاطرها فقالت ليلى :

— « عذراً يا رقشاء فقد فقدت صوابى . أهلاً بك ومرحباً .

فقالت الرقشاء :

— « مرحباً بك يا حبيبتى . نعمت صباحاً . » فقالت ليلى :

— « لقد كان الأمير بلاش هنا منذ قليل . »

فأيقنت الرقشاء أن حدسها وتخمينها قد أصابا كبد الحقيقة فقالت فى وجوم ووجَل :

— « وهل فى زورته ما يثير الشجون . » فقالت ليلى باكية :

— « جاء ينهى إلىّ أمر أبيه الملك وهو أن ينفذنى إلى ملك الهياطلة لأكون فى عداد نسائه وحظيّاته . ذلك هو شرط من شروط الصلح بينهما . » فقالت الرقشاء :

— « وما شأنك أنت وملك الهياطلة وأنّى له أن يعرف وجودك . » فقالت ليلى :

— « اشترط على ملك فارس أن تكون ابنته تلك السبيّة الحظيّة فأراد أن يوفدنى بدلها ويصون عفاف ابنته كأنما العفاف وُقف على بنات الملوك . » فقالت الرقشاء :

— « تُرى من أشار عليه بهذا الرأى القبيح. » فقالت ليلى :

— « علمت منه أنه الكاهن الأكبر فأدركت اليوم معنى وعيده وتهديده كما كنت قد حدّثتك بذلك من قبل » .

فقالت الرقشاء :

— « إنلك كنت أكرم نفساً من هؤلاء الفرس جميعاً فطويت فى صدرك سرّ مراودته إياك فما كان أجدر هذا السافل أن يحفظها لك يداً بيضاء ولكن لقد انتقم لك الصلاح والعفاف فالكاهن الأكبر مات فجاءةً فى هذا الصباح . »

— « عرفت ذلك ولكن رأيه لم يمت معه ولا بدّ من إنفاذه . » فقالت الرقشاء :

— « وكيف تنطلى الحيلة على ملك الهياطلة . أليس لك لسان ناطق . » فقالت ليلى :

— « لن أعدم لسانى يا رقشاء ولكن هل يصدّقنى . وهبيه صدّقنى فمن ينجينى من بطشه . » فقالت الرقشاء :

— « حبيبك البرّاق . »

فتبسمت ليلى ابتسامة حلوة عند سماعها اسم حبيبها البرّاق غير أن لون اليأس ما عتّم أن غشّى على حلاوتها فقالت :

— « وأين البرّاق منى فى تلك الديار النائية . أحسبته ملك العرب والفرس يجيّش الجيوش ويقودها إلى بلاد الهياطلة فاتحاً غازياً . وافرضى أنه فعل فمن يضمن لى السلامة حتى ألقاه . » فقالت الرقشاء :

— « ربّك الذى تؤمنين به . » فقالت ليلى :

— « هو ملاذى ومعتمدى ولولاه لقتلت نفسى أو لدنّستها بالإثم والنكر . » فقالت الرقشاء :

— « ومن ملاذك ومعتمدك بعد ربك . » فقالت ليلى :

— « البرّاق يا رقشاء . . . ويحى لقد اتهمته فى حبه ووفائه وبسالته . . . أنكرت عليه سكوته وسكوت عشيرتى فى حين كان على رأسها يصارع الفيلة والدواهى السود حتى منى بالهزيمة النكراء فلا بدّ أنه عادِ إلى الدّيار يائساً مخفقاً ولا لوم عليه ولا تثريب . . . » فقالت الرقشاء :

— « كلاّ لم يعد . . . إنه على بعد فراسخ منك . »

فوثبت ليلى واقفة وصدرها يعلو وينخفض شوقاً وأملاً ثم ارتمت على الرقشاء تقبّلها وتقول لها :

— « حدثينى عنه يا رقشاء . كيف هو . من قال لك إنه البرّاق . » فقالت الرقشاء :

— « فيه وقار الكهل وحلم الشيخ على صباه ونضارة شبابه . ربع القامة واسع الصدر عريض المنكبين أدعج العينين جعد الشعر قد نزل عارضاه على مستهل لحيته . أما شجاعته فدونها شجاعة الأسود وقد شهدته بعينى يغير على خمسة فرسان مدججين بالسلاح ومنهم زوجى فيقهرهم جميعاً ويكبّهم عن متون الخيل . » فخفق فؤاد ليلى فرحاً وطرباً فقالت :

— « زيديني يا رقشاء زيديني . . »

فاستفاضت الرقشاء تحدثها عنه وتقص عليها من أخباره وتصف لها تحينه الفرص لإنقاذها وأخبرتها أنها تعرف أين تلقاه إذا ما أجمعتا على أمر من الأمور فيه نجاتها وخلاصها. فاستمعت ليلى لها بكل جانحة من جوانحها غير أنها رجعت إلى رشدها وطالعتها الحقيقة بوجهها الكالح فاسودت الدنيا فى عينيها فقربُ البراق منها لن يحول دون مصيرها المشؤوم وهى بعد أيام قلائل ستخبّ بها الجياد إلى ملك الهياطلة .

وأمعنت الصديقتان فى الروية والتفكير لعلهما توفقان إلى رأى صائب خمير تكون فيه منجاة ليلى فطال تفكيرهما دون جدوى حتى لمع فى خاطر ليلى بريق من الأمل فصاحت فى صديقتها :

— « اسمعى يا رقشاء . » فقالت الرقشاء :

— « سمعاً يا حبيبتى . » فقالت ليلى :

— « لقد خطر ببالى خاطر أرجو أن ينتهى به أسرى وعذابى فإن أخفق فعلى ليلى العفاء . » فقالت الرقشاء :

— « وما هو . » فقالت ليلى :

— « علمت من الأمير بلاش أنه خارج بعد غد إلى القنص والصيد فى جماعة من رجاله وأصحابه فسأبلغه أنى رهن

إشارة الملك ممتثلة لأمره راضية أن أحلّ محلّ ابنته فى الرحيل إلى ملك المياطلة وسأتوسل إليه أن يصحبنى إلى الصيد حتى أودّع البادية وأتنفّس فيها وأحمل منها أنفس التذكار فإذا أجاب ملتمسى رجوتك أن تبلغى البرّاق بذلك فيجمع جموعه ويترصّد للموكب وينتزعنى منه ويردفنى على جواده ويطير بى هو ورجاله ونعود إلى الجزيرة آمنين سالمين . » فصاحت الرقشاء :

— « نعمًّا الرأى يا ليلى ونعمًّا هذا الفكر الثاقب يا زين نساء العرب وإنى لباعثة الساعة برسولى إلى البرّاق سواء أسمح الأمير باصطحابك إلى الصيد أم لم يسمح حتى يتأهب للأمر العظيم ولعله يرى فيه رأياً . »

ثم نهضت فقبّلت ليلى مودّعة وهى تقول :

— « إذا حصلتِ فى قبيلتك فاذكرى أختك الرقشاء واسألى ربك أن يهدى قبيلتى إياد وأنمار فتكفّا عن موالاة الفرس وتعودا إلى أحضان قبائل العرب على ما تتمتّع به هنا من رزق واسع وثراء عريض . » فقالت ليلى :

— « سأذكرك يا أختاه بالخير والشكر والثناء سواء عدت إلى ربيعة أم طوقتنى قيود ملك المياطلة . . . »

وحان يوم الصيد فخرج الأمير بلاش فى رجاله قبل

انبلاج الفجر ووراءه غلمانه يحملون عُدَد الصيد من أقواس ونشّاب . ويسوقون النجائب مثقلة بأسفاط الزاد من طعام وشراب وكان الأمير وحجابه يمتطون فواره الخيل مرصّعة سروجها باليواقيت والجواهر ويتقدّمها عدد كبير من البزاة والصقور وكان قد ضُرب لمن معهم من النساء تخوت من الديباج والحرير فوق ظهور النجائب فجلسن فيها يرقبن الصيد ويسعدن به وكانت ليلى فى النسوة اللواتى صحبن الأمير فقد أجابها إلى رغبتها بعد إذ أكبر فيها طاعتها وإذعانها لما طُلب منها وكانت جالسة فى تختها شاحبة اللون بادية الاضطراب تسرّح النظر فى أطراف البادية وَجلةً خائفة لعلها تشعر بدبيب ما تتوقع فلا يطرق مسمعها غير اصطخاب الطيور وحمحمة الخيول ولا تحسّ بغير دقات قلبها تتوالى عنيفة مسرعة .

واستسلمت إلى المواجس تسائل نفسها ماذا يكون مصيرها لو أخفق البرّاق فى حملته ولكن هل عرف البرّاق بخروج الأمير إلى الصيد وخروجها معه . وهل تمكّن رسول الرقشاء إليه من أن يلقاه ويبلغه الخبر . وكيف استطاع أن يجمع الجموع فى حين سار فى أهل فارس كلهم نبأ إياب العرب إلى ديارهم مكتفين بالغنائم التى سلبوها وظفروا بها .

وعزّ عليها أن تصدّق أن أباها وإخوتها وأن أخوالها وإخوة البرّاق يهجرونها ويعودون إلى مضارب خيامهم ويتركونها فى أيد أعجمية لا حامى لها بينهم ولا نصير .

وكلما مال بها الفكر إلى رحيل عشيرتها عن بلاد فارس ملأ قلبها اليأس من نجاح البرّاق فى الخطة التى أوعزت بها إليه ولامت نفسها على تعريض البرّاق للخطر فى غير جدوى ولا طائل .

ولم تنفك تسائل نفسها وتضرب فى بوادى الفكر حتى أحست بوثبات الخيول وصراخ الفرسان فمالت إلى نافذة التخت فرأت الأمير وأصحابه قد عدا كلّ منهم بفرسه فى ناحية يضيّقون الخناق على سرْب من الوعول برز لهم من وراء بعض التلال . ولحق بهم نفر من الغلمان بالكنائن والجعاب وبقى النفر الآخر فى حراسة النسوة وخدمتهن .

ظنت ليلى أن الأصوات أصوات أهلها المغيرين فخاب ظنها لما رأت أن الغارة غارة الأمير وصحابه على سرْب من الوعول وما إن تزفر زفرة الحسرة والخيبة حتى تسمع ركض جواد يدقّ الأرض دقات متطايرة كأنه لا يكاد يلمس وجه الأرض وتحسّ أن الصوت منحدر إليها من خلف تختها فتمدّ رأسها من نافذة التخت فيقع نظرها على فارس هابط

إليها هبوط الصاعقة فتتبينه فإذا هو البراق فيخفق صدرها فرحاً وخوفاً ويزداد خفقانه عندما يصل إليها ويناديها باسمها فترد على النداء ويقف مهرته قرب تجنها وقفة قاطعة فتفقد شعورها بالخوف وتقفز إليه فتستوى قاعدة على كفل مهرته وتتشبث يداها بخاصرتيه وساقاها ببطن المهرة ويستدير منطلقاً بها انطلاق السهم على مرأى من النسوة المدهوشات وعلى مشهد من الغلمان الذين أذهلتهم المفاجأة وسرعتها الفائقة فنظروا إليه مشدوهين فاغرى الأفواه .

وحينما استفاقوا من دهشتهم حاروا فى أمرهم وتساءلوا أيتعقبون ذلك السهم المارق والفرس المجنح أم يلحقون بالأمير ويخبرونه بما حدث فآثروا اللحاق بالأمير فذلك أيسر أمراً وأسهل منالاً .

ومضت الساعات الطوال قبل أن يقف الأمير على جلية الخبر فألغى رحلة الصيد وأمر الفرسان أن يتعقبوا ذلك الجرىء الجسور وعاد هو وبقية الركب إلى العاصمة .

وتلقى الملك الخبر بسخط لا مزيد عليه وعنّف ابنه تعنيفاً شديداً على إهماله وتهاونه ولا سيما أن الكاهن الأكبر كان قد أسرّ إليه بحديث النجوم فى شأن هذه الفتاة ونجاة المملكة من الذلة والعار على يديها .

وذاع الخبر في المدينة وشاع واستقبله الناس فى عاطفة متضاربة فقد كانوا فى الأيام الأخيرة قد وقفوا على قصة ليلى وعرفوا ما قدّر لها من خاتمة المطاف فانقسموا إلى فريقين بين راض وساخط .

ووقع الخبر على الرقشاء وزوجة برد وقينتها وقوع الغيث على الأرض العطشى فكنّ أسعد الناس به وأكثر الراضين طرباً وحبوراً وشاركهن فى تلك الغبطة صريم وجبير فإنهما على وفائهما للدولة الفارسية كان صوت الدم العربى يهيب بهما إلى استنكار الظلم المحيق بليلى والغاية التى أعدّت لها .

ولم يكتف الملك بالفرسان الذين أطلقهم الأمير وراء البرّاق وليلى بل أصدر الأمر إلى وزرائه وقوّاد جنده بتعقب الهاربين والقبض عليهما والرجوع بهما إلى عاصمة المملكة سالمين مخفورين ليتمّ وحى النجوم فى ليلى ويُنزل أدهى صنوف العقاب بخاطفها الجرىء .

ولكن البرّاق وليلى كانا أبعد من أن يدركهما الجادّون فى أثرهما فقد كانت مهرة البرّاق لا تجرى وتركض على الأرض بل كانت تطير طيراناً أسرع من البرق بل أسرع من الظن . وتمرّ بالسهول فتختطفها خطفاً وتعرّج على الهضاب فتجتازها وثباً ويراها الراؤون فلا يكادون يلمحونها فيرجعون إلى

أعينهم وأسماعهم متسائلين مدهوشين .

وكان همّ البرّاق أن يجتاز أرض فارس قبل أن ينتشر الخبر ويسدّ عليه الفرس المسالك والشعاب بالجند الغفير والعسكر المجرّ فلا يستطيع لقاءهم وحيداً بلا سند ولا ظهير بعد إذ هجره أهله وأهل ليلى وعادوا إلى ديارهم فقد تفقدّهم فى اليومين الأخيرين حيث عيّن لهم المواقع والمخابئ ليستنصرهم ويجنّدهم للغارة فرأى مواطنهم قاعاً صفصفاً فعجب من رحيلهم دونه ثم قال لقد غبت عنهم طويلاً فظنونى قد متّ أو افترسنى بعض الوحوش .

وبقى البرّاق وليلى طائرة بهما المهرة لا يتكلمان ولا يستريحان حتى بلغا مدينة « الكرخاء » وهى الفاصل بين حدود الفرس وديارات العرب فعبراها لا يلويان على أحد ولا يحفلان بالناس تخوض فيهم المهرة وتفرّقهم ضربات حوافرها .

وما زال البرّاق وليلى على مثل هذه الحال من مسابقة الرياح حتى اجتازا بلاد فارس وأوغلا فى مرابع العرب . وكانت الشمس لا تزال ضاربة فى كبد السماء فوقف مهرته عند رابية حالية بالعشب والشجر وقال :

— « لنسترح قليلاً فقد أمنّا جانب الخطر وما إخالك يا ليلى إلا ناصبة متعبة . »

فقفزت ليلى إلى الأرض وترجل البرّاق وفكّ عن المهرة أربطة السرج والأعنة وأطلقها ترعى الكلأ .

وقبل أن تنطق ليلى بحرف معبرة عما يزدخر فى صدرها من متباين العواطف وقبل أن يهمّ البرّاق بالخروج عن الصمت إلى الإفضاء بما يختلج فى جوانحه من شعور وما يتردّد تحت لسانه من كلم بعد تلك الأحداث الجسام بُهتا كلاهما حين لحا فى الأفق سحائب من الغبار انجلت بعد قليل عن جماعات من الفرسان لا يدرك الطرف آخرها مقبلة نحوهما تطوى البطاح والتلال طيًّا سريعاً فخامرهما شيء من القلق والخوف وأشفقا على أن ينتهى فوزهما المبين بوقوعهما ثانيةً فى قبضة الخصوم والأعداء .

وكان عامل القلق والخوف يصارعه فى نفسيهما عامل الأمل والطمأنينة فتلك الجموع التى تغذّ السير إليهما رأياها آتية من ناحية جزيرة العرب لا من ناحية بلاد فارس وفى ذلك مبعث على سكينة القلب واطمئنانه ولكن من تكون تلك الجموع . أتُراها قبائل إياد وأنمار الموالية للفرس أم قبائل ربيعة ومَنْ دار فى فلكها .

كان ذلك الجيش الزاحف مجموع قبائل العرب ممن والى ربيعة أو عاداها فمن فرسان ربيعة ومضر إلى بكر وتغلب إلى

طي وقضاعة حتّى إلى إياد وأنمار وما تفرّع على هؤلاء جميعاً من بطون وأفخاذ فقد كانوا زاحفين إلى بلاد فارس ليمحوا عن جبين العرب أجمع سبّة العار فى سبي ليلى وتعذيبها .

ولقد اجتمعت تلك القبائل والعشائر على استصراخ النساء وصياحهن فإن لكيزاً وأبناءه وكليباً وإخوته وأخوى البرّاق لما استبطأوا عودته إليهم وتفقدوه فى النواحى التى اعتصموا بها فلم يعثروا له على أثر قرّ رأيهم على أن يعودوا بمن معهم من الفرسان إلى ديارهم لعل البرّاق يكون قد سبقهم إليها أو لعلهم يفلحون فى بثّ الدعوة للحرب وحمل القبائل طرّاً على القتال .

فلما قدموا بغنائمهم على أهلهم وليس معهم البرّاق ولولت النساء وأعولت وما فرحت واحدة منهن بسلامة والدها أو أخيها أو زوجها مع فوات البرّاق وضربن كلهن الأستار دون الرجال وعفّرن الخدود وشققن الجيوب وقطعن الشعور وأقبلن على العائدين نادبات لائمات . وكانت أمّ الأغرّ أكثر النساء تعييراً لإخوتها ومن معهم من الرجال على تركهم البرّاق ورجوعهم دون ليلى .

وأجمعت النساء على استصراخ القبائل وإيغار الصدور فانبثثن فيها يصرخن : واذلاّه . واحرباه . ماتت نخوة العرب . يا لافتضاح الخفرات . إلى غير ذلك من العبارات التى تضرم

لحماسة فى القلوب فتثير الشجاع وتقوّى عزم الجبان .
تفق أن دارت قصيدة ليلى على ألسنة الركبان وهى القصيدة
ى تقول فيها :

ت للبرّاق عيناً فترى ما أقاسى من بلاء وعنا

. . . .

بلبونى غللونى ضربوا موضع العفة منى بالعصا

فوصلت إلى الجزيرة وسرت فى البيوت مسرى النار فى
لشيم فكانت ألهوب الصدور ومشحذ العزائم فهبّ الرجال
ن كل حدَب وصَوْب وتنادوا لإدراك الثأر واستنجدوا بالقبائل
لعشائر قاصيها ودانيها حتى بأمير اليمن عمرو بن ذى صهبان
ذا هو مشغول بعرسه وعروسه التى زفّت إليه فأعرضوا عن
جدته وساروا رجالاً ونساءً تحت راية كليب إلى أرض فارس
هم ينشدون :

نقود إلى البرّاق خيلاً شوازبا وأسداً أعدّت للقراع قواضبا
جبنا إلى البرّاق خير إجابة نقود إليه كالقداح سلاهبا
يليها من القوم الكرام كتائبٌ هنالك تقفو فى المسير كتائبا

ولما اقتربوا من الربوة التى وقف عليها البرّاق وليلى وبلغت
لأناشيد مسمعيهما يتردّد فيها اسم البرّاق تبسّما كلاهما ابتسامةً
يوت كل معانى البهجة والفوز وكانا حتى تلك الدقيقة لم

يريما من موضعهما ولا فتحا شفتيهما بحديث من الأحاديث على وفرة ما فى نفسيهما من شؤون وشجون وإنما كانا شاخصين ببصريهما إلى الأفق مُطَّلِعَيْن طِلْعَ ذلك السواد المقبل مستوضحين أمره لتقرّ فى صدريهما البلابل .

وما هو أن يلمحا راية كليب فى الطليعة حتّى يصيحا بصوت واحد :

— « هذا كليب وهؤلاء أهلنا . »

ويغمرهما الفرح الفياض ويقبل كلّ منهما على الآخر يريد أن يضمّ حبيبه إلى صدره ويطفئ ببرْد العناق ونعيم القُبل لواعج الشوق والحب. فتقف ليلى جافلة وتمنع نفسها ما تشتّهى ويشتّهى الحبيب فقد ذكرت أنها لا تزال عروس أمير اليمن عمرو بن ذى صهبان اختطفها برد وهى فى طريقها إليه فليس من حرمة العفاف أن تمنح خدّها رجلا غيره ولو كان ذلك الرجل ابن عمها وحبيبها ومنقذها من السبي والعار .

ويقضى جفولها على اندفاع البرّاق فيقف كأنه سُمّر فى مكانه وينعقد لسانه وتنحبس الكلمات فى فمه وتتحطم عند مجتمع شفتيه فلا يقوى أن يقول لها إنها عروسه وإن أباها قد زوّجه بها وهى غائبة وأشهد على نفسه فى العهد الشهود .

وتصل طلائع الفرسان إليهما فيفاجؤون بأجمل مفاجأة وأعذبها ويصيحون فى فرح وغبطة ودهشة .

— « ليلى والبرّاق . ليلى والبرّاق . »

ويطير الصياح من فم إلى فم حتّى يمرّ بالأفواه كلها فتسرى فى الجموع رنّات البهجة والفرح تتخللها تغاريد النساء ويثب لكيز إلى الأرض على كهولته ويندفع إلى ليلى يتبعه أبناؤه فيضمّها إلى صدره ويوسعها تقبيلاً ويزاحمه عليها إخوتها الثلاثة فيغمرونها بالقبلات .

ويهجم أبو البرّاق على ابنه والأخوان على أخيهما فيعانقونه ويزاحمهم عليه كليب وإخوته فيشفون أنفسهم من الشوق إليه والوجد عليه ثم ينقلبون إلى ابنة أختهم ليلى وينقلب كذلك أبو البرّاق وأخواه إلى ليلى يطالعونها بالتحية والتهنئة . ويقبل على البرّاق وليلى صفوف الطليعة من الفرسان فيحيونهما ويهنئونهما أصدق التهنئات .

وينبعث فى تلك الأثناء صوت امرأة كانت قد نفرت من المؤخرة إلى الطليعة وهى تصيح :

— « افسحوا لى فى الطريق . افسحوا لى فى الطريق . ليلى . ليلى . »

كان الصوت صوت أمّ الأغرّ فإنها كانت مع بقية

النسوة فى مؤخّرة الجيش فلم تكد أذناها تسمعان بليلى وعيناها تكتحلان بشبح ليلى الواقفة على الرابية حتى حثّت مطيّتها إليها مخترقةً صفوف الخيل زاحمةً مناكب الفرسان تكاد ترقص طرباً على أجنحة الهواء فتثب من الراحلة وتجرى إلى ليلى وتجرى ليلى إليها فتتعانقان وتتبادلان القبل فى عبرات منهمرة وشهقات طوال .

وتحلّ رؤية الأبطال عقدة لسان البرّاق فيخاطب أهله وأقاربه وأبناء عشيرته ورؤساء الأنصار بعد إذ عرف أنهم اتحدوا على شدّ أزره واستنقاذ ليلى ويشكر لهم خالص محبتهم وكريم نجدتهم وجميل إجماعهم على ركوب المخاطر والأهوال فى سبيله وفى سبيل انتشال ليلى من براثن الهون والعار .

ويعقد الزعماء مجلساً للشورى يتصدّر فيه البرّاق فتجتمع كلمتهم على مواصلة الزحف إلى بلاد فارس واجتياح قراها ودساكرها ومدنها ونهب كنوزها وسبى نسائها وإشاعة الدمار فيها والخراب . وكان أكثر المتشاورين حماسةً إلى الغزو إياد وأنمار تكفيراً عما فرط منهم من موالاة الأعاجم ومحالفتهم ومحواً للعار الذى جلبه عليهم صنيع برد بن طريح الإيادى فما كفاهم أن يعلموا من البرّاق أن برداً تكفّل بجزائه سيف البرّاق ولا شفع لديهم دون الكفّارة ما قام به صريم وجبير

فلهما من مسعى حميد ومروءة ونجدة .

. وارفض المجلس على هذا الرأى فأناخوا الرواحل وضربوا
خيام وأطلقوا الجياد فى المراعى التماساً للاستجمام واستعداداً
غارة الكبرى يشنُّونها بعد يوم أو يومين .

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب وأرسلت إلى الكون
عتها الصفراء مودّعة منتحبة وكان القوم يشهدون مصرعها
زون نعشها تحمله أكتاف السحاب إلى هوّة العدم فإذا هم
جوّلون بأبصارهم إلى جهة أرض فارس على صوت قافلة
دمة منها إليهم فتبيّنوها بعد قليل فعرفوا فيها صريماً وأهله
حيط بهم غلمانهم وقيناتهم العربيات فتردّد القوم فى تحيتهم
كانوا يعرفونه فى الرجل من توفر على خدمة الفرس ولكن
رّاق وليلى قطعا عليهم أسباب التردّد عندما خفّا إلى تحية
قافلة والترحيب بها وأعلنا ما يحفظانه لصريم وزوجته من
كريمة وانهالت ليلى على الرقشاء تقبلها وتغمرها بالشكر
لثناء .

وكان صريم قد أنف من البقاء فى فارس موالياً لملكها
هلها فعزم على النزوح بأهله إلى دياره وسلك إليها طريقاً
صيرة يعرفها فوصل إلى ذلك الموضع فى ساعات وأخبر البرّاق
الفرسان الذين تعقّبوه لما يئسوا من إدراكه فى بلادهم عادوا

من حيث أتوا . وأخبره أيضاً أن جبيراً سيظعن بأهله وزوجة شقيقه برد بعد أيام . فاستضاف البرّاق صريماً وزوجته فقبلا أن يقضيا ليلتهما بين عشائر العرب على أن تستأنف قافلتهما السير إلى ديار إياد فى صباح غد واعتذر صريم عن المشاركة فى الغزو فما كان له أن يحارب قوماً وطؤوا له أكناف الرزق والجاه وأحاطوه بالرعاية والإكرام فحسبه فراقهم والرحيل عنهم . فنزل البرّاق ونزلت معه العشائر عند رغبته ورأيه .

واجتمع كل رجل إلى أهله وأصحابه فأضرمت النيران ونصبت الأثافى ورفعت عليها القدور إعداداً لطعام العشاء والتقى فى خيمة لكيز وبنيه أخوه روحان وأبناؤه وفى مقدّمتهم البرّاق وكليب وإخوته وأمّ الأغرّ التى ما فتئت تروح وتجيء فى غير حاجة ولا سبب فرحةً طروباً وشهد السامر أيضاً صريم وزوجته الرقشاء .

ودارت بينهم أفانين الكلام وشجون الحديث وكانت ليلى تصغى إلى الأحاديث ولا تصغى فقد كان ذهنها مشغولاً بمصيرها فما ذكر لها أحد أن أمير اليمن عمرو بن ذى صهبان قد استبدل بها عروساً أخرى . وبينا هى مُطرقة مفكرة سمعت أباها يناديها فقالت :

— « لبيك يا أبتِ . » فقال :

— « عندما كنتِ فى أرض فارس أقدمتُ على أمر لم أستشرك فيه . » فقالت ليلى :

— « وأنّى لك أن تستشيرنى وقد كنت بعيدة منك . وفى أى أمر يا أبى . » فقال الكيز :

— « فى أمر زواجك . »

فأشرق وجه ليلى ثم اربدّ فقد تنازع خاطرها البرّاق وأمير اليمن . أمّا البرّاق فقد كان مشوقاً منذ التقى بالكيز إلى مثل هذا الحديث فخفق قلبه طرباً فقالت ليلى :

— « وأى جديد فيه . » فقال الكيز :

— « ستعرفين . . . »

ونهض الكيز إلى أخيه روحان وقال :

— « هات يدك . » فقال روحان :

— « هذه يدى . » فقال لكيز :

— « لقد زوّجت ابنتى ليلى لابنك البرّاق . » فقال روحان .

— « وأنا زوّجت ابنى البرّاق لابنتك ليلى . » فقال لكيز :

— « وهؤلاء جميعاً شهودنا . » فقال روحان :

— « ونِعمَ الشهود . »

وانطلقت أمّ الأغرّ والرقشاء تزغردان وترقصان وتتواليان على ليلى بالتهنئات والقبلات . أمّا ليلى فكانت فى عالم آخر من الأحلام الجميلة ولا سيما بعد إذ عرفت أن أمير اليمن قد توارى من طريقها .

وانتشر الخبر فى مضارب القوم فهزّ القلوب والأسماع وجلا لهم ليلة مرقرقة بالأفراح أكلوا فيها وشربوا وغنّوا ورقصوا على رنّات المزاهر ونقر الدفوف .

وعندما ينصرف البرّاق وليلى فى الهزيع الأخير من الليل إلى خبائهما رازحين تحت أثقال ذلك اليوم الحافل بالحوادث الجسام مغمورين بفيض من الفرح يكاد يتفجرّ من صدريهما يشعران بحاجتهما إلى أن يتنفسا ملء رئتيهما من الهواء الطلق ونسيم الليل الندىّ فيعرّجان على روضة فيحاء يسيران فيها على مهل عابثين بما يعترضهما فيها من أعواد النبات وغصون الشجر طربين بحفيف الأوراق ووسوسة الزهر مالئين العين من ضياء القمر مدّ طيلسانه الفضّى على السهول والأكم وعمّم به ذوائب الأشجار .

ويقطع البرّاق حبل الصمت بينهما ويقول :

— « ما أسعدنى بك يا ليلى وما أجمل الحياة بقربك وفى جوارك وعساى أعود سالماً من غزوة فارس فأوفّر لك ما أنت

أهل له من السعادة والهناءة . » فقالت ليلى :

— « ستعود سالماً معافى وترجع مكللاً بغار النصر والظفر فلو كان الحب جُنّة تُتقى بها المهالك فلك من حبي مثل تلك الجنة تصونك وترعاك أبد العمر . » فقال البرّاق :

— « أنت العمر يا ليلى وأنت ربيعه الزاهي وأنت من حياتي الرّوح والرّيحان ومن فؤادي نبضه الخافق وإني لأقسم بهذا القمر الذي يرقبنا ويسمع حديثنا وسرّ نجوانا لأقدّسن حبّك ولأجعلنك المخلوقة السعيدة التي تغار منها السعادة نفسها . »

فاغرورقت عينا ليلى بدموع الفرح وقالت :

— « وأنت الأمل والفخر وأنت الحياة وبهجتها فوحقّ هذا النسيم الذي أستنشقه لأصوننّ حبك وأكوننّ الأمة التي تغار على رضاك وإسعادك فما مرّ بي يوم منذ عرفت هواك إلا وأنت فيه شغل الفؤاد وحلم الخاطر . » فقال البرّاق :

— « هيّا يا ليلى نوثق أسباب الحب فدونك ردائي فشقّيه ومزّقيه ومكّنيني من شملتك وقميصك أفريهما مزقاً لنضمن بقاء الحب في قلبينا حتى آخر نسمة من نسمات الحياة . » فقالت ليلى :

– « أما تعلمنا يا برّاق أن نضرب صفحاً عن مثل هذه العادات والوساوس التى تخلّق بها الناس . » فقال البرّاق :

– « إن أليف الهوى يا ليلى تغريه الوساوس وتلعب بلبّه الأوهام فما ضرّنا لو رعيناها . »

وأحبّت ليلى أن تجيبه إلى مبتغاه فعمدت إلى صداره فقطعته وإلى ردائه فمزّقته وعمد هو إلى قميصها فشقّه وإلى كتفيها فنزع عنهما غلائل الثياب وقطّعها إرْباً إرْباً فبدت ليلى شبه عارية فى ذراعيها العبلتين وصدرها الوضّاح كأنها تجردت لتستحمّ بأشعة القمر . فزاغ نظر البرّاق لدى رؤيته ذلك التمثال من المرمر الحىّ فصاح مأخوذاً .

– « آه يا زوجتى الحبيبة . » فصاحت هى فيه :

– « آه يا زوجى الحبيب . »

فضمّها البرّاق إلى صدره وطوّقت ليلى عنقه بذراعيها وتوارى القمر فى تلك اللحظة وراء ستار من الغيوم فتبادلا فى غيبة القمر قبلة طويلة أودعاها كل ما يختلج فى قلبيهما من لواعج الحب ونوازع الحنين . . .

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر

الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

٥ قروش ج.ع.م.
٦٠ ق . ل
٧٥ ق . س
٦٠ مليماً فى السودان
١٠٠ مليم فى ليبيا
٧٥ فلساً فى العراق والأردن
١٢٠ فلساً فى الكويت
١٢٥ مليماً فى تونس
١,٥٠ ديناراً فى الجزائر
١٥٠ فرنكاً فى المغرب
١ ريالا سعودياً

